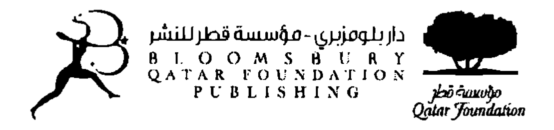

عبد العزيز آل محمود
القرصان
رواية تاريخية
الطبعة الرابعة
@ketab_n
Follow Me
3.6.2016

عبد العزيز آل محمود

# القُرصان



## قالوا عن القرصان

«رواية «القرصان» عملٌ عظيمٌ بمعنى الكلمة.»

**علي الظفيري، قناة الجزيرة**

«تأخذُنا «القرصان» إلى عوالم تموج بالحركة والإثارة.. وينقلنا الكاتب كما تفعل كاميرا مُخرج ماهر.»

**هلا العلي، جريدة العرب، قطر**

«في واحدة من أجمل الروايات التاريخية، يُعيد عبد العزيز آل محمود كتابة حقبة من تاريخ منطقة الخليج على نحو روائي وإبداعي مُتميز. لستُ أبالغ إذا قلت إن الرواية تستحق أن تكون مسلسلًا دراميًّا سيشُد المشاهدين.»

**ياسر الزعاترة، جريدة الدستور، الأردن**

«نَسَج مؤلفُها بناءً دراميًّا مكتوبًا بوعي سياسي وعقل تاريخي بامتياز.»

**حسين جلعاد، موقع الجزيرة دوت نت**

«رصدٌ لبطولات أرحمة بن جابر الجلاهمة.. في صياغة درامية ثرية بالمفردة.. عامرة بالصور.. سخية بالمعاني والدلالات.. ترسخ قيمة ومكانة البَّحار الشهير أرحمة بن جابر.»

**عبد الستار ناجي، جريدة النهار، الكويت**

«رواية آل محمود تحمل إمكانيات لكاتب لديه الكثير من القدرات في عالم الرواية.»

**إبراهيم درويش، القدس العربي، المملكة المتحدة**

«هل نشهد مولدًا حقيقيًّا لفن الرواية التاريخية في الخليج أم نشهد مولد كاتب مُتمكن من أدواته؟»

**محمد فكري همام، جريدة الشرق، قطر**

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١١ عن
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، ڤيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa



الترقيم الدولي: 9789992178768

٤ ٦ ٨ ١٠ ١٢ ١٣ ١١ ٩ ٧ ٥

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

# الفصل الأول

**ميناء «بليموث»، جنوب إنجلترا**

ضرب الحوذيُّ الجياد بسوطه مما جعلها تزيد في جريها في أزقة مدينة «بليموث» الحجرية، لفتت العربة أنظار الناس إليها بسبب سرعتها غير الطبيعية، ولوجود النقوش الجميلة الذهبية اللون المزينة لتفاصيلها، وذلك الشعار الظاهر على جوانبها؛ فمدينتهم على مدى التاريخ الذي يعرفونه كانت ميناءً مهمًّا للحكومة البريطانية، منها تنطلق السفن إلى أرجاء المعمورة، وإليها تعود محملة بالبضائع والغرائب، وكان كبار الضباط وعوائلهم ومرافقوهم يتم تمييزهم من لباسهم وعرباتهم وسوء تصرفهم في طرقات المدينة أحيانًا.

انطلقت من حنجرة الحوذيِّ أصوات غريبة مترافقة مع السوط الذي يلامس بطرفه ظهور الجياد، فكانت تلك الأصوات إنذارًا للمشاة ليبتعدوا عن الطريق؛ فالطرق كعادتها مليئة ببقع الماء المتجمع من الغسيل والأمطار مكونة مستنقعات طينية قذرة، ولن يرغب أي شخص في أن يكون قريبًا من المكان الذي تجتاز فيه العربات المسرعة تلك البحيرات الصغيرة.

توقفت العربة في نهاية الأمر في الميناء، ونزل منها راكبها وبرفقته زوجته

الجميلة التي فتحت مظلتها حال أن وطئت الأرض اتقاء حر الشمس. نظر الاثنان إلى السفينة التي كانت تنتظرهما، وقد اصطف أفراد طاقمها بكامل زِيِّهم العسكري على سطحها بانتظار أن يصعد عليها قائدها الذي كانوا ينتظرونه منذ الصباح.

ما إن وضع القائد قدمه على السطح حتى دوَّى صفير قوي معلنًا الجميع بوصوله، ثم صرخ أحدهم:

- القائد على السطح.

فأدى ضباط السفينة التحية العسكرية لقائدهم الذي رد عليها بسرعة، وبشكل آليٍّ ارتفع بيرق فوق السارية يحمل شعار البحرية الملكية، وبجانبه شعار القائد الجديد للسفينة.

خيم جوٌّ مشحون على الطاقم المكون من ١٢٠ شخصًا؛ فهم يعلمون أنهم سيذهبون في مهمة عسكرية قتالية إلى أقاصي الأرض، ويهمهم جدًّا أن يكون قائدهم على درجة كبيرة من الإنسانية والعقلانية حتى لا يحيل حياتهم إلى جحيم لا تُطاق؛ فهو سيكون الحاكم المطلق، والمتصرف بأرواحهم ومصائرهم خلال الأشهر المقبلة إن لم تكن السنوات المقبلة، حاول الجنود المصطفُّون أن يشاهدوا بأطراف أعينهم هذا القائد الجديد، وتمنوا أن يمر عليهم ليتفقدهم كعادة الضباط الجدد على السفن حين يتسلمون قيادتها، ولكنه تجاهل كل ذلك وتوجه إلى قمرته، فتحركت شفاه الجنود بشكل غير واضح استهجانًا لهذا التصرف غير المبرر.

بعد أن دخل القائد إلى جناحه تبعه ضابطان، نزعا قبعتيهما، وانتظرا أن يعيرهما اهتمامه، انفرجت أساريره حين شاهدهما؛ فقد كان أحدهما العقيد «جون مانسن».

بادره القبطان بقوله:

ـ عزيزي «جون»، لم أكن أظن أنك ستبقى بكامل شبابك بعد كل هذه السنين، إنني سعيد برؤيتك يا صديقي.

ابتسم العقيد «جون» ومد يده لمصافحة القبطان بحرارة، ثم التفت إلى زوجة القبطان التي كانت تقف بجانبه وقبَّل يدها مبديًا إعجابه بجمالها، أعاد بصره إلى القبطان مرة أخرى محاولًا إكمال الحديث:

ـ إن السعادة لي، فكم تمنيت أن أخدم تحت لوائك مرة أخرى يا سيدي! لقد أثمرت رسائلك التي كنت ترسلها لقيادة البحرية، فقد وافقوا على نقلي من الأسطول الثاني إلى هذه السفينة الرائعة.

حرك القبطان يده اليمنى، وكأنه يطرد ذبابة من وجهه:

ـ أوووف، لقد انشغلت مدة أسبوعين في الكتابة إلى القيادة والرد على استفساراتهم؛ لأنهم كانوا يرون أنك أفضل ضابط في الأسطول، ولم يكونوا يودون أن يروك مغادرًا معي.

تذكر العقيد «جون» أن نائب القبطان معه بانتظار أن يتم تعريفه، فقال:

ـ سيدي، دعني أعرفك إلى العقيد «دنكن»، سيكون هو نائبك في الرحلة، لقد تعرفت إليه توًّا؛ فقد وصل من لندن بعد أن تسلم أوامره من القيادة، ووجدته في الميناء يبحث عن السفينة، ونحن محظوظون بوجوده معنا.

فكر العقيد «جون» في أنه لو وضع كلمة «أتمنى» بعد آخر جملة لكان أفضل، ولكنها ستكون إهانة غير مبررة لنائب القبطان.

نظر القبطان إلى العقيد «دنكن»، وكأنه يراه أول مرة، وبنظرة ما بين الابتسامة والاستفسار، قال بصوت هادئ:

ـ العقيد «دنكن»، من الجيد أن تكون معنا، لقد تحدثوا عنك في القيادة البحرية كثيرًا، أتمنى أن نكون على وفاق خلال الرحلة، وإن لم نكن كذلك فسأطعمك للحيتان كعادتي مع من أكره.

ثم تبع ذلك بنظرة يعرفها «جون» بشكل جيد.

سرت في جسد «دنكن» رعشة غريبة؛ فلم يفهم ما المقصود بذلك، أهي نكتة يجب عليه أن يضحك بعدها أم إنها تهديد مبطن؟ بدت على وجهه ابتسامة جافة باهتة، ولكنه عرف أن هذا ليس وقت البدايات السيئة.

ـ ستجدني جنديًّا مخلصًا لك يا سيدي.

ثم حانت منه التفاتة إلى زوجة القبطان التي كانت على وشك أن تمد يدها إليه ليقبِّلها، فالتقط كفَّها وقبّله بكل رقة، ثم نظر إلى القبطان محاولًا معرفة تأثير رده المختصر عليه، ولكن القبطان لم يكن ليبتسم في موقف كهذا.

نظر «دنكن» إلى «جون» محاولًا أن ينجده؛ فمن الواضح أن المقابلة لم تكن تسير كما يجب، فقد تكون كلمة أخرى كافية لتوتر الجو، وتخرب العلاقة بين الضابطين في السفينة.

حاول «جون» أن يغير الموضوع؛ فقد كان يعرف القبطان «لوخ» الذي يبلغ الثلاثين ونيفًا من عمره، والذي لم تكن تعنيه المجاملات كثيرًا، فقد نشأ في كنف عائلة ثرية، فأبوه خدم في البحرية البريطانية، وعمُّه كذلك، والعائلة تملك الكثير من الأراضي في الشمال، وهم على علاقة قوية بشخصيات نافذة سواء في الحكومة البريطانية هنا، أو في مستعمراتها المنتشرة حول العالم.

ونظرًا لتربيته البرجوازية كان القبطان «لوخ» ينظر إلى الناس على أنهم خدم عنده ليسوا أكثر؛ فمنصبه هذا لم يكن ليتولاه لو لم يكن من عائلة

برجوازية، وهو لا يعطي وزنًا للعلاقات الإنسانية التي يحتاج إليها طاقم السفن خلال الرحلات الطويلة في المحيطات، فكان بإمكانه أن يبقى في جناحه عدة أيام مدونًا مذكراته دون أن يتحدث مع أحد، ولم يكن يرد على تحية ضباطه، بل يكتفي بهزٍّ رأسه قليلًا إن وجد أن الوقت مناسبًا لعمل ذلك، ولكنه بالمجمل لا يُعير تحيتهم أي اهتمام، وهم قد اعتادوا ذلك.

لقد خدم «جون» مع القبطان «لوخ» قبلًا، وعرف الرجلان بعضهما بعضًا، واستطاعا الاستفادة من اختلافاتهما، فلم يكن القبطان «لوخ» خاليًا من الصفات الحسنة، بل عُرف عنه أنه كان شجاعًا في المعارك، ومخططًا بارعًا، ويحسن معاملة ضباطه بعد أن يمتحنهم فترة طويلة تكاد تكون بلا نهاية، أما بالنسبة إلى الجنود فهم في نظره جنود؛ لأن عقولهم خلقت هكذا، ولأن هناك إرادة إلهية صنعت هذه الفروق، وعلى الجميع احترامها، وكفى.

ملأ القبطان كأسًا كانت أمامه بالبراندي، ثم وضع الزجاجة مكانها، وبحركة من إصبعه أشار إلى ضباطه لسكب كؤوسهم بأنفسهم، بادر العقيد «جون» بسكب البراندي له وللعقيد «دنكن»، ثم أشار إليه بعينه لتناول الكأس، ولكن العقيد «دنكن» كان مترددًا؛ فلم يعجبه أن يتجاهل القبطان ضيافتهما، ولا يدعوهما بشكل واضح، فليس هذا هو الأسلوب المتبع على متن سفن صاحب الجلالة في معاملة الضباط. غمزه العقيد «جون» مرة أخرى، فمد يده إلى الكأس دون رغبة منه بانتظار أن يرى تصرف «جون» في وضع كهذا.

شرب العقيد «جون» كأسه رشفة واحدة، فانشدَّت عروق رقبته ووجهه، ثم زال الشد تدريجيًا، فتناول قبعته التي ضرب بها يد العقيد «دنكن»، معلنًا نهاية اللقاء، ومستأذنًا من القبطان:

- سيدي، نحن على استعداد للمغادرة، فهل تأذن بذلك؟

رد عليه القبطان، وهو ينظر إلى زوجته، وهي تفتح الحقائب لتفريغها:

- لا بأس، دعونا نفعل قبل الليل؛ فأمامنا رحلة طويلة.

لمح العقيد «دنكن» زوجة القبطان قبل أن يغادر مفكرًا في رائحة العطر التي شمها من كفها حين كان يقبّلها قبل أن يجذبه «جون» من كُم قميصه.

خرج الرجلان من جناح القبطان بعد أن أديا التحية، وهما يتدافعان، فما كان من العقيد «دنكن» إلا أن أمسك بيد العقيد «جون» ليسأله:

- هل فعلًا تحب هذا الرجل؟

- نعم، ولِمَ تسأل؟ يا عزيزي إن لهذا الرجل عدة شخصيات، أسوأها هي هذه التي تراها أول مرة، وسترى منه عدة شخصيات أخرى قد تكون أفضل من هذه، ونصيحتي لك هي أن تبدأ في الصلاة إلى أن يحبك؛ لأنه إن فعل فقد أصبحت رحلتك هذه عبارة عن نزهة جميلة.

سأل «دنكن»:

- وإن لم يفعل؟

- ستكون حياتك جحيمًا يا سيدي، فلا تنسَ أنك نائب له، وعليك أن تصدر الأوامر بالتحرك فورًا.

مع تردد الصراخ والأوامر على متن السفينة تحرك الرجال مثل النمل، كلٌّ يعرف إلى أين يتجه وما يجب عليه فعله، فانفتحت الأشرعة، وشُدت الحبال، ورُفعت المرساة، وتحركت السفينة رويدًا رويدًا فاتحة أشرعتها للريح مثل طائر النورس الذي يصيح على ساريتها.

ومع حلول المساء، فتح القبطان «لوخ» سجل الرحلة بتكاسل، وغمس القلم في المحبرة، وكعادة البشر مع كل صفحة جديدة، نظر بعيدًا متخيلًا سير الرحلة ومخاطرها ومهامَّها، ثم أعاد نظره إلى الكتاب، ودوَّن ما يلي:

«أنا القبطان «فرانسيس أرسكن لوخ»، قائد سفينة صاحب الجلالة «إيدن»، أصدرت قراري بالإبحار من ميناء «بليموث» يوم التاسع من يونيو من عام ١٨١٨، الساعة الواحدة ظهرًا، كان الجو حارًّا قليلًا، والرياح مواتية.

ستكون هذه السفينة منزلي، ومركز قيادتي سنواتٍ مقبلة، وأنا فخور بها؛ فهي تحمل ٢٤ مدفعًا، ووزنها ٤١٥ طنًّا، وعدد طاقمها ١٢٠ شخصًا.

اليوم قابلت العقيد «دنكن»، مساعدي المفترض، لم يعجبني، من يعلم كيف سنتعايش معًا؟ أنا ممتن لوجود العقيد «جون» ضمن طاقمي، فهو صديق مخلص، سبق أن خدمنا معًا على السفينة «مسترال»، وأثبت ولاءه لي، وقد حاولت المستحيل ليكون معي على ظهر «إيدن» ونجحت.

نحن الآن في طريقنا لحرب القراصنة في الخليج، هذه المنطقة النائية كثيرة المخاطر، لقد أحضرت زوجتي «جسي» معي، وستبقى في مسقط لحين انتهاء مهمتي، لم يحن الوقت لأخبر ضباطي عن سبب الرحلة، سأحاول أن أجد الوقت المناسب، أظنهم يعرفون أنهم ذاهبون إلى أقاصي الأرض في مهمة قتالية، وبعضهم يحمد الله أن السفينة ليست متوجهة إلى أمريكا الجنوبية التي يكرهونها بسبب البعوض والأمراض المستوطنة بها.

لقد قرأت الكثير عن المنطقة التي نحن متجهون إليها، وسأحاول أن أخبر ضباطي بكل ما أعرف.

انتهى».

ثم وضع توقيعه أسفل الذي كتبه..

أغلق القبطان السجل، ثم أشعل غليونه بعد أن نفخ في الشمعة التي كانت بقربه، وسمع صوت زوجته «جسي» تسأله:

ـ ألا تريد أن تنام يا «فرانسيس»؟

سحب نفَسًا من غليونه، وتأمل في الظلام حوله:

ـ إني أفكر في هؤلاء القراصنة الذين نحن ذاهبون إليهم يا عزيزتي.

ظلت «جسي» على وضعها، فلم تنقلب على جنبها الأيسر حتى تواجهه:

ـ عن أي قراصنة تتحدث يا عزيزي؟

ـ عن هؤلاء الذين يعطلون طرق الملاحة، ويسْطون على السفن المتجهة من آسيا وإليها، إنهم السبب في سفرنا الطويل هذا.

ـ أنت تعلم أنني أكره الذهاب إلى تلك البلاد؛ فهي كما قيل لي حارة، وشعوبها بربرية متخلفة، ولكنه أنت الذي وافقت على هذه المهمة اللعينة.

تغير وجه القبطان، ولم يكن يود أن يواصل الحديث مع زوجته في هذا الموضوع، فكلامها صحيح، ستكون سنوات صعبة، ولكنها ضرورية لشق طريقه في سلم القيادة البحرية، فلم تكن فرص ضباط البحرية القتالية كثيرة، وقد تكون هذه أقلها خطورة.

ـ يجب أن أفعل شيئًا لتعزيز مركزي في القيادة يا «جسي»، وقد لا أجد فرصة أخرى.

ـ هل فكرت يومًا ما أن هؤلاء ربما يكونون يدافعون عن رزقهم وعن أسلوب حياتهم وعن عوائلهم؟ يا عزيزي «فرانسيس»، تذكر أننا ذاهبون إليهم

وهم لم يفكروا في القدوم لمحاربتنا، وأنتم في البحرية دائمًا ما تفكرون في غزو الآخرين وقتلهم حتى يقال عنكم إنكم أبطال، وترقوا في الرتب العسكرية، أليس كذلك؟

نظر إليها نظرة سريعة، فلم يرَ سوى جسدها في الظلام، ثم وضع غليونه في فمة مرة أخرى:

ـ نامي يا عزيزتي، فقد سبق أن تناقشنا في هذا الموضوع من قبل، ولا أرى أننا سنجد الحل في هذه الليلة.

ـ تصبح على خير يا عزيزي، سأتركك تفكر فيما قلته لك.

أنزل «فرانسيس» غليونه من فمه، ثم ضربه على المنفضة التي على الطاولة كعادته حين يريد أن يغير التبغ.

فتح نافذة صغيرة وأخرج رأسه ليشم بعضًا من هواء البحر المنعش، فهو كعادته لا يستسيغ رائحة عفونة غرف السفينة، نظر إلى الأسفل فشاهد زعانف الدلافين التي تلاحق السفينة، وقد عكست زعانفها نور القمر، ابتسم لرؤيتها فهي فأل البحارة الحسن.

من بعيد كانت السفينة تشق طريقها تجاه الجنوب إلى الساحل الإفريقي الغربي.

# الفصل الثاني

**ميناء «أبو شهر» على الساحل الفارسي من الخليج**

كان المسؤول الإداري والرجل الثاني في المقيمية البريطانية في «أبو شهر» «ديفيد ماثيوز» يتجول في الميناء وسط كمٍّ هائل من البضائع والحيوانات التي تنقلها السفن من وإلى هذه المدينة، أمضى «ماثيوز» نحو السنة في هذا الميناء مراقبًا البضائع، وحاسبًا الضريبة التي تفرضها شركة الهند الشرقية عليها، لم يكن مسرورًا بنقله إلى هنا، فكان دائم الشكوى من القذارة والذباب والحرارة، فلم يغيِّرْ زيَّه الغربي وقبعته التي تلفت الأنظار، فقد كان يضع على فمه وأنفه منديلًا يغمسه كل صباح في العطر، ويستخدمه طوال اليوم لإبعاد الروائح الكريهة عنه، مما جعله محط تندر التجار والبحارة الذين ألفوا شكله، وهو يتحدث إليهم من خلال منديله، فهم يشبهونه بالنساء.

ومع أنه يعلم أنه محل تندرهم فإنه لم يُعِر ذلك اهتمامًا كبيرًا طالما أنهم يدفعون ما عليهم من ضريبة.

ميناء «أبو شهر» هو الوحيد الصالح لاستقبال السفن على الساحل

الفارسي؛ فمنه تنقل البضائع القادمة من الهند وخليج البنغال والصين إلى شيراز والبصرة، ومنها إلى بقية دول العالم.

يبلغ عدد سكان المدينة نحو خمسة آلاف نسمة، وهم خليط من الفرس والعرب، يعيشون كما يراهم «ماثيوز» في بؤس وصراخ وصراع على مصادر الحياة، وقد تصل السفن التي ترسو في هذا الميناء إلى خمسين سفينة سنويًّا، عدا تلك الصغيرة التي تستخدم للصيد والنقل السريع بين مواني الخليج.

وفي الميناء خمسة مساجد: ثلاثة منها للشيعة، واثنان للسنة، تنطلق منها أصوات الأذان الشجية خمس مرات في اليوم، وبها أقلية يهودية، ومسيحية أيضًا، وهم على صلات تجارية وثيقة بنظرائهم في مدن أخرى مثل كوشين وبومبي والبصرة، ومع أن المدينة بها تنوع عرقي ومذهبي فإنها مستقرة وليس هناك أي خلاف بين مكوناتها بسبب انشغال الجميع بالبحث عن الرزق.

تلبس النساء في «أبو شهر» غطاء على وجوههن يغطي أغلب مساحة الوجه عدا العينين، والغطاء مشابه لما تلبسه النساء البدويات في الجزيرة العربية عدا أنه أقصر، فهو يظهر الشفة السفلى للمرأة، وبه لمعان لافت للنظر عندما تنعكس عليه أشعة الشمس، ويعطي المرأة حرية في الحركة سواء في السوق أو في الطريق وعند مخالطة الرجال، ولا تكاد المرأة تخلعه سوى عند النوم فقط، ولا توجد امرأة في «أبو شهر» لا تلبس غطاء الوجه هذا عدا النسوة الفارسيات القادمات من الداخل الفارسي، وهن قليلات جدًّا.

ويتحدث الناس هنا بالعربية أو الفارسية أو بخليط منهما، ولا يهتم الناس أحيانًا بأي لغة يتحدث المرء طالما أنه يستطيع إيصال المعلومة التي

يريد، والأمية متفشية بشكل كبير في أوساط الناس عدا أولئك الذين حالفهم الحظ وتعلموا في الكتاتيب بعضًا من القراءة وقليلًا من الحساب، أما بقية العلوم فيلتقطها البحارة خلال عملهم على السفن، فيعرفون حينها أحوال الطقس والاتجاهات من النجوم ولون السماء وتغير حركة الرياح وشكل الموج، ولكنها تبقى علومًا غير مكتوبة، بل يتناقلها البحارة بحكم الخبرة.

يبرز مبنى المقيمية بشكل واضح على الساحل، فقد طُلِيَ بالجبس الأبيض خلافًا لبقية المنازل التي كانت إما من الطين وإما من سعف النخيل، وترفرف على واجهته سارية تحمل العلم البريطاني، وقد لوحته الشمس فأصبح باهتًا، وعلى المدخل يقف جندي فارسي للحراسة ومنع الفضوليين من الدخول.

رُصَّت على طول المدخل الممتد من الشارع وحتى المبنى صخور صغيرة طُليت باللون الأبيض مما أضاف نوعًا من الخصوصية على المبنى الغريب، وغُرست بعض أشجار الليمون والنخيل أمامه حتى غدا متميزًا عن المباني الأخرى وظاهرًا للعَيان.

تعدد الذين تم تعيينهم في منصب المقيم البريطاني في «أبو شهر»، فمنهم من اهتم بالمبنى وأضاف عليه بعض الزيادات وأعاد طلاءه، ومنهم من اهتم بالأشجار والورود وتنميق الحديقة، والبعض اهتم بالصيد وأهمل كل ذلك، حتى غدا مبنى المقيمية به شيء من كل شيء، وعُرف بأنه المبنى الغريب ذو العلم الممزق.

وقريبًا من مبنى المقيمية يقع مقهى المدينة المشهور الذي يُطِلُّ على الميناء، وفيه يجتمع التجار مساء للحديث والتدخين والاتفاق، وفيه أيضًا يتم تبادل المال وبيع البضائع المسروقة، وتلك التي ينقلها القراصنة خلسة لعرضها على أغنياء المدينة.

لم يكن «ماثيوز» متزوجًا، مما جعل حياته جحيمًا لا تطاق في هذه المدينة البائسة، فلا أحد هناك ليعتني به، وعليه أن ينظف غرفته من الغبار بشكل يومي، وأن يغسل ملابسه مرة كل يوم، ومع ذلك لم يشعر يومًا أنه نظيف، وكان يكره الطعام حين يصدر من بين أسنانه صوت تَكَسُّر حبات الرمل، فكم مرة كان عليه أن يبصق الطعام من فمه، ويلعن اليوم الذي نزل فيه هذه الأرض! فهو يقضي يومه منذ الصباح الباكر في الميناء مخاطبًا التجار بلغة فارسية أو عربية مكسرة لا يفهمونها، ثم يدخل في مرحلة المساومة التي لا تنتهي معهم، حتى يفقد أعصابه، فيتحول إلى التهديد والوعيد لإنهاء النقاش برُمَّته، ولم يكن له صديق في هذه المدينة سوى عباس؛ مسؤول حرس المقيمية الذي يتحدث الإنجليزية بخليط من الكلمات الفارسية ولكنهما مع الأيام أصبحا يفهمان بعضهما بعضًا دون أي عوائق.

يسير عباس بجوار «ماثيوز» حاملًا مظلة من القماش يحاول جاهدًا أن يبقيها فوق رأس سيده لإبعاد حرارة الشمس عنه، ويعمل أحيانًا مترجمًا له، وفاضًّا للنزاعات والخلافات، ومهددًا حينًا آخر هؤلاء التجار الذين لا يعلمون كيف يتعاملون مع الغربيين، وكان شكلهما وهما يخرجان صباحًا من مبنى المقيمية مدعاة للضحك؛ فلم يألف سكان «أبو شهر» رؤية رجل يركض خلف آخر بمظلة، وكان شكل عباس وهو يتابع حركة رأس «ماثيوز» ليبقيه تحت المظلة من الطرائف التي يحكيها البحارة بعضهم لبعض، وهم جلوس في المقهى ليلًا.

مسح «ماثيوز» وجهه بمنديله بعد شوط طويل من النقاش مع أحد التجار، وتأمل البحر مفكرًا في وطنه البعيد الذي يفتقده بشدة، لفت نظره ثلاث سفن خشبية قادمة من بعيد لا تشبه تلك التي يستخدمها التجار عادة، استدعى عباسًا طالبًا منه إخراج المنظار المقرِّب، وما إن وضعه على عينيه

حتى تغيرت ملامح وجهه، فالتفت إلى عباس مرة أخرى، وحاول الكلام لكنه لم يستطع أن يقول كلمة لها معنى، مما جعل عباسًا ينظر إليه باستغراب، مستفسرًا عن هذا الشيطان الذي ظهر في عرض البحر.

بحركة لا شعورية، أعطى المنظار لعباس وجرى تاركًا الميناء خلفه متجهًا بسرعة ركض جنونية إلى مبنى المقيمية الذي يقع غير بعيد، مما لفت أنظار التجار والعمال إليه نازعًا من وجوههم ابتسامات نادرة.

دخل دافعًا الباب بقوة إلى المقيم البريطاني «بروس» الذي كان يحمل بيده مِهَفَّة صُنعت من خوص الشجر ليطرد بها حر الصيف، وأمامه كوب من الشاي الذي يخلطه بخمر قوي يجلبه له رئيس الحراس عباس من شيراز.

رفع رأسه الذي غدا أحمر من حر الصيف وتأثير الخمر، ونظر إلى «ماثيوز» قائلًا:

- يجب أن يكون لديك عذر قوي لتدخل هكذا.

ثم وضع الكوب في فمه ليشرب منه متفاديًا النظر إليه.

كان «ماثيوز» يلهث بقوة من جرَّاء ركضه كل المسافة من الميناء إلى المبنى، ولكنه استطاع أن يقول شيئًا تقطعه أصوات لهاثه:

- لقد لاحت... بوادر... سفن أرحمة... ابن جابر، يا سيدي.

ثم ركع واضعًا يديه على ركبتيه من التعب.

كاد «بروس» يغص بالخمر التي يشربها بعد أن سمع «ماثيوز»، فوضع الكوب بقوة على الطاولة حتى تناثرت الخمر منه وظهرت رائحتها:

- هل أنت واثق مما تقول؟ لقد أتى مبكرًا، حتى أبكر مما كنا نتوقع!

ـ لقد رأيت بيارقه ترفرف على سواريها، مما يعني أنه موجود على ظهر إحداها يا سيدي.

أخذ «بروس» قبعته ومشى مسرعًا تجاه الباب، وهو يمسح فمه بكم قميصه:

ـ دعنا لا نضيع الوقت، فلنذهب لمقابلته.

سار الرجلان بسرعة إلى الميناء، ووصلا إلى عباس الذي كان ينظر إلى السفن بالمنظار محاولًا إيجاد الشيطان الذي شاهده «ماثيوز» من قبل، ولكنه لم يكن يعرف أن الشيطان كان هو البيرق المرفرف على سارية السفن، وليست السفن بحد ذاتها.

سلم المنظار للسيد «بروس» الذي أخذه منه بسرعة، ونظر من خلاله إلى تلك السفن الثلاث التي بدت واضحة للناظر.

ـ أنت مُحق يا سيد «ماثيوز»، إنه أرحمة بن جابر.

التفت «ماثيوز» إلى عباس وطلب منه تحضير الشاي والـ«شربت» وعدد لا بأس به من رؤوس التبغ للضيف المنتظر.

ذهب عباس وترك رؤساءه في الميناء بانتظار تلك السفن وركابها، وما إن رست حتى كان التجار في السوق قد عرفوا هوية السفن وركابها، فخيم جوٌّ مشحون بالخوف، وسكتت الأصوات التي كانت تملأ السوق، وتوارى كثير من الناس بعيدًا خوفًا مما قد يحصل، حتى الخيول والجمال والأغنام التي ملأت المكان ضجيجًا قد سكتت، وكأنها تعلم أن أمرًا مهمًّا قد استجد.

طُويت الأشرعة على السفن بسرعة، ورُبطت بالسفن الأخرى، ثم هبط منها أرحمة بن جابر، القرصان المشهور الذي كان الجميع يخطب وُدَّه،

والذي كانت سمعته قد ملأت الخط الملاحي من الهند إلى البصرة ومن «أبو شهر» إلى مدغشقر، هذا الشيخ الستينيّ الذي لا يعرف أحد أين مستقره؛ فمنهم من يقول إنه يقيم في قلعة خاصة به في الدمام على الساحل العربي من الخليج، ومنهم من يقول إن له مخبأً خاصًا على الساحل القطري، وبعضهم يقول إنه عقد حلفًا مع القواسم، وله هناك منزل وزوجة، ولكن كل ذلك كان محض إشاعات لم يتم التأكد منها.

كانت سيرة أرحمة بن جابر عبارة عن أقاويل يتناقلها البحارة، وهم يتناولون الشاي في هدأة الليل، يصممون هذه السيرة كما يريدون وكما يرغبون، ويخلطون الحقيقة بالخيال، فبقيت هذه السيرة المشوهة، والقصص الغريبة مرافقة له، ولم يكلف أرحمة نفسه بتصحيحها، بل أبقاها تتحرك معه أينما ذهب؛ فهي تضفي عليه نوعًا من المهابة التي يحتاج إليها في عمله.

نظر السيد «بروس» إلى هذا القرصان المرعب، وتذكر أنه لا بُدَّ أن يدون هذا اللقاء في رسالة خاصة، ويرسلها إلى الحاكم البريطاني في بومبي، فهذا يوم ليس كبقية الأيام المملة التي تمر على «أبو شهر».

تأمل «بروس» ضيفه من بعيد، فقد كان أرحمة يلبس ثوبًا قطنيًّا متجعدًا وَسِخًا يصل إلى منتصف ساقيه، وعليه نطاق وَضع فيه مسدسين وخنجرًا ذهبيًّا ثمينًا، ويلبس عباءة سوداء صوفية، ويضع على رأسه عمامة صغيرة بيضاء، وله لحية أطلقها بشكل عشوائي، ويمسك بيده سيفًا لا يتركه أينما ذهب، ويده اليسرى قليلة الحركة بسبب شظية بندقية بقيت بها منذ فترة طويلة.

أما وجهه فقد كان يَنمُّ عن صاحبه؛ ففيه جرح قد امتد من جبهته اليسرى، حتى خدّه آخذًا معه العين اليسرى، وصوته به بحة واضحة، وقد كان يتحدث

بصوت عالٍ محركًا ذراعيه بسبب أو دونه، وكان إذا أمر نفّذ رجاله أوامره دون أن يناقشوه، فهم خليط من العرب والبلوش والعبيد، وقليل من هنود الملبار الذين أسرهم خلال حملاته على السفن التجارية.

نظر أرحمة إلى مستقبليه، وتوجه إليهم، تصافح الرجلان وعلى محيًا كل منهما نصف ابتسامة، ثم بادر «بروس» بالقول:

ـ مستر أرحمة، أحييك في ميناء «أبو شهر»، وأنا سعيد برؤيتك، هل تتفضل معي إلى مبنى المقيمية حتى نتحدث؟

كانت عيون التجار والعمال والبحارة تتابع ما يحدث بخوف شديد، وكلهم أمل في أن يختفي هذا الضيف وبسرعة؛ حتى تعود التجارة إلى حالها.

مشى الجميع، يتبعهم ابن أرحمة، بِشر، الذي كان، بخلاف والده، في العشرين من عمره، بهيَّ الطلعة، يتحدث شيئًا من الفارسية والهندية والإنجليزية بسبب احتكاكه ببحارة والده، ولكنه كان يأمل أن يستطيع التحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة، ومشى خلف الجميع عبد أرحمة المخلص، ضرار، الذي كان ذراع سيده وكاتم سرِّه.

جلس أرحمة على كرسي خشبي داخل مبنى المقيمية، وقدم له عباس الشاي، وجلس حوله كل من السيد «بروس» والسيد «ماثيوز»، أما بِشر فقد وجد له كرسيًّا بعيدًا عنهم، ووقف ضرار خلف سيده مُرَوِّحًا عنه بذات المروحة التي كان يمسك بها «بروس» قبل أن يدخل عليه «ماثيوز» راكضًا منذ دقائق.

كان السيد «بروس» يتحدث العربية بطلاقة، فبدأ حديثه بسؤال أرحمة أيرغب في شيء من خمر شيراز المعتقة، لم يجب الضيف، ولكنه أومأ بيده مع تكشيرة في وجهه، ففهم منها «بروس» رفضه.

قال أرحمة:

- أنا هنا يومًا أو يومين يا سيد «بروس»، لن أطيل عليكم؛ فأنا أعلم أن وجودي يضايقكم، أريد فقط أن أُمَون سفني، وأُريح رجالي، وأغادر، فلي أعداء كُثر، ولو علموا بمكاني لسببت لكم المتاعب.

ثم شعر أرحمة بضيق في خاصرته، وتذكر أنه يحمل سلاحه، فوضع كل شيء على الطاولة التي أمامه عدا خنجره الذي بقي مشدودًا على بطنه، ووضع سيفه تحت فخذيه، وكان كعادته، يخرج نصله من حين إلى آخر ويدخله بسرعة، بطريقة بدت وكأنها دقات الساعة، كانت هذه العادة تضايق «بروس» سابقًا، ولكنه استطاع التأقلم معها، وعرف أنها جزء من طريقة القرصان، كما يطلق عليه، حين يفكر.

ردَّ «بروس»:

- لا يا سيدي، إن وجودك لا يضايقنا بتاتًا، أنت تعلم أننا نقدم لك كل ما نستطيع تقديمه، على شرط ألّا يثير رجالك المتاعب لنا، ولا لحكومة فارس، فلدينا اتفاق معها، ولا نريد أن نكسره، ولكن بما أنك هنا، فإن حكومة صاحب الجلالة في بومبي ترغب في الاتفاق معك على ألّا تهاجم السفن التجارية القادمة من الهند والذاهبة إليها، وأن تكون حليفًا لحكومة صاحب الجلالة في المنطقة في محاربة القواسم والوهابيِّين الذين يثيرون لنا المتاعب.

- دعني أفكر يا سيد «بروس»، فما تطلبه مني قد يجعلني أخسر الكثير، فكما تعلم أنا حليف للوهابيين، ولو وقَّعت هذا الاتفاق، فقد أخسر هذا التحالف، وقد أكون عدوًّا لهم، أما القواسم فإني لا أقدر على عدائهم وأنت تعلم ذلك.

ارتشف من الشاي الموضوع أمامه، وزاد في سرعة إخراج نصل سيفه وإدخاله مرة أخرى، ثم أضاف:

ـ لقد نقل لي بعض البحارة هنا أن حركة غير اعتيادية تحصل في هذا الميناء منذ مدة، وأن الكثير من جنود حاكم شيراز يخيّمون على مسافة من هنا، فدعنا من حديث المجاملات، وقل لي ما المطلوب مني بالضبط غير التوقيع على هذه الاتفاقية؟

حاول السيد «بروس» أن يظهر بمظهر الحكيم، فسحب كرسيه قليلًا تجاه ضيفه، وقال بصوت هادئ النبرة:

ـ تعلم يا سيد أرحمة، أن الوهابيِّين قد سيطروا على البحرين مؤخرًا، ونحن نريد أن نخرجهم منها بالتعاون مع سلطان عمان.

تغيرت ملامح الضيف، وقال:

ـ من تقصد بـ«نحن» يا سيد «بروس»؟

ـ أقصد البريطانيين، فكما تعلم نحن في صراع مع الوهابيِّين منذ سنوات، وقد قوي نفوذهم مؤخرًا على نحو يهدد مصالحنا بشكل جدِّي، وقد نسقنا مع العمانيِّين الذين سيوفرون قوة عسكرية وسفنًا، وقد وافق حاكم شيراز على أن يمدنا أيضًا بألفين من جنوده لحملة القصد منها إنهاء الوجود الوهابي في البحرين.

توترت أعصاب أرحمة، وتغير لون وجهه:

ـ هل تعلم عمَّا تتحدث يا «بروس»؟ إنكم بعملكم هذا ستعيدون عجلة التاريخ للوراء، فكما تعلم أنا كنت مشاركًا في المعركة التي أخرجت الفرس من البحرين، وبعملكم هذا فإنكم ستعيدون هذه الجزيرة لهم مرة أخرى،

ولن تستطيعوا لا أنتم ولا سلطان عمان فعل شيء بعد ذلك، لقد كنت مع الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة حين حررنا الجزيرة من الفرس، وفقدت عيني اليسرى وحركة يدي هناك بالإضافة إلى كثير من الرجال، وهذا ثمن كبير جدًّا لا يمكن نسيانه.

اقترب «بروس» منه حتى شم أرحمة رائحة الخمر في فمه:

ـ إن لدينا خطة أخرى موازية لخطتنا هذه لا أستطيع أن أشرحها لك، ولكنها ستؤكد نصرنا الذي سنحصل عليه ليس في البحرين فقط، ولكن في كل الجزيرة العربية.

طلب أرحمة أن يدخن، فما كان من ضرار سوى أن قرب إليه الطاولة التي وضع عليها الدخان، فسحب منه أرحمة نفَسًا طويلًا، وهو مثبت نظره على «بروس» دون أن يرفَّ له جفن، ثم نفخ في الهواء، وراقب السقف قليلًا، ثم أخذ نفَسًا آخر، وأعاد النظر إلى «بروس»:

ـ دعني أفكر يا «بروس»، إنكم ستقلبون المنطقة رأسًا على عَقِب، وقد تغيرون التاريخ مرة أخرى.

قال «بروس» محتدًّا:

ـ أريد منك قرارًا، الآن؛ فلا وقت لدينا نضيعه يا أرحمة.

وقف أرحمة كعادته حين يغضب، وتناول أسلحته التي وضعها على الطاولة وأدخلها في نطاقه، ثم علق سيفه على كتفه:

ـ لقد قلت لك يا «بروس»، إنني أريد وقتًا، سأرسل إليك جوابي غدًا أو بعد غد.

لم يكن أرحمة من النوع الذي ينام بعيدًا عن رجاله، فقد علمته الأيام أن

النوم في سفينته الغطروشة آمَنُ من النوم في البيوت، أسرع بالعودة إلى منزله العائم، وتجمع حوله الثقات من رجاله بانتظار أن يقرر، كان الجوُّ مشحونًا بالتوقعات، والليل قد حلَّ، ومعه تحسن الطقس قليلًا وخفَّت حرارة الريح، مما جعل الجوَّ أكثر انتعاشًا مما كان عليه خلال اليوم.

من مكانه في الميناء كان «بروس» و«ديفيد» يستمعان إلى مزيج من الأصوات غير الواضحة التي تصدر من سفينة القرصان كما كانا يسميانه، وهما يشاهدان مجموعة من الأشباح تجلس حول النار، وكان صوت نصل أرحمة وهو يعود إلى غمده بقوة يشكل نغمًا موسيقيًّا لا يسمع عادة على ذلك الساحل.

نظر «بروس» إلى «ماثيوز» الذي أنعشه نسيم البحر في المساء وأنساه تعبه الذي كابده في النهار:

ـ عن أي شيء يتحدثون بظنك؟

ـ لا أعلم يا سيدي، ولكن من الواضح أن القرصان يعرف ما يريد، وهو لن يدخل معنا في اتفاق يجعله يخسر اتفاقًا آخر مع حلفائه، فهو أكثر حكمة مما كنت أتصور.

أبقى «بروس» نظره مثبتًا على النار التي تخرج من سطح الغطروشة:

ـ لقد أثبت هذا الرجل أنه ورقة مهمة، ولا بدَّ لنا من التعامل معه حتى لا يفسد علينا خططنا المقبلة، وأتمنى أن يوافق على ألّا يهاجم سفننا حتى يجعلنا نركز على حربنا مع الوهابيِّين. لقد أصبح أكثر حذرًا منذ أن قابلته آخر مرة.

لم يكن «ماثيوز» مقتنعًا بالاتفاقيات، فهو يعرف أن ليس كل ما يكتب على ورق ينفذ، وأن المصالح تتغلب على كل الاتفاقيات في نهاية الأمر.

- ولكن يا سيدي، ما الذي يضمن لك أن القرصان سينفذ الاتفاقية حتى إن وقعها؟ لقد شاهدت بحكم عملي في الميناء كثيرًا من الاتفاقيات الشفوية والمكتوبة التي تُنتهك بعد ساعة من إبرامها.

أنزل «بروس» بصره ليشاهد الموج الذي يضرب الساحل، واستمع لنغمة الموج التي ترافق صوت سيف أرحمة من بعيد، ثم وضع يده على كتف «ماثيوز» قائلًا:

- أظنك على حق، ولكن دعنا ننفذ تعليمات الحاكم البريطاني في بومبي، فقد طلب منا أن نحيِّد أرحمة في معركتنا المقبلة بجعله يوقع على اتفاقية تلزمه بالتوقف عن مهاجمة السفن التجارية القادمة من الهند، وحتى أكون معك صريحًا، أنا لا أعلم ما المقصود بذلك، فهو لم يهاجم سفينة تحمل العلم البريطاني أصلًا، ولكن من يدري ما الذي يخططون له في الهند؟ والآن دعنا نذهب لننام، فمن الواضح أن القرصان ورجاله سيسهرون الليل وهم يفكرون فيما قلت لهم.

خيَّم جوٌّ مشوب بالحذر خلال الليل على «أبو شهر»، فلم يخرج أحد للجلوس في المقهى الذي يقع قريبًا من الميناء، وخلت الشوارع من المارة، ولكن سكان «أبو شهر» جميعًا كانوا يتابعون ما يحصل من سطوح منازلهم التي كانوا ينامون عليها طلبًا لنسمة منعشة تساعدهم على الحصول على بضع ساعات من النوم.

في النهار، عاد «بروس» إلى مبنى المقيمية متثاقلًا، وشاهد الحارس الذي لم يكن يصحو قبل أن تضرب حرارة الشمس وجهه، ويساعدها الكثير من الذباب على إيقاظه، حاول أن يقول له شيئًا، ولكنه يئس منه، فمن الواضح أن الحياة في «أبو شهر» لا يمكن أن تتغير.

دخل مكتبه الذي ما زالت رائحة الخمر تفوح منه، فوجد عليه خنجرًا مغروسًا على ورقة حتى لا تحركها الرياح، مكتوب عليها:

«لن أعقد معك اتفاقًا، فقد نتقابل كأصدقاء اليوم وعدوَّين غدًا، ولكن بما أني بحاجة إليك، وأنت بحاجة إليَّ هذه الأيام، فدعنا نتفق على أننا لن نقاتل بعضنا بعضًا».

انتزع «بروس» الورقة بقوة، وخرج راكضًا إلى الميناء ليُفاجأ باختفاء سفن أرحمة من الميناء، سحب أحد الرجال الواقفين في الميناء من تلابيبه وسأله عن سفن أرحمة، لم يجب الرجل الذي بدت على وجهه أمارات الخوف، تركه «بروس» وذهب إلى رجل آخر كان يقف قريبًا منه، فسأله هل شاهد سفن أرحمة، قال الرجل:

- نعم، لقد مَوَّنوا سفنهم ليلًا، ورفعوا مراسيهم وغادروا قبل صلاة الفجر.

ضرب «بروس» الأرض بقدمه عدة مرات وهو يقول:

- هذا مستحيل... إنها لمصيبة... اللعنة!

ثم مشى تجاه المقيمية وكل من في الميناء يراقب هذا الرجل الذي يحدث نفسه، ثم يضرب الأرض عدة مرات، ويكمل طريقه وكأنه أُصيب بالجنون.

## الفصل الثالث

**بومبي، الهند، مقر الحاكم البريطاني**

جلس الكابتن «جورج فورستر سادلر» على كرسي في بهو الانتظار لابسًا زِيَّه العسكري الكامل بانتظار أن يسمح له بمقابلة الحاكم البريطاني في مقر قيادته في بومبي.

أخرج ساعته المعلقة في سلسلة ذهبية من جيبه، لقد انتظر طويلًا، وتمنى أن ينهي الحاكم أمر هذا اللقاء بسرعة، فالجو حار في هذا القصر الكبير، ويبدو أن الهواء لا يتحرك فيه أبدًا، أخرج زفيرًا قويًّا من صدره وأعاد ساعته إلى مكانها، وعدل من جلسته، وبحركة لا شعورية استخدم قبعته لتحريك الهواء حول وجهه، فقد لبس اليوم أفضل زيٍّ عسكري له لمقابلة الحاكم، هذا الزيّ الذي صمم ليكون ثقيلًا مناسبًا للأجواء الباردة، ولكنهم ما زالوا يلبسونه في الهند، قال في نفسه: أليس هذا مضحكًا؟

تمنى أن يخرج من هذا القصر الحار ليخلع كل ما عليه من لباس، ويغمس نفسه في الماء البارد كما يفعل عادة عندما يعود من التدريب أو من لعب البولو.

نظر يَمنة ويَسرة علّه يشاهد أحدًا ممن يعملون في هذا المكان، ولكنه لم يشاهد بَشرًا، فكأنما قد غادر الجميع المكان وبقي وحدَه يعاني هذا الجو الخانق.

سمع وقع خطوات يتردد صداها في الممر، فالتفت تجاه الصوت، فإذا هو الحاجب الذي أدى له التحية، وطلب منه مرافقته إلى مكتب الحاكم البريطاني.

كان الحاجب هنديًّا طويلًا تم اختياره بعناية، يلبس عمامة كبيرة مزينة بريشة في مقدمتها، ويلبس قفطانًا إلى منتصف الساق، وقد تم تدريبه تدريبًا عسكريًّا خاصًّا ليكون حاجبًا، وحاجبًا فقط، فقد بدا من شكله أنه من النوع الذي ينفذ الأوامر، ويقوم بواجبه، ثم يذهب لينام ليكرر ما كان يفعله في اليوم التالي أيضًا.

سار الكابتن «سادلر» خلف الحاجب محاولًا تقليد مشيته، ومجاراة خطواته، حتى وصلا إلى باب كبير كُتب عليه: «السير «إيفان نيفيان»، رئيس المجلس والحاكم العام.. بومبي». حينها توقف الحاجب، وأشار بحركة من يده للكابتن أن انتظر قليلًا.

طرق الباب عدة طرقات ثم فتحه دون سماع الإذن بالدخول، ثم شرع الباب كاملًا، وأشار بيده بحركة مسرحية للكابتن بالدخول.

تقدم الكابتن «سادلر» إلى الرجل الجالس على مكتبه الفخم بخطوات عسكرية، ثم توقف على بعد خطوات من المكتب، وأدّى التحية العسكرية محدثًا صوتًا مدويًا بضربة كعبي حذائه بعضهما ببعض.

أشار السير «إيفان» إلى ضيفه بالجلوس، ثم أغلق الملف الذي كان مفتوحًا أمامه، ونظر إليه من فوق نظارته التي كان يقرأ بها، وقال:

ـ إنك إذن الكابتن «جورج فورستر سادلر»، كنت أقرأ ملفك على عُجالة. لقد انضممت لكتيبتك السابعة والأربعين حين كنت في السابعة عشرة من عمرك، وشاركت معها في عدة معارك في أمريكا الجنوبية وبلاد الأفغان، ثم دربت بعض ضباط الجيش الفارسي منذ سنوات، أبليت بلاء حسنًا هناك، حتى إن الشاه منحك رتبة فخرية في جيشه، أليس كذلك؟

رد «سادلر»:

ـ بلى يا سيدي، ولكنها لم تكن تجربة سارّة على أي حال، لقد خسرت صديقين من الكتيبة السابعة والأربعين كانا معي خلال تلك الرحلة!

ـ أعلم ذلك يا «سادلر»، هل تمانع إن ناديتك باسمك الأول يا بني؟

ـ لا يا سيدي، هذا شرف لي.

توقف السير «إيفان» هنيهة، وكأنه نسي ما يريد قوله، ثم تذكر فجأة:

ـ آهٍ، نعم كنت أقول إنني كنت أقرأ ملفك قبل دخولك عليَّ، لكن قل لي كيف هي حياتك هنا؟

ـ ليست جيدة يا سيدي! واسمح لي أن أقول ذلك، فأنا أهوى الترحال والسفر والمعارك وركوب المخاطر، ومنذ انتقال كتيبتي إلى بومبي ليس لدينا شيء نفعله سوى الصيد ولعب البولو...

ثم توقف خوفًا من تأثير ما سيقول على الحاكم، ثم أضاف:

ـ وملاحقة النساء!!

كان يتأمل في وجه الحاكم حين قال ذلك، لم يَبْدُ على وجه محدثه أي تغيُّر، فقد اختفت عينا السير «إيفان» تحت حاجبيه الكثيفين، أما وجهه فكان

محاطًا بلحية كثّة بيضاء لم تكمل دورتها حول وجهه، فقد كان ذقنه حليقًا ناصعًا بعكس بقية وجهه الذي انتشر فيه وحوله الشعر الأبيض.

لم يَبْدُ على السير «إيفان» اهتمام لما يقوله الكابتن، فقد غيّر نبرته الودية إلى أخرى أكثر جدية، واجتمع حاجباه الكثيفان بين عينيه، وبرزت ثلاثة تجاعيد كأنها موج البحر على جبهته العريضة:

- اسمع لما سأقوله لك يا بني، إن أمامك مهمة سرية بالغة الخطورة، سيتوقف مستقبل التجارة البريطانية في هذه المنطقة على مدى نجاحك في إنجازها.

بدأ قلب الكابتن في الخفقان، وبدأ العرق يَنزُّ من جبهته، واستغرب تلك النبرة الغريبة في صوت محدثه، فقال مترددًا:

- هل تسمح بأن تشرح لي ما المطلوب مني يا سيدي؟

حكَّ السير «إيفان» لحيته، ثم خلع نظارته وأعادها إلى وجهه مرة أخرى قبل أن يقول:

- اسمع يا بني.

ثم فرش خريطة ملاحية على مكتبه، وطلب من الكابتن النظر إليها:

- إن المسافة من بومبي إلى الخليج تأخذ من سفننا ثلاثة أسابيع إن كان الجو مناسبًا، وعادة ما تحمل سفننا البهارات والأخشاب والعطور والفواكه المجففة والأقمشة الآتية من الصين وآسيا إلى الخليج، وبالذات إلى مواني عمان والبصرة و«أبو شهر»، ومن هذه المواني يتم توزيع هذه البضائع إلى الداخل الفارسي، أو إلى العراق ومنها إلى بلاد الشام فأورُبّا، أو إلى بلاد العرب، وكثير من هذه البضائع يتم إعادة شحنها إلى إفريقيا وأمريكا بحرًا.

إنها تجارة مزدهرة لا نريد أن نفقدها، لقد حاربنا البرتغاليين والهولنديين والعرب والأتراك لتبقى هذه التجارة حكرًا بأيدينا، هل تعلم ما أعني حين أقول حاربنا كل هذه الأمم؟

أكمل الحاكم بأسلوب خطابي:

ـ أعني أننا فقدنا الكثير من خيرة شبابنا في البحر، وتحطمت الكثير من سفننا، وفقدنا الكثير من الأموال والمجهود والدماء في معارك حولت مجرى التاريخ، حتى نحصل على ما هو في أيدينا حاليًا، فلا نريد أن نفقده.

كان يتحدث، وهو يرسم خطوطًا على الخريطة المفتوحة أمامهما:

ـ إن هذه المنطقة حيوية بالنسبة إلينا، إنها شريان الحياة الذي يجب ألَّا نخسره، هل تعي ما أقول يا بني؟

ـ نعم يا سيدي.

أكمل الحاكم خطبته بعد أن سَعل عدة مرات:

ـ إن أمامنا تحديًا كبيرًا، سيكون دورك هو جمع كل الإمكانات المتاحة لنا في هذه المنطقة لتحطيم هذا التحدي وإنهائه من الوجود.

لم ينبس الكابتن بحرف، أخرج منديله من جيبه ومسح جبينه وانتظر أن يكمل الحاكم خطبته.

نظر الحاكم إلى وجه ضيفه ثم أكمل:

ـ في عام ١٧٠٣ وُلد غلام اسمه محمد بن عبد الوهاب في قرية صغيرة بائسة في إحدى قرى نجد، هل تعرف أين هي نجد يا بني؟

احمرَّ وجه الكابتن قليلًا، فأكمل الحاكم حديثه:

ـ إنها المنطقة الواقعة في وسط الجزيرة العربية، و«نجد» باللغة العربية تعني المكان المرتفع أو الهضبة، وهي فعلًا هضبة تفصل بين المنطقة الشرقية التي تقع فيها الصراعات بين القبائل، ويكثر فيها نشاط القراصنة، وبين المنطقة الغربية التي توجد فيها الأماكن المقدسة لدى المسلمين، ومن يتحكم في نجد، يتحكم في منطقتين مهمتين: منطقة دينية وأخرى تجارية.

أخذ الحاكم نفَسًا قبل أن يكمل:

ـ سافر هذا الشاب بعد أن اشتد عوده للدراسة الدينية في الحجاز والشام والعراق، ثم عاد إلى دياره داعيًا الناس إلى العودة إلى المنبع الحقيقي للإسلام، ومحاربًا كل الظواهر التي يقول إنها استحدثت في الدين، وقد وجد له أتباعًا في دعواه تلك.

نظر الحاكم إلى وجه الضابط حتى يتأكد من اهتمامه ومتابعته للموضوع، ثم أكمل:

ـ وقد قويت شوكته بعد أن عقد حلفًا مع زعيم قبليٍّ كبير يُدعى الأمير محمد بن سعود، فتشكلت من خلال هذا الحلف السياسي والديني قوة عسكرية بدأت في إحداث كثير من التغييرات في المنطقة.

خلع الحاكم نظارته مرة أخرى، ومسحها بمنديل صغير أخرجه من جيبه، وأكمل بعد أن وضعها على عينيه مرة أخرى:

ـ مع مجيء عام ١٧٧٥ كانت نجد كلها قد تحولت إلى الوهابية، وبعد ذلك بعشر سنوات دخلت هذه الدعوة إلى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، ودخل الكثير من سكان الساحل في الدعوة الوهابية وأعلنوا الحرب على الكفار الذين هم نحن، وتشكلت منهم قوة بحرية ضاربة بدأت تهاجم سفننا وتحطم تجارتنا.

أخذ نفَسًا عميقًا، وكأنه سيدخل في موضوع آخر:

ـ ومع مطلع عام ١٨٠٣ دخلت الجيوش الوهابية إلى الحجاز وأطاحت بحكم الأشراف، وهدمت القبب والأضرحة، وكسبت عداوة الناس الذين لم يكونوا مستعدين لهذا التغيير السريع والقاسي في معتقداتهم، فكان أن انتشر الكثير من الحديث عن قسوتهم وسطوتهم وإجبارهم الناس على تقليدهم، حتى كثر أعداؤهم، وتردد هذا الصدى في بلاط الشاه الفارسي والسلطان العثماني، فما كان من هذين إلا أن تحركا لكسر شوكة هذه الحركة بأي طريقة كانت.

أعاد نظره إلى الخريطة وأشار إلى بلاد فارس وتركيا:

ـ فكان أسرع مَن تحرك هو والي مصر محمد علي باشا بأمر من إسطنبول؛ فقد أرسل ابنه إبراهيم باشا إلى الحجاز عام ١٨١١ لقمع هذه الحركة وإيقاف توسعها، وما زال هذا الشاب هناك محاولًا إنهاء مهمته.

ثم نقل الحاكم المؤشر الذي بيده إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية فجأة، وأضاف:

ـ هنا تقع سلطنة عمان، وهي دولة حليفة، ونحن على علاقة وثيقة بسلطانها الذي يقوم بدور محوري رائع في مقاومة المد الوهابيّ الذي وصل بلاده عن طريق واحة تقع على أطراف الرَّبع الخالي تسمى واحة البريمي، وعن طريق جيرانه من القواسم، إنه يقاوم معنا بحرًا وبرًّا.

ترك الحاكم الخريطة وتوجه إلى جهة أخرى في مكتبه:

ـ دعني أُرِكَ المفتاح الذي نأمل أن يساعدك على تحقيق مهمتك.

مشى الحاكم متبوعًا بـ«سادلر» إلى منضدة كبيرة وُضع عليها صندوق طويل مزين بالكتابات والصور، وقبل أن يفتح الصندوق أضاف:

ـ إننا يجب أن نقضي على الوهابيين وعلى القراصنة في الخليج وعلى كل من يهدد تجارتنا. إن الخط الملاحي المهم يجب أن يبقى سالكًا وآمنًا، والأهم أن يبقى تحت سيطرتنا بشكل تامّ.

سَعل عدة سعلات قبل أن ينظر حوله ليعرف لماذا هو في هذا المكان، وأكمل:

ـ آهٍ، نعم، دعني أُرِكَ هذا.

فتح الحاكم الصندوق بهدوء، وحينها تغيرت ملامح الكابتن «سادلر» إلى الاندهاش، وخرجت من صدره زفرة إعجاب تحولت إلى صفير بعد ذلك، فقال الحاكم:

ـ نعم، يا بني، هذا مفتاح مهمتك، عليك أن تحافظ عليه بحياتك.

## الفصل الرابع

**السفينة «إيدن»، بالقرب من الساحل الغربي لإفريقيا**

خلال الأيام الأولى من الرحلة كان الجو جميلًا والرياح مواتية، ولم يكن القبطان «لوخ» يختلط حينها كثيرًا بضباطه، بل أبقى على الفاصل الذي يصنعه دائمًا بينه وبينهم، وعندما تشعر زوجته «جسي» بنوع من الملل كان يرافقها إلى سطح السفينة ليلًا، حين ينام البحارة؛ لتحرك قدميها وتستنشق هواء البحر المنعش.

بعد عدة أيام وصلت السفينة إلى جزيرة «ماديرا» التي كانت تحت الحكم البريطاني سنواتٍ طويلة قبل أن تتحول إلى الحكم البرتغالي، ورست في خليج «فنشال» الذي تقع عليه العاصمة التي تحمل الاسم نفسه.

ما إن علمت إدارة الميناء بوصول السفينة حتى أرسلت غلامًا إلى منزل القنصل البريطاني في «ماديرا» السيد «ريبيد»، الذي جاء ماشيًا ليكون بانتظار القبطان حال نزوله.

ابتسم «لوخ» حين شاهد القنصل بانتظاره، فأمر العقيد «جون» والعقيد «دنكن» بالنزول معه لمقابلة القنصل، فبعد الإبحار مدة ثمانية أيام سيكون المشي على اليابسة متعة لا يود القبطان أن يحرم ضباطه منها.

قابلهم القنصل مبتسمًا وقال:

ـ سيدي القبطان «لوخ»، كم تسرني رؤيتك!

ـ سيدي القنصل، إنه لمن دواعي سروري أن أراك، لم يكن هناك داعٍ لتجهد نفسك بالمجيء إلى الميناء للقائنا.

قبَّل القنصل يد «جسي» زوجة القبطان بهدوء ناظرًا إلى عينيها طوال الوقت، وكأنه قد مارس هذه العادة لفترة طويلة ودون أي تكلف.

ـ إننا لا نشاهد الكثير من النساء الإنجليزيات الجميلات هنا، وإنه لشرف لي أن أقابل سيدة مثلك يا «مسز لوخ».

أمسك القبطان بيد زوجته، وتقدم الجميع إلى حيث أشار القنصل، ولكنه لم يشاهد أي عربة بانتظار أن تقلَّه.

لاحظ القنصل ذلك في وجه القبطان، فحاول أن يشرح:

ـ إننا لا نستخدم العربات كثيرًا هنا يا سيدي القبطان، إن منزلي قريب جدًّا، سنتمشى إلى هناك حيث ترتاحون قليلًا، ثم نتعشى معًا.

لم يمانع القبطان، فقد كان بحاجة إلى أن يحرك قدميه قليلًا بعد ثمانية أيام من الإبحار، مشى الجميع إلى خارج الميناء، وقادهم القنصل إلى طريق صاعدة تم رصفها بعناية، كانت الطريق صغيرة ومتعرجة، نبتت على طولها الزهور الطبيعية والحشائش الخضراء، وغير بعيد كان المزارعون يقفون لهذا الموكب الماشي على قدميه بعد أن يخلعوا أغطية رؤوسهم احترامًا.

بُنيت المنازل في العاصمة على سفح الجبل المطل على الميناء، وتكدست بشكل شبه عشوائي تاركة ممرات صغيرة بينها لمرور الناس والبضائع مع وجود ميدان كبير في وسطها حيث تقام الاحتفالات والأسواق الموسمية.

كانت الطريق التي يسلكونها تصعد إلى أعلى الجبل، فأضحت المدينة تحتهم، يرون تفاصيلها، وعلى يسارهم قمة الجبل الذي زُرع بأشجار الفاكهة والزيتون.

وصلوا إلى بيت جميل على قمة تل صغير، بُنيت أمامه نافورة على شكل طفل مجنح يحمل قوسًا وينبع الماء من فمه، أضاف صوت الماء المنسكب ورائحة الزهور الجبلية إلى المنظر الأخاذ سحرًا لم يكن الضيوف ليقاوموه، فطلب القبطان من القنصل أن يسمح لهم بالجلوس في الحديقة بدلًا من الداخل.

رحب القنصل بذلك، وأشار إلى الخدم الذين هبُّوا مسرعين لتجهيز الكراسي وتنظيفها، وفرش المفارش على الطاولات، وإحضار الشراب والفواكه.

نظر القبطان إلى القنصل قائلًا:

ـ سعادة القنصل، إنك بوضعنا في هذا المكان الجميل جعلتني أندم على أني انضممت إلى البحرية الملكية؛ فقد كان من الأفضل لي لو كنت في السلك الدبلوماسي لأنعم بما تنعم به في هذا المكان الرائع.

ضحك الجميع بصوت عالٍ، حتى قاطع القنصل الجميع بسؤاله، وكأنه ذكرهم بأمر محزن:

ـ ولكن إلى أين أنتم ذاهبون يا سادة؟

اختفت الابتسامة من الجميع، وخيَّم جو من الجد على الحديث، فبادر القبطان بالرد:

ـ إننا في طريقنا إلى خليج يقع بين بلاد فارس والجزيرة العربية لأمر سرِّي لم أشرحه حتى الآن لضباطي.

عرف القنصل أن المهمة التي يزمع القبطان وضباطه تنفيذها هي مهمة قتالية؛ فالقنصل على علم بكل تفاصيل الحركة البحرية، فكل السفن البريطانية سواء المغادرة لبريطانيا أو العائدة إليها من آسيا وإفريقيا تمر عبر «ماديرا»، ويعلم أن هناك صراعًا دائرًا بين شركة الهند الشرقية والسفن العربية سواء في بحر العرب أو المحيط الهندي أو في الخليج، ومصطلح مهمة سرية لا يحمل غير مفهوم الحرب والقتال في نظره.

لقد زار القنصل خلال شبابه كثيرًا من دول العالم، ابتداءً من ميناء «ريو دي جانيرو» حتى موانئ الصين، مرورًا بالهند وجاوة وعدن، فهو قارئ نَهِمٌ، ومطلع على ثقافات الشعوب، وله عدة مؤلفات في الجغرافيا والتاريخ.

ـ إنني يا سيد «لوخ» لا يهمني ما الذي تريدون فعله هناك، ولكني تعلمت درسًا حين كنت شابًا، فكنت دائمًا أقول: قبل أن تحارب أحدًا عليك أن تضع نفسك مكانه.

لم يفهم القبطان «لوخ» ما المقصود بذلك، فسأل القنصل عن الذي يعنيه:

ـ أعني أنك ذاهب لقتال أناس آخرين في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، فهل سألت نفسك يومًا لماذا يقاتلونك؟

لم ينتظر القنصل أن يجيب القبطان عن سؤاله:

ـ يجب أن تعرف أنك ذاهب إلى ديارهم حيث يعيشون مع أطفالهم وعوائلهم، إلى حيث يجدون حياتهم، لتحاربهم، إنهم لم يأتوك إلى هنا، بل أنت ذاهب إليهم، ومع ذلك تطلق عليهم أي مسمّى تريده، قد تسميهم قراصنة أو مجرمين أو قطاع طرق، ولكنهم أيضًا قد يسمونك بما يريدون، فمن الذي تراه على حق هنا؟

لم يعجب هذا الكلام القبطان فردَّ على القنصل:

ـ وكيف عرفت أنني ذاهب إلى هناك للحرب؟ إنني لم أقل سوى إننا في مهمة سرية!

بان على ملامح القبطان الغضب، وحاولت زوجته أن تهدئه، فأمسكت بيده بلطف، ونظرت إلى الضباط الآخرين في محاولة لحثِّهم على تغيير مجرى الحديث.

حاول «دنكن» أن يتدخل:

ـ إننا جائعون يا سيدي القنصل، فهل سيطول حديثنا أو إنك ستدعونا للطعام؟

صفَّق القنصل بيديه، وكأنه نسي شيئًا:

ـ دعونا نكمل حديثنا على المائدة إذن.

وعلى المائدة، جلس الجميع أمام أصناف الطعام الرائع يأكلون بهدوء، نظر القنصل إلى «لوخ» الذي كان مشغولًا بتناول طعامه، وشعر أنه ربما يكون قد قسا عليه في الحديث، فحاول تبرير أقواله:

ـ سيدي القبطان، أرجو ألا تكون قد غضبت مني، ولكن دعني أحدثك عن نفسي قليلًا، لقد بدأت حياتي ضابطًا صغيرًا في البحرية الملكية، وخالطت أغلب شعوب العالم، ورأيت أن الناس بطبيعتهم طيبون ومسالمون، ويريدون أن يعيشوا فقط، ولا يريدون أن يروا من يُكدر عليهم حياتهم وأسلوب عيشهم، لا حاكمًا ظالمًا ولا جيشًا غاشمًا.

توقفت «جسي» عن الأكل فقد بهرها حديث القنصل، وشعرت أنه يؤيدها في أقوالها من حيث لا يدري، فهي أيضًا تحاول دائمًا إشعار زوجها

بأن الأوامر العسكرية يجب ألا تؤخذ على أنها أوامر إلهية يجب تنفيذها بحذافيرها، فأنصتت إلى القنصل بانتباه.

أكمل القنصل حديثه حين شعر أن الجميع منصت إليه:

ـ دعوني أحدثكم عن جزيرتنا الحالمة هذه، لقد وردت هذه الجزيرة في التاريخ من قِبل القائد العسكري الروماني «كوينتوس سرتوريوس» الذي توفي قبل ميلاد المسيح بـ٧٥ سنة، فقد كان على وشك الإبحار من قادش، الميناء الإسباني، حين قابل بَحَّارًا قادمًا من الجنوب تحدث معه عن الجزيرة الجميلة التي رآها، حينها كتب القائد الروماني في مذكراته الوصف الذي نقله له البحار، وهذا كان أول ذكر لهذه الجزيرة في التاريخ المعروف.

وهناك أسطورة يحب أهل الجزيرة التحدث عنها للأغراب، وهي أن عاشقَيْن إنجليزيَّيْن أحبَّا بعضهما بعضًا في عهد الملك الإنجليزي «إدوارد الثالث»، ولأنهما وجدا معارضة من عائلتيهما على هذا الحب قرَّرا الهروب إلى فرنسا في سفينة صغيرة.

وخلال إبحارهما واجها عاصفة قوية رمت بسفينتهما إلى عرض البحار، وبعد عدة أيام من الضياع وجدا نفسيهما في هذه الجزيرة، وأسَّسا عائلة وعاشا، وجميع سكان الجزيرة يعتقدون أنهما نتاج هذا الحب.

نظرت إليه «جسي» بشيء من الرومانسية، وقالت:

ـ أليس هذا جميلًا؟ من حق سكان المدينة أن يفخروا بهذه القصة.

عندها التفتت «جسي» إلى العقيد «دنكن» الذي كان يرمقها بنظراته من حين إلى آخر، وغيرت من ابتسامتها وكأنها تستفسر عن سبب ذلك.

أخرجها من اللحظة الحرجة تلك حديث القنصل عندما قال لها:

- إن الجزيرة بها أعراق مختلفة يا سيدتي، فنحن نبعد عن الساحل الإفريقي حوالي ١٠٠٠٠ «فرلونغ»(*)، وهذه مسافة قصيرة جدًّا، فستجدين لدينا أقلية من أصول عربية كما ستجدين أقليات من أصول إفريقية أيضًا.

لاح على وجه «لوخ» علامات الاستغراب:

- هل لديكم عرب هنا؟

ابتسم القنصل، وشعر أن استغراب القبطان بداية لحديث ممتع:

- يا سيد «لوخ»، إن الشعب الذي أنت ذاهب لمحاربته هو جزء صغير من شعب كبير يمتد من الساحل الإفريقي القريب من هنا إلى حيث أنت ذاهب في الخليج، وخلال رحلاتي رأيت عربًا يعيشون في جاوة وسواحل الهند و«غوانزو» في الصين، وحتى في «فنشال» هنا، إن هذا الشعب يا سيد «لوخ» كان في أورُبَّا مدة ستمائة سنة حتى تم إخراجهم منها بشكل بشع، وأعتقد أننا خسرنا أكثر مما خسروا هم.

لم تفهم «جسي» عن أي خسارة يتحدث القنصل، فسألته عن ذلك، ولكنه بادرها بسؤاله:

- هل زرتِ إسبانيا يا سيدتي؟ إنها مكان رائع، ففيها الكثير من القصور التي تركها العرب أو الموروز بعد أن أخرجهم الإسبان منها، فقد تركوا الكثير من الكتب والقلاع والحدائق وأنظمة الري، وكانوا مبدعين في الطب والفلك والرحلات والجغرافيا، وكل ذلك تم حرقه أو تدميره بدعوى الهرطقة، وكثير من خيرة علمائهم قد أُحرقوا أحياء مع أبناء عمومتهم اليهود؛ لأنهم لم يتحولوا إلى المسيحية، وبعضهم قد أُحرق

---

(*) الفرلونغ يساوي ٢٠٠ متر.

فقط لأنه لم يأكل لحم الخنزير، هل تتخيلين أن بعضهم أُحرق حيًّا لأنه كان يستحمُّ يوم الجمعة؟!

نظر القنصل إلى القبطان مرة أخرى، وأكمل حديثه:

ـ إن هناك كثيرًا من الحديث عن أن «كريستوفر كولومبس» كان قد استعان بخريطة رسمها عربي للوصول إلى أمريكا، وإن بعض بحارته كانوا من الموروز، إني لا أريد أن أزعجك بحديثي هذا يا سيد «لوخ»، ولكن من الأفضل أن تدرس تاريخ الشعوب التي تريد أن تحاربها.

بدا كأن «لوخ» قد تأثر بما قاله القنصل، ولكنه لم يقل شيئًا، بل استمر في تناول طعامه، أكمل القنصل محاضرته التي كان يحب أن يقولها لزواره دائمًا:

ـ إن الشعوب يا سيدي القبطان تبدع حين تعيش في أجواء من الحرية، وحين تكون أكثر تسامحًا مع الآخرين، وحين يكون نظام الحكم جزءًا لا يتجزأ من الشعب الذي يحكمه، وحين يكون العدل منتشرًا، وما إن يحصل أي اختلال في المعادلة، فإن الشعوب تفسد، وتتبنى صفات لم تكن موجودة بها من قبل، وما إن تختل المعادلة حتى يصعب إعادتها إلى توازنها مرة أخرى، وأظن أن كثيرًا من الشعوب قد اختل توازنها بسبب تدخل المستعمر في حياتها بطريقة أو بأخرى، أو بسبب أنظمة حكم قاسية غيرت من طبيعة الشعب وتركيبته، وأزالت عنه الصفات الحسنة، أليس الهنود الحمر خير مثال على ذلك؟

حاولت السيدة «جسي» أن تغير مجرى الحديث حين رأت أن زوجها لا يشارك فيه، فسألت القنصل عن عائلته:

ـ لست متزوجًا يا سيدتي، إن عائلتي هم طباخي وخادمي وسائق عربتي الذي لا يفعل شيئًا سوى الاعتناء بالخيول التي سمنت لأني لا أستخدمها.

ابتسمت السيدة، وقالت:

ـ تبدو سعيدًا يا سيدي، إن حياتك هنا هادئة جدًّا، ومن الواضح أن علاقتك بمن يعملون معك علاقة عائلية.

رد عليها مبتسمًا:

ـ إنني سعيد بما أعمل، وأحب الذين يعملون معي، وهم يحبونني أيضًا، وأستغل وقتي في القراءة والاطلاع والتأليف، وأحاول ربط الأحداث ودراستها، والتأمل في أحوال البشر وعاداتهم، إنني لا أضيع وقتي هباء يا سيدتي، فالوقت بالنسبة إليَّ ثروة لا يجوز تبذيرها.

تحدثت زوجة القبطان فقالت:

ـ سيدي القنصل، إنك تعيش الحياة التي يجب أن يعيشها بقية البشر، ولكن مع الأسف! ليس كل حياتنا هي ما نرغب في أن نحياه، إنك بالتأكيد لن تكبر بسرعة وتشيخ كما يحدث مع الناس، بل ستبقيك هذه الحرية الفكرية صغيرًا مهما كبرت في العمر.

ـ كلام جميل، قلَّما أسمعه من الآخرين؛ لأنهم يعتقدون أن حياتي مملة ليس بها جديد، وأعتقد أن زوجك العزيز أحدهم.

رفع القبطان «لوخ» عينيه من طبق الطعام مبتسمًا:

ـ لم أقل ذلك أيها القنصل، لكن ربما أن حياتك كما هي الآن لا تصلح لأن أحياها؛ فأنا أودُّ أن أرى حياتي أكثر سرعة وإثارة، أرجو ألا تسيء فهمي، ولكن لكل منا رأيه، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد يا سيدي القبطان، وأتمنى لك ولزوجتك الجميلة ولضباطك رحلة ممتعة، وأتمنى أيضًا أن أراكم بعد عودتكم من مهمتكم.

ردَّ القبطان «لوخ»، وكأنه يريد أن يثير غضب القنصل:

ـ بالطبع سنمر عليك في طريق عودتنا، ولكن بعد أن نقتل هؤلاء القراصنة، ونبعدهم عن طريقنا، ولا تنسَ أنني ما زلت مصرًّا على استخدام هذا المصطلح مع كل من يهدد مصالحنا.

ـ كما تشاء يا سيدي القبطان، أتمنى أن يعجبك طعامي.

بعد قضاء يومين في الجزيرة أبحرت السفينة «إيدن» مرة أخرى إلى وجهتها، وكان في الميناء القنصل الذي كان يلوِّح بمنديل أبيض مودعًا ضيوفه، وكان إلى جنبه خادمه الذي عمل معه سنواتٍ طوالًا وأصبح الاثنان لا يفترقان.

التفت القنصل إلى خادمه وسأله:

ـ أعتقد أنك سمعت كل ما دار بيننا من حديث على الطعام؟

ـ نعم يا سيدي، لقد كنت واقفًا خلفك طوال حديثكم.

ـ دعنا نذهب، فبعض العقول تحتاج إلى طرق بالمطرقة حتى تستطيع التفكير جيدًا، لا أعلم ما الذي سيقوم به هذا الرجل في تلك البقعة من الأرض، ولكني أتمنى أن أراه حال عودته حتى أعرف شعوره بعد أن يقتل بعض البشر، لقد رأيت رجالًا يمرون من هنا في طريقهم للحرب، ولكنهم عادوا في حال مختلفة تمامًا.

# الفصل الخامس

## جزيرة البحرين، الساحل الغربي من الخليج

غادرت سفن أرحمة بن جابر ميناء «أبو شهر» ليلًا، واتجهت غربًا، تجاه البحرين التي كان حكامها يكرهونه ويكرههم بسبب تاريخ طويل، كان ينتاب أرحمة شعور غريب حالما يتجه تجاه هذه الجزيرة، شعور لا يفهمه بحّارته، فهو يتأمل أشجار النخيل من بعيد، ويكاد يسمع بحّارته صوت تنفسه العميق حين يكون قريبًا منها، ولكن ما إن يتحدث أحد عن البحرين حتى تتغير سحنته، ويبدأ جسده بالارتعاش، ومنذ أن لاحظوا عليه ذلك آثروا السكوت وعدم الحديث حتى يتحدث هو عنها.

حين اقترب من هذه الجزيرة التي تكثر بها ينابيع الماء العذبة وأشجار النخيل، والواقعة بين شبه جزيرة قطر وساحل الأحساء، طلب من خادمه ضرار إعطاء إشارة لبقية السفن للاقتراب من سفينته الغطروشة، وما إن تم ربط السفن بعضها ببعض حتى اجتمع قادتها لدى أرحمة الذي كان جالسًا في مؤخرة سفينته يتناول القهوة ويدخن.

التفت أرحمة باحثًا عن ابنه بِشر بين الذين اجتمعوا حوله، وعندما شاهده،

فتح صندوقًا صغيرًا كان على مقربة منه، وأخرج منه ورقة بنية اللون خشنة الملمس، ثم بحث عن قلم كان يحتفظ به حتى وجده، ولم يكن القلم سوى فحمة سوداء قد بريت، وأصبح أحد أطرافها حادًّا يستخدم للكتابة، وسلمه كل ذلك، ثم أمره، اكتب يا بني:

«إلى الغالي، إبراهيم بن عفيصان، حفظه الله..

كنت في «أبو شهر» منذ عدة أيام، وقابلت المستر «بروس» ونائبه، ولم تدم زيارتي لهم سوى يوم واحد، لقد شعرت أنهم يدبرون أمرًا؛ فقد طلب مني «بروس» أن أوقع على ورقة أتعهد فيها بعدم مهاجمة السفن التجارية المتجهة من الهند إلى الخليج، وتلك التي تحمل العلم الإنجليزي، مع أني لم أفعل ذلك منذ مدة، ولكن ليس هذا هو المهم.

لقد كان هناك نحو ألفين من الحرس الفارسي في معسكر يبعد مسيرة ساعات عن «أبو شهر»، وهؤلاء ليسوا بالتأكيد هناك للنزهة، ولو ربطت وجود هؤلاء مع التعهد المطلوب مني توقيعه، وقول السيد «بروس» لي بأنهم ينوون غزو البحرين لإعادة الحكم لآل خليفة، لعرفت أن هناك حملة كبيرة تنوي القوات البريطانية القيام بها ولا يريدون مني تعكير المخطط.

إن غزو البحرين أمر محتَّم، كما قال لي «بروس»، ولكن ما لم أفهمه هو قوله: إن لديهم خطة أخرى موازية لخطة غزو البحرين. وقد قال إنها ستؤكد نصرهم ليس في البحرين فحسب، ولكن في كل الجزيرة العربية.

إنهم لو أرادوا مقاتلة القواسم لحشدوا جيوشهم في ميناء جمبرون أو بندر عباس كما يسميه الناس اليوم، أو في بندر لنجة، أو في جزيرة قشم، أمَّا أن يحشدوا هذا العدد من الجنود في «أبو شهر»، فإن رأسكم هو المطلوب، فانجُ بجلدك».

طلب أرحمة من ابنه بِشر أن يختم الرسالة بالختم الذي كان يحتفظ به في الصندوق أيضًا، ثم أغلقه، والتفت إلى قادته قائلًا:

ـ استمعوا إليَّ، سيقود بِشر السفينة المنورة بعد أن يُنزل عن ساريتها بيرقي، ويضع على سطحها بعض الأخشاب والحبال والأثاث حتى تظهر وكأنها سفينة تجار، ويغادر معه عشرة من البحَّارة، أما البقية فيركبون معنا.

والتفت إلى بشر قائلًا:

ـ ستقود المنورة إلى الساحل الغربي للبحرين حتى تصل إلى الخليج الصغير الذي قابلنا فيه ابن عفيصان منذ نحو ثلاثة أشهر، وعندما تصل إلى هناك انتظر حتى هبوط الليل، ولا تشعل أي نار حتى لو اضْطُرِرْتم لتلمس مواطئ أقدامكم، وعند تأخر الوقت، أشعِل سراجًا واحدًا، ثم ارفعه إلى أعلى، ثم حركه يَمنة ويَسرة سبع مرات، ثم توقف، وانتظر حتى تعد من الواحد إلى الخمسين، ثم كررها ثلاث مرات، حتى ترى ضوءًا على الساحل يكرر فعلتك، فإن شاهدته، فأطفئ سراجك، وانزل إلى الماء وخُضْه رافعًا ثيابك حتى تصل إلى الساحل، وسلم رسالتي هذه لعمك ابن عفيصان، وإيَّاك والمبيت عنده حتى إن أصر، وعُد أدراجك قبل طلوع الصباح، وكن بعيدًا عن البحرين مع انتصاف الشمس.

أما بالنسبة إلينا، فإننا سنذهب إلى مخبئنا في الرويس في شمال قطر، وسننتظر عودتك هناك.

تحركت المنورة بركابها مسرعة تجاه الغرب، أما السفينتان الأخريان فاتجهتا جنوبًا.

وصلت المنورة إلى خليج صغير، وانتظرت إلى حلول الليل، فأشعل بِشر سراجه، وحركه كما طلب والده، وجاء الرد سريعًا من الساحل، نزل

إلى الماء، ومشى في مخاضة ليست عالية حتى وصل مصدر الضوء، شاهد رجلًا كبيرًا في السن أسمر البشرة بانتظاره، حيَّاه وطلب من بِشر أن يتبعه.

تأمل بشر الرجل على ضوء السراج، فقد كان في الستين من العمر، ذا لحية بيضاء ناصعة، وعينين حانيتين توحيان بالثقة، وعلى رأسه قطعة من القماش لفَّها على رأسه بشكل محكم، ويلبس ثوبًا قطنيًّا قصيرًا، ويربط على وسطه حزامًا جلديًّا وضع فيه خنجرًا رخيص الثمن.

مشى الرجلان مسافة حتى وصلا إلى حمارين مربوطين إلى وتد في الأرض، ركب الشيخ على أحدهما، وأمر بِشرًا بركوب الآخر، كان الظلام حالكًا، وبالكاد يشاهد أحدهما الآخر، سأل بِشر الشيخ عن سبب تواجده في هذا المكان المظلم.

ـ إن عملنا يقوم على أن نبقى في هذا المكان ولا نغادره، ويحضر الخدم الماء والغذاء كل ثلاثة أيام، فإن شاهدنا الإشارة الضوئية التي عملتها، أعدت تقليدها وأعرف أن أرحمة أو شخصًا من طرفه قد وصل، ويبقى عليَّ أن أوصلك سالمًا إلى سيدي ابن عفيصان، وأعيدك إلى الساحل حيث قابلتك متى طلبت مني ذلك.

قال بشر مستغربًا:

ـ إنك تتحدث بلغة الجمع يا عمّ، مع أني لم أرَ سواك منذ أن وصلت إلى الساحل!

ـ نعم يا سيدي، بعد أن نرى الإشارة، ينطلق صاحبي بجواده مسرعًا إلى ابن عفيصان الذي سيقابلك في مكان سريّ بعيدًا عن أعين المتطفلين، فكما تعلم أن البحرين جزيرة صغيرة، ولدى سيدي أعداء كثر سواء من آل خليفة أو الإنجليز أو حتى العمانيّين، إن ميناءنا حافل بكل أنواع البشر والسفن

والبضائع، ولا يخفى على أعدائنا سرٌّ في الميناء، ولذلك كان الاتفاق أن يتم أي لقاء بين والدك وابن عفيصان بشكل سريّ.

سارت الحمير فترة، شعر بِشر أنها ساعات طِوال، فلم يكن الرجل كثير الكلام، والظلام حالك، وبالكاد يرى أذني الحمار، وبعد مسير طويل ظهر جدار أسود أمامهما وكأنه برز من تحت الأرض، التفت بِشر إلى صاحبه الذي كان يغني تاركًا العنان للحمار الذي يستدل على طريقه دون أي توجيه، ففعل كما فعل بعد أن بلع ريقه مفكرًا في رحلة العودة فجرًا.

كان هذا الجدار الأسود خطًّا من أشجار النخيل التي أضاف عليها الليل نوعًا من المهابة، وكأنها ستار يُفضي إلى جهنم، أغمض بِشر عينيه لحظاتٍ مسلمًا أمره إلى الله، استطاع حمار الرجل أن يجد فجوة بين أشجار النخيل فتبعه حمار بشر، بدا الأمر وكأنهما دخلا نفقًا مظلمًا حالك السواد.

حاول بِشر أن يتحدث مع صاحبه ليتأكد أنه يعرف إلى أين يسير:

ـ نسيت أن أسألك عن اسمك يا عمّ؟

ـ اسمي ياقوت يا سيدي، وأنا من عبيد سيدي ابن عفيصان، لقد وصلنا فلا تقلق.

بانت بعض المنازل الصغيرة في طرف غابة النخيل تلك، وعندما وصلا إلى منزل طيني تضيئه الشموع من الداخل، نزل ياقوت وتبعه بِشر، ودخلا المنزل الذي من دون باب حيث كان ابن عفيصان جالسًا يتناول القهوة وعلى مقربة منه طبق من الخوص به تمر.

لم يستغرب ابن عفيصان دخول بِشر عليه، فقام له مبتسمًا وصافحه، كان ابن عفيصان يلبس ثوبًا أبيض نظيفًا وعريضًا ذا أكمام واسعة تكاد تصل إلى

الأرض حين يكون واقفًا، ويلبس حزامًا جلديًا في وسطه، ويضع على رأسه غترة صوفية ربطها بعصابة، وله لحية بيضاء أطلقها حتى وصلت إلى صدره، ويمسك بعصا صغيرة يضرب بها الأرض من حين إلى آخر.

جاء ابن عفيصان إلى البحرين على رأس قوة من الجيش الوهابي لمساعدة آل خليفة على طرد العمانيّين، وعندما قامت القوة الوهابية بواجبها بقي ابن عفيصان في البحرين، وشكل مع أفراد حاميته قوة لا يستهان بها، مما أجبر آل خليفة على قبوله أميرًا غير متوج لهذه الجزيرة.

تذكر بِشر كل ما قاله له أبوه عن ابن عفيصان، فبقاء هذا الرجل في البحرين أثار غضب آل خليفة والإنجليز والعمانيّين، فهم بطبيعة الحال يتآمرون عليه لطرده بأي وسيلة كانت.

أما أرحمة فكان يرى في ابن عفيصان صديقًا وحليفًا، وعلى هذا الأساس عندما قابل بِشر ابن عفيصان قبّله على رأسه كعادة أبناء المنطقة في تقبيل من هم أكبر سنًا وأعلى منزلة.

قال ابن عفيصان لضيفه:

- اجلس يا ولدي.

ثم أمر ياقوت بجلب القهوة والتمر، والتفت إلى ضيفه مرة أخرى مبتسمًا، وقال له:

- خيرًا يا بني؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أخرج بِشر الرسالة من جيبه وسلمها له، فتح ابن عفيصان الرسالة، وتغيرت ملامح وجهه، ولاحظ بِشر رجفة في يده وهو يقرأ، ثم طوى الرسالة، وقال لبِشر:

ـ متى ستغادرنا إلى البحر؟

ـ الليلة يا عمّ؛ فقد أمرني والدي بمغادرة الجزيرة حال تسلمك الرسالة.

أمر ابن عفيصان خادمه بإعطائه قلمًا وورقة، وكتب خلف رسالة أرحمة:

«أخي أرحمة..

لقد اجتمع القوم علينا، وأشعر بالمؤامرات تحاك من حولي. مؤخرًا، تم استدعاء مجموعة كبيرة من الإخوان الذين كانوا معي للذهاب إلى الدرعية بعد أن وردت الأخبار بنزول إبراهيم باشا إلى الحجاز في محاولته البائسة للقضاء على الدعوة المباركة، ولم يبقَ لي من أعواني سوى القليل ممن لا يستطيعون نزالًا ولا دفعًا.

سألاقيك في شمال قطر مكاننا المعتاد بعد أسبوع بالضبط من تسلمك هذه الرسالة.

حفظك الله..».

سلم الرسالة لبِشر، ثم ركب جواده وانطلق مسرعًا في حلكة الليل.

# الفصل السادس

## مكتب الحاكم البريطاني، بومبي

أمسك الكابتن «سادلر» بالسيف الذي عرضه عليه الحاكم، كان سيفًا ثمينًا رائعًا مُطَعَّمًا بالجواهر والأحجار الكريمة، موضوعًا في صندوق خشبي ناعم الملمس، رُسمت عليه صور جميلة وبعض الخطوط الغريبة، أخرج «سادلر» النصل من غمده، وتأمل النقوش التي طبعت عليه، ثم لمس بأطراف أصابعه النصل وكأنه يلمس قطعة من الحرير الثمين، ثم دون أن يحرك بصره قال:

ـ يا إلهي ما أروعه! لم أرَ شيئًا مثله من قبل، لا بدَّ أنه يساوي ثروة.

ـ نعم يا بني، إنه يساوي ثروة هائلة؛ فهو الوحيد الذي صُنع بهذه الجودة، كان من المفترض أن يكون هدية لملك إنجلترا، ولكن بسبب خطورة الوضع وتعقد الأمور في هذه المنطقة قررنا أن نستفيد منه بأفضل وسيلة ممكنة.

ثم أضاف بعد أن ضرب بظاهر يده ذراع «سادلر» محاولًا لفت انتباهه:

ـ اسمع يا بني، إن هذا السيف هو مفتاح مهمتك، فدونه لن تنجح أبدًا، دعني أشرح لك ما أعني.

أخذ الحاكم السيف من يد «سادلر» وأعاده إلى الصندوق مرة أخرى ليضمن تركيز «سادلر» معه، ثم ذهب إلى الخريطة التي سبق أن نشرها على الطاولة، وبدأ في استخدامها مرة أخرى:

ـ إن شاه فارس حليف لنا، وقد سمح لنا بالتجارة على أراضيه بحرية، حتى إننا نأخذ الضرائب من السفن التي ترسو في ميناء «أبو شهر»، ولدينا اتصال مباشر معه، ونتسق في كثير من الأمور التجارية والعسكرية، أما على الساحل العربي من الخليج، فقد ظهرت قوة جديدة مؤخرًا، قوة دينية بدأت تؤثر تأثيرًا مباشرًا في تجارتنا وتواجدنا، إنهم القواسم أعداؤنا التقليديون؛ فهؤلاء قد تبنوا الوهابية عقيدة وأصبحوا أكثر خطرًا من ذي قبل، ولديهم اتصال مباشر بالحركة الأم في نجد، وقد سيطروا على المنطقة الممتدة من ساحل الأحساء حتى رأس الخيمة التي نعتقد أنها أصبحت مركزًا للقراصنة الآن.

لدينا حليف قوي وهو سلطان عمان، إنه حليف يجب أن نعتمد عليه؛ فهو يحارب الوهابيّين الذين يهددون بلاده برًّا وبحرًا، ولكنه متردد كثيرًا في التحالف مع إبراهيم باشا الذي له سمعة سيئة في عمليات النهب والسلب في الجزيرة العربية.

يحكم البحرين حاليًا، قائد موالٍ للوهابيّين اسمه إبراهيم بن عفيصان، وهو مقاتل داهية، وصديق مخلص لقرصان أسطوري تجوب سفنه الخليج وبحر العرب اسمه أرحمة بن جابر.

إن الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا يعسكر حاليًا في منطقة تبعد يومين عن الدرعية، وإبراهيم باشا شاب يحب المال والدم، ولحسن الحظ أن والده يسعى لكسب ودنا لترسيخ أركان دولته الوليدة، ولو استطعنا أن نضمه إلى حلف مكون من القوات البريطانية في منطقة الخليج والجيش

العماني الذي هو تحت إمرة السلطان، فإننا سنكون المسيطرين على المنطقة برُمتها، وستنتعش تجارتنا، وسنقضي على القراصنة بسهولة.

ستأخذ هذا السيف معك، وتذهب إلى سلطان عمان لمقابلته في سفينة تجارية لا تحمل العلم البريطاني؛ لأن هذه مهمة سرية، وعلى درجة عالية من الأهمية، وتطرح عليه مسألة الحلف معنا، وعليك أن تقنعه بذلك مهما كلف الأمر، فهو لا يرغب كما قلت لك في أن يعمل مع إبراهيم باشا؛ فالسلطان لديه نزعة الاستقلال، قد يتعاون معنا ولكنه لا يريد أن يرى جيوش إبراهيم باشا تجاور أراضيه.

ومن عمان ستغادر في سفينة عسكرية يقودها القبطان «لوخ» الذي سيصل قريبًا إلى عمان، وسيوصلك من هناك إلى البحرين، ولا يستوجب عليك أن تنزل من السفينة، بل ستبقى على ظهرها حتى تتأكد من أن ابن عفيصان قد قُتل أو أُسر، وأن الحُكم عاد لأصحابه الأصليين آل خليفة، ثم تتجه غربًا إلى ساحل الأحساء، وسيستقبلك شيخ بني خالد الذي سيضمك إلى قافلة متجهة إلى الأراضي المقدسة في غرب الجزيرة العربية.

ستنفصل عن القافلة، قبل وصولها بالطبع، لتقابل إبراهيم باشا، وتسلمه السيف وتقنعه بالدخول في الحلف معنا، وقل له إن السيف هو بادرة مودة من حاكم بومبي، وسيرى المزيد من الهدايا القيمة حين يبدأ في تحريك جيوشه شرقًا، وحين نرى طلائع أساطيله وقد وصلت إلى الخليج.

لقد طلبت من مُقيميتنا في «أبو شهر» أن تلزم أرحمة باتفاقية لوقف أعمال القرصنة مدة ستة أشهر؛ حتى نضمن وصولك إلى داخل الجزيرة العربية بأمان على الأقل، والسيد «بروس» سيقوم بمهامه على أكمل وجه، أو على الأقل أحب أن أصدق ذلك.

سيستقبلك ممثل شركة الهند الشرقية في مسقط، وسيسهل لك مقابلة السلطان سعيد، وهذه المقابلة ستكون مهمة في تنظيم رحلتك حتى ساحل الأحساء على الأقل، ومن ثَمَّ ستكون رسالتي التي يجب أن تسلمها لشيخ بني خالد هناك مُيَسِّرةً لأمورك؛ فهو حليف لنا، وسيعتني بك اعتناء كبيرًا حتى تجتاز منطقة نفوذه، وتصل إلى نجد التي ستقابل فيها إبراهيم باشا أينما كان.

حافظ على السيف يا بني، فكما قلت لك إنه مفتاحك لقلب إبراهيم باشا.

اذهب الآن واستعد، فستقلك السفينة «ثيتس» إلى عمان بعد غد، على فكرة، إنها سفينة عسكرية، ولكن تم تحويلها لتصبح تجارية.

ستكون كل الرسائل التي تحتاج إليها في صندوق سيسلم إلى قبطان السفينة «ثيتس»، وكل رسالة معنونة باسم الشخص الذي يجب أن يتسلمها شخصيًّا.

هل فهمت خطورة مهمتك يا بني؟

قبل أن يجيب «سادلر»، أشار الحاكم له بالخروج وتهاوى على كرسيه، وكأنه قد أنهى واجبه وأراد أن يرتاح.

أدّى الكابتن «سادلر» التحية العسكرية، وأدار ظهره للحاكم، وقبل أن يخرج، ناداه الحاكم مرة أخرى قائلًا:

ـ أيها الكابتن، لقد نسيت أن تأخذ السيف معك، إذا كنت تنوي أن تنسى نفسك مرة أخرى فافعل، ولكن لا تنسَ السيف.

في الصباح الذي كانت السفينة «ثيتس» تستعد فيه لمغادرة ميناء بومبي، جاء قبطانها للتأكد من أن الخطة تسير على ما يرام، فقد تم إغلاق كُوَّات المدافع بشكل ممتاز، وعُدلت السفينة من الداخل أيضًا، وأُزيلت سارية

المراقبة، ووضعت أكداس من البضائع والحيوانات على ظهرها، وأُعيد طلاؤها بشكل كامل، وتم تغيير أشرعتها إلى أخرى ذات نوعية مختلفة كتلك التي تستخدمها السفن التجارية، أما البحَّارة فكان أغلبهم من الهنود الملبار، وعربي واحد، بالإضافة إلى قبطان السفينة ومساعده.

تردد «سادلر» قبل الركوب، فلم يكن يتوقع أن تتحول سفينة عسكرية إلى أخرى في وقت قصير نسبيًّا، حيَّاه القبطان وطلب منه أن يصعد على متنها، وما إن دخل إلى غرفته حتى أخرج السيف من صندوقه الثمين ولفَّه في قطعة قماش بالية وأخفاه في مكان لا يتوقع أن يشاهده أحد، وترك الصندوق أسفل سريره، فهو أثمن من أن يُرمى هكذا.

خرج «سادلر» من غرفته بعد أن تأكد من إغلاقها وقفلها بإحكام، ووقف يتأمل الميناء الذي سيغيب عنه أشهرًا طوالًا.

يعتبر ميناء بومبي من أكثر الموانئ ازدحامًا، تجتمع فيه سفن من أنحاء المعمورة؛ فهناك السفن العربية والصينية ومن خليج البنغال ومن جزر ومناطق متعددة تقع إلى الشرق من الهند، واستطاع أن يميز سحناتٍ وأعراقًا مختلفة، فالميناء مكان تختلط فيه السفن بشكل عشوائي كما هي الأعراق والعملات والأسلحة والمخدرات والذهب والأحجار الكريمة والبهارات والعطور، إنه عالم قائم بذاته، ولكنه عالم قذر من جميع الجوانب، فرائحة الميناء لا تطاق، ورائحة عرق الصيادين والبحارة تختلط برائحة السمك والبحر، وهناك الزوارق الصغيرة التي تلاحق السفن الكبرى لتبيعها القردة والحيوانات الغريبة، أو تشتري منها قبل أن ترسو في الميناء وتدفع ضريبة حمولتها.

تمنى لو أن تتحرك السفينة بأسرع وقت ممكن، فأمامه على حسب المخطط ثلاثة أسابيع لحين الوصول إلى الساحل العماني.

سمع طرقًا أسفل السفينة، فشاهد زورقًا صغيرًا يقف عليه شاب أسمر البشرة ممسكًا بمجداف طويل يستخدم طرفه لجذب انتباه ركاب السفن الكبيرة، وعندما شاهده «سادلر» صرخ الشاب:

ـ لركي؟

عرف «سادلر» من صيغة طرح السؤال أن الشاب يسأله هل يريد امرأة.

فجأة ومن دون مقدمات، وقف قبطان السفينة بقربه:

ـ إن هذا الشاب يقدم خدماته الجنسية للمسافرين، فإن كنت ترغب في أن تصاب بمرض يعذبك حتى الموت فجرب حظك معه.

ثم ضحك وغادر المكان.

التفت «سادلر» إلى الشاب الذي ما زال ينتظر أسفل السفينة:

ـ اذهب أيها السافل من هنا قبل أن أقطعك إرْبًا إرْبًا.

فهم الشاب أن ما قاله «سادلر» عبارة عن سباب، وإن لم يفهم معناه، ولكن النظرة التي شاهدها في عين الرجل الإنجليزي تفي بالغرض، ولم يكن «سادلر» ليقول ذلك لأنه عفيف، بل لأنه تذكر أن عليه نسيان النساء عدة أشهر مقبلة.

تحركت السفينة إلى وجهتها تدفع أشرعتها الرياح التي كانت مواتية ذلك اليوم، وبعد مرور عدة أيام من المغادرة، دوَّن «سادلر» في مذكراته ما يلي:

«إنه يوم ١٦ من سبتمبر من عام ١٨١٨، لقد مرت علينا عشرة أيام منذ أن غادرنا بومبي، يوم أمس قابلنا سفينة تجارية بريطانية اسمها «كونوي»، اقتربنا منها وبعد أن تأكد قبطانها من هوياتنا، سُمح لنا بالصعود على سفينته

لتبادل المعلومات، لقد أخبرنا أن نشاط القراصنة في تراجع مؤخرًا، وأنه لم يصادف أي سفينة لهم، ولكنه شاهد سفينة عربية، وقد فرغت من حمولتها، والظاهر أن ملاحيها قد تم أسرهم أيضًا، وتفسيرنا الوحيد أن القراصنة قد استولوا على حمولتها، وتركوها بسرعة خوفًا من أن تكتشفهم السفن العسكرية البريطانية.

ودعنا القبطان «برنارد» بعد أن أهدانا زجاجة من الويسكي الممتاز الذي كان يحتفظ به لنفسه، ومع دعواته لنا بالسلامة رجعنا إلى سفينتنا وأكملنا إبحارنا إلى مسقط».

أغلق «سادلر» دفتر مذكراته، فلم يجد شيئًا آخر يكتبه.

مرت الأيام رتيبة ودون أي جديد؛ فلم يكن هناك من يستطيع أن يتحدث معه سوى القبطان ومساعده، أما البقية فهم بحارة قذرون لا يستحقون الحياة كما كتب «سادلر» في مذكراته.

في اليوم الثامن عشر من تاريخ المغادرة، ومع شروق شمس ذلك اليوم، بانت في الأفق سفينتان عربيتان، لفت الأنظار إليهما أحد البحارة، أخرج القبطان منظاره، ومدَّه حتى استطاع أن يميزهما، فصرخ بقوة في بحارته:

ـ انشروا الأشرعة، واتجهوا جنوبًا، إنه القرصان أرحمة بن جابر، ويلٌ لنا إن ظفر بنا.

## الفصل السابع

**السفينة «إيدن»، المحيط**

بعد مُضي عدة أسابيع على إبحار السفينة «إيدن» بدأت تنتاب بحارتها نوبات من الملل والضجر، وخصوصًا أنهم مقبلون على مجهول لا يعرفونه.

استغل العقيد «جون» وجود القبطان على ظهر السفينة في يوم من الأيام، وطرح عليه مخاوف واستفسارات الطاقم. كان القبطان ينظر إلى الأفق البعيد محاولًا ترتيب معلوماته التي يجب أن يقولها لهم، كانت الرياح بدأت تقوى والأمواج في ارتفاع، ولم يكن من المناسب جمع الضباط في جو كهذا وإخبارهم عن تفاصيل الرحلة.

التفت القبطان إلى صديقه، ونظر في وجهه قائلًا:

ـ معك حق، ولكن لننتظر حتى تهدأ الرياح قليلًا، وسأعلن عن اجتماع للضباط لأشرح لهم مهمتنا.

رجع القبطان إلى قمرته، وصبّ لنفسه كأسًا من الخمر وارتشفها مرة واحدة، ثم كرر ذلك عدة مرات حتى شعر بالانتشاء، وعرف حينها أنه لم يتخلص بعد من إدمانه الكحول، وأنه وقع فيما وقع فيه والده من قبل.

لقد حاول جهدَه التقليل من نسبة الكحول التي يتناولها يوميًّا، ولكن طبيعة عمله قائدًا لسفينة حربية تتطلب منه البقاء وحيدًا أكثر الأوقات، ولم يكن له صديق سوى زجاجة الخمر التي يعشقها ولا يكاد يتركها، إن إدمانه الخمر أصبح معروفًا لدى الكثير من ضباطه وبحارته.

لاحت منه التفاتة إلى زوجته «جسي» التي كانت تراقبه وهو يشرب دون أن تتحدث، ولكنها عندما رأته قد توقف وهو ينظر إلى الزجاجة قالت:

ـ لقد شربت خمس كؤوس منذ أن دخلت، وأعتقد أنك لم تتخلص من هذه العادة السيئة بعد!

قالت له ذلك، وهي لم تحرك بصرها عن قطعة القماش التي تحيكها.

نظر إليها ثم مسح قطرة من الخمر كانت تنزل من جانب شفته:

ـ لماذا تراقبينني دائمًا؟ أشعر أنك تحصين عليَّ كل شيء في حياتي!

ـ إنني يا عزيزي أحاول مساعدتك فقط، وكم مرة قلت لك إنك يجب أن تتخلص من هذه العادة! إنك تضر نفسك فقط.

ـ تبًّا لكل شيء، لقد سئمت من الحديث عن الخمر طوال الوقت، دعيني أتصرف على راحتي.

عادت إلى عملها في حياكة الصوف، ثم ردت عليه وكأنها ترد على طفل من أطفالها:

ـ ها قد عدت إلى قولك هذا، وكأنك تعيش معزولًا عن عائلتك وعن بحارتك، إنك قبطان هذه السفينة وأنا زوجتك، وأرجو ألا تنسى ذلك.

لم يرد عليها، بل ألقى بجسده المتثاقل على السرير، وبعد عدة دقائق كان شخيره قد ملأ الغرفة.

في صباح اليوم التالي، وجد «لوخ» أنه يتمتع بنفسية طيبة تسمح له بمقابلة ضباطه وشرح المهمة المقبلة لهم، حاول أن يتناول زجاجة الخمر التي يضعها خادمه على الطاولة، ولكنه تذكر أنه يجب أن يكون في كامل وعيه حين يخاطبهم، وأن زوجته «جسي» ستحصي عليه كم كأسًا شرب، تردد في فتحها، ثم دعا خادمه ليستدعي العقيد «جون».

كم كان يتمنى لو كان «جون» هو نائبه المباشر بدلًا من العقيد «دنكن»! فلم يكن من اللائق استدعاء الرجل الثالث في السفينة بدلًا من نائبه ليقوم بمهام النائب، ولكنه لم يكن مرتاحًا لهذا العقيد الجديد، فقال في نفسه: إلى الجحيم بالتراتبية العسكرية، وكرر لخادمه وبنبرة أكثر حدة:

ـ استدعِ العقيد «جون» وبسرعة.

مساءً وعلى ضوء الشموع التي أُوقدت في جناح القبطان، جلس جميع ضباط السفينة حول الطاولة التي فرغت أطباقها من الطعام الشهي الذي انتظروه منذ فترة طويلة؛ فهم لا يحصلون على طعام كهذا إلا حين يكون القبطان مسرورًا ويأذن بطهو ما لذَّ وطاب من الطعام.

ضرب القبطان طبقه بملعقته محاولًا لفت الأنظار إليه، سكت الجميع وأنصتوا إلى ما سيقوله:

ـ أيها السادة، دعوني أعطكم درسًا في التاريخ، وأرجو أن تحتملوني قليلًا؛ فأنا مدرس فاشل كما تقول لي زوجتي «جسي» دائمًا، ولكني سأحاول.

ابتسمت «جسي» للضباط الجالسين بعد أن رمقوها بنظراتهم حين سمعوا اسمها.

همس العقيد «دنكن» في أذن العقيد «جون»:

ـ أتمنى أن يكون زوجًا فاشلًا أيضًا؛ فهذه الجميلة لا تستحقه.

ضغط «جون» على فخذ «دنكن» محاولًا إسكاته حتى لا يسمع أحد من الجالسين ما يقول؛ فالعلاقة بين الاثنين لا تحتمل ذلك.

نظر القبطان «لوخ» إلى زوجته «جسي» التي كانت تشاركهم الطعام، وكأنه يحاول أن يأخذ رأيها في المسرحية التي هو بطلها، ثم وجه بصره إلى الجميع وأكمل:

ـ نحن ذاهبون إلى الخليج، هذه البحيرة الصغيرة المليئة بالقراصنة، إن الذي يسيطر عليها حاليًا هم عرب الساحل الغربي، فهذه البحيرة على مدى التاريخ كانت منطقة فراغ لأسباب عدة منها أن الساحل العربي يشكل بداية صحراء قاحلة قاتلة لا يستطيع الإنسان الحياة فيها، والمنفذ الوحيد للشعوب التي تعيش على ضفته الغربية هو البحر، ولكن بما أنهم يعيشون دون وجود قوة وسلطة لتنظيم حياتهم، فإن الكثير من القبائل التي تعيش هناك أصبحت تسترزق من القرصنة البحرية، ولكن دعوني أعد بكم إلى عمق التاريخ قليلًا حتى تعرفوا أني قمت ببعض البحث، (ثم تبع ذلك بابتسامة.) ففي عام ٦٩٠ قبل الميلاد أرسل الملك الآشوري «سنحاريب»، أسطولًا تأديبيًّا ضد القراصنة، وأرغم الكثير منهم على الاستقرار في منطقة تسمى الأحساء، وهي عبارة عن واحات تقع في وسط الساحل الغربي من الخليج، وتحدها الصحراء من ثلاث جهات، أما البحر فهو المنفذ الوحيد لهم على العالم.

وفي عام ٣٢٠ قبل الميلاد أيضًا، غادر الإسكندر المقدوني الهند محاذيًا الشاطئ الشرقي للخليج، وسار أسطوله البحري بقيادة «نيارخوس» موازيًا له في عملية عسكرية جريئة للوصول إلى ميناء البصرة، ومنها إلى بابل، وفعلًا تقابل الجيشان البري والبحري في منطقة المستنقعات التي هي البصرة حاليًا.

خلال حكم الملك الفارسي «سابور»، الذي عاش بين عامي ٣١٠ و٣٧٩م، شنّ حملة عسكرية كبيرة على الساحل الغربي للخليج في محاولة منه لقمع القراصنة الذين كانوا يسْطُون على الساحل الشرقي منه، فكان أن ربط الأسرى بحبل يمر عبر ثقوب في أكتافهم، فسُمي حينها «سابور ذا الأكتاف».

وفي عام ١٤٩٧ أقلع المستكشف البرتغالي «فاسكو دي غاما» من لشبونة، وعبر رأس الرجاء الصالح فاتحًا الطريق البحري نحو الشرق، ومن حينها سيطرت البرتغال على تجارة التوابل لمدة ٣٠٠ سنة بعد أن كان العرب هم المسيطرون على هذه التجارة عدة قرون.

خلال هذه المرحلة مارس البرتغاليون كل أنواع العنف ضد أهالي الساحل في محاولة منهم لقمع التمرد الذي يحصل من حين إلى آخر، فكان أن قطعوا أنوف وآذان من هزموهم في مسقط وفي بعض مدن الساحل.

وفي أواخر القرن السادس عشر ظهر الهولنديون في الخليج، وكونوا لهم أسطولًا من المتحالفين معهم، وخصوصًا من عرب الساحل الشرقي، على العموم هم لم يستمروا طويلًا؛ إذ استطعنا أن نزيحهم هم والبرتغاليين، ونستأثر بتجارة التوابل والحرير، وغيرها منذ ذلك الحين.

أيها السادة..

أكمل القبطان محاضرته بعد أن تأكد أن جميع الضباط مصغون لما يقول:

ـ لذلك فإن هذا الخليج أشبه بقدر يغلي، والكثير من الأمور والأحداث تحصل فيه بشكل يومي، وسفن شركة الهند الشرقية تعاني الأمرّين من ضربات القراصنة، ودورنا هو محاربتهم مهما كلف الثمن.

لكن دعوني أضف لكم شيئًا، إن القراصنة ليسوا كلهم من العرب، مع

أنهم يشكلون الأغلبية، ولكنّ هناك فُرسًا وأوربيّين وغيرهم، فقد كانت جزيرة مدغشقر حتى وقت قريب قاعدة للقراصنة، إلا أنه وبمجهود أسطول صاحب الجلالة أنهينا هذا الوجود هناك.

إننا أيها السادة، مقدمون على معركة مصيرية قد تحدد مستقبل التجارة البريطانية في هذه النواحي من العالم، وتذكروا أن كل شخص عدو حتى يثبت عكس ذلك، وكل سفينة لا تحمل العلم البريطاني هي عدو محتمل، وكل مخبأ في هذه المنطقة قد يشكل خطرًا علينا، فدعونا نكن في ذروة استعدادنا، فلن نتحمل أي خطأ مهما كان.

هذا كل ما لديَّ لأقوله لكم، وإذا كان لكم أي سؤال فدعوني أسمعه الآن قبل أن نصل إلى هناك.

خيّم جو من الوجوم على وجوه الحضور، وتطلعوا بعضهم إلى وجوه بعض، ثم تشجع العقيد «دنكن»، وسأل:

- ولكن سيدي، إلى متى يجب علينا البقاء هناك؟

أخرج القبطان زفيرًا من صدره، وأجاب في اللحظة نفسها:

- لا أعلم، ولكن كونوا على ثقة أننا سنفقد بعض الرجال بالتأكيد، سواء من سوء الجو أو من القتال، ولكن لن تنتهي مهمتنا حتى نقضي على القراصنة.

تحدث طبيب وجراح السفينة الرائد «ستيفن» متسائلًا عن غياب دور الفرس في النشاط البحري في الخليج. فكان أن رد عليه القبطان بقوله:

- إن الفرس لم يعتادوا خوض البحار؛ فهم بطبيعتهم لم يكونوا بحارة يومًا ما، والعرب على الضفة الغربية غير مرتبطين بسلطة مركزية يسهل

الحديث معها، ومع مرور الوقت سيطر العرب على الضفتين وأطلقوا على العرب الذين يسكنون الضفة الفارسية من الخليج كلمة «هوله» لتحالفهم مع الهولنديين في فترة ما، وهؤلاء أيضًا لهم نشاط عسكري في الخليج، مع أن الغالب عليهم أنهم تجار وملاحون مهرة. هل هناك أسئلة أخرى؟

وجه القبطان كلامه للجميع ناظرًا في أعينهم ليتأكد من استيعابهم المحاضرة.

رفع أحدهم يده، ولم ينتظر أن يأذن له القائد:

ـ كيف نعرف أعداءنا من أصدقائنا في المنطقة؟

ـ إنه سؤال ممتاز، كدنا ننسى أمرًا مهمًّا كهذا.

ثم أكمل:

ـ لقد عقدنا اتفاقًا مع حلفائنا في المنطقة على رفع أعلام حمراء حتى يتم تمييزهم عن أعدائنا، فكل من يرفع علمًا أحمر أو به بقعة حمراء فهو حليف لنا، ومن يرفع أي لون آخر غير ذلك يجب أن يعامل كعدو.

نظر «لوخ» إلى وجوه ضباطه، وسأل السؤال التقليدي في مثل هذه الحال:

ـ هل هناك أسئلة أخرى؟

انتظر قليلًا قبل أن يقول:

ـ لست أرى يدًا مرفوعة، على العموم استعدوا فنحن على بعد أيام من عدن، وحين نصل إلى هناك سنكون قد دخلنا جحر العقرب.

# الفصل الثامن

**بحر العرب، السفينة «ثيتس» في طريقها من بومبي إلى مسقط**

نشر البحارة الأشرعة الإضافية في السفينة «ثيتس»، فبعد أن شاهدوا السفن التي ترفع أعلام أرحمة بن جابر عرفوا أنهم يواجهون عدوًّا شرسًا لا يرحم، صدرت الأوامر من القبطان بتوزيع الأسلحة على البحارة والاستعداد للقتال، ولكن البحارة الهنود مسكوا بالأسلحة التي سلمت لهم وعلى وجوههم علامات الخوف والدهشة؛ فهم لم يمسكوا بسلاح من قبل، وبدأ بعضهم يرتجف من الخوف، وأصيب بعضهم بالغثيان، فعلم القبطان أن المقاومة مستحيلة، واطمأن حين أبلغه «سادلر» نقلًا عن الحاكم في بومبي أن مسؤول المقيمية في «أبو شهر» السيد «بروس» قد وقع اتفاقًا أجبر أرحمة بن جابر على إيقاف أعمال القرصنة مدة ستة أشهر.

اطمأن القبطان لهذا، وطلب سحب الأسلحة من البحارة الذين كانوا أفضل حالًا بعد أن سلموا ما لديهم من سلاح إلى مشجب السفينة.

اقتربت السفينتان من السفينة «ثيتس»، واتجهت إحداهما إلى يمينها والأخرى إلى يسارها، وفجأة ودون مقدمات ظهرت مجموعة من الرجال

كانت مختفية على سطح السفن، ورمت كلاليب كبيرة على السفينة «ثيتس»، ثم سحب الرجال الحبال المتصلة بها حتى التصقت السفن الثلاث بعضها ببعض ولم يبقَ لـ«ثيتس» أي أمل بفك الحصار الذي أطبق عليها كفك سمكة القرش.

قفز رجال أرحمة بن جابر إلى السفينة وَسْطَ دهشة البحارة الذين رفعوا أيديهم تلقائيًّا بعد أن شاهدوا المسدسات والخناجر والسيوف في أيدي من يحسنون استخدامها، كَوَّم رجال أرحمة الجميعَ في مقدمة المركب، وربطوا أيديهم وأجلسوهم، أما بالنسبة إلى القبطان ومساعده و«سادلر»، فقد أجلسوهم في مؤخرة السفينة، ووقف على رأسهم مجموعة مسلحة من البلوش الأقوياء.

ظهر أرحمة بعد أن تأكد من سيطرة رجاله على الوضع، وانتقل إلى سطح السفينة «ثيتس»، وتأمل الأسرى، ثم اتجه إلى الضباط الإنجليز، وسألهم:

ـ ما الذي تحملونه معكم؟

وعندما لم يُجب أي منهم، استدعى رجلًا من رجاله يحسن الحديث بالإنجليزية، وطلب إليه أن يترجم ما يقول.

أجاب القبطان:

ـ نحن تجار إنجليز نحمل بضائع من الهند إلى ميناء البصرة، ولسنا محاربين.

وبإشارة من أرحمة بدأ رجاله بتفتيش السفينة شبرًا شبرًا، ولم يخفَ عليه أن يرى أن السفينة عسكرية قد تم تحويلها إلى مدنية، ولكنه لم يفهم السبب الذي حدا بهم لفعل ذلك، وخصوصًا أن هؤلاء الإنجليز لا يبدو عليهم أنهم

تجار، بل هم أقرب للعسكريين المنضبطين، فطبيعتهم الجسمانية وأسلوبهم في الحديث يختلف عن التجار الغربيين الذين كان يراهم يمضغون التبغ، ثم يبصقونه في كل مكان، ولهم أسلوب معين في الحديث يتطلب منهم الكثير من حركات الوجه والشفاه واليدين، فالتجار بطبعهم يخالطون البحّارة من جميع الأجناس، ويتقنون عدة لغات مثل المليبارية والعربية وأحيانًا الأوردية والفارسية، أما هؤلاء فلهم طبيعة العسكريين.

ما هي سوى دقائق حتى أحضر أحد البحّارة صندوقًا خشبيًّا جميلًا من أسفل سرير «سادلر»، وعرضه على أرحمة الذي تأمله بدقة، ثم سأل عن السيف، تلفَّظ الكابتن ببضع كلمات وجهها إلى «سادلر» الذي عرف أن الرجل يلعنه لأنه لم يتخلص من الصندوق، لم يحصل أرحمة على جواب عن سؤاله.

ـ حسنًا، سأبقيكم في هذا الجوّ الحار تحت الشمس بضع ساعات حتى تذيب الشمس ألسنتكم الجامدة، وقد تجبركم حرارتها على الحديث، مع أني كنت أود أن تقوموا بذلك عن طِيب خاطر حتى لا نعطلكم ولا تعطلونا.

سأل القبطان حينها:

ـ ألستَ ملزمًا بوقف أعمال القرصنة مدة ستة أشهر؟ ألم يطلب منك السيد «بروس» مدير المقيمية في «أبو شهر» ذلك؟

قال أرحمة بغضب:

ـ لا يستطيع أحد أن يلزمني بأي شيء لا أريده، إنني لست عبدًا لدى «بروس» هذا أو لدى غيره، عليك أن تصمت الآن، أو تجيب عن سؤالي، ثم ما أدراك أنني كنت في «أبو شهر» مع «بروس»؟

رد القبطان:

ـ لقد أخبرونا في بومبي بذلك.

حينها ضحك أرحمة، وقال:

ـ ولهذا السبب لم تهربوا مني، ولم تقاتلوا، أليس كذلك؟

ـ بلى، إنه كذلك، فقد كنا نعتقد أنك حليف لنا.

شدّ أرحمة على عينيه وكأنه يفكر في شيء، ثم سأل مرة أخرى:

ـ ولكن كيف عرفتم أنني أنا صاحب السفن التي شاهدتموها؟

حاول القبطان أن يطرد ذبابة كانت تحوم حول عينه بكتفه؛ لأن يديه كانتا مربوطتين خلف ظهره.

ـ إن عَلمك يعرفه كل ضابط في البحرية البريطانية ويعرفه العاملون في شركة الهند الشرقية أيضًا.

ضحك أرحمة بصوت عالٍ، وكأنه سمع خبرًا جميلًا مضحكًا:

ـ أنا لا أحب اللون الأحمر الذي اتفقتم مع حلفائكم على استخدامه، فعَلمي يدل عليَّ، أنا أرحمة بن جابر.

قال ذلك بعد أن رفع قبضته إلى مستوى وجهه وكأنه يتلذَّذ بقوته وسَطْوَته.

حاول مساعد القبطان أن يرفع رأسه ليشاهد أرحمة، ولكن الشمس كانت تضرب وجهه بقوة، أغمض عينيه ورفع صوته بالسؤال:

ـ وكيف عرفت أن الصندوق يحوي سيفًا؟ قد يكون به أي شيء آخر.

ـ أيها الأحمق، لقد كتب عليه بالعربية: هذا سيف هندي هدية من حاكم

بومبي إلى الباشا إبراهيم، عربون صداقتنا لمحاربة عدو مشترك، والآن أين السيف أيها الغبي؟

رد المساعد وهو يَصِرُّ على أسنانه:

ـ اذهب إلى الجحيم.

كان أرحمة أكثر حلمًا ـ حتى الآن على الأقل ـ فاستند في جلسته، وقال:

ـ الظاهر أننا سنبقى هنا طويلًا.

مرت الساعات قاسية على الضباط الإنجليز، والشمس لم تكن ترحم، فكانت تصب حمَمَها صبًّا على رؤوسهم، تساعدها الرطوبة الخانقة التي تجعل قطرات الماء التي تسبح في الجو تغلي، كانوا على وشك أن يصابوا بضربة شمس، وأرحمة جالس في الظل يشرب القهوة ويدخن ويزاول هوايته في قتل الوقت بإخراج نصل السيف وإدخاله محدثًا صوتًا كضربات الساعة، ولكن صوت هذه الحركة الآن بالنسبة إلى هؤلاء البؤساء كضرب المطرقة على رؤوسهم، لم يعد مساعد القبطان يقوى على الاحتمال، فصرخ في وجه أرحمة مرة أخرى:

ـ إنك مجرم شرير ستحاسب على كل أفعالك.

نادى أرحمة على مرقع الأشرعة الهندي الذي كان من ضمن طاقمه، فجاء رجل هندي ضعيف البنية، ولكنه ذو يدين قويتين يلبس إزارًا يغطي وَسَطَه فقط، فقال له أرحمة:

ـ أنت تعرف ما يجب عليك فعله حين يزعجنا أحدهم.

وأتبع ذلك بابتسامة خبيثة فهمها المرقع.

ذهب الرجل، ثم عاد حاملًا إبرة كبيرة وخيطًا يستخدمهما لترقيع الأشرعة المتمزقة، وأمر البحارة الذين كانوا يشاهدون ما يحدث بإمساك مساعد القبطان وشلِّ حركته، وما هي سوى لحظات حتى كان المساعد مطروحًا أرضًا، وقد جلس المرقع على صدره، وبدأ في خياطة شفتيه بعضهما مع بعض.

كانت العملية مؤلمة وقاسية، تناثر الدم في أنحاء السفينة من صراخ الرجل وكثرة حركته، وأرحمة يستعجل رجاله بإنهاء العملية، أما «سادلر» والقبطان فقد كانوا ينظرون إلى صاحبهم وعيونهم تدمع، وصراخهم يعلو مع صراخه طلبًا للرحمة له.

كان أرحمة مصرًّا على الحصول على السيف مهما كلف الأمر، وبعد أن خيط نصف فم المساعد، صرخ «سادلر» بيأس:

ـ سأعطيك السيف، سأعطيك السيف.

جَمدَ الجميع، ونظر المرقع إلى سيده بانتظار أوامره، وبإشارة من يد أرحمة، فك أحدهم وثاق «سادلر» وقام بصعوبة على قدميه ممسكًا بسارية السفينة حتى لا يقع، ونزل إلى قمرته في الأسفل، ثم قلب سريره وأخرج السيف الملفوف بقطعة قماش بالية وسلمه لأرحمة.

أخذ أرحمة السيف، وأخرجه من غمده، ولمس نصله اللامع، وتأمل النقوش التي رسمت عليه، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم أمر رجاله بفك وثاق الجميع وترك السفينة «ثيتس» لبحارتها.

التفت أرحمة إلى رجاله وسألهم عن ابنه بِشر، لم يجب أحد، وعندما رفع صوته غاضبًا طالبًا منهم البحث عنه، ردّ ضرار بأنه أسفل السفينة يعتني بأحد البحّارة الذي قطعت قدمه من الغرغرينة.

ـ ماذا؟ هو جالس في أسفل السفينة ونحن نحارب؟

رد ضرار محاولًا تهدئة سيده:

ـ إن ما يقوم به شيء جميل يا سيدي، فالرجل المصاب لا يستطيع الحركة دون مساعدة، وبِشر لا يستطيع أن يتركه بحكم العلاقة بينهما.

رد أرحمة بشكل يائس:

ـ أوووووف! لا أعلم كيف سيقود سفني ورجالي بعد وفاتي، أنا أعلم أن قلبه رقيق، ولكن ليس لهذه الدرجة.

وما هي سوى لحظات حتى فُكت الخطافات التي كانت تربط السفينة «ثيتس» ببقية السفن، ونشرت الأشرعة، فانفصلت السفن بعضها عن بعض بهدوء، وغادرت سفن أرحمة تجاه الشرق بسرعة.

كان الجميع يراقبون سفن أرحمة وهي تغادر غير مصدقين أنهم نجوا بجلدهم من أشهر قرصان عرفته المنطقة، وفجأة ودون مقدمات لَكَم قبطان السفينة «سادلر» بقوة على وجهه لكمة أفقدته توازنه وسقط على سطح السفينة.

لم يستطع «سادلر» القيام بسرعة، فقد أنهكه العطش والتعب، ولكنه نظر إلى القبطان محاولًا الاستفسار عن سبب هذه اللّكمة العنيفة.

ـ أيها الأحمق، كيف تخفي السيف وتحتفظ بالصندوق؟ لقد كدت تهلكنا.

ـ إنني بحاجة إلى الصندوق، وكيف أسلم السيف لصاحبه دون الصندوق؟

رد القبطان الذي بدا عليه الاستياء والحنق:

ـ اذهب إلى الجحيم أنت وهذا السيف اللعين.

احتاج رجال السفينة «ثيتس» إلى بعض الوقت حتى يتمالكوا أنفسهم، ويتفقدوا مساعد القبطان الذي ما زال يصرخ وهم يحاولون فك العقد التي كانت تربط شفتيه، وبعد مرور عدة ساعات كان الرجال على استعداد للتحرك إلى مسقط.

أما «سادلر» فقد كان يقف في مقدمة السفينة متأملًا البحر واضعًا يده على مكان الكدمة التي أحدثتها ضربة القبطان، وهو يقول لنفسه: لقد انتهيت.

## الفصل التاسع

**ميناء مسقط، الجزيرة العربية**

وصلت السفينة «إيدن» إلى ساحل عمان يقودها القبطان «لوخ»، وما إن رست في ميناء مسقط حتى دوَّت أصوات مدافع السلطان من القلعة بثلاث عشرة طلقة تحية لها، وردّت السفينة التحية بعدد الطلقات نفسه، وبعد أن ألقت مرساتها وصل إليها زورق صغير يرفع علم السلطان، ويلبس المجدفون فيه لباسًا موحدًا، ويقف في مؤخرته رجل بدين، صرخ الرجل البدين بأعلى صوته بعد أن شاهد القبطان «لوخ» يطلُّ عليه من أعلى السفينة:

ـ أيها القبطان، يرحب بك السلطان في مسقط، وسيستقبلك جلالته في قصره غدًا ظهرًا، ولديَّ بعض الهدايا التي يجب أن تتسلمها.

أنزل بحارة السفينة سلَّة إلى الزورق الصغير وُضعت بها الهدايا السلطانية، ثم غادر المركب بكل هدوء على ضربات المجاديف المتناغمة التي تَنمُّ عن أن أصحابها قد حصلوا على تدريب بحري راقٍ ولديهم روح انضباطية عالية.

أخذ البحارة كل الهدايا السلطانية لجناح القبطان حتى يراها ويقرر كيفية التصرف فيها، لم تستطع زوجته «جسي» الانتظار لحين قدوم زوجها لتفقدها،

فقامت بفتح الهدايا، ثم عزلت ما رأت أنه يصلح لها، خصوصًا الأحجار الكريمة والعطور الشرقية، ثم تأملت خنجرًا صغيرًا من النوع الذي يربطه أبناء المنطقة على وسطهم، كان فِضِّيَّ اللون بمقبض عاجيٍّ، بهرتها النقوش التي رُسمت عليه، فأخفته في مكان خاصٍّ في غرفتها حتى لا يراه أحد، وانتظرت عودة زوجها.

تأمل القبطان «لوخ» صفحة الماء بعد ذهاب الزورق، فوجدها زرقاء نقية، حتى إنه استطاع مشاهدة قاع البحر، مع أن سفينته كانت ترسو في ماء عمقه سبعة أمتار، ولشدة دهشته فقد شاهد كميات هائلة من الأسماك، وخصوصًا تلك الصغيرة منها التي تسير على شكل قطعان هائلة حتى يُخيَّل للمشاهد أنها حيتان صغيرة.

مع صباح اليوم التالي نزل الكابتن «لوخ» إلى الميناء برفقة العقيد «جون» فقط، لم ينمْ ليلتها نظرًا لحرارة الجو ورطوبته، فميناء مسقط على شكل حدوة الحصان، تحُدُّه من ثلاثة جوانب جبال صخرية سوداء تمتص أشعة الشمس نهارًا ثم تُشِعُّها ليلًا، فيشعر المرء وكأنه في فرن يُطبخ على درجة حرارة هادئة.

استقبل وكيل شركة الهند الشرقية في مسقط القبطان ومرافقيه، لقد كان تاجرًا هنديًّا حسن اللباس يدعى «غولاب»، من الواضح أن استقبال القبطان «لوخ» كان مناسبة سارَّة؛ لأن «غولاب» ارتدى أفضل ما لديه، فقد لبس رداءً ذهبيَّ اللون يصل إلى منتصف ساقيه، وبنطالًا قطنيًّا واسعًا مغلقًا عند الكعبين، ونعلين مصبوغين باللون الأحمر مع نقش ذهبيٍّ يزينهما من أعلى القدم حتى طرفيهما المعوجَّين والمتجهين إلى أعلى. أما عمامته فقد كانت صفراء اللون، مع طرف ظاهر منها مفتوح، كأنه مروحة صينية كتلك التي تحملها النساء بأيديهن.

ركع «غولاب» عند مشاهدته القبطان «لوخ» ضامًّا كفَّيه ومقربهما من وجهه، ثم تناول يد القبطان وصافحها بكل وُدٍّ.

بدأ يتحدث مع القبطان باللغة الإنجليزية وبلكنة هندية واضحة، قائلًا:

ـ سيدي، إنه لمن دواعي سروري أن أراك هنا في مسقط، لقد طلب مني السير «نيش» ممثل صاحب الجلالة في مسقط أن أنتظركم في الميناء؛ فهو يعتذر بسبب مرض ألمَّ به مؤخرًا، وسيراكم حالما تتحسن صحته، وبما أن الوضع كذلك فإنني سأكون مرافقكم وخادمًا لكم، إن السلطان ينتظرنا، فأرجو ألّا نتأخر على جلالته.

سار الموكب من الميناء مارًّا بمجموعة من الحوانيت التي تطِلُّ على البحر والتي يباع فيها التمر والعنبر والبهارات والخناجر والتبغ والعاج وجلود الحيوانات الإفريقية والسمك المجفف، وغيرها من البضائع، نساء ورجال بأشكال مختلفة وأزياء ملونة، اقترب «لوخ» من «غولاب» وسأله عن المكان، فقال:

ـ إن هذه هي السوق الرئيسة في المدينة، وهي تقع ما بين جدار قلعة السلطان وساحل البحر.

عندها مرت مجموعة من الرجال العراة الذين تسترهم قطعة قماش لُفَّتْ على وسَطهم وتصل لركبهم، ولهم شعور طويلة مجدولة تصل إلى أكتافهم، أما عيونهم فقد كانت سوداء واسعة مصبوغة بالكحل، ويحملون سيوفهم في جرب معلقة على أكتافهم، وبأيديهم دروع من خشب مزينة بمسامير كبيرة من الحديد، وهم جميعًا حفاة ولا يُبالون على ماذا يسيرون.

شاهد «غولاب» نظرة التعجب في عيون القبطان، فبادر بالقول:

ـ سيدي، إن هؤلاء من بدو الداخل، وهم أُمِّيُّون متخلفون لا يعرفون شيئًا، وهم في مسقط غرباء مثل غربتك أنت، وهم يعيشون منعزلين ومقطوعين عن العالم، إلا أنهم يُضْطَرُّون للمجيء للعاصمة لشراء ضرورياتهم، وهم

لا يعرفون العملة، بل يبادلون منتجاتهم بما يرغبون في شرائه، ولا يثقون بالغريب، ولذلك تراهم يمشون في مجموعات، لا تخف منهم، فهم يعرفون أنهم في مدينة السلطان، وهم وديعون حاليًا ولا يهددون أحدًا.

سار الموكب حتى وصل إلى سوق العبيد التي هي عبارة عن ساحة صغيرة غُطيت بحصير لتقي البضاعة المعروضة من حرارة الشمس، ولم تكن تلك البضائع سوى أناس أُحضروا من سواحل إفريقيا، وخصوصًا من زنجبار وموزمبيق، نساء وأطفال وشباب يُعرضون كما تعرض أي بضاعة أخرى، وشاهد «لوخ» بعض التجار وهم يفتحون أفواه بعضهم للتأكد من سلامة أسنانهم، والبعض الآخر كان يتلمس أجساد الرجال ليتأكد من صلاحيتهم للعمل الشاق.

عرف «لوخ» أنه في سوق العبيد، فلم يسأل «غولاب» الذي كان يتصبب عرقًا في لباسه، وكان يسرع الخُطى ليصل إلى قصر السلطان قبل أن تقتله حرارة الجوّ.

بدأت الأرض تتجه إلى الارتفاع قليلًا، ومر الموكب بمنطقة أنظف وأفضل ترتيبًا، زُرعت على جوانب الطريق بعض الأشجار التي كانت تظلل المشاة، أما الناس فقد تغير لباسهم وسحنتهم، فالناس هنا أجمل منظرًا وأبهى حلة، أجسام قصيرة القامة بأنوف حادة، يلبسون قماشًا قطنيًّا أبيض، وعمائم ملونة، وعلى وسَطهم خناجر ذهبية اللون أو فضية.

التفت «غولاب» إلى «لوخ»، وقال نحن في منطقة التجار، وهؤلاء هم أهل مسقط وسكانها الأصليون، لم يُعِرْ هؤلاء موكب القبطان «لوخ» اهتمامًا كثيرًا، فقد كانوا يرمقونهم بنظرة ثم يبتعدون عنهم بنوع من الاشمئزاز، لاحظ «غولاب» ذلك، والتفت إلى «لوخ» قائلًا:

- إنهم شعب فخور بنفسه يا سيدي، ينظرون إليكم على أنكم مجرمون قتلة، كما تنظرون إليهم أنتم.

ولمعت أسنان «غولاب» بابتسامة خبيثة.

وصل الركب إلى باب قصر السلطان، وحين شاهدهم الحرس أوقفوهم وطلبوا منهم الجلوس لحين إبلاغ الوزير، لم يَطُل مكوثهم حتى جاء أحد الموظفين راكضًا وقد تصبب عرقًا، وطلب منهم مرافقتهم للوزير.

استقبل الوزير الضيوف بابتسامة مفتعلة لم تعجب القبطان «لوخ»، وصافحهم جميعًا حتى تأكد من شخصياتهم، ثم طلب منهم أن يرافقوه إلى حيث يجلس السلطان.

كانت القاعة التي يجلس فيها السلطان واسعة جيدة التهوية تطِلُّ على الميناء بشكل كامل، بحيث إن الجالس في هذه القاعة يستطيع أن يشاهد كل سفينة مغادرة أو داخلة إليه، فُرشت أرضية القاعة بسجاد أعجمي ثمين، وصُفَّت بعض الكراسي حول كرسي السلطان ليجلس عليها ضيوفه، وكان الهواء المقبل من البحر يحرك ستائر القاعة التي كانت بالنسبة إلى «لوخ» ومرافقيه مكانًا رائعًا.

وقف السلطان حين شاهدهم، وصافحهم فردًا فردًا، ثم طلب منهم الجلوس، نظر «لوخ» إلى السلطان الشاب، الذي يلبس ملابس قطنية خفيفة وعمامة بيضاء دون أي رسومات أو نقوش أو جواهر، يزين إصبعه خاتَم به جوهرة كبيرة، وينتعل صندلًا جلديًّا خفيفًا.

لم ينتظر السلطان كثيرًا حتى أمر بإحضار الـ«شربت» والشاي وسلال الفواكه والحلوى، وطلب من ضيوفه الأكل بابتسامة رقيقة.

لم يأكل السلطان مع ضيوفه، بل كان يراقبهم وهم يستمتعون بطعامهم وشرابهم، وكان ينصح البعض منهم بتجربة نوع معين من التمور أو الفاكهة، حتى توقف الجميع عن الأكل، ثم اتجهت الأنظار للقبطان للبدء في الحديث.

ـ سيدي السلطان، إن المهمة التي أُسندت إليَّ هي مقاتلة القراصنة في هذه المنطقة من العالم، وقد سلمتني قيادة القوات البحرية في بلدي أمرًا بالتعاون مع جلالتكم للقضاء على القراصنة الذين يهددون مصالحنا ومصالحكم، وإن أول مهمة قتالية أُوكِلَتْ إليَّ هي أن أنضم للحلف العسكري الذي ستقودونه لإلقاء القبض على القائد الوهابي إبراهيم بن عفيصان في البحرين، وإعادة الجزيرة إلى سلطة أصحابها آل خليفة، وكما علمت أيضًا بأن هناك قوات سيرسلها الشاه من ميناء «أبو شهر» أيضًا، على العموم سنقوم بالتنسيق فيما بين قواتنا لوضع مخطط واضح لهذه العملية.

كان السلطان يبتسم وهو يستمع لشرح القبطان «لوخ»، ثم أحال موضوع العملية العسكرية بِرُمَّتِه إلى وزيره الذي قرر أن يجتمع مع القبطان وقادته بعد يومين، حين يرتاحون بعد عناء السفر الطويل. ما إن غادر الضيوف قصر السلطان حتى وجدوا ثُلَّة من الحرس السلطاني تنتظرهم أمام البوابة الخارجية، مشى الحرس السلطاني في صفين منضبطين على يمين وشمال الموكب حاملين رماحًا طويلة على أطرافها علم يحمل شعار السلطان، ويلبسون نُطُقًا من الجلد المزين بنقش فِضِّيٍّ يضعون عليه خنجرًا يحمل الشعار السلطاني أيضًا، وعلى رؤوسهم عمائم زرقاء جميلة ذات شكل واحد، وكانوا يسيرون بخطوات عسكرية تزيد، وإن تنقص فعلى حسب سير الضيوف، وفي الطريق سأل «لوخ» عن القصد من ذلك، فكان رد «غولاب» أن هذا تقليد متبع من قِبَل السلطان لضيوفه المهمِّين حتى يعرف الناس أنكم ضيوف له، فلا يتعرض لكم أحد بأي أذًى.

ما إن وصلوا إلى الميناء مرة أخرى حتى جاء صبي يعمل مع «غولاب»، وبيده ورقة صغيرة مختومة، وسلمها لسيده الذي سلمها بدوره للقبطان «لوخ».

فَضَّ القبطان الختم وقرأ فحوى الرسالة، فقد كانت من السير «إيفان نيفيان بارت» حاكم بومبي، ونصُّها:

«أتمنى أن تكون رحلتك من بلادنا إلى مسقط ممتعة، سيصل الكابتن «سادلر» على متن السفينة «ثيتس» من الهند، عليك اتباع التعليمات في الرسالة التي سيسلمك إيَّاها، حظًّا موفقًا.

التوقيع

السير «إيفان نيفيان بارت» حاكم بومبي»

وفي السفينة استدعت «جسي» العقيد «دنكن» إلى غرفتها، وعندما وصل مترددًا، سلمته الخنجر العاجي كبادرة لصداقة طويلة بينهما، وطلبت منه أن يُبقي موضوع الهدية سرًّا وألَّا يخبر أحدًا بها، ثم قالت له:

- إنني سأبقى في مسقط لحين انتهاء زوجي من مهمته الطويلة، لا تنسَ أن تمر لشرب الشاي حين تكون في الميناء.

ابتسم العقيد «دنكن» وقبّل يدها:

- ليس من اللائق أن يرد شخص مثلي طلب سيدة جميلة مثلك، بالطبع سأفعل يا سيدتي.

## الفصل العاشر

**ميناء مسقط، عمان**

بعد أيام قليلة دخلت السفينة «ثيتس» ميناء مسقط بهدوء، فهي لم تكن تحمل العلم البريطاني لتعامل على أساس أنها في زيارة رسمية، أنزلت أشرعتها، وألقت مرساتها، لم ينسَ «سادلر» مجموعة الرسائل التي سلمها له الحاكم في بومبي، رافقه قبطان السفينة والمساعد إلى زورق صغير أوصلهم إلى الرصيف.

كان الجميع متجهمًا وواجمًا، فالقبطان كان يتصبب عرقًا خوفًا من أن يُحاسب على توقفه للقرصان أرحمة مع أنه شاهد أعلامه ترفرف على سواري سفنه، ولماذا لم يقاوم مثل زملائه في البحرية الملكية الذين تعودوا عدم الاستسلام بسهولة، وما الذي جعله يطيع هذا الشاب الأحمق المدعو «سادلر»، أسئلة كانت تدور بخلده لا يملك لها إجابات.

أما «سادلر» فكان يلعن كل شيء؛ لأن المعلومات التي حصل عليها من الحاكم لم تكن صحيحة، وخصوصًا حديثه عن إرغام أرحمة على التوقيع على اتفاقية لوقف أعمال القرصنة في الخليج، وهل وقع أرحمة الاتفاقية

ثم نكث بها؟ هل رفض توقيع الاتفاقية أصلًا؟ ما الذي يحصل؟ ولكن أسوأ ما في الأمر هو فقدان السيف الثمين الذي هو مفتاح مهمته، تبًّا، إن الأمور لا تسير كما ينبغي وهي ما زالت في بدايتها.

أما مساعد القبطان، فقد كان متلثمًا بقطعة قماش أضحت حمراء من الدماء التي سالت من جرحه، فهو لا يستطيع أن يشرب الماء أو يأكل بسهولة بسبب الألم الذي يسببه الجرح وتجلط الدم على شفتيه.

سار الموكب البائس إلى مقر ممثل الحكومة البريطانية في مسقط، فقد كان قبطان السفينة «ثيتس» يعرف الرجل، ويعرف أنه لئيم لن يستطيع إخفاء سرٍّ عن مساعديه الذين سينقلون تفاصيل الأحداث بِرُمَّتِها إلى بحّارتهم، وما هي سوى أسابيع حتى تصل تفاصيل الأخبار إلى موانئ الجنوب البريطاني.

ما إن دخلوا على السير «نيش» الذي كان مستمتعًا بارتشاف كأس من الـ«شربت» العماني، وعلى رأسه وقف شاب هندي يحرك مروحة لطرد الذباب عنه ولتحريك الهواء، حتى جَمدَ في مكانه بضع لحظات، ثم سارع بالقيام من مكتبه لمصافحة الضيوف الذين نسوا الابتسام منذ أكثر من عشرة أيام.

أجلسهم وأمر بإحضار الشراب لهم، ثم التفت إلى القبطان الذي كان يعرفه منذ فترة ليسأله عن الذي حصل.

أجاب القبطان وهو ينظر إلى الفضاء عارفًا بالصدمة التي سيحدثها بكلامه:

ـ لقد فقدنا السيف!

رد «نيش» بابتسامة مصطنعة:

ـ لا بد أنك تمزح يا عزيزي!

ـ إنها الحقيقة، ويجب أن نقوم بأي شيء لإعادته، إن مهمة السيد «سادلر» متوقفة على إيجاد هذا السيف اللعين، وأرى أننا يجب أن نقابل السلطان لنشرح له الموقف.

رد «نيش»:

ـ حسنًا، أعتقد أن الموضوع يجب أن يعالج بحكمة وبسرية. سأدعو القبطان «لوخ» ليحضر فهو جزء من المهمة، وأعتقد أنه يجب أنه يعيد حساباته في حال ضياع السيف، اذهبوا الآن، واستريحوا، وسأنتظركم غدًا صباحًا في تمام الساعة التاسعة حتى نجتمع في منزلي، فهو أكثر خصوصية.

رفع «سادلر» يده وكأنه يستأذن في قول شيء مهم:

ـ سيدي، إن لديَّ رسائل أريد أن أسلمك إياها، وأرجو أن تقوم سيادتك بتوزيعها، الرسالة الأولى، (ثم رماها على المكتب.) هي لك من الحاكم البريطاني في بومبي، والثانية للقبطان «لوخ» أرجو أن تسلمها أيضًا بدورك له، ولديَّ رسائل أخرى سأقوم بتسليمها لأصحابها.

استغرب السير «نيش» من اللثام الذي يضعه مساعد القبطان على وجهه، وخصوصًا أنه شاهد بقع الدم عند الفم، فأشار بيده إلى المساعد قائلًا:

ـ ما الذي حصل للسيد هنا؟

ـ لقد حاول أرحمة بن جابر خياطة فمه حين سطا على سفينتنا حتى نعترف بوجود السيف معنا.

قال القبطان، ثم أضاف بعد أن التفت إلى «سادلر»:

ـ إن هذا الأحمق أخفى السيف تحت فراشه، ووضع الصندوق أسفل الفراش، وحين قرأ أرحمة ما كان مكتوبًا على الصندوق عرف أن السيف معنا.

لم يتحمل «سادلر» النقد اللاذع الذي وجهه إليه القبطان فرد بصوت عالٍ:

ـ لم أشاهد قبطانًا أكثر حماقة منك، فأنت الذي لم تكن مستعدًّا لأي شيء، حتى بحّارتك لم يكونوا سوى مجموعة من الأغبياء.

تدخل السير «نيش» طالبًا من الجميع الهدوء والذهاب للراحة على أن يلتقوا في اليوم التالي لمناقشة الوضع برُمته.

في اليوم التالي، وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا، كان القبطان «لوخ» الذي لا يعلم شيئًا مما حصل يصافح كلًّا من قبطان السفينة «ثيتس» ومساعده الذي ما زال يلف النصف الأسفل من وجهه بقماش أبيض، و«سادلر» الذي لم ينم ليلتها فبدأت تظهر على عينيه دوائر سوداء من التعب والتفكير في المصيبة التي وقعوا فيها.

بدأ «نيش» الحديث بقوله:

ـ إنني يجب أن أعرفكم بعضكم إلى بعض قبل الحديث عن أي شيء آخر، لقد قرأت رسالة الحاكم البريطاني في بومبي الموجهة إليّ، (ثم أشار إلى «لوخ».) إن القبطان «لوخ» جاء من بريطانيا في مهمة واحدة، هي محاربة القراصنة في منطقة الخليج، وعليه واجب آخر هو تسهيل مهمة «سادلر» في الوصول إلى إبراهيم باشا برًّا ابتداء من ساحل الأحساء، وخلال الفترة من مغادرة «سادلر» السفينة «إيدن» على ساحل الأحساء حتى عودته إلى مسقط مرة أخرى، تكون مهمة «لوخ» مساندته في تنفيذ أي اتفاق يقوم به مع إبراهيم باشا وسلطان مسقط لضرب القراصنة وتحجيم عملياتهم.

ثم التفت «نيش» إلى «سادلر»، وقال:

ـ إن مهمة هذا الشاب تقوم على إقناع إبراهيم باشا بالدخول في حلف مع سلطان عمان لضرب القراصنة، وكان مفتاحه في ذلك سيفًا ثمينًا مُطَعَّمًا بالجواهر سيسلمه لإبراهيم باشا هدية من الحاكم البريطاني في بومبي كبادرة حسن نية وإغراء بالكثير من الهدايا المماثلة القادمة؛ لأننا لو أقنعنا هذا الوغد في الدخول في الحلف فإنه سيتحرك بجيشه من الدرعية إلى الأحساء، ويضم القوات التركية الموجودة هناك إلى جيشه، ومن ثَمَّ يزحف على رأس الخيمة حيث سيلتقي جيش السلطان الزاحف من الجنوب ليشكلا جيشًا كبيرًا لم تشهده منطقة الخليج من قبل وستكون نهاية القراصنة وقراهم ومخابئهم التي ستحرق وستدمر على بكرة أبيها.

بانت على وجهه أمارات اليأس قبل أن يكمل حديثه:

ـ إن هذا المخطط الجهنمي لم يكتمل أيها السادة، فبضياع السيف فقدنا المفتاح الذي نستطيع به أن نحرك جيش إبراهيم باشا، ويجب علينا أن نجد هذا السيف بأي ثمن يا سادة!

تساءل «لوخ»:

ـ وكيف فقدتم السيف؟

أجاب قبطان السفينة «ثيتس» مختصرًا:

ـ لقد سطا القرصان أرحمة بن جابر على السفينة، وأخذ السيف واختفى بعد أن خاط شفتَيْ مساعدي.

انتظر الجميع تعليقًا للقبطان «لوخ»، وعندما طال الانتظار التفت السير «نيش» إلى القبطان «لوخ»، ورمى له الرسالة التي كانت باسمه والتي سلمها له «سادلر» يوم وصوله:

ـ أيها القبطان، اقرأ رسالتك الآن، وإن كانت سريّة فأبقها كذلك، وإن كان هناك حاجة إلى أن نعلم محتواها، فليكن الآن.

فتح «لوخ» رسالته، وقرأها بعناية، كانت أنظار بقية الحاضرين تتابع تعبيرات وجهه بانتظار أن يقول شيئًا، وبعد أن قرأ الرسالة كلها، أبقاها مفتوحة، ونظر إلى «نيش»، وقال بصوت خافت:

ـ سيدي، لقد طُلب مني أن أذهب إلى البحرين حاملًا جنود سلطان مسقط، وأن أرسل سفنًا أخرى لحمل جنود الشاه، ثم تجتمع كل هذه السفن تحت قيادتي في المحرق، وبعدها يجب عليّ إرسال تهديد للقائد الوهابي إبراهيم بن عفيصان لتسليم نفسه لنا حتى ننقله مخفورًا إلى «أبو شهر» مع جيش الشاه، ومن هناك سيتم نفيه إلى داخل عمق بلاد فارس حتى ينتهي.

ثم أكمل حديثه بعد توقف قصير:

ـ أما المهمة التالية فهي تنفيذ الاتفاق الذي سيعقده «سادلر» مع إبراهيم باشا والذي نتوقع أن يكون كما جاء في رسالة الحاكم الموجهة إليك التي تحدثت عنها منذ دقائق.

ـ يجب علينا أيضًا أن نرسل رسائل شهرية للحاكم في بومبي لنطلعه على كل المستجدات التي تحصل، وسأكون القائد الفعلي للقوات البريطانية في الخليج خلال هذه المرحلة وحتى إشعار آخر.

ثم ركز بصره على ممثل صاحب الجلالة في مسقط قائلًا:

ـ سيد «نيش»، إن كل هذا يجب أن يتغير الآن، ويجب أن تنصبَّ جهودنا في إيجاد السيف اللعين هذا، حتى نستطيع أن ننفذ الخطة المرسومة لنا.

لم يعرف «نيش» ما الذي يجب فعله أو قوله في تلك اللحظة.

ـ حسنًا، أيها القبطان، لقد عرفت بتفاصيل المخطط، وأنت القائد العسكري هنا، فما الذي تراه؟

نظر «لوخ» إلى الطاولة، وكأنه ينظر إلى المجهول، ثم رفع بصره فجأة إلى «نيش»:

ـ يجب أن تقنع السلطان بأن يرسل معنا قواته للبحث عن السيف الذي أخذه أرحمة بن جابر بأي وسيلة كانت.

أمسك «نيش» بلحيته بهدوء، وهي عادته عندما يفكر أو عندما يريد أن يقول شيئًا مهمًّا، ثم نظر إلى الجميع قبل أن يفتح فمه:

ـ إن لي سنواتٍ طوالًا منذ أن قدمت إلى هذه البلاد، وأنا أتابع أرحمة ونشاطه في المنطقة، وأستطيع أن أقول جازمًا إن مخبأ أرحمة لن يكون خارج ثلاث مناطق هي: شمال قطر أو رأس الخيمة أو قلعته في الدمام، مع أنه يتنقل في المواني كلها مختفيًا أو غازيًا أو مُتَمَوِّنًا.

فرح «لوخ» بهذا التقرير، وأسرع في الرد قائلًا:

ـ سنبدأ بغزو رأس الخيمة، فهي الأقرب، وسنحقق مع الناس هناك لنعرف أين يختبئ هذا القرصان، وبعدها سنمسح المناطق التي ذكرتها حتى نجد الرجل ونخيط فمه، ونأخذ السيف منه، ثم ننفذ مخططنا، فهذا المجرم لن يهرب منا.

ثم تابع القبطان موجهًا كلامه لـ«نيش»:

ـ ستتوجه غدًا لمقابلة السلطان، وإعلامي متى سيكون مستعدًّا لإرسال جيشه لرأس الخيمة، اطلب منه أن يرسل جزءًا من الجيش ليعسكر في الجبال الصخرية السوداء التي تمتد بين عمان ورأس الخيمة، على أن يبقى

هذا الجيش معسكرًا على امتداد الطرق الرئيسة ليمنع القراصنة من الهروب إلى الداخل العماني في حال أن شعروا بالخطر من البحر.

أما الجزء الثاني فسينتقل في سفنه تحت قيادتي إلى هناك وسينزل بحرًا لمهاجمة القرى والمخابئ التي قد تكون ملاذًا لأرحمة بن جابر وأعوانه.

سأكون بانتظار موافقة السلطان على هذه الخطة، وسنتحرك حال استعداد جيشه.

أما بالنسبة إليك يا «سادلر»، فستكون معنا حتى تتعرف على هذا السيف وتتعرف على هذا القرصان الذي أخذه منك، وفي حال حصولنا عليه، سأوصلك بأسرع وقت ممكن إلى ساحل الأحساء لتكمل مهمتك.

رد السيد «نيش» بهدوء:

ـ أيها القبطان، أحيِّيك على سرعة وضع خططك، ولكن دعني أذكرك أن خطة إزاحة ابن عفيصان من البحرين تأتي في أولوية اهتمامات السلطان، وقد تم وضعها منذ فترة طويلة بالتنسيق مع حاكم شيراز، إننا لا نستطيع تغييرها الآن، وهي ليست مرتبطة بأرحمة ولا بالسيف المفقود، دعنا ننفذ مخطط البحرين وبعدها نلتفت لأرحمة.

# الفصل الحادي عشر

**ميناء المحرق، جزيرة البحرين**

كان الشيخ سلمان ابن أخي حاكم البحرين في مجلسه في المحرق يشرب القهوة، وقد بدا مسرورًا ذلك اليوم، بعد أن اجتمع حوله الكثير من الناس للتهنئة، ولم يكن مجلس الأمير الخاص يتسع لكل المهنئين، ففرش السجاد في الساحات الخارجية للقصر، ووزع الـ«شربت» والتمور، وذبحت الذبائح لإطعام الحضور، فكانت رائحة شواء اللحم تجذب كل من كان قريبًا من القصر.

ظهر شاب حافي القدمين يركض من جهة الميناء ممسكًا بغطاء رأسه بيده حتى لا يقع، ورافعًا طرف ثوبه بيده الأخرى، لم يكترث لتعليمات الناس بوجوب التأني حتى لا يصطدم بالمهنئين أو حتى أولئك الذين حاولوا الإمساك به لظنهم أنه مخبول لا يعي ما يفعل، وعندما دخل الساحة التي أمام مجلس الأمير تمكن بعض الخدم من الإمساك به.

وبصوت يلهث وعرق يتصبب، فهموا منه أن شيئًا مهمًّا قد حصل، وأنه يجب أن يقابل الأمير لأمر مهم.

ما إن وقف الشاب أمام الأمير حتى بدأ يتحدث قاطعًا تسلسل الحديث بصوت شهيقه القوي:

ـ أيها الأمير، هناك سبع سفن بريطانية أمام ميناء المحرق، مدافعها مشرعة، وأعتقد أنهم مستعدون للقتال.

ـ هل أنت متأكد مما تقول؟

ـ طبعًا، لقد أتيت لتَوِّي، ولو جئت معي وشاهدت هذه السفن ستصدق ما أقول.

خرج الأمير يتبعه كل من كان في المجلس، فتشكل منهم خطٌّ طويل ممتد من قصر الأمير إلى الميناء، وما إن وصل حتى طلب منظارًا مقربًا، نظر إلى السفن وتغيّر لون وجهه، ثم التفت إلى أعوانه وطلب منهم تفريق الناس والابتعاد قدر الإمكان عن الميناء، ثم نزل في زورق صغير كان واقفًا هناك، وطلب من بعض المقربين النزول معه.

تحرك الزورق الصغير تجاه السفن التي بان بحّارتها وقد أشرعوا أسلحتهم ووجهوها إلى ركاب الزورق، حينها طلب الأمير من أحد خدمه الذي كان يلبس عمامة بيضاء أن يخلعها ويرفعها على طرف المجداف.

وصل الزورق الصغير إلى أقرب سفينة وحاول الاقتراب منها، ولكن أحد ضباطها أشار إليه للتوجه إلى السفينة «إيدن».

كان القبطان «لوخ» بانتظار ركاب الزورق الصغير، فأنزل لهم السلم الذي صعدوا عليه ليصلوا إلى سطح السفينة، صافح القبطان الأمير الذي عرَّف بنفسه، ثم طلب منه التوجه إلى جناحه الخاص في السفينة.

سأل الأميرُ والاستغراب بادٍ على مُحَيَّاه:

ـ ما الذي تريده منا أيها القبطان؟

ـ أنا هنا لإلقاء القبض على عدوك وعدوي أيها الأمير، أريد إبراهيم بن عفيصان حيًّا أو ميتًا، مع أني أريد أن أراه حيًّا حتى أستمتع بتحطيم صلابته التي طالما سمعت عنها.

قال الأمير مبتسمًا:

ـ لكنه لم يَعُد في البحرين أيها القبطان، لقد هرب فجأة، ونحن الآن نحتفل بعودة البحرين لنا، نحن آل خليفة.

ـ كيف حدث هذا؟

ـ لا نعلم، ولكن كان إبراهيم بن عفيصان يقود كتيبته من مجلسه الذي لا يبعد كثيرًا عن قصري، وكان يتحكم في البحرين بحكم القوة التي يقودها والتي تأتمر بأمره، ويأتيها المدد من الأحساء من حين إلى آخر، لقد ترك بعض أعمامي الجزيرة غضبًا بعد أن شعروا أن السلطة لم تعد بيدهم، وأن إبراهيم بن عفيصان أصبح هو الآمر الناهي في الجزيرة التي حررها جدي من الفرس وبذل في سبيل ذلك الكثير من الدماء.

لقد كان من ضمن الطقوس التي ابتدعها ابن عفيصان أن جعلني أحضر إلى مجلسه لتناول القهوة في الصباح، والقصد من ذلك هو التأكد من أني لا أقوم بعمل قد يُقَوِّض سلطته، مع أنه كان يقول لي: إنه يستمتع بشرب القهوة معي.

أمس بالذات ذهبت إلى مجلسه، ولم أشاهد أحدًا، كان المجلس خاليًا إلا من عبد كبير في السن كان يخدمه طوال فترة وجوده في الجزيرة، اسمه ياقوت، وعندما سألت ياقوتًا عن السبب وراء ذلك، أجابني والدموع تنهمر

من عينيه، بأن ابن عفيصان قد غادر في زورق تلك الليلة بعد أن أرسل رجاله إلى الأحساء بشكل سريّ قبل مغادرته ببضع ساعات مخافة أن يكتشفهم الجيش التركي المرابط هناك.

لم أصدق ما سمعت، فأمرت رجالي بربط ياقوت، وضربته بالعصا حتى أتأكد من أقواله، فلم يزد على ما قال حتى والدماء تَنِزُّ من جروحه.

أرسلت رجالي للتأكد من أقواله، والجميع عاد إليَّ بالنتيجة نفسها، لم يعد ابن عفيصان ولا رجاله في البحرين، ونحن نحتفل بتخلصنا منهم اليوم.

حك القبطان «لوخ» ذقنه، وبدا متوترًا، بعكس الأمير الذي بدا سعيدًا، ثم سأل بصوت عالٍ:

ـ وما الذي جعله يهرب؟ وكيف عرف بقدومنا؟ إن هروبه من قبضتنا ليس بالأمر الذي يدعو للبهجة.

كان القبطان «لوخ» يتمتم بصوت شبه مسموع، وهو يمشي حول المكان، ولم يفهم الأمير شيئًا من كل ذلك، بل بدا أن فرحته لم تكتمل، وخصوصًا أن الأمر بِرُمَّتِه بدا غير مفهوم.

قال القبطان:

ـ حسنًا أيها الأمير، تستطيع أن تغادر أنت ورجالك السفينة وتعودون للبر، أما بالنسبة إلينا فإننا سنغادر على وجه السرعة، ولكننا نريد ماء لرحلة العودة في هذا الجو الخانق.

استدعى الأمير أحد بحّارته وطلب منه إحضار قربة الماء التي في الزورق، ثم سكب كأسًا للقبطان، وطلب منه أن يشرب ويقول رأيه في طعم الماء.

شرب القبطان كأس الماء، وكان عذبًا زلالًا له طعم جميل بعكس الماء

الذي كان يشربه منذ وصوله إلى الخليج؛ فالماء الذي يشربه سكان القرى المطلة على الساحل مالح لا يصلح حتى للطبخ، ولا يروي العطش كثيرًا، والماء العذب نادر وغالي الثمن.

رفع القبطان الكأس بعد أن شرب منها إلى مستوى عينيه بعد أن أبقى فيها بقية، وجعل ينظر إلى الأمير بإعجاب.

قال الأمير:

ـ إن كان هذا الماء يصلح لك فدعنا نحضر لك المزيد.

ثم طلب من خادمه إحضار قربة من الجلد وتعبئتها بالماء العذب، وكم كانت دهشة البحّارة حين تخلى هذا البحار عن ملابسه ثم قفز بكل سلاسة إلى البحر وغاب بضع دقائق ثم عاد حاملًا القربة وقد امتلأت ماءً.

ساعده زملاؤه على اعتلاء الزورق مرة أخرى وأخذوا منه القربة وسلموها للأمير الذي سكب كأسًا أخرى للقبطان لتذوُّقه، وكم كانت دهشة القبطان كبيرة حين تذوق نفس الماء العذب.

قال الأمير حينئذ:

ـ في أسفل البحر هذا، تكثر ينابيع الماء الحلو التي تَنِزُّ من القاع، فيقوم رجالنا بالغوص مع قربهم ثم يضعون فوهة القربة على نبع الماء الذي يدفع الماء العذب إلى الأعلى بقوة، فتمتلئ القربة به، ثم يبيعونه للناس لغرض الشرب والطهي.

استغرب القبطان من هذه المسألة فلم يكن يعلم قبلها أن الماء الحلو ينبع من قاع البحر.

قال الأمير:

ـ سنُعَبِّئُ لكم من الماء ما يكفيكم للذهاب إلى مسقط، ولكننا لن نفعل ذلك مع السفن التي تحمل جنود الشاه؛ فقد قاتلنا هؤلاء منذ عدة سنوات، وليس لدينا مانع في مقاتلتهم مرة أخرى، وأنا أرجوك أن تجعل سفنهم تغادر جزيرتنا بأسرع وقت ممكن.

أمر القبطان «لوخ» السفن التي تحمل جنود الشاه بالعودة إلى «أبو شهر»، أما بالنسبة إلى سفنه فقد انتظرت لحين تعبئة خزاناتها بالماء لإصدار أمر التحرك إلى مسقط.

في طريق العودة إلى مسقط كان القبطان واقفًا على سطح السفينة برفقة «سادلر»، حين قال له وكأنه تذكر شيئًا ما:

ـ أيها الكابتن، أعتقد أن مهمتك قد تتأخر؛ فأنا ما زلت لا أفهم حتى الآن سبب مغادرة ابن عفيصان وجنده الجزيرة فجأة، فهل معنا من يتعاون مع الوهابيين وينقل لهم أسرارنا؟ إن هناك الكثير من الأسئلة التي لا أجد لها إجابات يا «سادلر»، وأنا لا أحب الأسئلة التي ليس لها إجابات.

كانت الشمس تميل نحو المغيب وسفينة القبطان «لوخ» تمر بمحاذاة شمال قطر في طريقها إلى عمان، وعلى بضعة أميال منه، كان أرحمة بن جابر يتناول القهوة برفقة صديقه ابن عفيصان على ظهر الغطروشة عارضًا عليه السيف الهندي الذي غنمه من الإنجليز.

# الفصل الثاني عشر

## شبه جزيرة قطر، الخليج

أمسك ابن عفيصان بالسيف وتأمله، وكعادة من يمسك بشيء رائع ظل يمرر أصابعه على النقوش التي تزين النصل، وكانت عبارة عن ثعبان كبير يلتف حول نفسه في قاعدة السيف، ويمد رأسه إلى الطرف حيث يفتح فمه ليخرج لسانه منتهيًا بحدّ السيف القاطع.

أما قبضة السيف فقد كانت مطعمة بخمسة أحجار كريمة باللون الأحمر من كل جهة، وحجر كريم كبير في قاعدة القبضة، والسيف صُمِّمَ ليكون خفيف الوزن قاطع الحد سهل الاستخدام.

قال ابن عفيصان ونظرته مُسَمَّرة على السيف:

ـ يا أرحمة، إن هذا السيف يساوي ثروة كبيرة، من الخطورة أن تنقله معك أينما ذهبت، فقد تفقده بطريقة أو بأخرى.

ـ أعلم ذلك يا أخي، ولكني كنت أفكر في كيفية إخفائه عن الأنظار، قد تنشب حرب بسبب هذا السيف، ولا أعتقد أنه كان في تلك السفينة الإنجليزية دون سبب، لقد وجد أحد رجالي صندوقًا خشبيًا طويل الشكل

مصقول السطح رائع الملمس، وعليه رسوم جميلة توحي بروعة ما بداخله، وقد كتب عليه أنه إهداء من حاكم بومبي إلى إبراهيم باشا، وقد أخرج أحد الضباط الإنجليز السيف منه، ولفّه في قطعة قماش رثّة ودسه في مكان آمن ونسي هذا الحمار أن يخفي الصندوق أيضًا، فإذا كان هذا السيف مرسلًا لإبراهيم باشا، فلماذا تم إخفاؤه بهذه الطريقة؟ ثم لماذا يرسل حاكم بومبي سيفًا مثل هذا له؟ إن في الأمر شيئًا يا ابن عفيصان، ولست مرتاحًا للأمر.

أخرج ابن عفيصان زفيرًا قويًّا من صدره، ونظر إلى الأفق:

ـ يا صديقي أرحمة، لقد فقدنا البحرين مؤخرًا، وإبراهيم باشا قد يحتل نجد، إن الأوضاع ليست على ما يُرام، ولم يبقَ لنا من حلفاء سوى أصدقائنا القواسم، الذين قد أنضم إليهم في حربهم ضد الكفرة.

ـ إنك إنسان متدين يا إبراهيم، وأفهم وجهة نظرك، ولكني كما تعلم لست كذلك، فأنا أبحث عن ثأري القديم.

نظر إليه إبراهيم نظرة عطف:

ـ ألم تنسَ ذلك؟ لقد مضى زمن طويل.

نفث أرحمة دخانًا من صدره وراقب تشكيله:

ـ دعني أحكِ لك قصتي التي لم تكن تعرفها يا إبراهيم.

عدّل إبراهيم من جلسته:

ـ كنت أعتقد أنني أعرف كل قصتك التي تتمحور في غضبك من آل خليفة ومطالبتك بالثأر منهم؛ لأنهم لم يعطوك الغنائم التي كنت تأملها.

ابتسم أرحمة:

- إن القصة أبعد من ذلك وأعقد، وإذا كنت تريد سماعها فدعني أحكها لك طالما نحن الاثنان أصبحنا مطارَديْن وليس لنا سوى سفننا وسيوفنا.

- كلي آذان صاغية يا صاحبي.

تنفس أرحمة بعمق، ثم مد يده إلى مقبض السيف الذي كان يجلس عليه، وبدأ في حركته المعتادة، طق، طق، طق.

أضاف هذا الصوت نوعًا من اللحن الحزين لقصة أرحمة وكأنها موسيقى تصويرية لأحداث مقبلة.

- لقد وُلدت في القرين، التي اسمها الكويت حاليًا لعائلة فقيرة معدمة، كنت أمشي حافيًا وألعب مع الأطفال عاريًا، فلم يكن لدى عائلتي ما يسد رمقها غير ما يتصدق به الناس علينا.

قرر والدي الهجرة إلى قطر، وبالذات إلى شمالها، حيث أقمنا هناك سنواتٍ طوالًا حتى خطَّ شاربي، فكنت أذهب إلى آل خليفة الذين يقيمون في شمال غربي قطر بعد أن هربوا من الاحتلال الفارسي لجزيرتهم، واستقروا هناك سنوات طويلة عملوا خلالها في التجارة والغوص، فكما تعلم هناك صلة قرابة بيني وبينهم، فنحن ننتمي إلى العتوب، وعلى هذا الأساس كنت أجد فيهم عصبتي وأهلي ومصدر رزقي.

عملت فترة من حياتي في الغوص، حيث كنا نذهب إلى مغاصات اللؤلؤ مدة أشهر نعاني الأمرّين من الحر والعطش والجوع وضربات الشمس وهجمات الأسماك، ولكني كنت مصرًّا على ألّا أمد يدي لأحد بعد أن شعرت بمرارة الطعام الذي نأكله مع الذلة، فقررت ألّا أكون ذليلًا مرة أخرى، أبدًا أبدًا.

بعد أن جمعت بعض المال من الغوص، اشتريت حصانًا أصيلًا من شيخ قطري، أعطانيه بثمن معقول بعد أن شعر بحاجتي إليه، وبعت هذا الحصان لبني عمومتي من آل خليفة، وكسبت فيه بعض المال.

كانت تلك الفترة فترة انتقال كبيرة بين الحروب التي حصلت بين القبائل والصراعات التي حدثت؛ حيث كان الناس يحافظون على أفضل الخيول والأسلحة انتظارًا وتوقعًا لمعركة قد تحدث أو صيحة حرب قد تسمع، وبين انتعاش التجارة، وخصوصًا مع قدوم الإنجليز وإنشائهم شركة الهند الشرقية التي كثرت سفنها في الخليج وبدأت تحضر البضائع الغريبة من الهند والصين، وشرائهم اللؤلؤ والخيول من هذه المنطقة.

كنت أشتري الخيول من أصحابها، وخصوصًا تلك التي لها نسل كريم، وأبيعها إلى الإنجليز الذين كانوا ينقلونها إلى الهند والبصرة لكتائبهم المقيمة هناك.

انتعشت تجارتي، أو هكذا اعتقدت.

قرر أبناء عمومتي العتوب إعلان الحرب على الفرس الذين احتلوا البحرين، فكنت معهم بسيفي، حاربت معهم وبذلت نفسي رخيصة في سبيل تحرير الجزيرة، وعندما حصل ذلك قاموا بتوزيع المزارع والبساتين على الجميع، ولم يكن نصيبي سوى بستان صغير به بضع نخلات فقط.

شعرت بالإهانة، فعدت أدراجي إلى شمال قطر بعد أن تركت إحدى عينيّ في البحر إثر ضربة خنجر أحدثها جندي فارسي في معركة تحرير البحرين، ولكنني كالعادة لم أترك ثأري منه، بل عاجلته بطعنة خنجر في رقبته استمتعت بصوت حشرجة صوته، وكنت أراقبه حتى أصبح جثة هامدة.

إن كل ما فعلته من أجلهم لم يساوِ في نظرهم شيئًا، فهل تساوي عيني التي فقدتها في المعركة بستان نخيل حقيرًا؟!

سحب أرحمة بضع شفطات من الدخان، ولم يكن حينها يتوقف عن عادته في سحب السيف وإدخاله بقوة، طق، طق، طق.

شعر إبراهيم بأن هذا الصوت يزيد سرعة، أو يخف بناءً على توتر أرحمة وتسلسل أحداث القصة.

ـ نسيت أن أقول لك إنني تزوجت ابنة عم لي من العتوب في الزبارة، وأنجبت منها ابني الأول بِشرًا، وكان طفلًا رضيعًا حين ذهبت إلى معركة البحرين، وبعد عودتي غاضبًا شعر آل خليفة أنني قد أشكل عليهم خطرًا، فأوعزوا إلى رجالهم بمضايقتي، ودعني أقل لك يا إبراهيم إن الشيوخ حين يريدون أن يضايقوك فإنهم يقتلونك حيًّا.

عدت إلى شمال قطر بعين واحدة، ناويًا أن أعيد تجارتي لسابق عهدها بعد أن تركتها عدة أشهر استعدادًا للحرب، توقف العتوب عن شراء جيادي، وتوقفت سفنهم عن شحنها إلى «أبو شهر» أو إلى البصرة، فبدأت أفقد أموالي يومًا بعد يوم، وشعرت بوطأة الدَّين، وكنت لا أنام الليل خوفًا أن تعود الأيام الخوالي حين كان الناس يتصدقون علينا بشيء نأكله أو نلبسه، تحطمت حياتي، وكنت أرى كل ما بنيته يذوب أمامي كالسكر في الماء.

ذات يوم رأيت ابني بِشرًا جالسًا في المنزل وبيده قطعة خبز كانت والدته قد خبزتها لتوها، فأحببت أن أمازحه، فجئت من خلفه دون أن يشعر بي وسحبت الخبزة من يده، وعندما شعر أنها قد سُرقت منه التفت تجاهي، ثم صرخ صرخة قوية وهجم عليَّ بكل ما يملك من قوة حتى اضْطُرِرْت إلى أن أُرجع له الخبزة بعد أن ملأ البيت صراخًا وعويلًا.

فكرت في هذه الحادثة، وقلت في نفسي لماذا لا أفعل كما فعل بِشر، لأثأر لنفسي من هؤلاء الذين يريدون تحطيم حياتي، وفي الصباح اشتريت مركبًا صغيرًا، وجمعت رجالًا من البلوش والعرب الذين كانوا يريدون الانتقام لأسباب متعددة، وكونت جيشي الصغير، وأصبحت أهاجم سفن آل خليفة، وأستولي على تجارتهم، وأنتقم منهم كما انتقموا مني.

إن مسألة الانتقام هذه مسألة معقدة يا إبراهيم، ألا تؤيدني فيما أقول؟ ما إن تمتلئ قلوب الناس حقدًا حتى تتحجر وتتوقف عن الخفقان بنعومة، وتصبح كالوحش الذي لا يرتوي إلا برؤية الموت والدماء، لقد أصبحت وحشًا يا صديقي؛ فقد قتلوا كل جانب إنسانيٍّ فيَّ، فلم أعد ذلك الرجل الذي يلعب مع ابنه بِشر، ولم أعد الرجل الذي ينظف جياده ويعتني بها ويطعمها.. إنني إنسان مختلف.

قاطعه إبراهيم:

ـ لم أكن أعرف هذا الجانب من حياتك يا أخي، كل ما أعرفه أنك تكره آل خليفة بسبب عدم إعطائك ما تستحق من غنائم المعركة فقط.

ـ لقد حصلت بيني وبين آل خليفة عدة معارك بحرية، فقدت خلالها خيرة رجالي والكثير من مالي، وفقدوا هم كذلك، ولكنه الانتقام يا إبراهيم، إنه كالسُمِّ الزُّعاف حين يدخل القلب ويجعله أسود كظلام الليل وقاتلًا كناب الثعبان، فقد دخلنا دائرة الانتقام، أنا وهم، وليس لنا سوى أن يتخلص أحدنا من الآخر.

بدأت ضربات سيف أرحمة في الزيادة، فشعر إبراهيم أنه على وشك أن يقول شيئًا مهمًّا:

ـ إن هذا الانتقام دفعنا للارتماء في أحضان أناس آخرين، فارتموا هم في أحضان الإنجليز، وارتميت أنا في حضن أصحابك الوهابيين.

ضحك إبراهيم بقوة حتى بانت أسنانه التي أكل السوس نصفها، وقال:

ـ كنت أعتقد أننا أصحاب بحق يا أرحمة.

ـ أنا وأنت نعم، ولكني لا أحب جماعتك، اعذرني على صراحتي يا إبراهيم، فأنا كما تعرفني لست متدينًا، وأحارب من أجل مصلحتي وليس من أجل مصلحة الآخرين، وأرى أن ما يحصل من صراعات في هذه المنطقة عبارة عن صراع مصالح بين الأقوياء، وحتى تحصل على جزء من الغنيمة عليك أن تكون قويًّا، ولهذا تحالفت مع جماعتك، مع أنهم قد يقتلونني على فسقي يومًا ما.

زاد إبراهيم في ضحكه، وقال:

ـ إن حكم الناس على الأمور غريب، فالوهابيون ينظرون إليك على أنك حليف لهم، وكل عملك يصب في مصلحتهم، والبعض يراك مجاهدًا في سبيل الله، لأنك تضرب أعداءهم، أما أعداؤك من العرب فيرونك فاسقًا لا خير فيك لأنك تضرب مصالحهم ومصالح حلفائهم، أما أنا فأراك صديقًا يا أرحمة، بغضِّ النظر عن كل ذلك.

نظر أرحمة إلى إبراهيم، وسأله:

ـ ما الذي تحصل عليه أنت من تحالفك مع الوهابيين؟

سكت إبراهيم، وكأنه صُدم من السؤال، نظر إلى أرضية المركب وضربها بطرف مدخنه، وقال:

ـ لا شيء، لقد فقدت سلطتي في البحرين، وحين أعود سأكون رجلًا في الجيش فقط، لا أكثر، وقد أكون في نظرهم فاسقًا لأنني لم أحارب الإنجليز، وسمعت نصيحتك بالانسحاب، من يدري؟

نظر إليه أرحمة، وقد اتسعت عيناه:

ـ ما رأيك لو انضممت إليَّ، وتركت كل ذلك وراءك، إن الحياة واسعة، والبحر يرمي لنا كل يوم بسفينة تكون لنا غنيمة، وإلى متى ستحارب من أجل الآخرين؟

رد إبراهيم بحزن:

ـ أنت تعرف أنني من نجد، وعائلتي وأهلي هناك، فكيف لي أن أتركهم وأتخلى عنهم؟! ثم إن إبراهيم باشا كما سمعت قد أفسد في الأرض وأعمل السيف في الناس، ولا أجد في نفسي الرغبة في البقاء وأهلي يُقتلون ويُشردون كل يوم تطلع فيه الشمس.

رد أرحمة بنوع من الغضب:

ـ حسنًا، اذهب إليهم، ولكني على يقين أنك لن تبقى معهم فترة طويلة، وسيستدعونك لغزوات قادمة، وقد تذهب إلى الحجاز أو الشام أو العراق محاربًا، وقد تموت دون أن يسمع عنك أو يعرفك أحد، فقيرًا مُعْدمًا ليس لك سوى سيف سيأخذه أحدهم بعد أن تموت.

أكمل أرحمة:

ـ أنا لا أطلب منك أن تترك تدينك، مع أني لا أرى أنك متدين يا إبراهيم، بل إن هذا التدين عبارة عن طبقة رقيقة لو كشطتها لوصلت إلى حقيقتك، أنت تحب المال والنساء والسلطة، وهذه الأمور يجتمع على حبها الجميع؛ جماعتك الوهابيون والإنجليز والفرس وكل البشر دون استثناء، أما الدين فهو عبارة عن وسيلة قد يستخدمها البعض للحصول على هذه الأشياء، كما يستخدم البعض وسائل أخرى ولكنها كلها لتحقيق الهدف نفسه.

أطرق إبراهيم هُنَيْهَة، وقال:

ـ ليس لديَّ مكان أذهب إليه سوى قريتي في نجد، وما قلته أنت صحيح، فليس لديَّ مال أو جاه لآخذه معي إلى هناك، دعني أفكر في الموضوع الليلة، وغدًا سأرد عليك.

وفي ظلمة الليل وبعد أن نام الجميع، استدعى أرحمة عبده ضرارًا، وأمره أن يستعد للرحيل إلى القلعة في الدمام، وأمره ألّا يقول لأحد من البحارة عن المكان الذي يتجهون إليه، ومع الفجر كانت الغطروشة تشق طريقها تجاه الدمام شرقي واحة الأحساء، وأرحمة جالس على مؤخرتها يداعب الصندوق الذي وضع فيه السيف الهندي وكأنه طفله الصغير.

# الفصل الثالث عشر

**ميناء مسقط، ساحل عمان**

وصلت سفن القبطان «لوخ» إلى مسقط قادمة من البحرين، وكان مهتمًّا بإكمال المهمة بأسرع وقت ممكن للحصول على السيف، فبعد أن عادت السفن التي تحمل جنود الشاه إلى «أبو شهر» لم يبقَ مع «لوخ» سوى سفينته «إيدن» وثلاث سفن تابعة لسلطان عمان، فأمر الجميع بالبقاء على ظهرها، وعدم مغادرتها باستثناء طاقم التموين الذين كان يستوجب عليهم النزول إلى السوق وإلى المخازن السلطانية لتغطية النقص في الغذاء والماء والخشب والفحم والبارود والسلاح، وغيرها من الأمور التي تحتاج إليها الخطة الحربية القادمة.

بعد أن تأكد من أن أوامره تنفذ بحذافيرها، نزل «لوخ» في زورق صغير ليلًا برفقة «سادلر» وجدفوا إلى الميناء، ومن هناك سارا إلى مقر إقامة ممثل شركة الهند الشرقية السيد «غولاب» الذي كان يستعد لمغادرة مكتبه.

عندما شاهدهما انفرجت أساريره، وانحنى كعادته واضعًا كفيه بعضهما مقابل بعض أمام وجهه دلالة على الاحترام والتوقير.

قال «لوخ» بعصبية:

ـ دعنا من هذه المجاملات يا «غولاب»، أريد أن تساعدني في قضية مهمة وسرية.

ثم جلسا على المقاعد التي في المكتب دون انتظار دعوة «غولاب» لهما بذلك.

بقي «غولاب» مقابلًا الباب، فلم يكن يتوقع أنهما سيجلسان بهذه السرعة ودون دعوة أدار رأسه لهما، وعندما وجد أنهما قد أخذا مكانيهما حوَّل كامل جسده بسرعة، وكأنه فقد شيئًا:

ـ كيف لي أن أساعدك يا سيدي؟ قل أي شيء وسترى أنني الشخص المناسب لتنفيذه.

ـ أغلق الباب، وتأكد أن لا أحد يستمع لما سأقوله لك، ثم تعالَ واجلس هنا.

نفذ «غولاب» المطلوب، وجلس على الكرسي الذي عينه له، ثم نظر إلى القبطان بانتظار تعليماته.

ـ اسمع يا «غولاب»: لقد فقدنا سيفًا ثمينًا كان هدية من الحاكم البريطاني في بومبي لإبراهيم باشا، استولى عليه القرصان أرحمة بن جابر من النقيب «سادلر» خلال رحلة الأخير من الهند إلى مسقط، ولا بدَّ لنا من الحصول على السيف مهما كلف من ثمن، هل تفهم ما أعني؟

حرك «غولاب» رأسه يَمنة ويَسرة.

ـ ما الذي لم تفهمه يا «غولاب»، أنا لم أقل شيئًا بعد؟

قبل أن يجيب «غولاب»، أجاب «سادلر»:

- لقد فهم يا سيدي، ولكن حركة الرأس هذه لدى الهنود تعني «نعم»، لقد عشت في الهند فترة طويلة جعلتني أتحدث لغتهم يا سيدي.

رد «لوخ»:

- حسنًا، حسنًا، أريد أن تبحث لي عن رجل يستطيع أن يدلنا على مكان أرحمة بن جابر، على شرط أن يكون محل ثقتك بالكامل، وألّا يتحدث عن مهمته لأحد أبدًا، فهل تعرف شخصًا به هذه الصفات؟

وضع «غولاب» كفّه على جانب رأسه، ثم على جبهته، وهو ينظر إلى أرضية المكتب، وكأنه يبحث عن شيء قد فقده، ثم قال:

- هل تسمح لي ببعض الوقت يا سيدي؟

أجاب «لوخ»:

- لك ذلك، ولكني أتوقع الجواب منك غدًا صباحًا، ولا مزيد، فنحن في حالة حرب والوقت هو أول عدو نجابهه.

وقف «لوخ»، وتبعه «سادلر»، ثم غادرا.

بقي «غولاب» في مكانه بعض الوقت، وكأنه لم يشعر بمغادرتهما، ثم وقف وكأنه منوَّم مغناطيسيًّا وترك المكتب.

في صباح اليوم التالي، كان «غولاب» مع شاب أسمر البشرة يجدفون تجاه السفينة «إيدن»، وما إن اقترب الزورق من السفينة حتى كان القبطان بانتظارهم، وأمر بإنزال السلم لهم، صافح ضيوفه، وطلب منهم الذهاب إلى غرفته في مؤخرة السفينة.

أغلق الباب، والتفت إليهم، وكأنه بانتظار أخبار سعيدة:

ـ ماذا لديك يا «غولاب»؟ هل هذا هو الرجل الذي طلبته منك؟

قال «غولاب» مشيرًا إلى الشاب العشريني الأسمر الذي يقف بذهول بينما هما يتحدثان بلغة لا يفهمها:

ـ بل أفضل مما طلبت يا سيدي، فأنا لم أنم الليل مفكرًا فيمن سيحقق طلبك، وأرسلت بعض أعواني للسؤال بسرية، فلم أجد أفضل من أحمد؛ إن أحمد صديق حميم لبِشر ابن القرصان أرحمة بن جابر، وقد تربيا معًا، ويحفظ كثيرًا من الأسرار لبِشر، وقد تجد لديه الإجابة عن بعض أسئلتك.

قاطعه «لوخ» في آخر كلماته، وكأنه لم يسمعها، قائلًا:

ـ ترجم إذن، أين تتوقع أن يكون أرحمة بن جابر الآن؟

بعد أن سمع أحمد ترجمة السؤال، ابتسم وقال:

ـ وهل تتوقع أن يعرف أحد أين يقيم أرحمة!! إنه يحتفظ بتحركاته سرية حتى عن بحارته، ولن يستطيع أحد أن يجيبك عن سؤالك هذا.

بان الامتعاض على وجه «لوخ»، والتفت إلى «غولاب»:

ـ قل له إنه لا وقت لديّ لكل هذا، أنا أريد أن أصل إلى أرحمة بن جابر بأسرع طريقة ممكنة، فهل يستطيع أن يساعدنا في ذلك أو لا؟

كان «لوخ» ينظر إلى حركات أحمد متوقعًا ما يقول، هز أحمد رأسه من الأسفل إلى الأعلى، وكأنه يقول نعم، مما أضاف بعض السكينة إلى حركات القبطان المتوترة، ثم التفت إلى «غولاب» بانتظار ترجمة سريعة لما قاله أحمد.

قال «غولاب»:

ـ سيدي، إن أحمد يقول إنه يستطيع أن يساعدنا، وإن لم يتمكن هو من مساعدتنا فليس هناك أحد على وجه الأرض يستطيع ذلك، ويقول أيضًا إن لأرحمة ثلاثة أماكن يختبئ فيها، هي لدى شيخ القواسم في رأس الخيمة، أو في شمال قطر حيث يخفي سفينته بين الرويس وجزيرة صغيرة مقابل هذه القرية، وعندما يكون هناك فهو لا يغادر الغطروشة، فعادة ما يبقى لأيام قليلة للتموين ثم يغادر إلى أي مكان يراه مناسبًا، أما المكان الثالث فهو قلعته في الدمام، إنه لا يحب أن يتواجد في هذه القلعة فترة طويلة؛ فهي معرضة ـ كما يقول عادة ـ لهجمات من عدة جهات، مع أنها تقع في منطقة سَبِخَة يصعب التحرك فيها، ولكن قلعته بُنيت حول نبع الماء الوحيد في المنطقة، ويستطيع من هذه القلعة أن يصد أي هجوم عدة أيام، وهي تكفي لجعل الجيش المهاجم يموت عطشًا.

كان أحمد يتحدث بسرعة، و«غولاب» يترجم بطلاقة أعجبت القبطان، ثم أنهى أحمد حديثه بالقول:

ـ عليك أن تبدأ برأس الخيمة، فهي أفضل مكان يستطيع فيه أرحمة أن يختفي فترة طويلة دون أن يكتشفه أحد.

قال القبطان بحدة:

ـ اسأله يا «غولاب» أيستطيع أن يأتي معنا دليلًا، سأدفع له الكثير من المال، اسأله الآن وبسرعة.

بعد أن وجه «غولاب» السؤال إلى أحمد، التفت مرة أخرى إلى القبطان وقال:

- إنه يرفض يا سيدي، فلو عرف أرحمة عنه ذلك فستتحول حياته إلى جحيم، ثم إنه يحب بِشر بن أرحمة ويعتبره صديقه الوحيد، ولكنه لا يحب أرحمة نفسه؛ لأنه شخص قاسٍ كما يقول، حتى إن بِشرًا كان يشتكي إليه من والده وسوء تعامله معه.

- حسنًا، أعطه بعض المال ودعه يغادر، لقد أكد المعلومات التي لدينا عن أرحمة. نحن بانتظار قرار السلطان السماح لنا بالمغادرة.

قبل أن يخرجا، أمسك أحمد بيد «غولاب»، وشرع يحدثه، و«غولاب» ينظر إليه ثم يعيد النظر إلى القبطان «لوخ» مرة أخرى، حتى أنهى أحمد حديثه.

التفت «غولاب» إلى القبطان، واقترب منه قائلًا:

- سيدي، أقترح أن تسمع ما الذي يقوله أحمد؛ فقد يهمك.

- كلي آذان صاغية يا «غولاب»، ما الجديد الذي لديه؟

- إنه يقول إن بِشر بن أرحمة يعشق فتاة تعيش في قرية صغيرة على الساحل القطري تدعى الزبارة، وهو يرغب في الزواج منها، إلا أنها من العتوب أعداء والده، وقد أقسم والده على أن لا يسمح له بذلك طالما بقي حيًّا، وهو يتردد على القرية من وقت إلى آخر وحين تسمح الظروف وتحت دعاوٍ عدة، حتى يراها.

رد القبطان بغضب:

- وما دخلنا في ذلك؟

حاول «غولاب» أن يرد عليه بهدوء:

- ولكن يا سيدي، لم تدعني أكمل!

ـ حسنًا، أكمل يا «غولاب»، لقد بدأت أفقد أعصابي من هذا كله.

ـ يا سيدي، إن أحمد يقول لو استطعتم أن تتصلوا ببِشر فإنه سيتعاون معكم، فهو يرغب أن يكون تاجرًا بعكس أبيه الذي ترك التجارة وتفرغ للقرصنة، وعن طريقه ستصلون لوالده.

ـ هذا كلام جميل، ولكن كيف سنصل إلى بِشر إن كان مع والده طوال الوقت؟

ـ إن أحمد يقول إنه قابل بِشرًا منذ عدة أشهر، وقد قال له إنه حين تضيق الأمور على والدي فإنه يخفي سفينته في موقع بين قرية الرويس في شمال قطر وجزيرة صغيرة إلى الشمال من القرية، وهو يبقى على سفينته الغطروشة ويرسل بِشرًا لإحضار الغذاء والماء، أو لإرسال الرسائل إلى أصدقائه وأعوانه هناك، فيستغل بِشر هذه الفرصة للذهاب إلى الزبارة لمقابلة حبيبته.

رد «لوخ»:

ـ قد تكون هذه معلومات قيمة يا «غولاب»، ولكنني لا أستطيع استخدامها حاليًا، قد تساوي هذه المعلومات ذهبًا في وقت آخر، ولكن ليس في هذه اللحظة، إننا نريد استعادة السيف يا «غولاب» بأسرع وقت ممكن، هل فهمت؟ السيف يا «غولاب»!

في هذه اللحظة طرق باب القبطان العقيد «جون»، وقال له:

ـ إن النقيب «سادلر» قد وصل من قصر السلطان، ولديه بعض الأخبار التي يود أن يقولها لك على انفراد يا سيدي.

ـ اذهب أنت يا «غولاب» الآن، وليكن أحمد قريبًا منك، فربما نحتاج إليه في وقت قريب.

ثم التفت إلى الضابط قائلًا:

ـ دع «سادلر» يدخل، فربما يستطيع أن يرفع معنوياتنا ببعض الأخبار الجيدة.

دخل «سادلر» إلى قمرة القبطان «لوخ»، وقال:

ـ سيدي، كنت في اجتماع مع وزير السلطان وبعض كبار ضباطه، وقد اتفقنا على أن ترافقنا سبع سفن من سفن السلطان تحمل خمسمائة رجل بالإضافة إلى سفينتين لحمل الخيول التي يبلغ تعدادها نحو مائة، وستكون السفينة «إيدن» هي سفينة القيادة في هذه المهمة، وسنسير بمحاذاة الساحل حتى مدينة خور فكان، حيث سيغادرنا ثلاثمائة جندي من الحرس السلطاني هناك، وسيسيرون برًّا إلى رأس الخيمة، ونحن سنتابع طريقنا بحرًا إلى هناك، ويفترض أن نصل جميعنا في الوقت نفسه؛ إذ إنهم سيسيرون بشكل مستقيم إلى هناك فيما نحن سندور حول اليابسة لنصل إلى هناك.

سيكون تحت إمرتك نحو أربعمائة رجل مسلح ومائة فارس، وهذا يكفي لقلب كل حصاة في الساحل بحثًا عن أرحمة.

انفرجت أسارير «لوخ»، وقال:

ـ متى يريدنا السلطان أن نتحرك؟

ـ بعد غد يا سيدي، سيكون الجميع مستعدًّا.

# الفصل الرابع عشر

**الدمام، الساحل الشرقي للجزيرة العربية**

وصلت سفن أرحمة إلى ساحل الدمام وكان البحر في أقصى ارتفاع له، وحين يحدث ذلك تتحول المنطقة بِرُمَّتِها إلى بحيرة مالحة تكثر فيها الرمال التي تبتلع من يمشي عليها، وتحيل الحياة في هذه المنطقة إلى مستنقع للموت لمن لا يعرفها.

نزل أرحمة حاملًا صندوق السيف الهندي على رأسه وممسكًا ببعض مقتنياته القيمة في صُرَّة بيده، ونزل معه بحارته عدا أولئك الذين بقوا في السفينة لحراستها والعناية بها، وخاضوا الماء الذي يصل إلى منتصف أجسادهم إلى مكان كانوا يعرفونه حق المعرفة، حينها قل ارتفاع الماء ووصل إلى ركبهم، خاضوا هذه المخاضة أيضًا في دروب وكأنها رسمت لهم على الأرض، يسيرون في خط واحد بعضهم وراء بعض، وكانت الشمس تضرب رؤوسهم بحرارتها فتُحيل مسيرهم إلى عذاب طويل من التعب والجهد.

بعد عدة ساعات بانت لهم بعض أشجار النخيل وقلعة صغيرة يحيط

بها سور مبني من الطين الجاف، غمس أرحمة يده في ماء البحر ثم مسح جبهته ووجهه طلبًا لبرودة قد تخفف من الحرارة التي يعانيها.

قال ضرار:

ـ لقد وصلنا في الوقت الخطأ يا سيدي، وكان علينا البقاء على ظهر الغطروشة لحين ساعة الجزر حتى يسهل علينا السير.

فردَّ أرحمة:

ـ ربما، قد يكون ما تقوله صحيحًا، ولكني أريد الوصول بأسرع وقت ممكن إلى القلعة.

كان يتأمل قلعته وملاذه التي بناها منذ سنوات طويلة، وكأنها خيال متحرك بسبب الحرارة التي تنبعث من الأرض فتُحيل ما فوقها إلى خيال من البحيرات أو خيال من الأشباح المتحركة.

ما إن اقتربوا من القلعة حتى ظهر لهم من على أسوارها بعض الرجال الذين وجَّهوا بنادقهم إلى تلك الأشباح القادمة من البحر، ثم أطلق أحدهم طلقة في الهواء أوقفت ذلك الموكب، وكأنه يقول من أنتم.

التفت أرحمة إلى ابنه بِشر وأمره أن يعطي الرجال الإشارة المتفق عليها.

أخرج بِشر منديلًا من جيبه أصفر اللون، وربطه على عصاه التي كان يتوكأ عليها، ثم رفع العصا وأمالها يَمنة ويَسرة سبع مرات، ثم أنزلها.

أطلق الحرس ثلاث رصاصات أخرى في الهواء دلالة أنهم عرفوا الأشباح التي خرجت لهم من البحر.

تقدم أرحمة ومن معه إلى القلعة التي فُتحت أبوابها وخرج منها أربعة

رجال يبدو عليهم الفقر، فقد كانوا حفاة وشبه عراة إلا من أسمال تغطي وسطهم، ويتحزمون بالرصاص حول وسطهم وعلى أكتافهم، وقد طالت شعورهم حتى وصلت إلى أكتافهم، وما إن اقترب الموكب حتى خرج الحراس يركضون في سباق محموم إلى سيدهم، وعندما وصلوا إليه وهم يلهثون اصطفُّوا بعضهم خلف بعض، ثم شرعوا بوضع أنوفهم على أنف أرحمة دلالة على الاحترام والتوقير.

قال أرحمة لأكبرهم سنًّا؛ الذي ما زال يلهث من الركض:

- كيف حالك يا أبا مسفر؟ أتمنى أن تكون بخير؟

رد أبو مسفر:

- أنا بخير يا شيخ.

وكان ينظر إلى أيادي الضيوف فاحصًا ما يحملونه وكان يتمنى أن يرى طعامًا معهم.

فهم أرحمة استفسار أبي مسفر، وإن لم ينطق، وقال:

- مع انحسار مد البحر وحصول الجزر عليك أن تذهب وجماعتك إلى السفينة، ولكن احذر وأنت تسير في البحر حتى لا يحصل مثلما حصل سابقًا يا أبا مسفر.

- لن يحصل يا شيخ بإذن الله.

رد أبو مسفر، وتمثلت في عينيه المأساة التي مر بها منذ عدة أشهر حين وقع ليلًا في حفرة مغمورة بالماء والرمل، فغرق إلى وسطه، ثم إلى صدره، وكان يصرخ صراخ من يرى الموت بعينيه، حتى تمكن الرجال من إخراجه، وقد وصل الماء إلى أذنيه.

قرر أبو مسفر ألّا يكون القائد حين يتعلق الأمر بالبحر، فهو لا يعرف البحر ولا أسراره، حيث تربى في الصحراء المحيطة بالأحساء متعيشًا على بعض الرطب الجاف، والزواحف التي يجدها في الصحراء، وحليب الجمال حين تخضر الأرض في الربيع.

عاد أبو مسفر من خياله الذي شطح به إلى أحداث تلك الليلة المشؤومة، وقال:

- سنذهب حين يخف المد يا شيخ أرحمة، ولكني أرجو أن تكون قد أحضرت معك طعامًا لنا، فنحن نعيش على التمر والماء منذ شهر، ونتمنى أن نشم الدسم.

رد أرحمة مبتسمًا:

- ستشم الدسم وتأكله يا أبا مسفر، لا تقلق، إن سفينتنا محملة بكل ما لذّ وطاب من الطعام، ولكن عليك ألّا تسمن، فأنا بحاجة إليك خفيف الوزن تسبق الشباب ركضًا.

ثم نظر أرحمة إلى ابن عفيصان الذي كان واقفًا بقربه مبتسمًا لطرافة الحديث الذي يدور:

- دعني أعرفك على صديقي ابن عفيصان يا أبا مسفر، إنه صديق قديم سيكون في ضيافتنا بعض الوقت، وأتمنى أن يكون معنا وقتًا أطول.

توجه أبو مسفر لتقبيل أنف ابن عفيصان:

- حيَّاك الله يا شيخ ابن عفيصان، لقد سمعت عنك من البحارة الكثير، إن وجودك في القلعة شرف لنا، على الأقل سنجد من يجيد قراءة القرآن لنا في الصلاة.

ضحك أرحمة بصوت عالٍ، وقال:

ـ لا تقل ذلك يا أبا مسفر، إن ابن عفيصان سياسي ومحارب، ولكنه ليس إمام مسجد، قد تجعله يهرب بقولك هذا.

رد ابن عفيصان:

ـ لا تستمع لما يقوله أرحمة يا أبا مسفر، سأكون معكم وأعلمكم القرآن إن رغبتم في ذلك، ولكن دعنا نسترح ونتعشى، ثم أبشر بسعدك.

وفي المساء ذهبت جماعة أبي مسفر إلى السفينة لإحضار البضائع والطعام، أما البقية فإنهم توزعوا في القلعة حول نيران أشعلوها لتضيف إلى الليل بهجة هم بحاجة إليها، وقبل صلاة العشاء التي كان البعض يحاول تحري وقتها، كانت جماعة أبي مسفر قد عادت محملة بالطعام وأكياس الأرز والطحين والسمن، فطاب الليل بانتشار رائحة الطعام الشهية، وكثرت القصص التي يسمعها الشباب من الشيوخ عن غرائب الأسفار وسفّاكي الدماء ووحوش البر والبحر والجن والشياطين.

وبعد أن أوى الجميع إلى فُرُشهم، وقد امتلأت بطونهم لأول مرة منذ شهر بطعام دسم حار، غلبهم النعاس وبدأت أصوات الشخير تسمع من هنا وهناك.

شعر بِشر بمن يرفس قدمه ليوقظه من نومه، فتح عينيه الكسولتين بهدوء، فشاهد والده واقفًا عند قدميه طالبًا منه الاستعداد للذهاب معه.

ـ ولكن إلى أين يا والدي؟

ـ خذ السراج واتبعني يا بني، لا وقت لديّ للشرح.

قام بِشر من فراشه، والتقط السراج، ومشى خلف أبيه، سارًا تجاه

البوابة الرئيسة وفتحاها، وخرجا من القلعة، ثم أمر أرحمة ابنه بإطفاء السراج والمشي خلفه، ما إن تعديا البوابة الخارجية حتى اتجها شمالًا، وسارَا نحو ألف خطوة، ثم انعطفا غربًا مرة أخرى، وسارَا دون أن يتحدثا فترة طويلة، حتى وجدا منخفضًا من الأرض نزلا إليه، وشعر بِشر برطوبة نعليه وصوت الماء فعرف أنهما يمشيان في سبخة رطبة، ثم ارتفعت الأرض مرة أخرى، وانغرست قدمه في الرمل الحار، فتنهد بصوت غير مسموع حتى لا يغضب والده حتى وصلا إلى صخرة وحيدة في بحر الرمال.

أخرج أرحمة صندوق السيف الهندي من عباءته ولفّه بقطعة قماش كبيرة عدة لفات، ثم حفرا بالقرب من الصخرة حفرة تكفي لإخفاء الصندوق، ثم وضعا الصندوق في الحفرة ثم أهالا التراب ودحرجا الصخرة عليه.

بعد أن اطمأن أرحمة إلى أنهما انتهيا من مهمتهما، التفت إلى بِشر قائلًا:

ـ يا ولدي، إن هذا السيف ثمين جدًّا، ثمين إلى درجة أنه سيجعلك أنت وأبناءك في رغد من العيش، لا تنسَ أين دفناه ولا تخبر أحدًا عن مكانه حتى لو قطّعوك بالسكاكين، أفهمت ما أقول؟

ـ نعم يا أبتِ، فهمت، ولكنك لم تقل لي لماذا دفنته؟

ـ لقد فعلت ذلك لأني لم أجد مكانًا آمَن من هذا المكان لأخفيه فيه، فكلما فكرت في صديق تذكرت الخيانات التي عانيتها في حياتي من أقرب الناس لي، فقررت أن تكون الأرض مستودع سرِّي، فهي أكثر أمانًا من الأصدقاء أحيانًا.

والآن، عُد إلى فراشك ونَم، وإذا علمت أنك أخبرت أحدًا عن السيف أو مكانه سأقتلك وأقتل من أخبرت، هل تفهم ما أقول يا بِشر؟

ـ نعم، نعم، فهمت يا أبتِ.

في طريق العودة شرع بِشر في عَدِّ الخطوات وتحديد الاتجاهات، تحسبًا لأي شيء قد يحصل، فالليل دامس وهو قد لا يعرف طريق العودة إلى مخبأ السيف إن لم يفعل ذلك.

## الفصل الخامس عشر

### ميناء خور فكان، خليج عمان

أبحر القبطان «لوخ» من مسقط إلى خور فكان؛ وهو خور صغير تحيط به الجبال الجرداء الصخرية من ثلاث جهات، ولطالما كان هذا الخور مخبأً للقراصنة والهاربين من الأعداء ومن الثأر والحالمين بالثروة، يعيش على ساحله مجموعة من الصيادين في بيوت من الحجارة أو سعف النخيل، يتعيَّشون على صيد السمك، أما الماء فإنهم يجلبونه بالجمال من ينابيع مخفية في وديان صغيرة بين هذه الجبال.

لقد تعَود سكان هذا الساحل تفادي الأجانب القادمين إليهم فجأة؛ فهم يعرفون أن من ينزل إلى ساحلهم عادة ما تكون له قصة غريبة، وكم شاهدوا من أناس يُقتلون فجأة في دورهم! أو يُخطفون في سفن ترسو ليلًا وتغادر صباحًا، أو يشاهدون معركة نشبت بين سفينتين لا يعرفون أسبابها ولا تهمهم نتائجها.

إن الجو العام في هذا الخور يُبقي فم كل شخص مغلقًا، فهم في نهاية الأمر فقراء لا حول لهم ولا قوة، يبحثون عن مصدر رزقهم في البحر الذي قد يُلقي إليهم أحيانًا بأوغاد يأتون من وراء البحار.

رست السفن التي يقودها القبطان «لوخ» في خور فكان، وتجمع الناس لرؤية ما الذي سيرميه البحر إليهم هذه المرة، فنزل منها ثلاثمائة جندي منهم مائة فارس ظلت تنقلهم سفن الصيد الصغيرة إلى الساحل على مدى يومين كاملين، فلاحظ «لوخ» انضباطًا في الحرس السلطاني لم يعهده من قبل في أي وحدة عسكرية أجنبية، فقد كانت السفن العمانية تنزل أشرعتها قبل السفينة «إيدن»، وبحارتها لا يتحدثون كثيرًا، والأوامر الصادرة إليهم تُنفذ بحذافيرها؛ فالكل يعرف ما يفعل.

وحين نزلت الكتائب إلى الساحل اصطفَّت للتفتيش بأسلوب عسكري بديع، وبعد التأكد من اكتمال عددها وعدتها، أخذت الكتائب الإذن من القبطان بالسير إلى وجهتها التي ستوصلها إلى رأس الخيمة حيث مخبأ القراصنة كما يعتقد «لوخ».

أكملت السفن بعد إنزال جزء من حمولتها طريقها حول الساحل مارّة على قرى بائسة ومزارع وشواطئ جميلة، مما جعل سكان المنطقة يعرفون تفاصيل العملية برُمَّتها، فوصل الخبر إلى سكان رأس الخيمة عن هدف الحملة وقوّتها.

لم يكن الشيخ حسن، زعيم القواسم، يفهم أسباب الحملة، ولكنه كان حليفًا للقوات الوهابية التي وصلت حتى واحة البريمي الواقعة على أطراف الربع الخالي وما زالت الجبهات التي أشعلها الوهابيون ساخنة على امتداد الساحل حتى العراق، وقد كان زعيمًا قبليًّا أضاف عليه تحالفه مع الوهابيين صبغة دينية، فأصبح يرى في الكفار الغزاة شرًّا يجب التخلص منه، ولم يكن ينوي التفاوض أو التنازل، بل كان كل همه تحفيز الناس وحثهم على المقاومة والجهاد وصد المعتدين قدر الإمكان.

وزّع الشيخ حسن الأسلحة على أتباعه وحثّ حلفاءه على امتداد الساحل للاستعداد وإرسال المقاتلين والمجاهدين بأسرع وقت ممكن، مذكرًا

إيَّاهم بما فعل البرتغاليون من قبل بالسكان بعد أن قطعوا آذانهم وأنوفهم، واستباحوا الحرمات، وقتلوا الأطفال، فكانت هذه الذكرى كافية لِأن تشعل نار الحماس في قلوب سكان المنطقة وترغبهم في قتال الكفار الذين ما فتئوا يصلون إلى هذه الأرض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل.

وصلت السفن بعد عدة أيام إلى ساحل رأس الخيمة وألقت مراسيها، ثم أرسل القبطان بعض جنوده من العمانيين إلى الساحل في زورق صغير للاتصال بالمجموعة التي نزلت البر في خور فكان التي من المفترض أن تحاصر رأس الخيمة من جهة البر وتمنع هروب المقاتلين إلى الداخل.

نزل خمسة من الجنود العمانيين المسلحين في ملابس مدنية مع حلول الليل، ووصلوا إلى الساحل في زورق صغير به ثلاثة مجدفين، ثم اختفوا في المزارع القريبة للاختلاط بالناس والحصول على المعلومات التي يرغبون فيها، وقبل أن يتحرك الزورق عائدًا إلى الأسطول، سمع المجدفون صوتًا من الجهة التي دخل إليها زملاؤهم، كان الصوت خليطًا من حفيف الأشجار والصراخ المكتوم، نظر بعضهم إلى بعض باستغراب، ثم أكملوا تجديفهم عائدين إلى السفينة الأم.

في صباح اليوم التالي، كان «لوخ» ينظر من سطح سفينته إلى الساحل حيث نزل المستطلعون، وكان من المفترض أن يعودوا إليه خلال ساعات بعد أن يتصلوا بجيش البر، ولكنهم لم يفعلوا حتى هذه اللحظة.

استغرب من الأمر وقرر الانتظار عدة ساعات أخرى، وحين انتصفت الشمس أرسل رجلين آخرين للاستطلاع ومعرفة ما حلّ بزملائهم.

نزل الرجلان في المكان ذاته الذي نزلت فيه المجموعة الأولى، وحين دخلا المزرعة التي تُطِلُّ على الساحل شاهدا جثث زملائهم وقد قطعتها السيوف والحراب وأكلت الكلاب والهوام أطرافها.

قرر القبطان القيام بالهجوم في لحظة غضب، فأمر جنوده بالاستعداد وتجهيز السلاح والنزول إلى البر.

نزل الجميع، وسار طابور طويل من الجنود مشكلًا من رجلين يتبعهما رجلان، وسار هذا الموكب الغريب على طول الساحل، يقوده القبطان الذي سار في المقدمة برفقة ضباط من جيش السلطان، ولم ينسَ أن يأمر «سادلر» بالبقاء على السفينة وعدم مغادرتها مهما حصل.

فجأة، ودون مقدمات سمع «لوخ» صوت إطلاق رصاص، فعرف أن المؤخرة تتعرض للهجوم، فأمر جنوده بالاستعداد للهجوم الذي قد يحصل عليهم في أي لحظة من المزارع المطلة على الساحل، ثم ذهب راكضًا إلى المؤخرة لاستطلاع الأمر.

حين وصل إلى هناك وجد أن عددًا من الجنود قد قُتلوا لتعرضهم للقنص من المزارع، ثم سمع صوت الرصاص مرة أخرى في مقدمة الطابور، فعرف أن المقدمة تتعرض بدورها للقنص أيضًا.

تراجع جنود «لوخ» إلى ساحل البحر متحفزين وخائفين مما قد يحصل، وإذا بمجموعة من الفرسان تركض تجاه مؤخرة الطابور، فلم يتردد الجنود لحظة في إطلاق النار عليهم وقتلوا الكثير منهم، وفي خِضم هذه المعركة الغريبة، أعاد الفرسان هجومهم مرة أخرى، وتعرضوا لنفس وابل الرصاص من الجنود فتراجعوا مبتعدين.

ما إن بدأ الجنود في استرداد أنفاسهم حتى خرج عليهم عدد كبير من المسلحين من المزارع، وهم يركضون ويطلقون النار من بنادقهم ملوِّحين بسيوفهم ورماحهم، عراة الصدور بشكل أذهل الجنود وأصابهم بالرعب.

التقى الجمعان على ساحل البحر، واختلط صراخ الرجال بطلقات

البنادق، وصليل السيوف بتأوُّهات الجرحى، فلم يبقَ أمام جنود «لوخ» سوى التكتل في دوائر شكلوها على عجل ليحموا ظهور بعضهم بعضًا.

استمرت المعركة بعض الوقت، ثم سُمعت صرخة وكأن أحدهم ينادي بصوت عالٍ، فانسحب المقاتلون من الساحل إلى المزارع، واختفوا فجأة كما ظهروا فجأة.

تفقد «لوخ» رجاله، فوجد أنه قد خسر نحو مائة من جنوده، فأمر الجميع بسحب الجرحى والقتلى والصعود إلى السفن مرة أخرى.

عرف بعد فوات الأوان أن الفرسان الذين أطلق عليهم جنوده النار كانوا فرسان السلطان الذين أنزلهم في خور فكان، وقد وصل هؤلاء فعلًا إلى ساحل رأس الخيمة إلا أنهم لم يستطيعوا الاتصال بالحملة البحرية فعسكروا في مكان غير بعيد عن المكان المتفق عليه بانتظار أن يشاهدوا الأسطول.

عندما سمع الفرسان صوت الرصاص عرفوا أن هناك مواجهة قد حصلت بين جنود الأسطول والمقاتلين المحليِّين، فاستعجلوا الوصول إلى المعركة لنجدة زملائهم إلا أن هؤلاء بدورهم أطلقوا عليهم الرصاص ظنًّا منهم أن هؤلاء الفرسان جزء من المقاتلين.

انتهت الحملة بنكسة عسكرية كبيرة، توقع «لوخ» على إثْرها أن تتم معاقبته من قبل البحرية الملكية على سوء تصرفه.

عاد الأسطول يجر أثواب الهزيمة إلى مسقط، وتناقلت سفن التجار والبحارة وقوافل المسافرين أخبار هذه المعركة التي كرَّست اسم الوهابيين على الساحل وقوَّت من شوكتهم وكثَّرت من أعوانهم.

# الفصل السادس عشر

**قلعة الدمام، الساحل الشرقي للجزيرة العربية**

اتكأ أرحمة في جلسته، ونظر إلى ابن عفيصان مبتسمًا، وسأله هل سمع عن المعركة التي حصلت في رأس الخيمة، بانت على وجه ابن عفيصان علامات الاستغراب؛ فهو لم يسمع عن أي حملات أو مواجهات قد حصلت مؤخرًا بين الوهابيين وأعدائهم في تلك المنطقة، وأخبار معركة تجعل أرحمة مبتسمًا لا بدَّ أن تكون أخبارًا سارَّة.

ـ قل لي يا أرحمة، ما الذي سمعته؟

ـ إنها معركة ستجعل قلبك يرقص فرحًا يا صديقي، من يدري، وقد تجعلنا نعيد حساباتنا من جديد.

عدل ابن عفيصان جلسته، واقترب أكثر من أرحمة، وقال:

ـ تكلم، لقد شوقتني للأخبار، قل لي ما تعرف، أرجوك!

شرع أرحمة في مزاولة هوايته حين يتحدث، بإخراج السيف الذي يضعه أسفل فخذه من غمده ثم إدخاله بصوت مسموع مرة أخرى، وكأنه يستمع إلى صوت موسيقى تساعده على تذكر الأحداث واسترجاعها.

ـ لقد هزم أصدقاؤنا في رأس الخيمة القبطان «لوخ» في معركة ساحلية، وقتلوا ثلث جيشه المكون من العمانيين والإنجليز والهنود، وعاد بخزيه إلى مسقط، وقد يُحاكم أمام محاكمة عسكرية تعيده ذليلًا إلى بلده.

بانت على ابن عفيصان الفرحة، وصرخ:

ـ هل هذا صحيح؟ أو إنك تمزح معي؟

ـ لا، إنه خبر صحيح، وصلني منذ ساعات عن طريق بعض البحارة الذين أثق بهم، لقد قُتل من جيشه نحو مائة شخص، فقد دبَّرت لهم القبائل هناك كمينًا ساعد على نجاحه غباء القبطان وسوء تصرفه.

خرج من ابن عفيصان صوت غريب:

ـ هاه... هاه.

ولم يتمكن أرحمة من معرفة أكان الرجل يضحك أم يصرخ فرحًا، ولكنه نظر إليه للتأكد، فوجد أنه في حالة نادرة بين الضحك والصراخ فرحًا، فابتسم له ابتسامة ذات مغزى، وانتظر أن يعود لحاله حتى يكمل حديثه:

ـ يا أخي، إن الأمور تتغير الآن، وأعتقد أننا يجب أن نخرج للبحر حتى نحصل على بعض المال، فأموالنا تستنزف لعدة أسباب، ولو توقفنا عن العمل في البحر فسنجد أنفسنا معدمين قريبًا.

رد ابن عفيصان متحمسًا:

ـ أنا مستعد في أي وقت تشاء يا أرحمة، فكما تعرف أنا بحاجة إلى بعض المال لأعود إلى قريتي في نجد التي تركتها منذ انضمامي لجيش الإخوة، فمنذ عدة سنوات مضت لم أرَ قريتي ولا بستاني الذي تركته في يد ابني ليعتني به.

ابتسم أرحمة ابتسامته التي يعرفها ابن عفيصان، وقال لصاحبه:

ـ ستحصل على بعض المال يا صديقي وستعود لعائلتك، فقد كبرت وسقطت أسنانك، ولا بدَّ أن تموت بهدوء مع زوجتك العجوز في المنزل، أما أنا فسأموت محاربًا في البحر، أو على الأقل أتمنى أن أموت محاربًا.

ـ كلنا كبرنا يا أرحمة، نسأل الله حسن الخاتمة، ولكن بما أن هزيمة الإنجليز قد أسعدتك اليوم، فدعني أتجرأ وأطلب منك طلبًا صغيرًا.

ـ ما هو يا ابن عفيصان؟

ـ كنت البارحة مع ابنك بِشر نتمشى بعد العشاء، وطلب مني أن أكتم سرًّا له، فقد حدثني عن البنت التي يعشقها في الزبارة، وطلب مني أن أشفع له عندك في الزواج منها، فهل تقبل شفاعتي يا أخي؟

تغيرت ملامح أرحمة وضاقت عيناه، وبدأ ينظر بعيدًا، وكأنه ينظر إلى التاريخ، فتوقع ابن عفيصان جوابًا قاسيًا، ولكن أرحمة أجاب بهدوء:

ـ كيف تريدني أن أوافق إن كنت أنا أقاتل آل خليفة؟ وكيف أناسبهم إن كانوا هم ألد أعدائي؟!

ـ ألم تكفِ الدماء التي سُفكت يا أرحمة؟ لقد مات الكثيرون بسبب غضبك منهم، ولا أرى نهاية لطلب الثأر هذا!

نكس أرحمة رأسه، وكأن شريط الثأر يمر أمامه، ثم رفع رأسه وكأنه اتخذ قرارًا جديدًا:

ـ لقد أقسمت يا ابن عفيصان على الثأر حتى أموت، لقد حطموا حياتي، ولا بدَّ لي من تحطيم حياتهم.

بدأ ابن عفيصان يغضب من ردود أرحمة التي لا تتعدى الثأر والموت، وأراد أن يذكره بأن الحياة لا تقف هنا، بل إنها أوسع وأرحب مما كان في رأس أرحمة:

ـ ولكن ما دخل بِشر وزواجه بثأرك أنت؟ إن له حياة يجب أن يعيشها بدلًا من أن يتنقل معك في السفينة من مكان إلى آخر ومن مخبأ إلى جحر آخر أعفن منه.

بقي أرحمة مصرًّا على رأيه؛ فالثأر قد سيطر عليه، ولا يرى شيئًا إلا وهو مرتبط بالثأر، فأغلق عينه السليمة متفكرًا في كيفية الرد على ابن عفيصان، ثم قال:

ـ كيف أقبل أن أكون جدًّا لأبنائه ثم أقتل أخوالهم؟! أليس هذا تناقضًا ونفاقًا؟

صفق ابن عفيصان بيده، ثم ضرب بيده اليمنى على جبهته، وكأن أرحمة قد أصابه بالجنون:

ـ يا رجل، يجب أن تفهم أنك الآن على أبواب السبعين، ألا تقول لك هذه السنُّ شيئًا؟ إنك توشك على الموت، ولو عشت هذه السنة فلن تعيش السنة المقبلة.

ابتسم أرحمة بخبث، وكأنه مسرور بغضب صاحبه:

ـ إن السنَّ تقول لي بأن أستعجل في القتل والثأر قبل أن أموت.

أراد ابن عفيصان أن يذكر صاحبه بالآخرة التي نسيها في خِضم هوسه بالثأر، فخفض من صوته، واستخدم نبرة أقل حِدة لعلّها تكون أكثر تأثيرًا:

ـ يا صديقي، هناك موت ثم حساب وعقاب، ما الذي ستقوله لربك

حينئذ؟ هل ستقول له إني قضيت عمري في البحث عن الثأر وقتل الناس، وإنني حرمت ابني من الزواج لأنني أكره أنسباءه؟ أليس هذا جنونًا وخروجًا عن العقل وكفرًا برحمة الله؟!

ـ أنت تعلم أنني لست متدينًا، وما تقوله لا يعني لي شيئًا، ومن يعلم! قد يغفر لي ربي كل ذلك بعلمه ما في قلبي.

ضحك ابن عفيصان بصوت عالٍ، وكأنه سمع نكتة لم يتوقع سماعها:

ـ وما الذي في قلبك يا صاحبي؟ أنت لست إمام مسجد حتى تقول ذلك، حتى الأسد لا يهجم على فريسته إلا عندما يكون جائعًا، وأنت ملأت قلبك حقدًا على أعدائك وحرمت كل من حولك من الراحة في سبيل أن يرتاح قلبك برؤية الدماء، أليس هذا جنونًا؟

واصل ابن عفيصان بعد أن زفر بقوة وكأنه يهدئ من نفسه:

ـ حسنًا، ألا تعني شفاعتي لك شيئًا؟

ـ إنها تعني الكثير، ولكن اطلب أي شيء آخر، لقد أخبرت بِشرًا بذلك منذ سنوات، وظننت أنه نسي الموضوع، ولكنه أحمق مثل أبيه يصر دائمًا على ما يريد حتى إن كان خطأً.

ضرب ابن عفيصان بقبضته على الأرض، في إشارة إلى يأسه من النقاش، وكان على وشك الوقوف حين قال:

ـ لقد علمت أنك عنيد، ولكني لم أعلم أنك عنيد كالصخر، أعوذ بالله مما يجول في صدرك يا رجل.

غادر على عجل، وكأنه يريد أن ينقذ بقية بقيت من عقله بعد هذا النقاش الذي لم يؤدِّ إلى أي نتيجة، وجلس بعيدًا عن أرحمة في بادرة احتجاج قوية.

ضحك أرحمة، وفكر في السيف المدفون غير بعيد عن القلعة الذي حفظه لابنه بِشر، وخطر له أنه قد يموت قريبًا ويترك السيف لبِشر، وقد يتزوج ابنه من الفتاة بعد موته، ولكن ما ضَرُّه؟ فليفعل ما يريد بعد أن يدفنني.

نظر أرحمة إلى صديقه، وقال محاولًا تهدئته:

ـ دعنا نجهز أنفسنا للبحر، فقد طاب الجو، وستكثر السفن التجارية هذه الأيام، وسنصيد منها ما يجعلنا أغنياء قبل موتنا.

قام الاثنان، ومشيا معًا تجاه إحدى الغرف في القلعة، وكانت عينا بِشر تراقبهما من بعيد، وكأنه استشف نتيجة الشفاعة التي طلبها من ابن عفيصان، وامتلأ قلبه غيظًا وحَنَقًا على والده.

في صباح اليوم التالي، نشرت الغطروشة أشرعتها، وكان بحارتها في حالة معنوية عالية بعد أن تعبوا وملّوا من المكوث في قلعة مهجورة بعيدة عن أي شيء آخر، فقد تعودوا البحر ومجابهة التحديات وزيادة دخلهم من الغنائم، فهم إما عبيد اشتراهم أرحمة منذ أن كانوا صغارًا، وإما مقطوعون وجدهم في أحد الموانئ الكثيرة على الساحل، وإما هاربون وجدوا في سفينته ملاذًا، وأمثال هؤلاء لا يُطيقون مكوثًا طويلًا في مكان واحد.

ذهب الجميع، ولم يبقَ سوى حرس القلعة مع أبي مسفر، وتخلف عن السفر هذه المرة بِشر الذي طلب من والده البقاء بسبب ألم شديد في البطن.

ودَّع بِشر والده وهو نائم على فراشه، حيث كان الألم شديدًا فلم يستطع النهوض من مرقده. بعد أن لمس والده جبهته وقاس نبضه شعر أن ما بِبِشر لم يكن شيئًا قويًا، وظن أنه قد يكون تسمُّمًا من الطعام أو بردًا شديدًا في البطن.

كان أبو مسفر واقفًا مع أرحمة على فراش بِشر، فطمأنه بأنه يستطيع أن

يعالج كل مرض بعشبة يعرفها، وأنه سيقوم بغليها مع أعشاب أخرى لم يُسَمِّها لتكون بلسمًا لألم البطن الذي يعانيه بِشر.

ضحك أرحمة، وقال له:

ـ لا بأس، أعطه ما ترى من الأعشاب، ولكن لا تُسمِّمْه، فأنا لا أثق بعلاجك، أما بِشر فهو أعلم بقيمة روحه.

بعد أن أنهى حديثه ترك الجميع وغادر.

ما إن أبحرت الغطروشة وحلّ الليل واطمأن بِشر أن الجميع قد ناموا في فُرُشِهم، تسلل من مرقده بهدوء، وما إن وصل إلى الباب حتى ناداه الحارس من فوق:

ـ إلى أين أنت ذاهب يا بِشر؟ هل خفّ ألم بطنك؟ أو إن عشبة أبي مسفر بدأت تؤتي مفعولها؟

نظر بِشر إلى أعلى السور، وشاهد أبا مسفر يضحك، وقال:

ـ تقريبًا يا أبا مسفر، أجد أنني أفضل حالًا من الصباح، إن عشبتك السحرية قد بدأت تؤتي مفعولها، اتركني لأذهب قبل أن يحدث شيء لا تود رؤيته.

ـ لا تبتعد كثيرًا من هنا، فهذه ليلة موحشة لا قمر فيها.

نظر بِشر إلى السماء، فقد كانت سوداء كالحة، ولم تظهر سوى نجومها التي كانت تُشِعُّ على خجل:

ـ أرى ذلك يا أبا مسفر، ولكن قد دعاني بطني لحاجة ولا بدَّ لي من قضائها.

ـ وهل كل دعوة للبطن تستوجب الخروج من القلعة يا بِشر؟! لدينا مكان خاصّ لذلك كما تعلم.

ـ إني لا أجد فيه راحتي، دعني أبتعد قليلًا، حتى لا أسبب لك إزعاجًا، فما في بطني قد يفسد ليلك.

ـ هاهاهاها، إذن ابتعد بعيدًا، فرائحة جسدي تكفيني.

فتح بِشر الباب، وتبع خطى والده في تلك الليلة التي خرج فيها معه لدفن السيف، فقد كان بِشر يَعُد الخطوات التي يخطوها والده حتى لا يضيع المكان عنه.

وصل إلى المكان الذي يعتقد أن والده دفن السيف فيه، ولم يبقَ سوى أن يجد الصخرة الكبيرة التي دحرجها على حفرة السيف.

اضْطُرَّ لاستخدام يده ورجله في البحث عن الصخرة، فكان يفتح ذراعه ويمشي رويدًا رويدًا بشكل دائري لعلّه يجدها.

بقي في مكانه بعض الوقت، وهو يستخدم كل أطرافه لإيجاد الصخرة، حتى ارتطم بها وجهه وهو يمشي.

لم يجد وسيلة لإخراج غضبه سوى أن يلعن الصخرة التي سببت له ألمًا في أنفه وأدْمته، ثم بدأ يستجمع قواه ليدحرجها عن مكانها، وبعد عدة محاولات استطاع أن يزيحها قليلًا، ثم بدأ في الحفر حتى أخرج صندوق السيف الذي كان ملفوفًا في قطعة قماش.

احتضن الصندوق وقبّله بقوة، وكأنه يفعل ذلك مع عشيقته، وقفل راجعًا إلى القلعة، وعندما اقترب من البوابة، ناداه أبو مسفر من أعلاها مرة أخرى:

ـ أهذا أنت يا بِشر؟ ظننتك لن تعود.

انتفض بِشر فزعًا، فقد كان يعتقد أن أبا مسفر قد نام كما هي عادته:

ـ ولماذا يا أبا مسفر؟ هل تكرهني إلى هذا الحد؟

ـ أنت تعلم معزتك في نفسي، ولكني اعتقدت أن روحك قد خرج مع ما خرج من أمعائك، أو على الأقل هكذا كنت أتمنى.

قال الجزء الأخير من الجملة بنبرة تختلف عن سابقها، ولكن ذلك لم يمنع بِشرًا من سماعها:

ـ إن روحي يحبني يا أبا مسفر، وهو لا يريد أن يتركني بسهولة.

نظر أبو مسفر إلى الصندوق الذي كان يحمله بِشر، ولكنه لم يتبيَّن تفاصيله، فقد كانت نجوم الليل لا تتكرم بالكثير من النور في تلك الليلة، ولكن من الواضح أن بِشرًا كان يحمل شيئًا بين يديه:

ـ ما هذا الذي تحمله معك؟ هل تزوجت وأنجبت خلال خروجك من هنا؟ لم أكن أتصور أن عشبتي لها هذا المفعول السحري.

حاول بِشر أن يخفي التوتر الذي بدأ يغير نبرة صوته، وخاف أن يكتشف أبو مسفر أمره:

ـ كأنك سعيد هذه الليلة يا أبا مسفر؟ فأنت تكثر المزاح، ما الذي حصل؟

ـ لم تجاوبني، ما هذا الذي معك؟

ـ إنها حزمة من الأخشاب التي وجدتها في الطريق، لفَفْتها في قطعة قماش كانت معي، وأحضرتها فقد نحتاج إلى بعض الخشب ليوم غد.

ثم قال في نفسه: اللعنة عليك أيها الوغد، ألم يجافِك النوم إلا في هذه الليلة؟ فقد كنت تنام كالبقرة في الليل، ما الذي دهاك الليلة؟

كان صوت أبي مسفر عاليًا، فهو الحاكم الفعلي للقلعة في غياب سيدها، وعليه أن يمارس سلطته حتى لو كانت على ابن أرحمة:

ـ لقد طلبت من ضرار أن يدبر لنا شيئًا من الخشب قبل أن يغادر مع والدك اليوم، وردَّ علي ردًّا قاسيًا، فقال: أنا لست عبدًا عندك فاطلب من أحد حراسك أن يفعل ذلك.

قال بِشر في نفسه: حسنًا فعل، وكان من الأولى لو أنه ضرب رأسك الفارغ وحطمه كما حطمت أعصابي.

ـ أنت تعلم أن ضرارًا هو ذراع والدي ومساعده، فكيف تطلب منه ذلك؟

ـ وماذا أفعل؟ لقد وجدته أشدنا عودًا وأقوانا، فقلت لعلّنا نستفيد من هذه القوة قبل أن يغادرنا، ولكن من الواضح أنه يفقد أعصابه بسرعة.

أراد بِشر أن يهدئ من الحديث حتى يتركه أبو مسفر وشأنه:

ـ على العموم يا أبا مسفر، أنا بِشر بن أرحمة أحضرت لك خشبًا، فدعني أدخل يا رجل، لقد أطلت التحقيق معي.

أمر أبو مسفر بفتح الباب، ودخل بِشر في حلكة الليل، ثم أغلق الباب، ومشى إلى إحدى الغرف، ودَسَّ الصندوق في مكان آمن، وأوى إلى فراشه لاعنًا أبا مسفر وسخافته التي كادت تكشفه.

# الفصل السابع عشر

## ميناء مسقط

بعد عودة «لوخ» إلى عمان ملطخًا بعار الهزيمة، حاول جهدَه أن يقوم بعمل يعيد له مجده العسكري قبل أن تطلب منه قيادة القوات البحرية أن يعود إلى بريطانيا حيث يعلم أنه سيتقاعد في مزرعة عائلته بعد محاكمة عسكرية قصيرة، ولن يبقى له سوى الخدم ليأمرهم بإحضار الطعام وإسراج الخيل وتنظيف الحديقة، وقرر في نفسه شيئًا لم يقله لأحد.

حال رُسُوِّ سفينته في ميناء مسقط تأكد أن ضباطه سيقومون بواجبهم تجاه الجرحى والقتلى، ثم نزل في قارب صغير وتوجه إلى الميناء برفقة «سادلر» الذي ليس له علم بما يخطط له القبطان.

نظر «لوخ» إلى الماء الصافي أسفل السفينة، وتأمل أسراب السمك الصغير الذي يحب أهل المنطقة تناوله، فهم عادة ما يجففونه ثم يطحنونه ويأكلونه بعد أن يضيفوا له بعض المطيبات والمشهيات، كان السمك من الكثرة بحيث إن «لوخ» اعتقد أن هذه الأسراب ترافق الزورق، ولاحظ أن سرب الأسماك الصغيرة هذا يسير في اتجاهٍ ثم فجأة يغير اتجاهه، وكأنه قابل خطرًا، همس وكأنه يخاطب سرب الأسماك هذا قائلًا:

ـ سأفعل مثل فعلك يا صاحبي.

راقب «سادلر» شفاه القبطان وهي تتحرك ولم يسمع ما الذي يقوله، حتى وصل الزورق إلى الميناء، حينها نزل الضابطان وسارًا في الدروب الضيقة والأسواق إلى مكتب «غولاب» ممثل شركة الهند الشرقية في مسقط.

تعرف إليهما الحارس، ولم يعرف ما الذي يجب عليه القيام به تجاههما، فجرى أمامهما إلى مكتب «غولاب»، ثم فتح الباب دون طرق ونظر إليه، ثم التفت إلى الضيوف، وكأنه يقول له لقد حضر إليك ضيوف مهمُّون.

قام «غولاب» من مكتبه وكرر حركته التي يقوم بها دائمًا حين يقابل الشخصيات المهمة، فألصق كفّيه بعضهما ببعض ووضعهما أمام صدره، ثم ركع قليلًا، وعلى وجهه ابتسامة لم يميزها «لوخ»، ثم قال:

ـ إن ما حصل لكم شيء مؤسف يا سيدي، وأحمد الآلهة على أنكم بخير.

لم يستمع «لوخ» لما يقوله الرجل، فقد جلس قبل أن يكمل مجاملاته، وأمر «سادلر» بالجلوس في الكرسي المقابل، وطلب منه إغلاق الباب:

ـ اسمع يا «غولاب»، إن الوضع خطير جدًّا، وهو أخطر من أن أضيع وقتي في سماع مجاملاتك، فأريدك أن تنصت لما سأقول.

ـ إنني حسن الإنصات لكل ما تقول يا سيدي.

وقف «لوخ» فجأة، وكأن عقربًا لدغته:

ـ السيف يا «غولاب»، السيف اللعين هذا يجب أن يعود إلينا أو إنني سأنتهي، هل تفهم ذلك؟

لقد تعامل «غولاب» مع جميع أنواع البشر في ميناء مسقط، وهو يعرف أنه عندما يواجه شخصًا غاضبًا فإن عليه أن يكلمه بهدوء ليمتص غضبه:

ـ أنا أفهم يا سيدي، فما المطلوب مني؟

ـ لقد أحضرت لنا أحمد، ذلك الشاب الأسمر صديق بِشر بن أرحمة، أريدك أن تحضره لي الآن.

استغرب «غولاب» من هذا الطلب المفاجئ، وبان ذلك على وجهه:

ـ سأحاول يا سيدي.. سأحاول، وأتمنى أن يكون في مسقط ولم يغادرها، فهؤلاء البحارة لا يبقون في مكان واحد فترة طويلة.

ـ اذهب الآن وأحضره، وسنبقى أنا والنقيب «سادلر» بانتظارك حتى تعود.

بان على ملامح «غولاب» الغضب، واختفت ابتسامته بعد أن سمع طلب القبطان الغريب، فقد كان يعتقد أنه حصل على كل المعلومات التي يطلبها من أحمد، ولكن ها هو عاد بعُنْجُهِيّته مرة أخرى وطلباته التي لا تنتهي.

ركع «غولاب» قبل أن يغادر، وهو يحدث نفسه بأنه سيقدم قربانًا للآلهة إن ذهب هذا الرجل من مسقط ولم يعد مرة أخرى، وهو لا يهتم إن ابتلعه البحر أو أكلته الأسماك، فسيقدم القرابين للآلهة على كل حال إن اختفى هذا الرجل من أمامه فجأة.

خرج من الباب وهو يفكر في القربان الذي يجب عليه تقديمه للآلهة حتى تتقبل دعاءه، ففي آخر مرة قدم سلة من الفاكهة للآلهة لتحمي عائلته التي كانت قادمة من «كوشين» بحرًا، ومن الواضح أنها قد قبلت الفاكهة؛ لأن عائلته وصلت سالمة، ولكن ما الذي يجب عليه تقديمه لها حتى تبعد عنه شر «لوخ» هذا؟ هل تكفي دجاجة أو حتى عنزة؟

وفي المكتب جلس «لوخ» يدخن غليونه، وهو ينظر إلى «سادلر» بتوتر، لم يستطع «سادلر» أن يسيطر على نفسه بعد كل تلك المشاكل التي حلّت عليهم، فسأل «لوخ» عما يجول في خاطره.

رد «لوخ» بهدوء وبعكس ما توقع «سادلر»:

ـ إن أحمد هذا قد يكون له دور في مساعدتنا على إيجاد السيف، وأظن أن هذا هو وقته.

فكر «سادلر» بأن دوره قد حان ليتحمل حماقات «لوخ» بعد أن هرب «غولاب» بجلده.

ـ ولكن كيف؟ فأنت تعلم أنه يعيش هنا بعيدًا عن أرحمة وابنه، فكيف سنحصل منه على السيف؟ ومن الواضح أنه لا يعرف أين يقيم أرحمة أيضًا، فكيف ستستفيد منه؟

لم يكن «لوخ» هادئًا كما هو واضح من صوته؛ ففي صدره قهر وحنق وغضب مما حصل، ومما قد يحصل مستقبلًا:

ـ هل تذكر حين قال: إن بِشرًا يحب فتاة وينوي الزواج منها، ولكن والده يرفض ذلك؟

ـ نعم، أذكر ذلك، ولكني لا أستطيع أن أقرأ عقلك، قل لي أرجوك ما الذي تفكر فيه؟

عدّل «لوخ» من جلسته، ونفث الدخان من فمه، ثم قال:

ـ سنغري أحمد هذا بالذهاب معنا إلى حيث يعيش بِشر، أيًّا كان هذا المكان الذي يعيش فيه، ثم سندفع لبِشر ما يكفي لزواجه من الفتاة على شرط أن يحضر لنا السيف من والده.

ثم أكمل «لوخ» متوقعًا رد «سادلر»:

ـ أعلم أنك ستظن أنني مجنون، ولكن هذا الجنون هو الذي سينقذ سمعتي من الدمار في أروقة وزارة البحرية، إن هذا السيف هو همِّي الآن، ولا بدَّ لي من إعادته لإنقاذ سمعتي، تخيل معي لو أن إبراهيم باشا تجاوب مع مخططنا وجاء إلى الخليج لضرب الوهابيين، فما في ظنك قد يحصل؟ في أثناء مسيرة إبراهيم باشا من الدرعية إلى الخليج سيواجه الكثير من هجمات الوهابيين، وستحصل صدامات قاسية بينهما، وهذه الصدامات ستضعف الطرفين، وعندما يصل إلى هنا سندعم قواته بقوات سلطان عمان وبعض الكتائب القادمة من فارس والهند، سيكون حينها ضعيفًا وبحاجة إلينا، ومن دوننا لن يستطيع حتى العودة إلى دياره سالمًا، ولن يكون له خيار سوى أن يتحالف معنا حتى النهاية، حينها سنقضي وبشكل تام على قوة القواسم وكل سفن القراصنة في الخليج، ومن سيكون صاحب الفضل في كل ذلك؟

ثم نفخ الدخان من فمه مرة أخرى، وهو ينظر إلى الفراغ، وكأنه يتخيل نفسه بعد أن ينجح في مهمته. وتمكنت منه تلك النظرة الخبيثة التي تسيطر على وجوه البشر حين يشعرون أنهم امتلكوا العالم، ولهم وحدَهم حق التصرف به:

ـ أنا يا «سادلر»، إنه أنا، وستختفي وصمة عار الهزيمة من سجلي، ولن يبقى سوى النتائج النهائية التي حققتُها على أرض الواقع.

بانت ملامح الغضب على «سادلر»، وعرف أن القبطان يخطط لقطف ثمار جهدِه، فهو الذي سيغامر بحياته لإيصال السيف إلى إبراهيم باشا، ولكن قد يكون مع «لوخ» حق في نهاية الأمر، إن لم نحصل على السيف فلن تكون هناك مغامرة، إن ما قد يفرح «لوخ» قد جعل «سادلر» يعيد النظر

في حساباته، فقد كان يعتقد أنهما يحققان هدفًا واحدًا، وإذا بـ«لوخ» يفكر في نفسه فقط، دون أن يجعل لـ«سادلر» دورًا مهمًّا في هذه المهمة.

بدأ «سادلر» ينظر إلى «لوخ» بطرف عينيه، ويفكر في كيفية أن يحصل هو أيضًا على نصيبه من المجد إن كان هذا الرجل يريد أن يحتكر المجد لنفسه.

جلس الرجلان يفكران كلٌّ في نفسه، يقطعان صمتهما أحيانًا بجملة يقولها هذا فيرد عليه الآخر، ولكن الجو العام أصبح متوترًا.

بعد مُضي فترة من الزمن دخل «غولاب» وبرفقته أحمد، وكانا يتصببان عرقًا، فحاول «غولاب» أن يشرح لـ«لوخ» الجهد الذي قام به ليجد أحمد، غير أن «لوخ» تجاهله، والتفت إلى أحمد وطلب من «غولاب» الترجمة:

ـ هل تعرف أين مكان بِشر بن أرحمة يا أحمد؟

ردَّ أحمد مستغربًا من تكرار الأسئلة عليه من الرجل الذي طلب منه الذهاب منذ فترة، ولكنه بالتأكيد لم يفهم نفسية هؤلاء الغربيين وكيف يفكرون:

ـ لا يا سيدي، لا علم لي بمكانه!

ـ هل تستطيع على الأقل أن تدلنا على الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها؟

ابتسم أحمد وقال في نفسه: ها هو الإنجليزي المجنون يعيد الأسئلة نفسها على سمعه فهل هو سكران؟!

ـ سبق أن قلت لك هذه الأماكن، ولكن لا أضمن في أيّها يمكن أن يوجد.

كانت أسئلة «لوخ» سريعة ودون أي تعابير سوى ذلك الغضب المسيطر على وجهه ونبرة صوته، مما جعل إجابات أحمد أيضًا مختصرة.

ـ لقد ذكرت أنه يحب فتاة من العتوب في الزبارة على الساحل القطري، وأن والده يعارض زواجهما هل تذكر؟

قال أحمد في نفسه: جميل أن يذكر هذا الأحمق الحديث الذي دار بيننا، ولكن لماذا يعيد ويكرر الأسئلة المملة نفسها التي سألها سابقًا؟ ثم زفر وكأنه أُصيب بالملل:

ـ نعم يا سيدي.

لاحظ «لوخ» ذلك وحاول أن يغير مسار الحديث ويضيف إليه شيئًا جديدًا:

ـ اسمع يا أحمد، سأدفع لك ما تريد في سبيل أن تكون معنا في بحثنا عن بِشر، وسأدفع لك عن كل يوم تمضيه معنا، فهل توافق؟

فرح أحمد بهذا العرض، فقد عاش فقيرًا طوال حياته، ويريد أن يكوّن لنفسه ثروة تغنيه عن ذل السؤال، وقد تُغَيِّر مجرى حياته أيضًا:

ـ سأكون مسرورًا أكثر لو قلت لي كم ستدفع؟

ـ سأدفع لك عشر روبيات يوميًّا، وهذا مبلغ أكثر من كافٍ على ما أظن؟

ـ حسنًا.. أوافق، وأريد أن يكون هذا الاتفاق مكتوبًا وأن يشهد عليه «غولاب» والضابط الذي معك.

ـ إنك تاجر يا أحمد ولست بحّارًا، لا بأس سنكتب الاتفاقية.

ـ دعنا إذن لا نضيع وقتنا يا سيدي، ولنذهب إلى الزبارة في أسرع وقت ممكن، فلعلّ بِشرًا يكون هناك الآن.

## الفصل الثامن عشر

**قلعة الدمام، الساحل الشرقي للجزيرة العربية**

في صباح اليوم التالي، حمل بِشر بعض أغراضه، وأخذ الصندوق الذي يحوي السيف، ثم لبس عمامة ملونة، ولفَّ وسطه بحزام من القماش كما يفعل البحارة، وودع حرس القلعة، ثم ركب حمارًا وغادر تجاه الصحراء.

ركض أبو مسفر في إثْره محاولًا معرفة إلى أين سيذهب، ولكنه لم يلتفت لنداءاته، بل رفع يده ملوِّحًا له من بعيد.

التفت أبو مسفر إلى حرس القلعة وسألهم عن وجهة بِشر، فكان ردُّهم واحدًا:

- إلى القطيف.

- إلى القطيف؟!

تساءل أبو مسفر بعد أن زَمَّ عضلات جبهته مستغربًا من الجواب، ولكن القطيف قريبة جدًّا بحرًا، فلماذا يذهب عن طريق البر؟ ثم مَطَّ شفته السفلى ورفع يديه وكأنه يقول لم أفهم.

من بعيد بدت القطيف لبِشر كبقعة سوداء في بحر من الرمال، كلما اقترب منها كبرت هذه النقطة واسودت وأصبحت أكثر اتساعًا، حتى دخل الواحة من إحدى طرقها، وسار فيها متأملًا كثرة أشجار النخيل والعيون والسواقي المنتشرة فيها، بات ليلته تلك في القطيف، ومشى في أسواقها وتَمَوَّن، ثم قرر أن يعود مرة أخرى إلى الدمام.

في طريقه إلى ميناء الدمام حاول قدر الإمكان أن يكون بعيدًا عن الطريق الرئيسة التي تربط بين القطيف والدمام؛ حتى يكون على أبعد مسافة ممكنة من قلعة والده، وحتى لا يراه أحد وهو متجه جنوبًا مرة أخرى.

لم يكن ميناء الدمام كبيرًا كما هو الحال في البحرين أو مسقط، ولكنه كان نقطة تموين للسفن المتجهة من الخليج إلى البصرة أو العكس، وكان هناك الكثير من السقاة الذين يبيعون الماء العذب للبحارة نظير مبالغ كبيرة من المال، والماء المبيع يكون مجلوبًا من منابع البحرين التي تحت الماء أو من شط العرب أو من عيون ميناء «أبو شهر»، والماء شأنه شأن الخشب والبهارات والعنبر والعطور، وغيرها من البضائع التي يجب دفع مبالغ كبيرة نسبيًّا للحصول عليها، ولكنه البضاعة الوحيدة التي لا يستغني عنها الإنسان أبدًا.

راقب بِشر الميناء بعين فاحصة، ليعرف السفن ورَبَابِنَتها الذين يُطلَق عليهم النواخذ هنا، التي مفردها نوخذة، وهؤلاء شأنهم شأن رَبَابِنَة السفن التي تجوب البحار، سادة السفينة التي يقودونها، وهم أصحاب الأمر والنهي فيها.

كانت هناك سفن ترفع الأعلام المختلفة، فقد اتفقت الحكومة البريطانية مع زعماء قبائل المنطقة على أن يرفعوا أعلامًا حمراء لتمييزهم عن القراصنة،

فابتدع زعماء القبائل أعلامًا على حسب أهوائهم يجمع بينها اللون الأحمر، ولكن شكل العلم بالمجمل يخبر عن مصدر السفينة وإلى أيٍّ من المناطق تنتمي.

لم يكن بِشر يريد أن يركب سفينة يملكها العتوب؛ فقد يفتضح أمره فيلقى القبض عليه ليكون ورقة تفاوض ضد والده، أو قد يقتل لثأر أو يسطو والده على السفينة التي قد يكون فيها؛ لأن والده كان يتابع سفن العتوب في المنطقة، وعلى هذا فضَّل أن يأخذ وقته مراقبًا السفن وربابنتها، وخصوصًا أنه أخذ الطريق إلى القطيف ومنها إلى الدمام مرة أخرى محاولًا قدر إمكانه تمويه ذهابه إلى الزبارة لملاقاة حبيبته.

قرر بعد فترة أن يركب سفينة عمانية؛ فالسلطان على علاقة حسنة بالبحرية البريطانية التي لن تهاجم تجارته، ولكن خوفه الوحيد هو أن يهاجم والده هذه السفينة فيلتقي معه في وسط البحر فتكون مصيبة، وخصوصًا إن وجد معه السيف.

وجد سفينة متوسطة الحجم يطلق عليها أهل المنطقة «بوم»، ترفع علمًا مقسومًا من الوسط طرفه باللون الأحمر وقاعدته باللون الأبيض، وعرف أن هؤلاء على اتفاق مع الإنجليز وأنهم إما من البحرين وإما من قطر؛ فأعلامهم متشابهة بعض الشيء، وعندما اقترب من الرُّبَّان وجده سَمْحًا كريمًا مع بحارته، فشجعه ذلك على الحديث معه، ومن مكانه على طرف الميناء حيث ترسو السفينة، انتظر حتى ينتبه إليه النوخذة، وحين فعل، لوَّح له بيده مُسَلِّمًا ثم سأله:

ـ السلام عليكم يا سيدي، من أين أنتم؟ وإلى أين ذاهبون؟

ـ وعليكم السلام يا بني، نحن من قطر وذاهبون إلى هناك.

- وأين سترسون في قطر؟

- سنتجه إلى البحرين لنشتري بضاعة من هناك ثم نرسو في الزبارة.

خفق قلب بِشر حين سمع اسم الزبارة؛ فهذا الاسم له وقع في قلبه، وكأن النوخذة ذكر اسم حبيبته، فسأله:

- هل تسمح لي بأن أرافقكم؟

- لا بأس يا بني، ولكن هل ستدفع لنا أو ستعمل نظير نقلك؟

- سأدفع لك يا سيدي، فلديَّ ما يكفي من المال لهذه الرحلة.

- حسنًا، تفضل معنا، فسنبحر مساء اليوم إن شاء الله.

قفز بِشر إلى السفينة، ووجد مكانًا ليضع فيه أغراضه، ثم طلب شربة ماء وجلس يتأمل البحارة والسفينة التي ستكون منزله أيامًا مقبلة.

ما إن تحركت السفينة حتى حاول بِشر أن يجد بين بحارتها أصدقاء يتحدث معهم خلال الرحلة، فكان يتأمل وجوههم ويحلل شخصياتهم حتى يعرف كيف يتعامل معهم، سمع صوتًا من مؤخرة السفينة يناديه باسم «الغريب»، لقد كان النوخذة يوجه نداء له ليشرب الشاي معه، نظر إليه بِشر مستغربًا.

- نعم، إنه أنت يا بني، فأنا أعرف بحارتي باستثنائك أنت الذي لم تقل لي ما اسمك حتى أناديك به.

- اسمي بِشر بن عبد الله يا سيدي، وأنا من الدمام متوجهًا إلى أخوالي في الزبارة.

- يا بِشر، إن الإنسان عبارة عن حياة، وكل حياة عبارة عن قصة، قد تكون

جميلة وقد تكون بائسة، أنت من تروي قصتك، وأنت حر في كيفية روايتها، ولكن لا تجعلها بائسة ولا تحتقرها.

ـ لم أفهم ما تقول يا سيدي.

أشار النوخذة إلى كوب الشاي الموضوع أمام بِشر:

ـ اشرب الشاي أولًا ثم أكمل لك.

ووضع قطعًا من السكر بالقرب من فنجانه، فوضعها بِشر في فمه بين أسنانه ثم شرب الشاي محاولًا خلط الاثنين في فمه؛ فقد كانت هذه عادة سكان المنطقة في شرب الشاي.

بعد أن ارتشف عدة رشفات واطمأن لنظرات النوخذة الحنون، عرف أن قائد السفينة من النوع الذي يمكن الوثوق به، وإن كانت حياة بِشر مع والده علمته أن من الخطأ الوثوق بالناس بسرعة.

ما إن وصل فنجان بِشر إلى منتصفه، حتى صب النوخذة له المزيد من الشاي كبادرة احترام وتقدير.

ابتدر بِشر بسؤال النوخذة بعد حفلة شرب الشاي تلك:

ـ لم أفهم يا عمّ ما الذي قصدته بقولك الأخير.

وضع النوخذة فنجانه أمامه وأصدر صوتًا من بلعومه بعد أن نفخ زفيرًا قصيرًا دلالة على أنه يتلذَّذ بالشاي:

ـ أقصد يا بني أن لكل منا قصة، فأنت وما تظن بنفسك.

ـ يا عمّ، إنني قليل التعليم، وكل ما أعرفه هو ما علمنيه والدي والشيخ في الكُتاب، وما تقوله لي يطير فوق رأسي.

ـ يا بني، إذا سألك شخص عن نفسك، فلا بدَّ أن تعرِّف نفسك أولًا كما تحب أن يعرفك الناس، ولا تقل ليس لدي الكثير لأقوله عن نفسي، فهذا لا يجب أن يقوله امرؤ عن نفسه، هل فهمت الآن؟

سكت بِشر قليلًا، محاولًا تجميع أفكاره؛ فالنوخذة يريده أن يتحدث عن نفسه بإطناب، وهو لم يستعد لذلك وعليه أن يقول قصته بالتفصيل محاولًا أن يتفادى الكثير من الذي لا يحب أن يطلع عليه الناس، فقال وهو يبتسم للنوخذة:

ـ حسنًا، اسمي بِشر بن عبد الله، وأنا من سكان الدمام، والدي هو عبد الله بن محمد الشمالي، تاجر يعمل في تجارة الخيول، وأنا ذاهب إلى أخوالي في الزبارة بضعة أيام، هل هذا يكفي يا عمّ؟

ضحك النوخذة ضحكة مسموعة:

ـ نعم، إنه يكفي، ولكن قل لي ما ذلك الشيء الملفوف في قطعة القماش الذي تضعه مع حاجيَّاتك، أرى أنك تبالغ في الحرص عليه!!

ـ ها.. نعم، ذلك الشيء!! إنه هدية لأخوالي من والدتي، ولا أريد أن أفقدها.

أشار النوخذة إلى غرفة صغيرة في مؤخرة السفينة وقال:

ـ إذا كنت فعلًا لا تريد أن تفقدها فسلمها لي أمانة، سأضعها مع حاجيّاتي في غرفتي هذه.

ـ لا، ليس هناك داعٍ لذلك، سأبقيها معي، وأنتبه إليها فلا أريدها أن تغيب عن ناظري.

ـ ألا تريد أن تنام أو تذهب إلى الحمام؟

ـ لا يا سيدي، الوقت مبكر للنوم، ولست أريد الحمام الآن، ولكن لماذا تسأل؟

ضحك النوخذة ملء شِدقيه:

ـ إنني لست أسألك أتريد أن تنام الآن، ولكن بمعنى ألن تنام في وقت ما؛ لأنك إن نمت ستبقى هديتك الثمينة إلى أخوالك دون حراسة، إلا إذا كنت تريد أن تتوسد الصندوق وأنت نائم، ولكني لا أعرف كيف ستتصرف حين تذهب إلى الحمام، فكما ترى أن حمام السفينة صغير، وبالكاد يتسع لشخص واحد يجلس، فما الذي ستفعله بالصندوق حينئذ؟ إنك لن تضعه على رأسك، أليس كذلك؟

ـ حسنًا يا عمّ، ولكن أرجوك، اعتنِ به.

ـ قلت لك لا تقلق يا بني.

استلم النوخذة صندوق السيف الهندي ملفوفًا بقطعة القماش من بِشر، ووضعه في غرفته.

# الفصل التاسع عشر

## الخليج

وقف أرحمة في مقدمة الغطروشة يراقب البحر من جميع الاتجاهات، فقد مضت عدة أيام في البحر دون أن يشاهدوا أي سفينة أخرى، والبحارة بدورهم بدأوا يتململون ولا بدَّ من عمل شيء يشغلهم عن الصراعات التي تحصل فيما بينهم، وخصوصًا أنهم جاؤوا من خلفيات متنوعة، وإيجاد الأعذار لأي صراع أو قتال بينهم يكاد يكون سهلًا جدًّا.

وضع ابن عفيصان يده على كتف أرحمة، وحين التفت إليه أرحمة كان ابن عفيصان ينظر تجاه الغرب حيث سفينة خشبية مشابهة للغطروشة تسير في الاتجاه المخالف.

ابتسم أرحمة ونظر لابن عفيصان بخبث:

ـ ما زال نظرك جيدًا يا ابن عفيصان.

ـ نعم، فلم أكبر مثل الكثير من الخلق الذين سقطت أسنانهم، وضعُف بصرهم وأصبحوا لا يرون أبعد من أطراف أنوفهم.

ضحك أرحمة:

ـ قد تكون محقًّا يا ابن عفيصان، ولكني ما زلت أرحمة بن جابر الذي يرعب الناس.

ـ دعنا من كثرة الحديث يا أرحمة، وأرنا ما هوية هذه السفينة، وما الذي نستطيع أن نأخذه منها.

نظر أرحمة مرة أخرى بالمنظار، ثم تغيرت ملامح وجهه، وقال:

ـ إنها لعتوب البحرين يا ابن عفيصان، استعدوا.

عرف البحارة أنهم مقبلون على غنيمة ثمينة، فأداروا الدفة، وحولوا الشراع وتناولوا الكلاليب، وتسلحوا بما لديهم من سيوف ورماح وبنادق، فقد كانوا ينتظرون هذه اللحظة منذ فترة طويلة، وأغلبهم إن لم يكن كلهم قد خبُر لذة الهجوم والانتصار والحصول على المغانم.

توجهت الغطروشة تجاه السفينة الأخرى، وزادت في سرعتها، ثم سكب البحارة الماء على أشرعتها في محاولة منهم لجعلها أكثر فاعلية مع الهواء، واقتربت الغطروشة من ضحيتها حتى أضحت قريبة منها.

ما إن تقلصت المسافة بين الغطروشة والسفينة الأخرى حتى رمى البحارة الكلاليب المربوطة بالحبال عليها، وجرّوها بشكل سريع، في محاولة لتقريبها أكثر فأكثر ليسهل القفز عليها وقتال بحارتها.

حاول بحارة السفينة الأخرى قطع الحبال التي تربط الكلاليب حتى يهربوا، ولكن الحبال كانت قاسية ومتينة، وما إن يقطعوا حبلًا حتى تصل إليهم عدة كلاليب أخرى، فاستعد الطرفان للقتال المتلاحم، ووفروا ذخيرتهم لآخر لحظة.

التحمت السفينتان بعضهما ببعض ودوّى أزيز الرصاص وسقط البحارة

من الطرفين، ثم رُميت الرماح، وكثُر الصراخ، واختلط البحارة بعضهم ببعض، وتشابكوا بالأيدي، واصطبغت أسطح السفينتين بالدم، وسقط بعض البحارة الجرحى والقتلى في البحر حتى قلَّ عدد المقاومين بمرور الوقت، وبقي منهم القليل حول شاب صغير في العشرينيات من عمره ممسكًا بسيف وبمسدس وقد بان عليه الخوف من نتيجة المعركة.

توقف القتال وتقابل الطرفان ينظران بعضهما إلى بعض، وكان عدد قتلى الغطروشة أقل بكثير من قتلى السفينة الأخرى نظرًا لخبرة رجال أرحمة في القتال وتمرسهم به، فظهر أرحمة يرافقه ابن عفيصان من بين البحارة وطلبا من بقية بحارة السفينة الأخرى الاستسلام أو الموت.

أسقط من بقي من بحارة السفينة البحرينية أسلحتهم وجَثوا على ركبهم، عدا الشاب الصغير، وعبدين قويَّيْن وقفا بينه وبين رجال أرحمة.

أمر أرحمة بتقييد البحارة المستسلمين، مراقبًا الشاب وعبديه اللذين لم يستسلما بعد، محاولًا ألَّا يعيرهم أي انتباه، فقد كان يعلم أن المسدس الوحيد الذي بيد الشاب خاليًا من الرصاص؛ لأنه لم يستخدمه للدفاع عن بحارته حتى تلك اللحظة، وبيد كل من العبدين خنجران صغيران ليسا ندَّين للسيوف التي يحملها أتباعه.

بعد أن فرغ من نقل الجرحى والأسرى بعيدًا، نظر إلى الشاب مرة أخرى قائلًا:

- ألن تستسلم يا بني؟

لم يجب الشاب، بل نظر إلى أرحمة بحَنَق، كرر أرحمة سؤاله مرة أخرى بصوت أعلى هذه المرة:

ـ ألن تستسلم يا بني؟

ـ أنت إذن أرحمة بن جابر؟ لقد سمعت عنك الكثير، وقد حذرني والدي منك.

ـ أنا لا أضمر لك شرًّا يا بني، فأنت صغير السن، ولا تعرف عن الصراعات التي بيني وبين قومك، فاستسلم حتى تسلم بنفسك، فأنا لا أريد سوى ما لديكم من بضاعة.

ـ لن تأخذ ما تريد إلا على جثتي، فأنت لص يجب قتله.

ـ ما اسمك يا بني؟

ـ أنا أحمد بن سلمان.

ـ إن بيني وبين أبيك عداوة لا ينهيها سوى الموت، ولكنك لست عدوًّا لي، فدع عنك السيف ومُرْ عبيدك بالاستسلام فنحن لسنا هنا لقتلك.

ـ ولكني سأقتلك، فأنت عدو لوالدي.. ولي أيضًا.

تدخل ابن عفيصان محاولًا تهدئة الأمر، فهو يعلم أن بمقتل هذا الشاب ستصبح الأمور أكثر تعقيدًا، والشاب غِرٌّ صغير لا يعرف نتيجة عمله.

خلال السنوات الماضية كان أرحمة يسطو على سفن العتوب ويصادر البضائع التي عليها، وقد يأسر بعض البحارة، ثم يطلق سراحهم، ولكنه لم يتسبب في مقتل أي من أبناء عمومته.

تقدم ابن عفيصان ليكون بين أرحمة والعبدين، ومد يديه ليحول بين هجوم أي من الطرفين على الآخر، فما كان من أحد العبدين إلا أن حاول طعنه بالخنجر، فجاءت الضربة في ذراعه التي مسك بها بقوة محاولًا إيقاف النزيف.

بادر أرحمة وأطلق النار على العبد وقتله، فما إن شاهد العبد الآخر زميله ميتًا حتى رفع خنجره، وصرخ صرخة قوية، وهجم على أرحمة الذي وضع السيف في أحشائه حتى خرج من ظهره، فسقط بجوار صاحبه.

حاول أرحمة أن ينهي هذه المواجهة غير المتكافئة، فوضع طرف سيفه في صدر الشاب وأمره بأن يستسلم؛ لأن الكثير من الأرواح قد أزهقت إرضاء لغروره، فما كان من الشاب سوى أن عاد إلى الوراء بتأثير حد السيف، حتى وقف على طرف السفينة، وخلال رجوعه للوراء لم ينتبه إلى أن قدمه قد دخلت في حبل المرساة الملفوف على سطح السفينة فتعثر وسقط إلى الخلف تجاه البحر.

لم يستطع أرحمة اللحاق بالشاب الذي اختفى عن ناظريه فجأة، فتقدم إلى طرف السفينة، فوجد الشاب معلقًا بإحدى قدميه وقد ضرب رأسه جسم السفينة بقوة فمات من تأثير الصدمة.

لم يستمتع أرحمة بنصره، فكان عقله يقول له إن الأمور بينه وبين أبناء عمومته العتوب قد وصلت إلى نهايتها، وإنهم لا بدَّ لاحقوه ليقتلوه وليس هناك مكان آمن بعد الآن.

أمر أرحمة بسلب السفينة البحرينية، ونقل كل ما فيها إلى الغطروشة، وأمر من بقي من بحارتها بإعادة الجثمان والسفينة إلى أصحابها، وطلب منهم أن ينقلوا ما حدث بأمانة إلى الآخرين، حتى يعلم أهل الشاب أن مقتله كان عن غير قصد.

وعلى بعد مسافة، مرت سفينة أخرى، جلس على متنها بِشر والنوخذة القطري، والتفتا تجاه السفينتين، وسأل بِشر النوخذة هل يعرف هويتيهما.

رفع النوخذة المنظار إلى عينيه، ونظر تجاه السفينتين، وقال:

- أما إحداهما فهي لعتوب البحرين، وأما الأخرى فإن بيرقها غير واضح، فهو ملتف على السارية.

- وما الذي تعتقد أنه حاصل هناك؟

- لا أعلم يا بني، ولكن أرى بعض الجثث تطفو على سطح البحر.

- هل هم في قتال بعضهم مع بعض؟

- لا أرى قتالًا، قد يكونون انتهوا منه، ولكني أرى مجموعة من الرجال تتحدث بعضها مع بعض، ثم رفع يده إلى السماء وقال: اللهم جنبنا شر البحر.

ردد البحارة خلفه: آمين.

أما من الجهة الأخرى فقد صرخ أحد بحارة أرحمة:

- هناك سفينة إلى الغرب منا.

رد أرحمة:

- دعها، فما شاهدناه من دم سيغنينا عن المزيد من الدماء بعض الوقت.

ثم أصدر أوامره بشكل واضح لبحارته:

- دعوا السفينة تذهب لحال سبيلها، وفُكُّوا الكلاليب، وارموا القتلى في البحر، وانقلوا الجرحى إلى الغطروشة، وليقم مرقع الأشرعة بدوره في علاج الجرحى، ودعونا نعد إلى القلعة في الدمام.

# الفصل العشرون

## ميناء الزبارة، الساحل القطري

شقت السفينة «إيدن» تتبعها سفينة أصغر تحمل اسم «ميركوري» طريقهما من مسقط إلى الزبارة، وكان الهدف من هذه الرحلة هو البحث عن السيف المفقود.

كانت الخطة تقتضي أن تبقى السفينة «إيدن» مدة يومين فقط على ساحل الزبارة، وفي حال استجد أمر ما وطالت فترة البحث عن أرحمة يعود «لوخ» بسفينته، وتبقى «ميركوري» لحين انتهاء «سادلر» من مهمته.

لم يحدث ما يعكر صفو الرحلة غير خوف الكابتن «سادلر» من أن الوقت بدأ يضيق وأنه تلقى بعض الأنباء من «غولاب» عن مواجهات شرسة تحدث بين الوهابيين وقوات إبراهيم باشا، وأن الأخير ما زال يتبع سياسة الأرض المحروقة، مما قد يحرمهم من تحالف سلطان عمان الذي يرى في إبراهيم قاتلًا ومجرمًا يصعب إعلان التحالف معه.

ومن الأنباء المروعة التي جاءت من نجد مؤخرًا أيضًا، كما أخبر «سادلر» القبطان «لوخ»، أن إبراهيم باشا قد هاجم بعض المناطق في نجد، ولم يُبقِ

على أي حياة فيها، وكان التجار والمسافرون يتحدثون عن قتل النساء والأطفال بدم بارد، ولم يكن «سادلر» مهتمًّا حقيقة بهذه المجازر كما هو مهتم بمهمته.

فهذا الصراع سيجعل مهمته أصعب من قبل، وسيرى الناس فيه إنجليزيًّا حليفًا لإبراهيم باشا، مما قد يعرضه للقتل.

بعد عدة أيام رست السفينتان في ميناء الزبارة، وكان مشابهًا لبقية مواني الخليج إلا أنه كان أصغر، ولم تكن تتواجد فيه سوى بضع سفن للتجار بالإضافة إلى قلعة صغيرة على الساحل، وقرية بُنيت منازلها من الطين.

سأل القبطان «لوخ» أحمد عن الذي يجب فعله الآن.

ـ أقترح أن أنزل أنا والكابتن «سادلر» إلى البر بصفته تاجرًا إنجليزيًّا يبحث عن اللؤلؤ، وأنا مرافق له في سعيه هذا، وقد نحتاج إلى بضعة أيام حتى نبحث عن بِشر بن أرحمة.

نظر إليه «لوخ» مستغربًا:

ـ بضعة أيام؟! اعتقدت أنك تعرف عنه الكثير؟

ـ سيدي، إن المسألة أعقد مما تتصور؛ فأنا لا أستطيع أن أذهب إلى منزل الفتاة التي يحبها وأسال أكان بِشر هناك، نحتاج إلى أن نسأل الناس بشكل لا يلفت الأنظار إلينا، عليك أن تتحلى بالصبر.

لم يعجب «لوخ» أن يغادر بسفينته دون أن يحصل على أخبار من «سادلر» وأحمد عن السيف؛ فإبحاره يعني أنه سينقطع عن قضية السيف، ولكن في أسوأ الاحتمالات فإن «ميركوري» ستحمل «سادلر» ـ إن حصل على السيف ـ إلى القطيف.

ـ حسنًا، تذكروا أنني سأبقى هنا مدة يومين وبعدها سأغادر، وستبقى «ميركوري» لتعود بكم.

غادر الكابتن «سادلر» وأحمد في زورق صغير ووصلوا إلى البر، وما إن شاهدهم الأطفال حتى اجتمعوا حولهم وهم يراقبون لباس الكابتن «سادلر» الغريب، مما لفت نظر بعض الرجال الجالسين على كراسي من خشب أمام الميناء، فأرسلوا أحد الرجال لاستدعاء الضيوف.

وصل أحمد و«سادلر» إلى المجلس، فهُرع أحمد إلى أحدهم وقبّل رأسه وأنفه:

ـ سيدي أبو مطر، تسرني رؤيتك مجددًا، أرجو أن تكون بخير؟

نظر أبو مطر إلى أحمد وكأنه ينظر إلى ابنه:

ـ إن لك وحشة يا أحمد، لقد كنت أراك دائمًا مع بِشر، ولكنك أتيت مع إنجليزي غريب اليوم، أين هو بِشر منك؟

ـ بودِّي والله لو أراه، ولكني أتيت مع صديقي الإنجليزي التاجر لشراء بعض اللؤلؤ من هنا.

نظر أبو مطر إلى «سادلر» مطولًا، ثم أعاد النظر إلى أحمد:

ـ ومن هذا الإنجليزي؟

ـ اسمه «سادلر»، وهو تاجر حديث في سوق اللؤلؤ، وطلب مني أن أُعرِّفه بالتجار في المنطقة، وهذه أول منطقة ننزل فيها بعد أن قابلته في مسقط.

ـ حسنًا يا أحمد، اذهبوا إلى منزلي وارتاحوا قليلًا، وسأحضر إليكم لاحقًا للغداء، فأنا أريد سماع أخبارك وأخبار صاحبك.

ذهب أحمد و«سادلر» إلى بيت أبي مطر، وطرقا الباب فخرج لهما خادم من المنزل وعرف أحمد، فطلب منهما التوجه إلى المجلس، وبعدها أحضر لهما شيئًا يشربانه لحين مجيء وقت الغداء.

جاء أبو مطر ومعه بعض الرجال الذين كانوا برفقته في الميناء، فأكلوا وتحدثوا وضحكوا، ثم تفرق الضيوف ولم يبقَ سوى أبي مطر وضيفيه، فأخرج أبو مطر حبة لؤلؤ من جيبه وسلمها لـ«سادلر» ليراها ويعطيه رأيه فيها، نظر «سادلر» إلى اللؤلؤة وأدارها بين أصابعه، ثم أعادها إلى أبي مطر قائلًا:

ـ إنها جميلة.

ـ أحمد، إن صاحبك هذا ليس تاجر لؤلؤ، فمن هو؟

بلع أحمد ريقه، ونظر إلى «سادلر»، ثم إلى أبي مطر، وتساءل كيف عرف أبو مطر أنه ليس تاجر لؤلؤ، وما الخطأ الذي وقعا فيه حتى يعرف ذلك.

قال أبو مطر:

ـ لقد سلمت صاحبك أفضل لؤلؤة لديَّ، فلونها كان يميل إلى السواد قليلًا، وهي كاملة الاستدارة، ومع ذلك لم يزنها، ولم يعلق على تفاصيلها؛ فقد نظر إليها وكأنه ينظر إلى حبة صدفة جميلة، هيا تحدث، من هو؟

لم يجد أحمد مفرًّا من أن يصارحه؛ لأن نظرته لا تحتمل إيجاد المزيد من الأعذار:

ـ أرجو أن يكون ما سأقوله سرًّا بيننا يا عمّ أبا مطر؛ فالأمر خطير ولا يحتمل أن يظهر، إن «سادلر» هذا هو ضابط في البحرية الإنجليزية، وهو يريد أن يقابل بِشر بن أرحمة فهل لك أن تساعدنا على ذلك؟

تنفس أبو مطر بصوت مسموع، ثم نظر إلى أحمد قائلًا:

- أنت تعرف يا أحمد معزتك عندي كما هي معزة بِشر، فقد ربيتكما عندما كنتما صغيرين، ولا أريد أن أضر بِشرًا من حيث لا أعلم.

- لن تضر بِشرًا يا عمّ، إن الكابتن «سادلر» يريد أن يقابل بِشرًا ليسأله عن والده فقط، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يساعدنا.

- لم أرَ بِشرًا منذ مدة طويلة، وعادة ما يأتي إلى هذه الديار ليُبقي حبل الوصل مع أهل سلوى كما تعلم.

قال أحمد وأمارات الحزن بادية على وجهه:

- إننا لا نستطيع أن نبقى هنا فترة طويلة، مع الأسف يا عمّ!

- ستبقون هنا في ضيافتي مدة ثلاثة أيام كما هي العادة عندنا، ثم تغادرون في رعاية الله.

في اليوم التالي ظهرت السفينة التي تُقِل بِشرًا على مرمى البصر من الزبارة، فعرف الجالسون على الفور هويتها، وانتظروا أن ترسو وينزل النوخذة منها، وما إن فعلت حتى هبُّوا كلهم لاستقبال ركابها الذين نزل معهم بِشر حاملًا صندوق السيف تحت إبطه.

انتظر بِشر في مؤخرة البحارة حتى يعرف كيف هو الوضع، ومن هم المستقبلون، فرأى العم أبا مطر يسلم على النوخذة، حينها أسرع تجاهه، وقبّل رأسه وأنفه، ضحك أبو مطر بصوت عالٍ، وقال لبِشر:

- أنت بالتأكيد هنا لمقابلة سلوى، أليس كذلك؟

- إن قلبي يهفو للقائها يا عمّ، ولا أتخيل نفسي بعيدًا عن الزبارة فترة طويلة، سأحاول جهدي أن أقابلها ولو لحظة فقط!

ربت أبو مطر على ظهره، وقال:

ـ هذا شأنك، أما بالنسبة إليَّ فلديَّ مفاجأة لك.

لم يعلم بِشر ما الذي يقصده العم أبو مطر بذلك، ولكنه كان يثق به ثقة عمياء، فقد ربَّاه العم أبو مطر في أثناء غياب والده الطويل والمتكرر.

وأمسك أبو مطر بيد بِشر، وسار به بعيدًا عن زحمة الناس، وشرع يتحدث معه بأسلوب ودِّيٍّ كعادته.

وعندما سأله عن والده، تغير وجه بِشر وبان عليه الضيق، فاستشف أبو مطر مدى سوء العلاقة بين الأب وابنه:

ـ دعني أحدثك عن والدك قليلًا يا بِشر، أنا أعلم أن هناك جفوة بينك وبينه، ولكنه ليس بالسوء الذي يتحدث عنه الناس، فبين ضلوعه قلب أسد وعطف أب، منذ سنوات عدة، أي عندما كنت أنت في سن الخامسة تمامًا، كنت أتاجر بالأخشاب التي أستوردها من الهند، وتوسعت تجارتي، وأصبحت أُصَدِّر للبصرة والبحرين، وكونت شبكة علاقات كبيرة، وفي إحدى السنوات، ضربتنا عاصفة لا نعلم من أين جاءت، عاصفة هوجاء لا تبقي ولا تذر، ضربت بحر العرب وعمان والخليج، فأودت بسفني التي كانت قادمة من الهند، وغرقت بحمولتها، ولم يبقَ لي شيء، حتى إن عوائل البحارة طالبوا بتعويض، فأصبحت مفلسًا تمامًا، وضاقت عليّ الدنيا حتى فكرت في الانتحار والتخلص من هذه الدنيا، ولكني سلمت أمري إلى الله.

وفي إحدى الليالي سمعت طرقًا على باب بيتي، فذهبت لأفتحه، وكنت في حالة نفسية بائسة؛ خوفًا من أن يكون الطارق هو أحد الدائنين الذي جاء يطلب دينه، فتحت الباب فإذا هو أبوك أرحمة بن جابر، وبيده صرة من المال، سلمها لي وقال هي لك حتى يعود مالك مرة أخرى.

لم أفرح بشيء كفرحتي بتلك الصرة، ولن أنسى لأبيك فضله عليَّ أبدًا، فأنا وما أملك له، وأنا لم أُرجِع الدين لأبيك حتى هذه اللحظة، وهو لم يطالبني به.

استغرب بِشر من هذه القصة، فهو لم يرَ هذا الجانب في والده منذ أن كان صغيرًا.

ـ أريد أن أعرف سبب معارضته زواجي، وبكل صراحة يا عمّ، إن علاقتي مع أبي متوترة بسبب معارضته هذا الزواج.

ـ قد يكون مع والدك حق في ذلك يا بني.

ـ إنه فقط يعارض لأن والدها من العتوب الذين هم أعداؤه، وينسى أحيانًا أنه هو نفسه من العتوب، أليس هذا مدعاة للضحك؟

وضع العمّ أبو مطر يده على كتف بِشر بكل مودة:

ـ كان والد سلوى في يوم من الأيام شريكًا لوالدك، وكانا صديقين جدًّا جدًّا، حتى إن الناس كانوا يحسدونهما على هذه الصداقة التي قلّ مثيلها في البلاد، وفي يوم من الأيام ذهب والد فتاتك إلى بومبي للتجارة، وهناك تعرف إلى تاجر عطور هندي، فكان أن اتفق معه على أن يرسل له التاجر الهندي شحنة كل ستة أشهر، وأعطاه مبلغًا كبيرًا من المال كضمان لهذه التجارة دون أن يخبر والدك.

لقد كان والد سلوى يريد أن يستحوذ على هذه التجارة دون أن يدخل والدك فيها، والمال الذي دفعه للتاجر الهندي كان من ماله الخاص، وليس من مال الشراكة.

وبعد عدة أشهر وصلت شحنة من العطور المغشوشة التي لم يشترِها أحد من الناس، حتى أولئك الذين تعاملوا مع والد سلوى سنوات طويلة.

قرر حينها هذا الشريك أن يخفف عنه الخسارة بإشراك والدك معه، فأخبر والدك بأنه قد عقد هذه الصفقة على أساس أنهما شريكان فيها، وأن المال الذي تم دفعه للتاجر الهندي هو من مال الشراكة، فطالب بنصف خسارته من أبيك.

لم يقتنع والدك بما جرى، مع أنه دفع لوالد سلوى نصف قيمة الخسارة، وحاول نسيان الموضوع، وإعادة بناء التجارة مرة أخرى.

من الواضح أن الأمور لم تَسِر كما يجب بين الرجلين بعد ذلك.

حينها قرر والد سلوى الاستقرار في عمان والانفصال عن أرحمة بعد أن ترك زوجته وابنته الصغيرة في قطر وانقطعت أخباره.

مرت السنوات سريعة كعادتها، وإذا بسفينة أرحمة ترسو في ميناء مسقط، فجاءه ولد صغير أسمر البشرة، يتيم الأبوين في العاشرة من عمره، أي أنه كان في عمرك في ذلك الوقت، معه صرة صغيرة فيها كل ما يملك من متاع، أخذ هذه الصرة من منزله بعد أن توفيت والدته ـ كما قال ـ وقرر المغادرة.

طلب أن يعمل في السفينة نظير أن يتدرب على الملاحة، تبناه والدك وأحضره إلى الزبارة.

وخلال غياب والدك المتكرر أخذت أحمد في بيتي وعاملته معاملة أطفالي، وخصوصًا أنه كان يتيم الأبوين، وقد أوصاني به أرحمة، كما أوصاني بك؛ لأنه لا يستطيع أن يأخذكما معه في البحر في تلك السنّ الصغيرة.

ترك أحمد هذه الصرة في منزلي أمانة عند زوجتي سنواتٍ طوالًا، وعندما بلغ سنّ الخامسة عشرة، سلمته الصرة بحضور والدك.

فتح الصرة، فوجدنا فيها خنجرًا، وكمية من المال، وقليلًا من الذهب وأساور من الفضة، وبعض الأوراق، فتح أحمد إحداها، ثم جَمُد وكأنه تمثال من صخر، كنا نَهُزُّه أنا ووالدك حتى نوقظه مما كان فيه، ولكنه كان جامدًا دون حراك، والورقة بيده.

فجأة، ودون مقدمات انفجر باكيًا بكاءً شديدًا، ورمى الورقة وغادر، أخذت الورقة من الأرض وقرأتها بصوت عالٍ حتى يسمع أرحمة ما كُتب بها.

كانت وصية والد أحمد الذي هو أيضًا والد سلوى والذي كان شريكًا لأرحمة في تجارته، وفيها إقرار منه بالسرقة والخسارة التي تسبّب فيها، وتحميله لأرحمة خسارة لا دخل له بها، ويوصيه بابنته وزوجته اللتين تركهما في الزبارة كما يطلب منه الصفح.

كم هو عالم صغير يا بِشر! فأحمد الشاب الأسمر هو أخو فتاتك، ولأنه أسمر اللون فإن قبيلة الأب لم تعترف به قطّ حتى اليوم، فهو نتاج زواج مختلط بين والد سلوى الذي ينتمي إلى العتوب، وأَمَة إفريقية سوداء، كان الجميع خاسرًا فيها؛ فأحمد بقي دون اعتراف قَبَلي من عائلة الأب، وأرحمة يعارض هذا الزواج، لأن والد الفتاة قد خانه، ولأن هذا الشاب الأسمر سيكون خال عيالك، وهو أمر لا يقبله أرحمة، وهناك أنت الذي تحب الفتاة، ولا تستطيع الزواج منها بسبب معارضة والدك، وهناك الفتاة التي تحبك ولا تريد الزواج من غيرك، إن الجميع خاسر يا بِشر، فأرجو أن تجد عذرًا لوالدك.

استمع بِشر لتلك القصة التي تابعها بكل جوارحه، وأصبح يعلل الأحداث بناء عليها، ولكنه لم يستوعب الأمر بِرُمَّته فهناك ثغرات بحاجة إلى شرح.

ـ إنها قصة معقدة طويلة يا عمّ، يا الله، كم هو عالم صغير! من كان يتوقع أن أحمد سيعود إلى ديار والده بعد كل هذه السنوات؟

ـ إنه عالم صعب؛ فمنذ أن جابه أحمد كل هذه المشاكل هنا، قرر العودة إلى عمان لبيع منزل العائلة، والاستقرار هناك، وأظنك كنت تراه كلما مرَّ من هنا للتجارة.

هز بِشر رأسه، وكان ما زال يفكر في تفاصيل القصة:

ـ إذن هو أخٌ لسلوى؟ وهل يعرف بذلك؟

ـ الجميع يعرف بكل شيء، ولكن ليس هناك من هو مستعد للاعتراف بأي شيء.

ـ ولكن لماذا لم يخبرني أحمد بأنه أخٌ لسلوى؟ كان يعرف أنني أحبها، وأتمنى الزواج منها، وكنت أحدثه بكل التفاصيل حتى إنه كان يوصل رسائلي لها.

ـ لا تنسَ أنه تربى معك سنواتٍ طوالًا، وأصبحت أخًا له، وهو يتمنى أن تتزوج أخته، وكان يتمنى أن يحنّ قلب والدتها، وتعترف به لتكون بداية الاعتراف به وَسْط القبيلة.

ـ يا الله، كم للناس من قصص! أتمنى لو أشاهد أحمد لأخبره بما أعرف عنه، وعسى أن أستطيع مساعدته في مشكلته هذه.

ـ إنه في المجلس عندي ينتظر حضورك.

قالها أبو مطر وهو يستمتع بمشاهدة ردّ فعل قوله على بِشر.

فرح بِشر بذلك وتهللت أساريره:

ـ إن لديَّ شيئًا قد يساعد على حلّ هذه المشكلة ويسهل أمر الزواج.

ـ صحيح؟ وما هو؟

ـ أخرج بِشر الصندوق من تحت إبطه، وعرضه على أبي مطر الذي لم يفهم ما الذي يرمي إليه من ذلك.

ـ هذا يا عمّ.

ثم رفع الصندوق الملفوف في قطعة قماش إلى وجه أبي مطر.

## الفصل الحادي والعشرون

على الساحل بالقرب من قلعة الدمام

وصلت الغطروشة إلى مخبئها المعتاد بعيدًا عن ميناء الدمام، ونزل ركابها الذين لم يستطيعوا التعبير عن فرحهم بما غنموه من سفينة العتوب؛ لأن أرحمة لم يكن سعيدًا بعدها، فقد بدا منحني الظهر عابس الوجه، وكأن المعركة قد زادت في عمره عشر سنين.

دخل قلعته واستقبله أبو مسفر كالعادة محاولًا رفع معنوياته ببضع طرائف من القصص التي سمعها من البدو، أو من المزارعين في المنطقة، بقي أرحمة على صمته، وكأنه يفكر في عالم آخر غير هذا الذي هو فيه.

سأل عن ابنه بِشر، فأخبره أبو مسفر أنه قد غادر إلى القطيف.

ـ كيف غادر إلى القطيف؟ ومتى شُفي من ألم بطنه؟

لم يفهم أبو مسفر سبب توتر أرحمة.

ـ في ذات يوم سفركم غادر القلعة قليلًا؛ لأنه أراد أن يُخرِج ما في بطنه، ثم عاد ليلًا وكأنه حُلّ من عقال، حاملًا رزمة من الخشب، وفي صباح اليوم

التالي ركب الحمار، وذهب تجاه القطيف لزيارة صديق له، ولم نسمع عنه شيئًا بعد ذلك.

ـ هل قلت إنه غادر القلعة ليلًا؟

ـ نعم يا سيدي.

أمر أرحمة الجميع بالبقاء في القلعة وعدم مغادرتها، ثم ذهب راكضًا تجاه الصخرة التي خبأ تحتها السيف، كان يركض ويلهث حتى وصل إليها، وبعد معاينة المكان حاول أن يكذب بصره، فقد كانت الصخرة في غير مكانها وأثر الحفر واضح، صرخ:

ـ لا.. لا يا بِشر، لم أكن أتوقع هذا منك يا بني!

ثم سقط على ركبته ومسك برأسه، وكأنه يحاول أن يوقظ نفسه من حلم مزعج.

لم يقو على الوقوف مرة أخرى، فآثر البقاء بالقرب من الصخرة متأملًا فيها، ومفكرًا فيما يجب عليه فعله:

ـ لماذا فعلت هذا يا بِشر؟ لم يبقَ لي شيء جميل في هذه الدنيا سواك، لقد خسرت كل شيء حتى ابني.

كان يتحدث بصوت عالٍ وهو ينظر إلى الصخرة التي أمامه، ثم شرع يتنفس بصوت عالٍ، ويمسك بالتراب بقبضة يده وينثره مرة أخرى، وكأنه يرى حياته التي تنسفها الريح فلا يبقى منها شيء.

شعر بخمول في جسمه، وضعف في عضلاته، فخاف إن بقي فترة أطول ألا يتمكن من القيام مرة أخرى.

تراكمت الهموم على أرحمة، وعاد إلى قلعته يجر قدميه جرًّا، وكان شكله هذه المرة أسوأ مما كان عندما غادرها، فذهب إلى غرفته التي كان نادرًا ما يدخلها، وأغلق الباب.... وبكى.

شعر ابن عفيصان بأن هناك شيئًا سيِّئًا قد حصل، وأن هذه ليست عادة أرحمة؛ فهو عندما يعود من البحر يبقى في الساحة التي في وسط القلعة مع رجاله على بساط يفرشه له أبو مسفر بالقرب من موقد الجمر حيث يستطيع أن يستمتع بالحديث، وهو يشرب القهوة مع رجاله وسماره.

إن دخوله إلى الغرفة، وإغلاقه للباب أمر لا يبشر بخير، طرق ابن عفيصان الباب عدة طرقات، فلم يجد جوابًا، فقرر فتحه.

كان أرحمة نائمًا على الفراش، وظهره تجاه الباب وقد لفّ غترته على رأسه ووجهه، وكأنه ميت، فقال بغضب:

ـ من؟

ـ ما الذي حصل يا أرحمة؟ ليس من عادتك أن تغلق على نفسك الباب!

لم يلتفت أرحمة إلى ابن عفيصان حين رد عليه.

ـ ليس هناك شيء يا ابن عفيصان، أشعر ببعض التعب فقط.

ـ إن مثل هذا الكلام تقوله لشخص غيري؛ فأنا أعرفك بما يكفي حتى أعرف أن هناك مشكلة كبيرة تؤرقك.

التفت أرحمة إلى صاحبه، وكشف اللثام عن وجهه، فإذا عيناه تدمعان، ووجهه شاحب، ونصف وجهه قد توقف عن الحركة، وكأن حياته قاربت نهايتها.

ـ يا ابن عفيصان، لم يبقَ في جسدي عضو إلا وقد ذاق طعم النصل أو الرصاص، سوى قلبي الذي سلم طوال هذه السنين، ولكنه طُعن اليوم بسكين مسمومة، وما أظنه سيَخْفُق كثيرًا.

صُدم ابن عفيصان مما رأى، فلم يشاهد أرحمة يبكي من قبل، فقد كان يظنه أنه خلق دون دموع في عينيه.

ـ الله أكبر يا رجل، ما الذي حصلْ أخبرني لعلّي أحمل عنك بعض الذي تحمله.

ـ لقد أخذ بِشر السيف الهندي معه، وما أظنه إلا مهديه لأهل حبيبته، أو بائعه لأحدهم ليقبض ثمنه، فقد خان عهدًا بيني وبينه، وليست هذه المرة الأولى التي يطعنني أحدهم، ولكنها الأقوى والأكثر ألمًا.

ـ دعنا نبحث عنه يا أرحمة، وقد يكون معه عذر، فمن يدري؟

ـ وأي عذر ممكن أن يجده لخيانتي؟! إنها طعنة نجلاء ليس لها علاج، جهز نفسك إن كنت تريد البحث عنه معي، فأنا مسافر غدًا، وإن وجدته لأقتلنه بيدي هذه.

وحاول رفع يده ولكنه لم يستطع، حاول مرة أخرى ولم يستطع.

وقال بصوت أقرب للترجي:

ـ يبدو أنني أُصبت بالفالج، فلست أشعر بنصفي الأيمن يا ابن عفيصان.

تم استدعاء أبي مسفر الذي جاء راكضًا لسيده، وجلس بالقرب منه، ثم مسك بيده المشلولة، وبدأ في تمسيدها، وطلب منه أن يفتح فمه ليرى لسانه، فقال له أرحمة:

ـ يا أبا مسفر، إنك تعاملني كما تعامل جمالك حين تمرض، ولكن يجب أن تعلم أن جمالك لا يصيبها الفالج من الحزن.

ـ بل يصيبها ما يصيب البشر يا عمّ، دعني أعتن بك، كما تعودت أن أعتني بها! وستشفى بإذن الله.

ثم نادى على الرجال الجالسين في الخارج طالبًا منهم إيقاد الفحم.

ـ هل ستكويني مرة أخرى يا أبا مسفر، لقد أصبح جسدي مرتعًا لحديدك الحامي، ولا أظنك ستجد في جلدي بقعة تصلح للكي.

ـ لا تقلق، سأجد ما يكفي، لا تتحدث كثيرًا الآن، ارْتَحْ حتى نكون جاهزين.

نقل ابن عفيصان وأبو مسفر أرحمة إلى بساطه في ساحة القلعة، ومدَّداه عليه، ثم قرب أبو مسفر موقد الجمر، وقد بان الحديد الحامي فيه، فقال له أرحمة مازحًا:

ـ أعوذ بالله من نارك يا أبا مسفر، إنك تستمتع بكي الناس وتعذيبهم، وكأنك حارس جهنم.

رد أبو مسفر محاولًا تلطيف الجو:

ـ دعني أحكِ لك قصتي: في البداية، كنت صغيرًا حين رأيت والدي يعالج الجمال في الصحراء، فقد كان البدو يحضرون له جمالهم ليعالجها من الكثير من الأمراض: لدغة ثعبان، أو شوكة في الحلق، أو عضة بعير آخر، أو تَقَرُّح في اللسان، أو حتى مرض نفسي يمنعه من الأكل، كما يحدث معك أحيانًا، فكنت أحمي لوالدي سيخ الحديد، أو أطحن له الأعشاب وأغليها على النار، كان يأمرني فأنفذ ما يقول حتى أتعلم صنعته التي كان يرغب في أن أرثها عنه.

رأيته مرة يعالج بعيرًا توفيت أنثاه، نعم أنثاه، لا تضحك، فبرك البعير مثلك، لا يريد أن يأكل أو يشرب، فكان يمسح جسده ويحدثه، ويبلل يده بالماء ويمررها على وجهه وفمه، فلم يكن البعير ليتحرك أبدًا، حتى قرر أن يكويه.

سخنت له الحديد، وربطنا البعير جيدًا، ثم وضع السيخ المحمي على أسفل رقبته ثم وركه ثم ساقه، صرخ البعير، وظهر الزَّبد من فمه، وخفت أن ينتقم مني، فأمرني والدي بوضع الطعام والماء أمامه ثم ذهبنا لننام.

في اليوم التالي أكل قليلًا وشرب، وفي الذي يليه أكل أكثر، وفي الثالث كان يرعى مع القطيع حتى وجد له أنثى أجمل من عجوزه التي تُوفيت، وعاش أكثر من والدي.

كان يتحدث وهو ينظر إلى طرف الحديد ليتأكد من احمراره، ثم أكمل:

ـ سأفعل معك مثلما فعلت مع ذلك البعير، وأتمنى أن تجد لك امرأة تتزوجها بدلًا من أن تقابل ابن عفيصان طوال الوقت.

استلقى أرحمة على بطنه، وبعد أن تأكد أبو مسفر من الحديد، أشار إلى الرجال للمسك بأرحمة وتثبيته، ثم وضع الحديدة على عاتقه، ثم في نقطة في أسفل حنكه حتى خرجت رائحة اللحم المحروق، فكشّ الرجال منها، وأمرهم ألا يتركوه، وخصوصًا أن أرحمة بدأ يرفس ويسب ويلعن كل من كان له دور في تعذيبه.

بعد أن حمي الحديد مرة أخرى، وضعه على نقطة في أسفل ظهره، فصرخ أرحمة صرخة مدوية أخرى.

انتهت المهمة، وبقي أرحمة يرتجف على فراشه وقد تصبب جسده

عرقًا، ثم مسح أبو مسفر قليلًا من الدهن على مناطق الكي ووضعوا عليه لحافًا وتركوه ليرتاح.

بعد ثلاثة أيام، وكما توقع أبو مسفر، كان أرحمة يحرك نصفه الأيمن كما كان سابقًا، وشُفي مما أصابه وأصبحت نفسيته أفضل بكثير.

وفي صباح اليوم الرابع كان الجميع على سطح الغطروشة، لا يعرفون إلى أين هم متجهون، ولكن يعرفون أن في الأمر جدًّا، فرُفعت المرساة وفُردت الأشرعة، وجاء ضرار إلى أرحمة الذي كان جالسًا في مكانه المعتاد، وسأله:

- إلى أين يا سيدي؟

- إلى الزبارة، فلعلّ صاحبنا يكون هناك.

دفعت الرياح الغطروشة إلى الجنوب الشرقي.

# الفصل الثاني والعشرون

**ميناء المحرق، البحرين**

وقف رجل يتحدث مع حرس الشيخ سلمان أمام القصر في المحرق
اجتمع الحرس على الرجل الذي بانت على وجهه الجدية والحزن، فكا
يمسح وجهه بكُم ثوبه وهو يتحدث معهم، وكان الحرس يبتعدون بعد أ
يسمعوا حديثه، وهم يهُزُّون رؤوسهم أو يبكون.

تم استدعاء رئيس الحرس الذي له الحق في الدخول على الشيخ وقت
شاء، ووقف أمام الرجل واستمع لما يقوله بكل جوارحه، ثم مسح عين
بطرف غترته، وفتح الباب ودخل القصر.

بعد هُنَيْهَة خرج الشيخ سلمان بنفسه واستمع للرجل؛ ثم ذهب الجم
إلى الميناء حيث كانت السفينة التي هاجمها أرحمة راسية، وقد تجم
البحارة حولها محاولين إنزال جثث القتلى والجرحى منها.

وقف الشيخ على الميناء بانتظار جثة ابنه التي كان يحملها بضعة رجا
بكل حزن ووقار حتى وصلوا إلى الشيخ، وأنزلوا الجثة أمامه، جلس الشي
بالقرب من رأس ابنه، ووضع يده على جبهته، وتمتم ببضع كلمات، ثم بك

بحرقة محاولًا إخفاء وجهه بالغترة التي كان يلبسها، وقد وقف رجاله بانتظار أوامره، وهم يشاهدون الشيخ وهو يهتز من البكاء والنحيب.

بعد أن أمضى الشيخ بعض الوقت محاولًا استجماع شجاعته، مسح وجهه بالغترة التي غدت مبتلة من الدموع، ثم أمر الرجال بدفن الشاب دون غُسْل؛ فقد كان في نظره شهيدًا، والشهيد في الإسلام لا يُغَسَّل ولا يُكَفَّن، بل يوضع في قبره كما هو.

لم يقبل الشيخ أن يعزيه أحد في ابنه، بل أبقى مجلسه مفتوحًا كما كان قبل أن يعلم بخبر موته، وكان الرجال يأتون إلى المجلس بكل حزن ويتناولون القهوة، ولكن لا يجرؤ أحدهم على سؤال الشيخ عن خططه، وعدم قبول العزاء يعني أن وليَّ الدم قد قرر أن يأخذ بثأره عاجلًا أو آجلًا.

وبعد مرور عدة أيام، استدعى الشيخ رئيس حرسه، وطلب منه استدعاء مجموعة مختارة من جلسائه وحدد موعد حضورهم.

وفي اليوم المحدد حضر الجلساء، وهم يعلمون أن الاجتماع سيتمحور حول وفاة ابن الشيخ، بعد أن شربوا القهوة بادرهم الشيخ بقوله:

ـ أنتم تعلمون أن أرحمة بن جابر قد قتل ابني، وقد دفنته بدمه وثيابه، ولم أتقبل فيه العزاء، وقد سألت بحارة السفينة الذين كانوا معه عن تفاصيل المعركة التي حصلت بينهم وبين أرحمة بن جابر، وأعتقد أنهم قالوا لي الحقيقة، وهي أن أرحمة وضع طرف السيف على صدر ابني، ومع تراجعه وسقوطه ضرب رأسه في بدن السفينة، فتهشمت جمجمته، فمع أن أرحمة لم يقتله فعليًا بالسيف فإنه كان السبب المباشر في قتله وهو يعلم أنه ابني.

بعد أن تحدث الشيخ الذي بدأ حديثه متوترًا ثم هدأت نبرة صوته

بعد أن شرح للحضور ملابسات الجريمة، طلب منهم أن يعطوه رأيهم في الموضوع.

كان من ضمن الحضور شيخ من الطائفة السنية وشيخ من الطائفة الشيعية والدكتور «جون» مدير الإرسالية الأمريكية في البحرين، وتاجر لؤلؤ مقرب من الشيخ، ويعتبر من كبار تجار اللؤلؤ في المنطقة.

تحدث شيوخ الدين في بداية الأمر وحَضُّوا الشيخ على التسامح والعفو ونسيان الثأر الذي لن يأتي بخير، وكان الشيخ يستمع لهم بهدوء، ثم ينظر إلى شخص آخر، وكأنه يطلب منه رأيه في الموضوع.

وحين نظر إلى الدكتور «جون» قال الدكتور بدوره:

ـ أنت تعلم يا شيخ، أن مقر الإرسالية الطبية في البحرين هو الوحيد في منطقة الخليج الذي يعالج بطرق علمية بعيدًا عن أساليب العلاج التقليدية التي أحيانًا تضر أكثر مما تنفع، ويأتي إلينا كثيرٌ من مناطق الخليج المختلفة للعلاج بعد أن يئسوا من الكي وشرب الأعشاب المرة، لقد جاءني منذ فترة رجل بدوي اسمه أبو مسفر كان يعمل مع أرحمة بن جابر في قلعته في الدمام، وكان البدوي مصابًا بمرض لم يستطع علاجه، فقد رأيت جسمه وقد تحول إلى ندب من أثر الكي، وكان دائم القول بأنه استطاع أن يعالج أرحمة بالكي، ولكنه لم يستطع أن يعالج نفسه، وهذا الرجل تُوفي في الإرسالية منذ أيام قلائل فقط دون أن نعرف له عائلة، ولم نجد في ملابسه الممزقة سوى بضعة دراهم، وقبل أن يموت سألته عن سبب مرض أرحمة، فقال لي إنه كان مصابًا بالكآبة بعد مقتل ابنك، وبعد أن سرق ابنه بِشر سيفًا ثمينًا منه.

فأرحمة يا سيدي، مصاب بالاكتئاب، والعلاج الشعبي قد يعالج الظواهر

الخارجية مثل الشلل النصفي المصاحب له وغيرها من الأمراض التي تظهر نتيجة الاكتئاب، ولكنه لا يدخل إلى نفسية المصاب ويعالجها.

أعتقد يا شيخ، أن أرحمة أصبح مستعدًّا للموت، وليس لديه شيء يخسره، ونصيحتي هي أن تتروى وتفكر وتخطط؛ لأن الموضوع قد يكون خطيرًا.

كان تاجر اللؤلؤ وصديق الشيخ يستمع للجميع، وهو يعبث بلحيته، وكأنه بذلك يكون فكرة عن تفاصيل القضية، فبعد أن انتهى الجميع من طرح آرائهم ونصائحهم قال الصديق:

ـ يا شيخ، أنت تعلم أن ابنك أحمد قد تربى في بيتي مع أبنائي، وله مكانة خاصة في قلبي، وأريد منك أن تعطيني فرصة لأرسم لك مخطَّطًا قد يساعدك على أخذ ثأرك، ولكن عليك أن تصبر، فهل تعطيني هذه الفرصة؟

قطَّب الشيخ حاجبيه، وسأله:

ـ أريد أن أعرف ما الذي يدور في خلدك يا صديقي؟

ـ اترك الموضوع عندي يا شيخ، وأعدك أنك ستكون مسرورًا.

ـ حسنًا، انتهينا، دعوا الأمر مع أبي صالح؛ فهو داهية على حسب معرفتي به، وأرجو أن يخرج لنا بخطة رائعة.

بعد عودة أبي صالح إلى متجره في المحرق، استدعى مساعده الهندي السيد «شارما»، وسأله:

ـ هل ما زالت علاقتك بالسيد «غولاب» جيدة؟ تتذكره أليس كذلك؟ صديقك ممثل شركة الهند الشرقية في مسقط؟

ـ نعم أتذكره يا سيدي، لقد زرناه أنا وأنت العام الماضي ونحن في طريقنا إلى الهند، بالطبع علاقتي معه ممتازة، ونحن نتراسل من وقت إلى آخر.

ـ اسمعني إذن، أريدك أن ترسل له رسالة على أول سفينة مغادرة، وتقول له إننا في طريقنا لمقابلته لأمر مهم.

ـ سأفعل، فهو يذكرك؛ لأنه يسألني عنك في كل رسالة يرسلها إليَّ.

بعد بضعة أسابيع كان أبو صالح و«شارما» ينزلان من سفينتهما في ميناء مسقط، وأخذَا طريقًا يعرفانها حق المعرفة إلى مكتب «غولاب»، وحين دخلا المكتب، فرح «غولاب» فرحًا شديدًا بقدومهما، وأكثر من الانحناءات وعبارات الثناء التي كان يحسنها، وطلب لهما الشراب البارد الذي يطلق عليه الـ«شربت».

بعد أن انتهت الفترة الأولى من اللقاء التي عادة ما تضيع في المجاملات وتكرار عبارات الثناء والتحدث عن أي شيء تافه غير الموضوع الذي اجتمعوا من أجله، كسر أبو صالح حاجز المرحلة الأولى لينتقل باللقاء إلى المرحلة الثانية:

ـ سيد «غولاب»، أنت تعرف الصراع الطويل الحاصل بين أرحمة بن جابر وآل خليفة حكام البحرين، ومع أنهم ينتمون إلى القبيلة نفسها فإنهم لم يتمكنوا حتى هذه اللحظة من إنهاء هذا الصراع الذي مضى عليه عشرات السنوات، وذهب ضحيته الكثير، وآخرهم كان الشاب أحمد ابن الشيخ سلمان، ابن حاكم البحرين.

توقف قليلًا بعد كل هذا السرد، ثم بلع ريقه وأكمل:

ـ إننا جئنا إليك في خدمة نريدك أن تقدمها لنا، خدمة خاصة لا يجوز أن يعرف أحد بها.

ثم فتح حقيبة بيده وأخرج منها صُرَّتين ورماهما على مكتب «غولاب» متعمدًا؛ فالرمي سيوضح للسامع ما تحتويه الصُرَّتين.

من الصوت الذي صدر عرف «غولاب» أنهما تحتويان على لؤلؤ ثمين، ولكنه أراد أن يتأكد، فتناول إحداهما وفتحها ثم سكب محتواها بهدوء في كفّه، فظهرت له حبات اللؤلؤ المستديرة الكبيرة، وهو يعرف أن اللؤلؤ كلما كانت حبته مستديرة وكبيرة كان سعره أعلى، فهو قد تعامل بهذه السلعة الثمينة ويعرف سعرها في السوق، وأبو صالح كان يعلم أن الثمن الواجب دفعه لـ«غولاب» ليس رخيصًا.

أغلق «غولاب» الصُّرَّتين، ووضعهما في جيب سُترته، ثم شبك بين أصابعه وابتسم لأبي صالح ابتسامة خبيثة، وسأله السؤال المعهود في مثل هذه الحالة:

ـ وكيف أخدمك يا أبا صالح؟

أمسك أبو صالح بيد «غولاب» كعادة أبناء المنطقة حين يريدون أن يقولوا شيئًا خاصًّا، وهي عادة تدل على الحميمية والخصوصية.

ـ أريدك يا «غولاب»، أن تعمل شيئًا حتى تجعل أرحمة يختفي من الوجود، نحن في البحرين لا نريد رؤيته، فقد سبب لنا الكثير من المتاعب، ولن أقول لك كيف يجب أن تتصرف؛ فعلاقتك بالإنجليز جيدة، وهم الوحيدون الذين يستطيعون أن يُنهوا هذه المسألة ويعيدوا السلام للخليج.

ثم ضغط على يد «غولاب» بقوة وكرر:

ـ هل فهمت يا «غولاب»؟ أعتقد أنه يجب أن يكون لهم دور في إنهاء هذه المسألة، ولو نجحت في مهمتك، فلك كيسان آخران أفضل بكثير مما في جيب سُترتك الآن.

ـ دع لي هذه المهمة يا سيدي، وسنكون على اتصال، إلى متى ستبقون في مسقط؟

ـ بضعة أيام، وسنعود بعدها إلى البحرين.

# الفصل الثالث والعشرون

## مدينة الزبارة، الساحل القطري

دخل بِشر مجلس أبي مطر وشاهد أحمد الذي قام من مكانه مسرعًا إليه، واحتضنا بعضهما بعضًا، ثم نظر بِشر إلى «سادلر» وصافحه دون أي ابتسامة على مُحيَّاه، فلم يكن بِشر من النوع الذي يثق بالأغراب بسرعة بحكم تربيته.

عرَّف أحمد «سادلر» على أنه تاجر لؤلؤ أجنبي جاء للمنطقة برفقته من عمان، وعندما عرّف بِشرًا إلى «سادلر» قال إنه بِشر بن أرحمة، وتوقف ولم يقل المزيد.

أما أبو مطر، فقد نظر إلى أحمد بعد هذا التعريف الموجز وابتسم؛ فهو يعرف أن «سادلر» ليس له علاقة باللؤلؤ أبدًا، ولكنه كان بانتظار ما سيسفر عنه هذا اللقاء، فقد كان يحب أحمد وبِشرًا على حدٍّ سواء، وقد عرف أن هناك لعبة لا يعرف تفاصيلها بعد.

استقرت عينا «سادلر» على الصندوق الملفوف أسفل ذراع بِشر، وعرف أنه السيف الهندي الذي أخذه أرحمة منه في البحر، ولكن الوقت لم يكن مناسبًا لفتح الموضوع، قرر الانتظار حتى يخبر أحمد بذلك.

مع مجيء المساء، وجد بِشر أنه لا بدَّ أن يحدث أحمد عن مشروعه، فسأله هل «سادلر» يتقن الحديث باللغة العربية، فأجابه أحمد بالنفي.

رمق بشر السيف بنظرة سريعة وقال:

ـ لديَّ وسيلة لحلِّ مشاكلنا يا أحمد، لديَّ في هذا الصندوق سيف هندي ثمين مُطَعَّم بالجواهر، ولو بعناه لاستطعنا أن نرمي بهمومنا خلفنا، فأنا أستطيع أن أتزوج سلوى، وأنت تستطيع أن تبني حياتك، وتطالب قبيلتك بالاعتراف بك؛ فسيكون لديك من المال ما تستطيع به كسر الرؤوس المتحجرة.

نظر أحمد إلى الصندوق، ثم التفت إلى بشر:

ـ ما هذا الذي تقوله يا أخي؟ هل هذا معقول؟

ـ نعم، إنه معقول؛ إن قيمة السيف الذي في حوزتي تساوي ثروة، ولو استطعنا استثمارها بشكل جيد فإننا سنغير حياتنا البائسة إلى أخرى أكثر راحة ودعة.

لم يكن بِشر يعلم أن السيف الذي بحوزته كان مع «سادلر» حين سطا والده على السفينة التي كانت تقله من الهند إلى مسقط، فقد كان بِشر في أسفل السفينة يرعى أحد البحارة الذي بُترت ساقه بسبب إصابتها بالغرغرينة، والسبب الحقيقي وراء بقائه مع البحّار المريض هو أنه لم يكن يود أن يحضر جلسة التحقيق التي كان والده سيعقدها للأسرى للحصول على ما لديهم.

لقد علم عن السيف بعد أن ابتعدت سفينة أرحمة عن السفينة البريطانية التي كانت تقل «سادلر»، ولم يرَ بحارتها أو من كانوا عليها.

التقط بِشر الصندوق وأزال عنه قطعة القماش التي تلفّه وكانت عينا

«سادلر» تراقبان المشهد بكل اهتمام وقلبه يزداد خفقانًا مع كل حركة، وعندما فتح بِشر الصندوق ظهر السيف المطعم بالجواهر، فكادت عينا أحمد تخرجان من محجريهما، أما «سادلر» فقد كان يتمنى لو أنه يمسك به بيده ويغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن.

كان بِشر يمسك بالسيف بكلتا يديه، ويتحدث مع أبي مطر وأحمد بالعربية معتقدًا أن «سادلر» لا يفقه شيئًا مما يدور، ولكن «سادلر» لم يكن يعنيه تفاصيل الحديث؛ فقد فهم أن هذا هو السيف ذاته الذي سُلب منه في البحر وأن عليه أخذه إلى إبراهيم باشا بأسرع وقت ممكن.

تنقل السيف من يد أبي مطر إلى يد أحمد الذي أعطاه لـ«سادلر» حتى يراه عن قرب، ثم عاد مرة أخرى إلى بِشر الذي وضعه في الصندوق، ثم لفّه بقطعة القماش البالية، حينها قرر أبو مطر أن الوقت قد تأخر، وأن عليه أن يذهب للنوم.

بدأ «سادلر» ينظر إلى أحمد بعين الشك، فقد كان الحديث الذي يدور بين بِشر وأحمد يغلب عليه الحميمية، وعندما كان بِشر يتحدث كانت عينا أحمد تُشِعّان نورًا وسعادة حتى إن «سادلر» شعر أنه معزول عما يدور بين الجالسين معه.

قرر حينها أن يختلي بأحمد ويسأله عما يجول في رأسه، فهو يحتاج إليه لسرقة السيف من بِشر والذهاب إلى السفينة التي تنتظرهم في الميناء، ودون مساعدته ستكون رحلته بلا فائدة ومغادرته قد تكون محفوفة بالمخاطر.

بقي الثلاثة يشاهدون بعضهم بعضًا، وكل منهم يريد أن يحدث الآخر بنفسه دون وجود الثالث؛ فأحمد يريد أن يشرح لبِشر أن «سادلر» هنا لأخذ السيف، وأن عليهما أن يجدا خطة للتخلص منه حتى يتصرفا في

السيف، أما «سادلر» فإنه يريد أن يقول لأحمد إنه لا بدَّ أن يحافظ على وعده وأن يحاول أخذ السيف من بِشر حتى يذهبا إلى القبطان «لوخ» الذي ينتظرهما بفارغ الصبر، أما بِشر فإنه يريد أن يشرح لأحمد خطته في التصرف بالسيف دون وجود شخص ثالث نظرًا لأهمية الموضوع وخطورته.

غلب على الثلاثة التعب، ولكنهم يعلمون أنهم لن يستطيعوا النوم في هذه الليلة، فأخذ كل منهم زاوية من الغرفة وأطلقوا العنان لأفكارهم، وبعد مرور بضع ساعات على ذلك، زحف «سادلر» بهدوء إلى حيث ينام أحمد، ثم مدّ ذراعه ووضع كفه على فم أحمد، أحسَّ أحمد بكل ذلك، ففتح عينيه اللتين كانتا مغمضتين، وسأل بهدوء عن قصده من هذا.

قال «سادلر» بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس:

ـ علينا أن نأخذ السيف من هنا، وأن توصلني إلى السفينة في الميناء، فلم أعد أحتمل البقاء هنا ساعة واحدة والسيف أمامي.

طلب منه أحمد أن ينام، فالوقت لا يحتمل أن نقوم بعمل الآن، ومن جانبه كان بِشر يستمع لكل همسة بين الاثنين.

في صباح اليوم التالي، فتح «سادلر» عينيه ليرى نصل السيف الهندي مرتكزًا على صدره ممسكًا بطرفه الآخر بِشر الذي طلب منه أن يلبس ملابسه؛ لأنه سيعود على السفينة نفسها التي أحضرته إلى مسقط مرة أخرى.

نظر «سادلر» إلى طرف النصل الذي كاد ينغرس في صدره، ثم نظر إلى أحمد ليعرف موقفه النهائي من القضية برُمتها، ركز أحمد بصره على الأرض خجلًا:

ـ اسمح لي يا سيد «سادلر»، أنا لم أخبرك بكل ظروفي، قد يكون هذا السيف حلًّا لكل ما أعانيه.

عرف «سادلر» أن أحمد شخص مليء بالعواطف الجياشة، وأنه لن يوافق على تصرف بِشر ما لم يكن مضْطَرًّا لذلك، فلم يشأ أن يدفعه إلى أقصى درجة احتمال يصل إليها، فحاول أن يخفف من الجو المشحون الذي أحدثه تصرف بِشر:

ـ ولكن يا أحمد، أنا سأساعدك قدر ما أستطيع، لماذا يضع بِشر النصل على صدري؟ سأكون معكما، ألستما بحاجة إلى المال؟ سأعمل على أن تحصلا عليه.

التفت أحمد إلى بِشر، وطلب منه الانتظار لحين سماع كل ما لدى «سادلر»؛ فقد يكون عنده خطة أخرى لا تجعل كل سفن البحرية الإنجليزية تلاحقهما طوال حياتهما.

رفع بِشر السيف عن «سادلر»، الذي حاول الجلوس حتى يستطيع الحديث بحرية، وشرع يحدثهما قائلًا:

ـ أنا أعلم أن كليكما يريد مالًا ليحل مشكلته، وأنا بحاجة إلى السيف ذاته لأحل مشكلتي، فدعونا نصل إلى حل يرضي جميع الأطراف.

قالها «سادلر» بطريقة هادئة أقنعت الشابَّيْن، فهدأت مخاوفهما.

جلس الثلاثة على الأرض، وبدأوا يتحدثون عن أفضل وسيلة لحل هذه المشكلة.

قال «سادلر»:

ـ ستعطيانني السيف، وأنا سأعطيكما المال الذي تحتاجان إليه بعد أن تساعداني على إنهاء مهمتي.

تقابلت عينا بِشر وأحمد باستغراب، ثم سأل بِشر:

ـ وما المهمة التي تريدنا أن نساعدك فيها؟

ـ أنا ذاهب بهذا السيف إلى إبراهيم باشا في الحجاز، فهو هدية له من حاكم بومبي، ودوركما هو إيصالي إلى هناك وضمان عودتي سالمًا، ولكما من المال ما يكفي لحل كل مشاكلكما.

ـ ولكن، ما المال الذي سنحصل عليه نظير القيام بهذه المغامرة الخطرة؟

بدا على «سادلر» الارتياح، فهذا النقاش سيوصل الجميع إلى نتيجة حتمًا، ولكنه لا بدَّ أن يكون حذرًا؛ فهذان الشابَّان سيكونان مرافقيه وحارسيه ومترجميه إن وافقا على المهمة، وهو لا يريد أن يغشهما، لأنهما يستطيعان قتله خلال الرحلة، إن الصدق معهما قد يكون الحل الوحيد لبناء الثقة بين الطرفين.

أجاب «سادلر»:

ـ لا أعلم، ولكن دعونا نذهب جميعًا إلى القبطان «لوخ»، ونعرض عليه المسألة برُمَّتها، وهو سيحدد المبلغ الذي تستحقانه نظير خدماتكما، ولكن بربكما استعجلا فلا نريد أن نرى «لوخ» وقد غادر إلى مسقط، فالطريق إليها طويل.

أجاب بِشر:

ـ سنفعل، ولكننا لن نأخذ السيف معنا، سأبقيه هنا لحين الاتفاق، وسأبقيه في مكان آمن لن تستطيع لا أنت ولا «لوخ» الحصول عليه دوننا.

أجاب «سادلر»:

ـ أرجوك لا تفعل؛ فأنا أضمن لك أنك لن تندم، إن الوقت يدركنا، وذهابنا دون السيف يعني أن المهمة فشلت، ولو كان «لوخ» قد غادر الزبارة فإننا بحاجة إلى اللحاق به في مسقط حتى تتحدثان معه عن المكافأة التي تستحقانها.

قال بِشر:

ـ وكيف نضمن أنك لن تغدر بنا؟

ـ أقسم لكما إنني لن أغدر بكما، وأهمية هذا السيف بالنسبة إليَّ كأهمية روحي، ومهما دفعت لكما نظير الحصول عليه فسيبقى قليلًا وقليلًا جدًّا، دعونا نغادر أرجوكما.

التفت بِشر إلى أحمد سائلًا:

ـ ما رأيك يا أحمد؟ أعلم أن عقلك صغير، ولكني سأنتقم منك أنت شخصيًّا إن شعرت أنك خنتني مع هذا الرجل، أنت تعلم بأني سأفصل عقلك الصغير عن بقية جسدك إن حصل شيء سيئ.

ضحك أحمد، فما بينهما من علاقة كان كافيًا ليُضفي على كل تهديد صفة الفكاهة.

ـ لا تقلق، فأنا بحاجة إلى عقلي مهما كان صغيرًا.

ثم وجَّه بِشر كلامه إلى كلٍّ منهما:

ـ والآن اجمعا حاجيَّاتكما؛ فنحن سنغادر هذا المكان حالما أعود.

صرخ «سادلر»:

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا بدَّ أن أقابل سلوى، فمنذ مجيئي وأنا متشوق لرؤيتها ولو للحظات.

ـ أرجوك لا تفعل فليس لدينا وقت لذلك، لا بدَّ أن نلحق القبطان «لوخ» قبل أن يغادر؛ لأنه إن فعل فسنُضْطَرّ للعودة إلى مسقط.

تردد بِشر لحظات، ثم قرر أن يذهب معهما.

أعلموا خادم أبي مطر بأنهم مغادرون، وطلبوا منه أن يبلغ سيده بذلك.

وصل الرجال الثلاثة إلى البحر، وكان «لوخ» قد غادر بسفينته عائدًا إلى مسقط، وبقيت السفينة «ميركوري» بانتظارهم. استأجروا زورقًا صغيرًا ليوصلهم إلى السفينة، وما إن صعدوها حتى أمر «سادلر» قبطانها بالتوجه إلى مسقط.

شعر «سادلر» بالنشوة والفرح، فقد حصل على السيف الهندي، وسيكون معه اثنان من أبناء المنطقة اللذان سيدلانه على الطريق ويحميانه من خطورتها لحين وصوله إلى إبراهيم باشا في الحجاز والعودة مرة أخرى إلى مسقط.

اتجهت السفينة إلى شمال قطر في رحلتها تجاه الجنوب الشرقي، وما إن وصلت إلى هناك حتى كان الليل قد أقبل، فأنار القبطان سراجًا صغيرًا معلقًا على ساريتها وأنزل أحد الأشرعة حتى يخفف من سرعتها، كان الليل هادئًا وصافيًا، منذرًا بهبوط الضباب في الصباح كعادة الجو في هذه المنطقة، وعندما يكون هناك ضباب فإنه يكون كثيفًا لدرجة أن السفن تلقي مراسيها وتنتظر أن تحمى الشمس لتزيل كثافة الضباب حتى تستطيع التحرك بعد ذلك.

وقف «سادلر» وأحمد على سطح السفينة، ونظرا تجاه الساحل القطري،

ضيّق أحمد عينيه قليلًا وكأنه ينظر إلى شيء بعيد، وسأل «سادلر» هل يرى وميض ضوء، وعندما أجاب بالنفي، رد أحمد بقوله إنه ربما كان يتخيل.

اجتمع البحارة على العشاء وانشغل الجميع بالعزف والتصفيق والغناء لوقت متأخر من الليل، حتى غلبهم النعاس ولم يبقَ سوى البحارة الذين وقع عليهم الاختيار لتوجيه السفينة خلال الليل.

وكما كان متوقعًا، ففي الصباح الباكر وقبل انبلاج النور، نزل ضباب كثيف بشكل عطل الرؤيا كليًّا، ولم يبقَ أمام قبطان السفينة سوى أن ينزل كل الأشرعة، ويلقي المرساة، ويعلق أكثر من سراج على مقدمة ومؤخرة السفينة احتياطًا، وأن ينتظر لحين خروج الشمس وسطوعها لتبخير الضباب.

ومع انقشاع الضباب بعد مرور الساعات الأولى من الصباح بدأ البحر يمتد من حول السفينة، وتنفس الركاب الصعداء وأمر النوخذة برفع المرساة ونشر الأشرعة، وإذا بأحد البحارة يقول:

- هناك سفينة على اليمين، وهي تقترب بشكل سريع.

أخذ «سادلر» المنظار ونظر تجاهها، كان قلبه يخفق؛ فلم يكن يريد تكرار تجربته خلال رحلته من الهند إلى مسقط، ولم يتبين له شيء، فقد كانت هناك بقع من الضباب ما زالت تحوم فوق البحر مما يجعل الرؤية بعيدًا صعبة جدًّا.

توقع أن تكون سفينة تجارية أبحرت من قطر، ولكن ما كان يؤرقه هو سرعتها غير الطبيعية، وهي تشق طريقها تجاههم كما قال البحّار الذي شاهدها.

بدأت قطع الضباب بالتحرك وكأنها سحاب فوق الماء، فأصبحت الرؤية

تتقطع بتحرك قطع الضباب المستمر، فالتفت «سادلر» إلى أحمد وطلب منه مساعدته في البحث عن السفينة التي كانت تتبعهم منذ فترة.

في هذه اللحظات كان أغلب البحارة قد اجتمعوا حول «سادلر» يتابعون السفينة التي كانت تظهر فجأة وتختفي فجأة أيضًا، وكانوا يشاهدون قطع الضباب ويحاولون تأمل أي شيء يتحرك بها حتى يوجهوا أصابعهم إليها.

أطلق بحارة السفينة «ميركوري» عليها السفينة الشبح. فجأة ودون مقدمات دخلت سفينة «سادلر» في قطعة ضباب ضخمة اضْطُرَّ القبطان معها لتخفيف السرعة وإنزال الأشرعة، ثم أمر أحد بحارته بإنارة السراج وتعليقه على السارية، وما إن فعل البحّار ذلك حتى لاحظ «سادلر» السراج المعلق، فركض إليه ورماه في البحر وهو يقول:

ـ أيها الأحمق لا تفعل ذلك مرة أخرى.

سأل بِشر «سادلر» عن السبب الذي دعاه لفعل ذلك، فرد عليه بأنه يخاف أن تكون هذه السفينة سفينة أرحمة والده، وأنهى حديثه بالقول:

ـ حينها سنكون أنا وأنت وأحمد في شرّ يوم من حياتنا.

ارتجف بِشر حين فكر في ذلك، فهو حتى هذه اللحظة لم يكن يعتقد أن والده سيجده في البحر، وهو قد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة لتمويه سفره من قلعة الدمام فكيف سيواجه والده في عرْض البحر؟

خيم جو من الهدوء الحذر على ركاب السفينة، كلٌّ يفكر في الذي قد يحصل له، فعندما يكون الضباب الكثيف مخيِّمًا على المكان ولا يستطيع الرجل أن يرى شيئًا، فإنه ينظر إلى داخله، إلى ذاته، شعوره، هواجسه، وهكذا كان، فـ«سادلر» قد نجح في مسعاه ولا يريد أن يغيب السيف مرة

أخرى عن ناظريه، أما بِشر وأحمد فقد شغلتهما هواجس أن تكون السفينة التي تتبعهما هي الغطروشة.

فجأة، ودون مقدمات اهتزَّت السفينة «ميركوري» بفعل ضربة قاسية على جنبها، وتساقط ركابها على سطحها، وعندما رفعوا رؤوسهم عرفوا أن السفينة التي كانت تتبعهم قد ضربتهم بقوة بسبب الضباب الكثيف، فاتجهوا بأبصارهم إلى السفينة الأخرى محاولين تمييز أصحابها.

لقد تحققت أسوأ كوابيس بِشر حين شاهد والده ممسكًا بسيفه وحوله ابن عفيصان وخادمه ضرار، أما «سادلر» فقد أغمض عينيه وعرف أن نجاحه في الحصول على السيف لم يكن سوى حلم جميل على وشك الانتهاء.

أمر أرحمة بتقييد جميع ركاب السفينة دون استثناء، ثم أمر بعزل ابنه بِشر وأحمد بعيدًا عن البقية، وبدأ في التحقيق مع بقية طاقم السفينة حتى يعرف أكان لهم دور في تهريب السيف أم أنهم بحارة فقط لا علاقة لهم بما يحصل.

حاول «سادلر» المتخفي في زيٍّ بحَّار إخفاء وجهه تحت عمامة كبيرة، ولكن أرحمة أمسك به من كتفه وساعده على الوقوف على قدميه، وقال:

ـ لا بدَّ أنك الإنجليزي «سادلر»، أليس كذلك؟

رد عليه «سادلر»:

ـ وكيف عرفت اسمي؟

حينها أمسك أرحمة بتلابيبه، وقربه من بِشر وأحمد وبدأ بشرح قصته:

ـ بعد عودتي من البحر، بحثت عن ابني بِشر الذي كان يدَّعي المرض حتى أطمئن عليه، فلم أجده، وقيل لي إنه ركب على ظهر حمار وتوجه إلى القطيف.

كان أرحمة يتحدث وهو ينظر إلى بِشر الذي أنزل بصره إلى الأرض، فهو يعلم أنه ارتكب خطيئة لن تُغتفر، ثم واصل أرحمة حديثه:

ـ كنت قد أخفيت سيفًا ثمينًا في مكان سرِّي لا يعرفه سوى ابني بِشر، فذهبت لأرى هل السيف في مكانه، ولكنه كان قد اختفى، لقد أخذه بِشر، لقد خانني أكثر الناس قربًا إليَّ.

كان أرحمة يتحدث وملامح وجهه تتغير بتغير الأحداث، وكلما تحدث عن بِشر نظر إليه باحتقار وكأنه قد قرر عقوبته مُسْبقًا.

واصل أرحمة حديثه:

ـ عرفت أن توجهه إلى القطيف لم يكن سوى ذرٍّ للرماد في العيون، وأنه سيتجه إلى حبيبته سلوى التي أعارض زواجه بها، وأظنكم تعرفون جميعًا أن أحمد هذا هو أخوها.

نظر إلى أحمد باحتقار أيضًا، ثم أكمل:

ـ لقد كان يريد السيف ليقدمه مهرًا لها؛ حتى يُرضي قبيلتها التي ترى فيه ابنًا لعدوٍّ شرس يجب أن يُقتل، وأظن أحمد وجد في هذا فرصة لتحسين وضعه الاجتماعي الذي يعانيه، أليس كذلك يا أحمد؟

حاول أحمد أيضًا أن يتفادى نظرات أرحمة الحارقة، ونزلت دمعة من عينه حاول أن يخفيها عن الجميع، فهو ينظر لأرحمة على أنه والده الذي ربَّاه وعطف عليه بعد وفاة والده الحقيقي، ولم يكن ليتحمل نظراته تلك.

عرف «سادلر» أنه قد يكون ضحية لخلاف عائلي لا دخل له به، ولم يكن يعنيه في تلك اللحظة سوى أن ينفذ بجلده من عقوبة هذا الرجل.

التفت أرحمة إلى صديقه ابن عفيصان وأصدر حكمه:

ـ يُرمى بِشر وأحمد مُوَثَّقَي الأيدي في البحر، عسى الله أن يغفر لهما خطأهما؛ لأني لم أستطع أن أفعل ذلك، ويُجلد هذا الإنجليزي خمسين جلدة جزاءً له لدوره في إغواء بِشر لتسليم السيف له، ويُصادر كل ما على السفينة من بضاعة.

حاول ابن عفيصان التدخل ومنع حكم القتل، ولكن أرحمة رده كما هي العادة عندما يتخذ قرارًا.

ـ هل جُنِنْت يا أرحمة؟ إنهما ابناك، لا تنسَ أو تتناسَ ذلك.

لم يرد أرحمة، بل نظر إلى ابن عفيصان بغضب ثم أزاح بصره عنه:

ـ انظر إليّ عندما أتحدث معك يا أرحمة، إنني أكره فيك هذه العادة، لا يجوز أن تقتل هذين الشابَّين لأنك غضبان منهما فقط.

ـ لا تناقشني يا ابن عفيصان، لقد سئمت كثرة حديثك.

نزلت دمعة حزينة من عين ابن عفيصان ووجدت لها ملاذًا في لحيته الكثّة، شاهد بِشر تلك الدمعة، وأكبر في ابن عفيصان رقة قلبه ودفاعه المستميت عنهما، ثم قال بِشر بصوت مسموع:

ـ دعه يا عمّ؛ فعندما يقرر والدي أمرًا لا يتراجع عنه أبدًا، فأمرنا الآن بيد الله.

جلس ابن عفيصان أمام الشابَّين، ورفع يده إلى السماء داعيًا الله أن ينجيهما ويحفظهما ثم مسح على جسديهما، وكان وجهه مليئًا بالعطف والشفقة، وكأنه قرر أن يصلي على جسديهما قبل أن يموتا.

نفذ البحّارة أوامر قائدهم وبدأوا بما أمر به، فسحبوا بِشرًا وأحمد من أيديهما بقوة، وأوقفوهما على حافة السفينة، كان أحمد يصرخ طالبًا الرحمة، أما بِشر فقد كان مستسلمًا لقدره منتظرًا أن يدفعه أحدهم إلى الماء.

أشار أرحمة إلى بحّارته بالتنفيذ دون أن ينظر تجاه الضحايا، فسقط الاثنان في الماء.

التفت أرحمة إلى ضرار، وأمره بالاتجاه إلى مسقط.

نظر ضرار إلى ابن عفيصان، وعيناه تتساءلان عن السبب في هذا القرار، ولكن ليس هناك ما يدعو للبطء في تنفيذ قرار أرحمة، فصرخ ضرار في بحارته لتنفيذه، فتحركت الغطروشة تجاه مسقط تاركة بِشرًا وأحمد لمصيرهما.

صرخ بِشر في أحمد محاولًا تعليمه كيفية الطفو ويداه مقيدتان، استطاع بِشر أن يطفو على ظهره، وأن يملأ رئتيه بالهواء، ويتنفس تَنَفُّسًا قصيرًا متقطعًا حتى يبقى طافيًا، وكان يلتفت إلى أحمد الذي كان مرتبكًا يتقلب على ظهره تارة وبطنه تارة أخرى، ولم يستطع أن يسيطر على نفسه.

ـ اسمعني يا أحمد، انقلب على ظهرك، أرجوك، لا ترتبك فستقتل نفسك. كان بِشر يكرر ذلك محاولًا تهدئة أحمد، ولكنه كان يصارع الموت ومرعوبًا من الغرق.

تابع بحّارة الغطروشة من بعيد طرطشة الماء وصراع الشابَّين مع الموت.

كان أحمد يختفي حينًا، ويخرج حينًا آخر من الماء، يتبع ذلك بشهيق قويّ وكحة متحشرجة من جرَّاء بلعه ماء البحر، وكان يصرخ:

ـ أنقذني يا بِشر، لا أريد أن أموت.

وحين يرد بِشر عليه كان يغوص مرة أخرى في الماء، ولم يكن بِشر يستطيع أن يفعل شيئًا غير محاولة تعليمه كيف يعوم بيديه المقيدتين وبالصراخ عليه حينًا حتى يستجمع شجاعته، ولكن أحمد كان يشعر أنه يقترب من الموت في كل لحظة يغوص فيها في البحر.

وبعد عدة محاولات للبقاء على سطح الماء، اختفى أحمد، وظهرت فقاقيع كثيرة في مكان اختفائه، ولم يخرج بعدها أبدًا.

بكى بِشر لموت صاحبه، وصرخ بصوت عالٍ لاعنًا والده الذي تسبب في هذا، وبعد فترة شعر بحرارة الشمس تلفح وجهه وكأنها جمر مُتقِد، فانقلب على وجهه محاولًا تبليله لتخفيف الحرارة عنه قليلًا.

بقي بِشر محافظًا على رباطة جأشه، مقلبًا جسمه من حين إلى آخر في الماء، وكان يحرك رجليه تجاه الشرق جاعلًا الشمس دليله لتحديد الاتجاه.

ومع حلول الليل بدأ يفكر في أسماك القرش التي تهاجم فرائسها ناهشة اللحم وقاطعة الأطراف، فحاول أن يقلل من حركته حتى لا يجذب إليه الأسماك، واستمر في التجديف بساقيه بهدوء طوال الليل.

ومع بزوغ الشمس، تأكد من أنه لم يفقد اتجاهه خلال الليل، فاستمر على حاله في تحريك ساقيه وتقليب جسده في الماء من حين إلى آخر، وبحلول مساء اليوم التالي شاهد صخورًا ناتئة في وسط البحر، فعرف أنه قد وصل إلى البر ولم يبقَ سوى أن يتحمل قليلًا حتى يجد النجدة.

خلال الليل لمس بأطراف قدميه قاع البحر الصخري، فحاول الوقوف ولكن قدميه لم تسعفاه، فقد كانتا خَدِرَتين وضعيفتين.

حاول أن يفك الحبال التي كانت تربط ساعديه بعضهما ببعض بحكها على صخرة ناتئة جافة، وبعد عدة ساعات تحررت يداه وبدأ يستخدمهما لمساعدته على الخروج من البحر.

# الفصل الرابع والعشرون

## ميناء مسقط

وصلت الغطروشة تتبعها السفينة «ميركوري» إلى ميناء مسقط، فلم يلاحظ مراقبو الميناء الغطروشة التي أنزلت علمها الخاصّ، والتصقت بالسفينة «ميركوري» وكأنها تابعة لها، ورَسَتا غير بعيد عن السفن الأخرى، نزل أرحمة ممسكًا بصندوق السيف الهندي الذي لفّه كالعادة بخرقة بالية، ونزل معه ابن عفيصان و«سادلر» واتجهوا دون أن يتحدثوا بعضهم مع بعض إلى مقر المقيمية البريطانية في مسقط حيث يتوقعون أن يجدوا القبطان «لوخ».

دخل الثلاثة إلى مكتب «لوخ» الذي نظر إلى وجوههم باندهاش، وقام من كرسيِّه بسرعة، وقبل أن يتحدث كان أرحمة قد جلس على أحد الكراسي وتبعه ابن عفيصان و«سادلر» الذي كان في لباس بحّار عربي.

استجمع «لوخ» شجاعته، وسأل أرحمة عن سبب وجوده هنا:

ـ أتيت لأنهي هذه المشكلة يا مستر «لوخ»، إننا مثل الطيور الجارحة التي تحوم حول فريستها، وقد أتيت لأسلمك فريستك حتى تسلمني فريستي، أليس هذا عدلًا؟

لم يستوعب «لوخ» ما قاله أرحمة ونظر باستغراب إلى «سادلر» لعلّه يساعده، ولكن الأخير نظر إلى أرحمة وكأنه ينتظر أن يكمل حديثه.

وجَّه «لوخ» سؤاله مرة أخرى إلى أرحمة مستفسرًا:

ـ هلَّا شرحت المزيد يا سيد أرحمة؛ فأنا لم أفهم بعد مقصدك؟

فك أرحمة حينها القماش الملفوف حول صندوق السيف، وحين رآه «لوخ» انفرجت أساريره، وابتسم، وقام ليأخذه، ولكن أرحمة مد يده في إشارة لوقفه، وحين رأى «لوخ» ذلك التعبير من أرحمة عاد إلى كرسيه منصتًا لبقية الحديث:

ـ يا سيد «لوخ»، بسبب هذا السيف فقدت ابنًا لي من دمي وابنًا لي بالتبني، بالإضافة إلى أنني شعرت بأن هذا السيف أضحى عبئًا عليَّ وأود التخلص منه، ولكن لا بدَّ من أن آخذ شيئًا منك بالمقابل.

لم يود «لوخ» سماع مثل هذا الحديث، فقطَّب حاجبيه متوقعًا ثمنًا مرتفعًا، ثم قال:

ـ وما الذي تريده يا سيد أرحمة؟

ـ أريد أن تتركني وأعدائي، وألّا تتدخل في الصراع الحاصل بيننا سواء معهم أو معي، وأنت تعلم من الذي أعنيه بذلك.

ـ أنت تعني قبيلتك العتوب، وبالذات آل خليفة حكام البحرين، أعلم كل ذلك.

أكمل أرحمة حديثه:

ـ سيكون بيني وبينهم صراع طويل مرير، وقد يعود هذا الرجل (ثم أشار إلى ابن عفيصان.) إلى حكم البحرين، ولو تدخلتم فإني سأقلب البحر عليكم من جديد.

ـ أنا لا أقبل التهديد يا سيد أرحمة، فدعنا نتحدث كرجلين عاقلين بدلًا من الصراخ.

رفع أرحمة صوته بشكل استفزازي:

ـ أنت لا تفهم سوى الصراخ يا «لوخ»، فقد عقدتم اتفاقيات مع جميع حكام الخليج ثم كسرتم هذه الاتفاقيات حين شعرتم أن مصالحكم تتضارب معها، وأنت تعلم أنني لست مثلهم، أنا أملك البحر، وأملك رجالًا سيحاربون معي إلى آخر قطرة من دمائهم، ولو كسرت الاتفاقية سأدمر تجارتكم مرة أخرى، وستتمنون مواجهة القواسم بدلًا من مواجهتي.

أراد «لوخ» تهدئة الوضع حتى يصلوا إلى نتيجة:

ـ حسنًا يا أرحمة، دعنا نحدد بالضبط طلباتك؛ لأننا لن نستطيع أن نكتب هذه الاتفاقية، وستبقى سرًّا بيننا نحن الأربعة، فأنت تريد أن تسلمني السيف الهندي نظير أن أتركك تجابه آل خليفة دون أي تدخل من الحكومة البريطانية، وفي حال تمكنت من الانتصار عليهم ستعيد الوهابيين إلى الجزيرة، ولا تريدني أن أتدخل؟

ـ نعم، هو ذلك، ولكنك تعلم أن ابن عفيصان أصبح من رجالي فهو لا يعمل مع الوهابيين منذ أن انقلبتم عليه في البحرين.

ـ لا بأس، ولكن على ابن عفيصان ألّا يصبح عدوًّا لنا بعد أن يحكم البحرين، هذا هو شرطي.

أشار ابن عفيصان إلى أرحمة بعينه، حينها أجاب أرحمة:

ـ حسنًا، أنا موافق.

طلب «لوخ» من أرحمة أن يريه السيف حتى يطمئن، قام أرحمة من

مكانه، وأزال القماش الذي كان يلف به الصندوق، ومسحه به، ثم فتح الصندوق، حينها قام «سادلر» من مكانه ليراه وليشبع نظره به.

أخرج «لوخ» السيف من الصندوق ثم جرده من غمده بطريقة مسرحية، وشاهد لمعان النصل وهو يعكس نور الشمس المتسرب من النافذة، ابتسم وعلم أن مهمة توحيد القوى ضد الوهابيين قد أَزِفت.

التفت «لوخ» إلى «سادلر» وسلمه السيف قائلًا:

ـ إنه الآن في عُهدتك، حافظ عليه كما تحافظ على حياتك؛ فهو كما قيل لك من قبل، مفتاح مهمتك.

اتجه «لوخ» بعدها إلى أرحمة، ونظر في عينيه طويلًا قبل أن يقول:

ـ لك موافقتي على الاتفاق يا أرحمة، إنه أمر لا أحبُّه، ولكن عليَّ المحافظة على هذا الاتفاق السخيف معك.

رد أرحمة:

ـ لا يهمني رأيك في الاتفاق، المهم أن تحافظ عليه، فأنتم الإنجليز لستم معروفين بالمحافظة على الاتفاقات في هذه المنطقة.

لم يحتمل ابن عفيصان أسلوب حديث «لوخ»، فرد بقوله:

ـ يا سيد «لوخ»، منذ أن بانت سفنكم في الخليج وأنتم تحددون من يحكم ومن يُعزَل، وهذا أمر غير مقبول أبدًا، سيأتي يوم تخرجون فيه من هنا، وأتمنى ألّا يبقى لكم أصدقاء حين يحدث هذا.

أخرج «لوخ» سيجارًا من العلبة التي على المكتب وأشعله قبل أن يجيب:

ـ إن مصالحنا تتطلب أن نكون على حذر من تركز القوى لدى جهة

واحدة، وأصدقاؤك الوهابيون قد يكتسحون المنطقة بِرُمَّتِها لو لم نكن متواجدين، وهم قد أعلنوا عداوتهم لنا، وحلفاؤهم يهاجمون سفننا حين يرغبون في ذلك، أليس القواسم حلفاء لكم؟

رد ابن عفيصان:

- ولكن يا سيد «لوخ»، إن ما تراه أمامك عبارة عن موجات سياسية تتلون بالدين في بداية ظهورها، عادة ما تبدأ الصراعات السياسية بعقائد دينية أو عرقية ثم ترجع إلى أصلها بمرور الوقت، وقد شاهدنا ذلك على مدى التاريخ.

غمز أرحمة صديقه ابن عفيصان بعينه وهو مبتسم دلالة على الرضا، ثم أشار إليه بالتوقف، جلس ابن عفيصان مرة أخرى، وترك المجال لأرحمة للتعليق:

- قد يطول حديثنا يا سيد «لوخ»، ولكن دعنا نذهب، كلٌّ في طريقه، فمن يعلم؟ قد لا نرى بعضنا بعضًا مرة أخرى.

خرج أرحمة برفقة ابن عفيصان من المكتب، فالتفت «سادلر» إلى «لوخ» واستأذنه في إتمام مهمته، حينها سأله «لوخ»:

- وما خطتك؟

- سأغادر إلى القطيف في إحدى السفن غدًا، ومن القطيف سأتصل بالقوات التركية الموجودة في الأحساء حتى يسهلوا سفري إلى معسكر إبراهيم باشا، ولديَّ كتاب إلى زعيم بني خالد، هذه القبيلة الكبيرة المسيطرة على منطقة الأحساء ونواحيها لمساعدتي في مهمتي.

قال «لوخ» بتثاقل:

- حسنًا، اذهب الآن.

## الفصل الخامس والعشرون

### ميناء مسقط

اعتقد «لوخ» أن مهمته قد انتهت بتسليم السيف إلى «سادلر»، فاستلقى على الكرسي محاولًا تأمل نفسه وقد عاد إلى بريطانيا مستمتعًا بالسلام والهدوء في إحدى مزارعه في الجنوب البريطاني بعيدًا عن الجو الخانق والمشاكل التي يواجهها هنا، ولم يكن يعلم أن «غولاب» لديه مخطط آخر له قد يحطم أحلامه في حياة مريحة بعيدة عن الصراعات في الخليج.

وغير بعيد عن مكتب المقيمية البريطانية حيث كان «لوخ» مسترخيًا، نزل «غولاب» من مكتبه بعد أن غادره أبو صالح و«شارما» عائدين إلى البحرين، بدأ يسير في طرق مسقط مفكرًا في أفضل طريقة لينفذ ما اتفقا عليه، كان من عادته حين يفكر أن يشبك أصابع يديه خلف ظهره، ثم يعزل نفسه عن محيطه، ويمشي في الشوارع حتى يجد حلًّا لمشكلته.

لقد كان أبو صالح واضحًا في طلبه؛ فهو يريد تدخل الإنجليز ليكونوا طرفًا في الصراع الحاصل بين أرحمة وآل خليفة، ودور «غولاب» هو إيجاد السبب الذي سيدفع الإنجليز ليكونوا طرفًا في هذه المشكلة، ويساعدوا آل خليفة على التخلص من أرحمة.

إن الثروة التي وضعها أبو صالح على مكتبه ستغير حياته إلى الأفضل، وخصوصًا أنه وعده بمثلها حين ينجح في مهمته، فكر في نفسه، لقد عمل سنواتٍ مسؤولًا عن مكتب شركة الهند الشرقية في مسقط، وبنى علاقات كبيرة مع التجار والضباط الإنجليز، حتى مع العائلة الحاكمة في مسقط، ولكنه ما زال موظفًا، يعتمد على راتبه الذي يتقاضاه من مديريه الذين لا يعلم متى سيتوقفون.

ليست المهمة سهلة؛ فلو فشلت فإنه قد يخسر كل شيء، ولو نجحت فقد يصبح ثريًّا وتتغير حياته، ولكن ما الذي سيجعل مهمته تفشل؟ إنه يملك الكثير من الخيوط التي يستطيع أن يحركها وقتما يشاء، وعلاقاته تسمح له بالتأثير في صناع القرار، ولكن كيف يضع إستراتيجية التحرك؟ هذا ما كان يشغله.

مشى في طرق مسقط، كان البعض يحيِّيه، يرد أحيانًا ويهمل أحيانًا أخرى، فباله كان مشغولًا بالشخصيات التي عليه أن يؤثر فيها، والدور الذي يجب أن يقوم به، ثم توقف عن التفكير قليلًا، لقد وجد نفسه وقد اتجه إلى سوق العبيد، غير من اتجاهه ليعود إلى البحر، فالجو هناك ألطف والمناظر أجمل.

وصل إلى البحر حيث يعرفه الكثير من البحارة والتجار والعمال، فخرج من تفكيره بعد أن اجتمع إليه مجموعة من التجار محاولين الحديث معه، فنسي مشكلته بعض الوقت، وانغمس في حياته اليومية.

وخلال حديثه شاهد سفينة بريطانية راسية في الميناء، وعلى سطحها مجموعة من النساء البريطانيات والهنديات مع أطفالهن، وعندما سأل عنها قيل له إنها سفينة تابعة للبحرية الملكية قادمة من الهند تجاه البصرة، وإن هؤلاء النسوة هن زوجات وعوائل الضباط البريطانيين والعسكريين الهنود

المقيمين هناك، تذكر حينها أن هذه السفن تأتي من وقت إلى آخر إلى ميناء مسقط للتموين وإكمال طريقها إلى البصرة أو العكس.

شاهد سيدة بريطانية معها ابنتها تتحدث مع القبطان من فوق سطح السفينة، فاقترب من السفينة وحيًّا قبطانها وعرّفه بنفسه، فرح القبطان برؤيته وقال له:

ـ أنا مسرور لرؤيتك، إن السيدة المحترمة هذه تريد أن تنزل إلى الميناء للتَّبضُّع، وأنا متردد في السماح لها بذلك؛ لأنها لا تعرف أحدًا هنا، وأخاف إن ضلت طريقها أن نتأخر في الإبحار، فهل تساعدها حتى تشتري ما تريد بأسرع وقت ممكن؟

ـ بكل سرور يا سيدي، سأكون معها وأعيدها إليك خلال ساعات.

ابتسمت السيدة الإنجليزية بعد أن عرفت أن هناك من سيكون معها في أثناء نزولها في ميناء غريب عنها، وأشارت إلى مجموعة من النساء، فنزلن معها، حينها وجد «غولاب» أنه مسؤول عن السيدة وابنتها البالغة من العمر خمس عشرة سنة، وسيدة إنجليزية أخرى، وسيدتين هنديتين، نظر «غولاب» إلى القبطان بنظرة تساؤل، وكأنه يقول له: لقد اتفقت معك على واحدة، وها أنت ترسل لي خمسًا.

كانت نظرة القبطان أكثر خبثًا، فقد أتبعها بابتسامة وجهها إلى «غولاب» وكأنه يقول له:

ـ ستكون معهن ساعاتٍ فقط، أما أنا فكنت وسأبقى معهن أسابيع.

حاول «غولاب» إخفاء توتره، فمشى مع السيدات إلى السوق التي تقع خارج الميناء بقليل، وسألهن عن رغبتهن وما الذي يُرِدْنَ شراءه خلال هذه الفترة القصيرة.

ردت عليه السيدة التي كانت تقود التمرد النسوي على إرادة القبطان في عدم مغادرة السفينة قائلة:

ـ إن لنا أكثر من ثلاثة أسابيع ونحن في هذه السفينة المملة، ونريد أن نشتري بعض الأشياء من هنا، ونحرك أقدامنا التي جَمُدت من البقاء في غرفنا الصغيرة، إننا نريد أن نتحرك فقط... آهٍ، دعني أعرفك بمن معي، أنا زوجة ضابط إنجليزي مقيم في البصرة وهذه الفتاة ابنتي، والسيدات هُنَّ أيضًا زوجات لعسكريين مقيمين في البصرة وبغداد، ونحن ذاهبات إليهم، كم أكره السفن! إنها عبارة عن سجون متحركة، هل تعلم كم هو سيئ ذلك الطعام الذي يقدمونه لنا؟ إنه يجعلنا نتقيأ في البحر، آآآه، كم أكره البحر، لو ترى كيف تكون حالنا حين تهب العواصف، يا إلهي، إنها مأساة بحق! إن زوج السيدة المحترمة التي معي، إنها تلك السيدة الهندية، لقد تعرفت أنت إليها توًّا، ها هي، (وأشارت إلى إحدى السيدات الهنديات التي معها.) قد أُصيب في بغداد بطلق ناري، ولو كنت تراها كيف تبكي! كنا نواسيها طوال الوقت، انتظر قليلًا، أنا لم أحدثك بعد عن السيدة البريطانية التي أُصيبت بألم في المعدة، لقد خسرت من وزنها الكثير بسبب عدم رغبتها في الطعام، ولكنني أعتقد أن هذا أفضل لها، فقد كانت ممتلئة الجسم، فلعلَّ زوجها يُفَضِّلها هكذا، أووووووووه، انتظر، يجب أن تعرف قصة البحَّار الذي أُعجب بإحدى الفتيات معنا، يا إلهي كم تعذب في سبيل أن يتحدث معها! ولكن القبطان كان له بالمرصاد، فقد أمره بالبقاء على أعلى السارية مدة يوم كامل، أليس هذا عذابًا؟ آآآآآآآآآه، نعم، كنت أريد أن أقول إنني سأشتري بعض الفواكه المجففة لزوجي، يقولون إن سعر قرن وحيد القرن هنا رخيص، هل هذا صحيح؟ أريدك أن تساعدني، هل لديَّ ما يكفي من المال؟

ثم ذهبت لتسأل سيدة أخرى، وتركت «غولاب».

ابتسم «غولاب» كعادته في كل وقت، وتمتم في سرِّه: من الواضح أن هذه السيدة ثرْثَارة، أعان الرب زوجها، يا إلهي إنها لا ترغب في إراحة لسانها قليلًا، مسكين قبطان السفينة، كنت أعلم أن ابتسامته تحمل الكثير من المعاني، ما الذي يجب عليَّ أن أقدمه للآلهة حتى تريحني منهن؟

طوال الطريق وهُنَّ يتسوقن، كانت النسوة لا يتوقفن عن الحديث والثرثرة:

ـ هل أنت متزوج يا سيد «غولب».

ـ إنه «غولاب» يا سيدتي.

ـ لا بأس، اسمح لي، إن خادمي في الهند اسمه طويل جدًّا، وأنا كما تعرف لا أنطق هذه الأسماء، فكنت أسميه «جورج»، إنه أسهل لي كما تعرف.

ـ أعرف يا سيدتي.

ـ هل أنت سعيد هنا في هذه البلاد يا سيد «غوالاب»؟

ـ إنه «غولاب» يا سيدتي، ونعم، إنني سعيد هنا.

كان النقاش والحوار يدور هكذا، النسوة مستمتعات بالثرثرة، و«غولاب» يعاني منهن.

ـ أنت لم تُجبني عن سؤالي السابق يا سيد «غولب»، هل أنت متزوج؟ لا بدَّ أن تكون زوجتك سعيدة هنا، لكن الجو خانق وحار خلال الصيف، أليس كذلك؟ سيد «غولب» هل أنت معي؟ أقول هل أنت متزوج؟

كان «غولاب» لا يفتأ يُتمتم لاعنًا حظَّه الذي قاده إلى الميناء في تلك اللحظة:

ـ نعم، أنا متزوج يا سيدتي، فقد أهدتني الآلهة زوجة جميلة لا تتحدث كثيرًا.

وبعد عدة ساعات من التسوق وسماع الأحاديث المملة عاد «غولاب» بالسيدات إلى السفينة يتبعهن مجموعة من الحمَّالين، وحين شاهد القبطان المجموعة النسائية قادمة تجاهه، ابتسم لـ«غولاب»، وقال:

ـ لا أعلم ما الذي كان يجب عليَّ فعله لو لم أقابلك، شكرًا على إعادتهن إلينا في الوقت المناسب، نحن على وشك المغادرة.

ابتسم «غولاب» ولوَّح له قائلًا في نفسه: صبَّت عليك الآلهة كل لعناتها، كم أنا سعيد بالتخلص منهن وإعادتهن إليك! ثم التفت إلى النسوة قائلًا:

ـ لقد سُرِرْت بالتعرف إليكن والمشي معكن، وأتمنى لكُنَّ سفرًا آمنًا ممتعًا.

غادر «غولاب» الميناء وهو ساخط على حظِّه الذي رماه مع هؤلاء النسوة اللاتي أضعن وقته، وفكر فيما لو ذهب إلى الآلهة وقدم لها قربانًا حتى يتم خطف هؤلاء النسوة وبيعهن في سوق الرقيق انتقامًا منهن.

ـ خطفهن!!! كيف لم أفكر في ذلك؟ لقد وجدت الحل.

# الفصل السادس والعشرون

## شمال شبه جزيرة قطر

وصل بِشر إلى شاطئ البحر، توقع أن يكون في شمال الساحل القطري؛ لأن سفينتهم كانت متجهة جنوبًا، وهو سبَح تجاه الغرب محاولًا جعل الشمس دليله خلال سباحته، وعلى ذلك فإن الساحل القطري يكون هو الأقرب إليه.

تلمس الأرضية الرملية بيديه، وخرج من الماء منتشيًا بجفاف الرمال من تحته، نظر حوله ليرى هل هناك وميض نور أو حركة، وعندما لم يجد عرف أنه سيكون وحيدًا، وأنه مهما صرخ فلن ينجده أحد، سقط على رمال الساحل، وأغمض عينيه متناسيًا ألم ساقيه وقدميه.

في صباح اليوم التالي، أيقظته حرارة الشمس اللاهبة، تحسَّس جسمه، كانت قدماه ما زالتا تؤلمانه؛ فقد مشى على الصخور في البحر دون أن يشعر، أما معصماه فقد كانا ملتهبين، ولكنه لم يكن لينشغل بهما؛ فقد كان البحر كفيلًا بعلاج هذه الجروح ومنع التهابها.

التفت خلفه فوجد مرتفعًا من الأرض حاجزًا بين البحر والصحراء، فقرر الصعود إليه لاستطلاع الأرض ومشاهدة المزيد منها.

ما إن وصل إلى قمة المرتفع حتى شاهد قرية نائية خلفه تُطِلُّ على خور صغير به بعض السفن، وشاهد الأطفال يلعبون على ساحل البحر والرجال منشغلين بإصلاح الشباك وتنظيف قاع السفن من الطحالب التي علقت بها.

تحامل على نفسه حتى يقترب من القرية، وما إن خطا بضع خطوات حتى أحسَّ به أحد الكلاب التي كانت على الساحل، فجاءه راكضًا وتوقف عنده وهو ينبح مما لفت أنظار الأطفال إليه، فجاؤوا يركضون إليه بدورهم.

توقف بِشر عن المشي، وجَثا على ركبتيه محاولًا التخفيف من الألم الذي كان يشعر به في قدميه، وأنزل رأسه، فقد عرف أنه نجا من محنته القاسية.

مع العصر كان بِشر يتناول سَمكًا وبعض التمر الجاف في بيت أحد شيوخ القرية، وقد ضُمِّدَت قدماه ومرفقاه بعد أن وضع على الجروح بعض الأعشاب المخففة للألم أحضرها إمام المسجد الذي كان يقوم بدور الحلاق والحجَّام والمعلم في الوقت نفسه.

عندما كان بِشر يتناول طعامه كان رب المنزل ممسكًا بطاسة كبيرة بها بعض اللبن، فقد كانت العادة ألا يتناول صاحب المنزل طعامه مع الضيف، بل أن يقف على خدمته حتى ينتهي.

سأله رب المنزل عن سبب وجوده على ساحل البحر وحيدًا.

ـ لقد سقطتُ من السفينة التي كانت تُقِلُّني من البحرين إلى عمان.

ـ ولكني شاهدت آثار الحبل على معصميك، هل أنت عبد هارب من سيدك؟

رفع بِشر يده قريبًا من وجهه وتأمل الضِّمادة وكأنه يشاهدها أول مرة، وآثر قول جزء من الحقيقة بدلًا من الكذب:

ـ لقد كانت يدي مقيدة، لقد رماني اللصوص من سفينتنا التي استولوا عليها.. لقد قتلوا والدي.

نزلت دمعة من عين بِشر ووجدت طريقها إلى صحن الطعام الذي كان يتناول منه، وشعر بأنه لم يكذب؛ فقد خسر والده إلى الأبد، فقد كان يبكي عليه.

ردَّد صاحب المنزل:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. إن مثل هذه الأمور تحصل كثيرًا، إن لدينا عدة منازل في هذه القرية ليس بها بالغون، والسبب أن الرجال قُتلوا في البحر، إما بمدفعية الإنجليز أو بسبب القراصنة الذين يسْطُون على السفن.

نظر بِشر إلى الرجل بعين دامعة:

ـ سيدي، أريد أن أذهب إلى دياري غدًا؛ فلديَّ الكثير لأفعله هناك.

ـ يا بني، إن الأمر بيدك، ولكني أنصحك بعدم المشي؛ فقدماك متشققتان من جرَّاء المشي على الصخور، ولكن إلى أين تريد الذهاب؟

ـ سأذهب من هنا إلى الزبارة، فلديَّ عمّ يقيم هناك، ومن الزبارة سأجد من يُقِلُّني إلى البحرين حيث أهلي.

ـ لا بأس يا بني، إن الزبارة قريبة جدًّا من هنا، سأقرضك حمارًا تركب عليه، وسيرافقك ابني ويعتني بك خلال الطريق.

ـ لقد أحرجتني بكرمك وعطفك يا سيدي، ولا أعلم كيف أرد لك هذا الجميل.

وصل بِشر وابن صاحب المنزل إلى الزبارة بعد يوم من المسير، وذهبا إلى بيت أبي مطر، ومن هناك طلب بِشر من رفيقه أن يبيت الليلة معه ويغادر صباح اليوم التالي إلى الرويس، ولكن الفتى قرر العودة في اليوم نفسه.

دخل بِشر إلى مجلس أبي مطر، وانتظر لحين عودته؛ فلم يكن يود أن يراه أحدٌ في السوق أو في أي مكان آخر وهو على تلك الحالة.

في المساء، جلس بِشر مع أبي مطر لتناول الشاي، ولم يكن أبو مطر يستطيع أن يتفادى سؤال بِشر عن تلك الأربطة الملفوفة حول معصميه وقدميه.

شرح بِشر لأبي مطر كل ما حصل معه خلال الفترة الماضية، حتى وصل إلى رميه من السفينة قريبًا من الرويس.

ـ هل تريدني أن أعلق على كل ما حصل يا بِشر؟ أظنك تعلم أنك ارتكبت خطأً كبيرًا بتصرفك.

نظر بِشر إلى الأرض، وكأنه شعر بتأنيب الضمير:

ـ أعلم يا عم، وأعلم أيضًا أنني خسرت والدي، وأصدقك القول، فأنا لا أعلم ما الذي يجب عليَّ فعله، وإلى أين سأذهب.

ـ من الواضح أنك قطعت كل الخيوط مع والدك، ولم يبقَ لك سوى أن تعتمد على نفسك منذ اللحظة التي قررت فيها سرقة السيف، ولكن يا بني، إن لوالدك أملاكًا كثيرة؛ فكل السفن التي تعمل لصالحه بالإضافة إلى قلعة الدمام التي رمَّمَها وأصبحت له وبئر الماء فيها، كل هذه الأملاك لك بعد والدك، فلا تتركها.

ـ لم أفكر في ذلك يا عمّ، فما تقوله صحيح، وأعتقد أنني يجب أن أكون قريبًا من قلعة الدمام قدر الإمكان، فوالدي أصبح كبيرًا، وهاجس الثأر أصبح مسيطرًا عليه، ولا أعتقد أنه سيُعَمَّر طويلًا؛ فهو كما تعلم لديه الكثير من الأعداء الذين يتمنون موته، ولو حصل هذا فجأة فإن كل أملاكه سيتخاطفها رجاله الذين سيختفون فجأة.

ـ عليك إذن أن تكون قريبًا من قلعة الدمام وتتابع أخبار والدك أولًا بأول حتى تستطيع أن تتصرف حال حدوث شيء.

ـ سأغادر غدًا بإذن الله، وأعتقد أن الأيام تخبئ لي الكثير من الأمور... ولكن هل أطلب منك طلبًا خاصًا يا عمّ؟

ـ نعم يا بني، اطلب ما تشاء.

تغيرت ملامح بِشر، وأصبحت أكثر براءة وسعادة:

ـ أريد أن تساعدني حتى أقابل سلوى قبل أن أغادر، فمن يعلم قد تكون هذه آخر مرة أقابلها فيها.

ـ هل تحبها فعلًا يا بِشر؟

ـ إنها معي في كل شيء، أنا أفكر فيها طوال يومي، فهي تصحو معي وتأكل معي وتبيت معي، فدون التفكير فيها تصبح حياتي جافة كرمال الصحراء، إنها الماء الذي يجعل حياتي أكثر اخضرارًا وخصوبة، آآآآآآآآه، ماذا أقول لك يا عمّ؟ نعم إنني أحبها حبًّا لا أستطيع وصفه.

ـ إنه إذن العشق يا بِشر، هذا العشق الذي جعلك مختلفًا عن غيرك، بل إنه جعل قلبك أكثر رقة، وأعتقد أنه السبب الذي جعلك تنجو من محنتك في البحر.

ذهب أبو مطر إلى داخل منزله لحظات، ثم عاد إلى المجلس:

ـ لقد طلبت من زوجتي أن تذهب لاستدعائها، وقلت لها أن تقول لها إنها تريدها في أمر خاص فقط.

وضع بِشر ذراعيه بعضهما فوق بعض وكأنه شعر بلفحة برد فجأة، وشعر

أن أطرافه لم تعد ملكه، وبعد عدة دقائق مرت كأنها ساعات، سمع صوتًا من داخل البيت، ثم صوت امرأة تستدعي أبا مطر.

ذهب أبو مطر لحظاتٍ، ثم عاد ليقول:

ـ إن سلوى هنا، ستأتي إلى المجلس، وأنا سأترككما بعض الوقت لأكون مع زوجتي.

حاول بِشر أن يقبّل يد أبي مطر احترامًا وتقديرًا لما يقوم به من أجله، ولكن أبا مطر سحب يده بسرعة مُتْبعًا الحركة بقول: أستغفر الله يا بني.

دخلت سلوى بعد أن غادر أبو مطر، وعندما شاهدها بِشر بدأ قلبه بالخفقان، فقد كانت دائمًا تسكن قلبه ووجدانه، وحبها هو ما يجعله يتحمل تقلبات الزمن ومآسيه.

كانت سلوى كعادتها مبتسمة، تترك خصلة من الشعر تخرج من حجابها لتنسدل على جانب وجهها، جميلة، حسنة الحديث، خفيفة الظل، تعلم في قرارة نفسها المصاعب التي يواجهها بِشر مع والده ولكنها لم تكن تحب أن تفتح هذا الموضوع معه.

أشار إليها بِشر لا شعوريًّا بالجلوس، وجلس هو بدوره متأملًا جمالها ورقتها وعذوبتها، ثم عاد إلى نفسه:

ـ إني أحاول جاهدًا أن أراكِ كلما مررت على هذه الديار يا سلوى.

أغمضت سلوى عينيها، فخُيِّل لبِشر أن الدنيا أظلمت أمامه، ثم فتحتهما مرة أخرى لتلتقي عيناهما بعضهما ببعض.

ـ إن مرورك يُسعدني يا بِشر، فكما تعلم أنا أعيش على أمل أن أراك...

لم تستطع سلوى إكمال ما تريد قوله؛ فقد غلبها الحياء فأخفضت رأسها وظهرت حمرة خدَّيها.

ـ لن يَقِرَّ لي قرار يا سلوى حتى تكوني زوجتي.

نظرت إليه مرة أخرى، ولم تستطع أن تقول شيئًا، فهي تعلم أن مسألة الزواج دونها الكثير من الصعاب، ثم تشجعت لتقول:

ـ أتمنى ذلك يا بِشر، ولكن لا تقتل نفسك في سبيل ذلك، فإن كتب الله علينا أن نتزوج فسنفعل ذلك، أما إن لم يكتب فلن يحدث ذلك.

ـ لقد خلقك الله لي وخلقني لك، لا شكَّ عندي في ذلك، فدعيني أفعل ما بِوُسْعي حتى يتحقق أملنا.

ـ سأدعو ربي أن يحفظك يا بِشر، والآن عليَّ الذهاب؛ فقد أوصتني زوجة العمّ أبي مطر ألا أُطيل البقاء معك خوفًا من أن يأتي أحدهم.

ـ هل لي بطلب صغير يا سلوى؟

ـ اطلب يا بِشر، فسعادتي في تحقيق طلبك.

ـ أريد أن أُقبِّل يدكِ، فهل تسمحين لي بذلك؟

مدت سلوى يدها إلى بِشر بخجل، فتناولها ووضع باطنها على فمه، وقبّلها بقوة وكأنه يقبل فاها، ثم وضع كفّها على خدّه وعينه.

قامت سلوى بسرعة بعد أن سحبت يدها من يد بِشر، وغادرت المجلس.

غادر بِشر الزبارة متوجهًا إلى القطيف لالتقاط أخبار والده، فهي المدينة التي يصل إليها رئيس حرس القلعة أبو مسفر لشراء التموين مرة في الشهر، ووجوده في هذه المدينة سيجعله على اتصال بالقلعة لمعرفة آخر الأخبار.

بعد أن نزل بِشر في ميناء القطيف حاملًا القليل من الحاجيَّات التي أهداها له أبو مطر، بدأ يبحث عن عمل يتكسب منه خلال بقائه فيها، فلم يكن يعلم كم سيبقى هنا، ومن سيقابل، وكيف سيخطط لحياته، استسلم لقدره، وعرف أن البحث عن وظيفة في الميناء سيكون من أولوياته.

شاهد الكثير من السفن المتوقفة على مدخل الميناء وتلك الراسية على جوانبه، نظر إليها بسرعة، وعرف أن بعضها قادم من الهند والبصرة وبعضها الآخر من البحرين، وقليلًا من عمان.

سأل عن شيخ الميناء فدلَّه الناس عليه، كان جالسًا تحت ظل سقيفة يدخن رأسًا من الدخان على عادة رجال المنطقة، وعلى رأسه قطعة من القماش لغطاء الرأس ثبتها بقطعة أخرى ذات لون مختلف لُفَّت على رأسه بشكل محكم، وله لحية بيضاء طويلة، ونظره مثل نظر الذئب لا يوحي بالثقة البتة.

وقف بِشر أمامه حاملًا صُرّة القماش التي تحوي كل ما يملك، وسلم عليه، ولكن الشيخ لم يرد السلام، بل نظر إليه شزرًا ثم أدار بصره إلى جهة أخرى، فكرر بِشر السلام بصوت أعلى، حينها سأله رجل آخر يجلس على مقربة من الشيخ عن طلبه.

ـ أريد أن أعمل، فأنا مسافر تقطعت بي السبل هنا، فهل لك أن تساعدني؟

ـ من أين أنت؟

عرف بِشر أن عمله لن يكون سهلًا دون أن يكون له قصة مقنعة؛ فعادة شيوخ الميناء ألا يوظفوا من لا يعرفون حتى لا يقعوا في مأزق مع السلطات، فعمال الميناء بمجملهم يعملون لصالح طرف أو آخر، وهم الذين يكشفون عن البضائع المهربة والمسروقة، وهم الذين يحددون أحيانًا قيمة الضريبة

على البضاعة، وعلى ذلك فإن عملهم على قلة مردوده إلا أنه مهم للسلطات المسيطرة على الميناء.

ـ أنا من الزبارة يا سيدي، من قطر، أتيت لزيارة أخوالي في نجد، ولكني فقدت أموالي، وأنا بحاجة إلى العمل لإكمال بقية الطريق.

قال الرجل بنوع من الضيق:

ـ هل تعرف أحدًا من أهل هذه المنطقة؟

ـ لا يا سيدي، لا أعرف... قد أعرف أحدًا... لا أعلم، إنني...

غضب الرجل، وبان ذلك من نبرة صوته:

ـ اغرب عني يا فتى، فلا وقت لي أضيعه معك.

لم يكن بِشر ليستسلم بسرعة، فهو في موقف حرج، وليس لديه مكان ليذهب إليه، فكان أن ارتفعت نبضات قلبه وتوتر صوته:

ـ إنني يا سيدي، أتحدث الإنجليزية والهندية، وأستطيع القراءة والكتابة، وقد أكون أكثر فائدة لك مما تتصور، ولن أبقى سوى فترة قصيرة هنا، ثم سأكمل طريقي إلى نجد.

قال الرجل بصوت عالٍ يكاد يكون صراخًا:

ـ قلت لك اغرب عنـ...

قاطعه الشيخ الذي كان يستمع لما كان يدور بين الاثنين:

ـ هل قلت إنك تتحدث الإنجليزية والهندية؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ وهل تعرف شيئًا من الحساب أيضًا؟

ـ نعم، أعرف كيف أجمع وأطرح وأخرج النسبة وأحسب الضريبة، إن كان هذا ما تريد.

التفت الشيخ إلى الرجل الذي كان يتحدث مع بِشر وأمره بتوظيفه، ثم التفت إلى بِشر مرة أخرى:

ـ اسمع يا بني، أريدك أن تكون أحد رجالي، وأن تنفذ ما أريد منك دون أسئلة، ولو شَمَمْت منك رائحة الخيانة فإنني أعرف كيف سأتصرف معك، هل تعي ما أقول؟

ـ إنني أعي جيدًا ما تقول، وستجدني خير مساعد لك.

ـ إذًا أريدك أن تجلس بقربي، وتأخذ هذه الدفاتر، وتحسب ضريبة هذه السفن، وعندما تفعل ذلك تعالَ لي مرة أخرى.

حسب بِشر ضريبة السفن التي كانت أسماؤها وبضائعها مدونة في الدفتر، وعندما سلمها لشيخ الميناء، نظر إليها بهدوء ثم طلب من بِشر أن يضيف ١٠٪ على الضريبة على ألا يدون هذه القيمة المضافة في الدفاتر، بل عليه أن يبلغ نواخذ السفن بقيمة الضريبة، ثم يقتطع عُشر المبلغ المستلم ويعطيه لشيخ الميناء.

عرف بِشر أنه أصبح ـ دون أن يرغب في ذلك ـ طرفًا في فساد مالي يفرضه شيخ الميناء على حركة التجارة، ولكن ليس هناك مهرب من هذا، فبدأ يعمل على حسب رغبات شيخ الميناء الشريرة.

بعد مرور شهر على عمل بِشر في الميناء بدأ بتكوين بعض الصداقات، وبدأ يعرف كيف يساعد بعض التجار على التهرب من الضريبة أو من القيمة

المضافة على الضريبة، وبدأ أيضًا يسيطر على بعض الحمّالين الذين يعملون لصالح شيخ الميناء ليخبروه بتفاصيل الحركة اليومية.

وفي صباح أحد الأيام شاهد ضابطًا تركيًّا جالسًا مع شيخ الميناء، وعرف أن اسمه خليل أغا، وأنه المسؤول عن الحامية التركية في القطيف والأحساء.

نظر إلى الرجلين، وأمعن النظر فيما يفعلانه، مع أنه كان لا يسمع ما يقولانه من بعيد، كان الرجلان يبتسمان بخبث بعضهما إلى بعض، ويضحكان، ثم أدار الشيخ جسمه جانبًا ليفتح الصندوق الذي على يساره. أخرج من الصندوق رزمة من المال وسلمها لخليل أغا الذي عدَّها ورقة ورقة، ثم وضعها داخل سُتْرته.

قام الرجلان من كرسييهما، وقبَّلا بعضهما بعضًا، وغادر خليل أغا المكان.

## الفصل السابع والعشرون

**ميناء مسقط**

كرر «غولاب» تساؤله مرة أخرى، ماذا لو تم خطف هؤلاء النسوة؟ ثم تغيرت نظرته وأصبحت أكثر خبثًا، إنها لعَمْري فكرة رائعة، ومشى بخطًى متسارعة إلى مكتب «لوخ»، طرق الباب ودخل، كان «لوخ» مسترخيًا على كرسيه شاعرًا أن الدنيا أصبحت ملكه بعد أن سلم السيف إلى «سادلر» وأخلى مسؤوليته منه.

نظر «لوخ» بعين حالمة إلى «غولاب»:

ـ هذا أنت؟ أرجو ألا تكون لديك أخبار سيئة، فقد مللت الأخبار السيئة حتى بتُّ أعتقد أنك أنت السبب في سوء الحظ الذي أعانيه منذ قدومي إلى هنا.

ابتلع «غولاب» ريقه، وجلس دون أن يأذن له «لوخ»، ثم قال:

ـ سيدي، لديَّ أخبار سيئة لك.

ـ سيد «غولاب»، أنا أؤمن بالنجوم والطوالع، وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن

نجومي ليست في أحسن حالها عندما أراك، لست أعرف السبب ولكن قل لي ما الأخبار السيئة التي تحملها لي!

ـ لقد وصلتني أخبار للتوِّ تقول إن سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية قد سطا عليها أرحمة بن جابر، وأسر سيدة إنجليزية وابنتها ذات الخمسة عشر ربيعًا، وإنه أخذهما إلى مكان سرّي، وأرجوك أن تفعل شيئًا؛ لأن القراصنة قد يسيؤون لهما.

وقف «لوخ» غاضبًا:

ـ ماذا تقول؟ إن أرحمة لم يكن يفعل ذلك من قبل، فما الذي استجد حتى يقوم بهذا؟

اصطنع «غولاب» البكاء والبؤس:

ـ سيدي، أرجوك، تخيل الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعًا بين يديْ هذا السبعينيّ الوحش، سيبيعهما بعد ذلك لمن يدفع له، أرجوك اعمل شيئًا وبسرعة.

ـ «غولاب»، هل أنت متأكد مما تقول؟ لا تجعلني أقتلك بيدي إن كانت هذه المعلومات غير صحيحة.

ـ وهل تعتقد أني سأزعجك بحديثي هذا إن لم أكن متأكدًا؟

أخذ «لوخ» قبعته على عجل من الطاولة، واتجه إلى الباب بسرعة، ثم توقف فجأة، وكأنه تذكر شيئًا:

ـ ولكن أين سنجد أرحمة يا «غولاب»؟ لقد كان عندي منذ فترة قصيرة، وطلب مني أن أتركه في صراعه مع آل خليفة، وألا أتدخل، لقد كان طلبه سهلًا واضحًا، لا نتدخل ولا يتدخل، فما الذي استجد؟

أخفى «غولاب» وجهه بكفّيه مصطنعًا البكاء مرة أخرى:

ـ سيدي، أنت تعرف أن القراصنة ليس لهم وعد ولا كلمة ولا شرف، فقد طعنك في ظهرك وسرق السيدتين، وويلي إن باعهما في إحدى الأسواق؟

ـ كُف عن النحيب والبكاء يا «غولاب»، فأنت تبكي مثل النساء، قل لي أين سنجد أرحمة؟

ـ لا أعلم يا سيدي، ولكني أقترح أن تقتله حال أن تجده دون أن تحقق معه، فهو كاذب مجرم، هل تفعل ذلك من أجلي، ومن أجل المرأتين المخطوفتين؟

نظر «لوخ» باشمئزاز إلى «غولاب»، وقال:

ـ قد أقوم بأي شيء من أجلهما، ولكن ليس من أجلك أنت؟ ولكن بما أنك تعمل مع شركة الهند الشرقية، عليك أن تستمع للأخبار التي يتناقلها البحارة عن هاتين السيدتين أو عن أرحمة بن جابر وإعلامي بها أولًا بأول.

ـ حاضر يا سيدي، سأفعل.

لم تصل لـ«لوخ» أي أخبار ذات مصداقية، ولم تصله تقارير من شركة الهند الشرقية التي كانت نشطة في إعلام مراكزها بكل المستجدات على الساحة، فقرر «لوخ» حينها إرسال رسالة إلى السيد «بروس» الذي كان يدير المقيمية البريطانية في «أبو شهر» لسؤاله عن هذه المسألة.

كان رد السيد «بروس» سلبيًّا، فلم يسمع عن عملية الخطف هذه، ولم يصله خبر عن خطف سيدتين إنجليزيتين في أي ميناء من موانى الخليج.

شك «لوخ» في المسألة برُمَّتها، فمثل هذه الأخبار يتناقلها البحارة بسرعة

عادة، ولكن هذه القصة بَدَت مبتورة وكأنها غير حقيقية. وبعد عدة أيام دخل على «غولاب» غاضبًا وأمسك به من تلابيبه وهزّه بقوة قائلًا:

ـ «غولاب»، لم أكن أحبك قطّ، لا أعلم لماذا أزداد كرهًا لك كلما شاهدت ابتسامتك الباهتة هذه، عليك أن تقول لي حقيقة قصة الاختطاف هذه، أو سأرميك في البحر طعامًا للأسماك.

ـ سيدي، سآتيك بالخبر اليقين، لا تغضب أرجوك، إن القصة حقيقية، نحتاج فقط إلى أن نحصل على المعلومات التي تحتاج إليها، أعطني بعض الوقت أرجوك!

عرف «غولاب» أنه إن لم يَحبك القصة، فإنه سيكون الضحية لهذه المؤامرة الناقصة، فأرسل رسالة إلى «شارما» مساعد التاجر البحريني يطلب منه أن يرسل رسالة إلى «لوخ» يقول له فيها إنه شاهد سيدة وابنتها معروضتين للبيع في سوق البحرين، وعليه أن يقوم بذلك بسرعة إن كان يحب الإلهة «آجني» وجميع أبنائها وأحفادها.

بعد نحو أسبوع وصلت رسالة دون توقيع إلى القبطان «لوخ» في مسقط. تقول الرسالة التي كُتبت بلغة إنجليزية إن هناك سيدتين إنجليزيتين أمًّا وابنتها معروضتان للبيع في سوق المحرق، وإن التجار يتهافتون على شرائهما، وإن كاتب الرسالة موقن بأن السيدتين سيكون سعرهما عاليًا نظرًا لقلة البضاعة الجيدة المعروضة من هذه النوعية.

قرأ «لوخ» الرسالة، وكرر في نفسه: بضاعة جيدة!! من أجل الله، إنهم يتحدثون عن سيدتين إنجليزيتين هنا، لقد كان «غولاب» على حق إذن.

خلال بضعة أيام كانت السفينة «إيدن» بكامل طاقمها وأسلحتها على مشارف المحرق تطالب الشيخ بتسليمه السيدتين البريطانيتين بأسرع وقت ممكن.

وصل الشيخ إلى السفينة «إيدن» وأقسم إنه لا يعلم عن الموضوع شيئًا، وإنه من المستحيل أن تكون هناك تجارة للرقيق في البحرين أصلًا، استمر النقاش طويلًا بين الشيخ والقبطان، وأحضر الكثير من الشهود ومن ضمنهم الدكتور «جون» مدير مستشفى الإرسالية في البحرين الذين أكدوا ما قاله الشيخ من أن البحرين خالية من تجارة الرقيق، وأن المعلومات التي وصلت إلى القبطان قد تكون كيدية.

لم يرغب القبطان «لوخ» بالعودة إلى مسقط دون أن يتأكد من مسألة اختطاف المرأتين، فقرر الذهاب إلى «أبو شهر» لسؤال المقيم البريطاني هناك، السيد «بروس»، عن الموضوع، فقد تكون لديه معلومات إضافية لتؤكد أو تنفي القضية.

قابل «بروس» القبطان «لوخ» بكل ود كعادته حين يكون قد شرب من خمر شيراز المعتقة، وأخذه معه إلى مبنى المقيمية الذي يظهر كالقلعة البيضاء من بعيد، وبعد أن جلسا دخل عليهما المسؤول الإداري السيد «ديفيد ماثيوز» الذي حيًّا القبطان بكل احترام وجلس معهما.

سأل «بروس» القبطان عن سبب قدومه.

ـ لقد وصلني خبر عن وجود سيدة وابنتها في قبضة القراصنة، وقيل لي إنهما معروضتان للبيع في سوق البحرين، وحين ذهبت إلى هناك أنكر الجميع بمن فيهم الشيخ ومدير الإرسالية الدكتور «جون» هذا الخبر من أساسه، ولم أرغب في العودة إلى مسقط قبل أن أتأكد من الموضوع بطريقة أو بأخرى، فهل تعرف أي شيء عن هذا؟ أو قد يكون البحارة هنا قد سمعوا شيئًا.

سكب «بروس» كأسًا من الخمر للقبطان وقدمها له:

ـ تذوق هذا الخمر، إنه من شيراز، وهو من أجود أنواع الخمر في المنطقة، أليس هذا رائعًا؟

لم يفهم القبطان سبب عدم الاهتمام الذي أبداه «بروس» عن قصة الخطف، فأخذ الكأس وشرب منها، وأبدى إعجابه بنوعية الخمر الغريبة.

صرخ «بروس» مناديًا عباسًا:

ـ تعالَ يا عباس، فلدينا معجبون بالخمر التي تحضرها من شيراز... عباس؟ عباس؟ هل تسمع ما أقوله لك؟

رد «ماثيوز» بدوره:

ـ من الواضح أنه ليس هنا يا سيدي، سأقول له ذلك حالما يأتي.

ـ آهٍ.... حسنًا أيها القبطان، ماذا كنت تقول؟

ـ كنت أقول إنه وصلتني أخبار عن بيع سيدتين بريطانيتين في إحدى أسواق الخليج، فهل سمعت شيئًا عن هذا؟

ـ لا... لم أسمع شيئًا مثل هذا من قبل، ولكن من الذي أخبرك بذلك؟

أنهى القبطان «لوخ» كأس الخمر، وبدأ يحركها بين يديه:

ـ لقد وصلتني رسالة دون توقيع تخبرني بذلك، وقيل لي إن السيدتين كانتا على سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية، وقد أخبرني ممثلهم في مسقط بذلك أيضًا.

ـ هذا غريب، فنحن نعمل لصالح الشركة بطريقة أو بأخرى، وتصلنا الأخبار والتعليمات من الشركة بشكل منتظم، ولم نسمع بمثل هذا الموضوع من قبل.

التفت «لوخ» إلى «ماثيوز» ليتأكد:

ـ هل سمعت بذلك يا سيد «ماثيوز»؟

ـ لا يا سيدي، فمثل هذه الأخبار ستنتشر مثل النار في كَومة القش في هذه المنطقة؛ فالأسطول البريطاني وسفن شركة الهند الشرقية تجوب المنطقة وعلاقتها بالكثير من الحكام والتجار قوية جدًّا، ولا يمكن أن يحصل شيء مثل هذا أبدًا.

تغيرت نظرة «بروس» إلى شيء من الجدية:

ـ سيدي القبطان، يجب أن تكون أكثر حذرًا، فهذه المنطقة تزخر بالصراعات والمؤامرات، ولا تستبعد أن المعلومات التي وصلت قد تكون جزءًا من مؤامرة أخرى، ولكن أستطيع أن أتأكد لك إن منحتني عدة أيام، فلدينا سفن تذهب بشكل يومي إلى ميناء البصرة، فقد يكون لديهم خبر عن المشكلة... ولكني أصدقك القول، لو كان عندهم قضية خطف مثل هذه لسمعنا عنها في غضون يوم واحد فقط، لست أفهم، إن الموضوع غامض.

ضرب القبطان الكأس التي بيده بطرف إصبعه فأحدث صوتًا قويًّا:

ـ إذا كان هناك أي عملية خطف فهناك مكان آخر يجب أن نبحث فيه.

## الفصل الثامن والعشرون

**ساحل القطيف، الجزيرة العربية**

جلس «سادلر» في قمرته في السفينة التي أقلته إلى ساحل القطيف ليكتب رسالته الأولى معلنًا ابتداء مهمته الصعبة.

ضرب الورقة التي يريد أن يكتب عليها بيده لينظفها من الغبار، ثم وضعها على الطاولة، وغمس القلم في المحبرة وكتب:

«إلى صاحب الفخامة السير «إيفان نيفيان بارت»

حاكم بومبي..

اليوم هو الـ٢٠ من يونيو ١٨١٩، ألقت السفينة «فيستال» التي أقلتني من عمان مرساتها اليوم على ساحل القطيف..

إن خليج القطيف يمتد إلى ما يقارب عشرين ميلًا عرْضًا، ويحُدُّه عنق رملي طويل في الشمال وانبساط صحراوي في الجنوب، وتسمى آخر نقطة في الطرف الشمالي رأس تنورة، أما الأخرى في الطرف الجنوبي فتسمى الظهران، وتقع جزيرة تاروت في وسط الخليج الصغير وتمتد على مسافة

عشرة أميال من الشمال الغربي وإلى الجنوب الشرقي، وهي جزيرة تغطيها أشجار النخيل، وتكثر فيها ينابيع المياه العذبة.

ويمتد لسان رملي من هذه الجزيرة إلى فوهة الخليج، ويقسم البحر إلى مسارين مائيَّين: المسار الشمالي عميق وآمن وصالح للملاحة ويجري في توازٍ مع العنق الرملي في شمال الخليج، أما المسار الجنوبي فضحل وخطر ويحاذي الامتداد الصحراوي لجنوب الخليج.

في الداخل قليلًا تقع قلعة الدمام التي تحيط بها المياه من كل جانب ـ وقد تمت صيانتها مؤخرًا بواسطة أرحمة بن جابر ـ ولو سرنا إلى الداخل فسنجد قرية سيهات التي تقع على مسافة أربعة أميال من قلعة القطيف والتي تقع بدورها على جزيرة تاروت.

يقع المسار البحري الشمالي المناسب للملاحة على مسافة بعيدة من القطيف، ولذا تضطر السفن العابرة أن تتوقف قرب تاروت، ويعتبر هذا المسار سهلًا نسبيًّا إذا ما تركت مسافة قصيرة بين السفينة والساحل الشمالي.

تأخذ قلعة القطيف شكلًا معينًا، ولها ثلاثة أبواب، وبها بئر ماء عذب يقال إنها تم حفرها بواسطة البرتغاليين.

هذه أول رسالة لي وأنا على وشك النزول إلى الساحل، وسأرسل لك الرسائل تباعًا، وعلى حسب ما تسمح به الظروف.

الكابتن «سادلر»

البحرية الملكية

ساحل القطيف»

طوى الرسالة، ووضعها في ملف وختمه، ثم سلمه لقبطان السفينة لإيصاله إلى العنوان المكتوب على ظهره.

نزل «سادلر» من السفينة إلى زورق صغير أوصله إلى الميناء، وما إن وضع قدمه عليه حتى طلب من أحد الحمَّالين الذين قدموا لمساعدته حملَ متاعه إلى مقر قائد الحامية التركية خليل أغا.

تكالب العمال على «سادلر» ليعرضوا عليه المساعدة، ولكنه طلب منهم إحضار ثلاثة حمير لحمل المتاع ومرافقته إلى مقر قائد الحامية.

حاول أحد الحمالين شق طريقه لمعرفة ما يحدث ولماذا تكالب العمال على هذا الرجل الأجنبي، وما إن وصل إلى منتصف الدائرة التي تحلَّق حولها الرجال حتى رأى «سادلر» يعطي تعليماته باختيار اثنين من العمال لمساعدته على ربط متاعه على ثلاثة حمير مُبلغًا المرافقين أنه في طريقه إلى مقر قائد الحامية التركية.

ترك الرجل مكانه شاقًّا طريقه إلى خارج الدائرة مرة أخرى، ومشى إلى آخر الميناء حيث العريشة التي يجلس تحتها شيخ الميناء وضيوفه.

كان الشيخ جالسًا على كرسيه يدخن، وعن يمينه جلس بِشر الذي كان مشغولًا بحساب الضرائب، فاقترب من الشيخ وأخبره بتفاصيل ما رآه. وحين سأله الشيخ عن اسم الإنجليزي الذي وصل، رد الرجل بأن اسمه «سادلر»، فطلب منه الشيخ أن يحضر الضيف الإنجليزي إلى هنا.

سمع بِشر الحديث الذي دار بين عامل الميناء وشيخه، وعرف أن بقاءه في المكان نفسه قد يكون خطرًا عليه، وخصوصًا أن «سادلر» يعرفه ولن يتردد في السلام عليه حين يراه.

اعتذر بِشر من الشيخ طالبًا منه السماح لإنهاء بعض الأعمال الخاصة به، فسمح له بذلك، ومرت بضع دقائق بعدها ليرى «سادلر» قادمًا للعريشة لمقابلة الشيخ والجلوس معه بناء على طلبه.

طلب «سادلر» من الشيخ أن يرشح له عاملَيْن من عمال الميناء لمرافقة مجموعته الصغيرة إلى مقر الحامية التركية في القطيف.

تحرك «سادلر» من الميناء بمعية مرافقه «ميرزا» الذي رشحه له «غولاب» في مسقط، وعاملين عينهما شيخ الميناء، وثلاثة حمير تحمل المتاع، واتجه إلى السوق للتبضُّع قبل التوجه إلى مقر الحامية.

كانت سوق القطيف مزدحمة وبها الكثير من البضائع المعروضة، مثل الأرز والقمح والشعير والفواكه المجففة والخضراوات التي تنتجها المزارع المنتشرة في المنطقة، فبدأ في عملية الشراء المضنية التي تتطلب تفاوضًا مع كل بائع لكل بضاعة يتم شراؤها، فكان صوت البائعين والمشترين في السوق يصم الآذان، وهذا ما كان يكرهه «سادلر» في أسواق الشرق.

خلال مفاوضة «سادلر» لأحد التجار لشراء كمية من التمر التصق به رجل من الخلف وقبل أن يلتفت إليه همس الرجل في أذن «سادلر» قائلًا:

ـ أنا بِشر بن أرحمة لا تلتفت إليَّ.

وجد «سادلر» نفسه يقاوم رغبة ملحة للنظر إلى بشر؛ فهل من المعقول أن لا يكون قد مات بعد أن رماه والده من السفينة؟ كيف نجا من تلك المحنة المشؤومة؟ فرح «سادلر» بسماع صوت مألوف في هذا المكان الغريب، فقاوم نفسه حتى لا يبين على وجهه معرفته به، قال بِشر:

ـ دعني أقم بالتفاوض عنك؛ فأنا أعرف كيف أتصرف مع هؤلاء التجار.

رجع «سادلر» خطوة إلى الخلف تاركًا المجال لبِشر للقيام بعملية التفاوض، في حركة جعلت المرافق الفارسي «ميرزا» في حيرة من الأمر، ولكنه لم يكن يتجرأ لسؤال سيده عن تصرفه هذا.

استغرقت عملية الشراء بضع ساعات مضنية، بعدها حُملت كل البضائع المشتراة على ظهور الحمير، ورُبطت بشكل جيد، وبعدها انطلقت المجموعة في طريقها إلى خارج القطيف.

ابتعدت المجموعة من القطيف، وأخذت الطريق إلى الأحساء تجاه الجنوب الغربي للوصول إلى مقر الحامية التركية، حينها ظهر بِشر من إحدى المزارع فجأة وصافح «سادلر» واحتضنه وَسْطَ دهشة المرافقين.

سأل «سادلر»:

ـ لماذا كل هذه التصرفات الغريبة يا بِشر؟ لم أكن أتصور أن أراك هنا.

ـ وأنا كذلك يا «سادلر»، لكن قل لي ما الذي تفعله هنا؟ وأين الكابتن «لوخ»؟

ضحك «سادلر» بصوت عالٍ، فلم يكن يتوقع أن يجد رفيقًا لرحلته في هذه المنطقة، فربت على كتف بِشر:

ـ الظاهر أن لدينا الكثير من الأسئلة التي نطمح أن نجد لها إجابات من بعضنا، فالطريق طويلة وقد تكون خطرة، ونحن بحاجة إلى أن نتحدث كثيرًا، ولكن ابدأ أنت أولًا وقل لي ما الذي حصل لك بعد أن ألقاك والدك من السفينة.

نفخ بِشر زفيرًا حارًا من رئتيه، فقد أعاده سؤال «سادلر» إلى الوراء، إلى ذكريات كان يتمنى نسيانها، ولكنها كانت كالحلم المزعج الذي يلاحقه أينما ذهب.

ـ بعد أن رماني والدي من السفينة أنا وأحمد، استطعت أن أنجو بنفسي لأنني كنت قد تعودت العوم دون استخدام يديَّ، أما أحمد فقد دخل في مرحلة الهستيريا والخوف من الموت، ولم يستطع أن يسيطر على أعصابه فغرق بعد رمينا ببضع دقائق.

قال «سادلر»:

ـ لم أتوقع أنك ستنجو، فمن كان يسمع صراخ أحمد قبل موته كان يعتقد أنكما شاهدتما الموت عَيانًا.

ـ نعم يا «سادلر»، لقد شاهدناه وصافحناه، فمن يُلقى في البحر بيدين مقيدتين فكأنما يصافح الموت ويحتضنه، على العموم استطعت أن أسبح مدة يومين حتى وصلت إلى قرية صغيرة اسمها الرويس على ساحل البحر، حيث عالجني رجل طيب هناك من جروح رجليَّ ويديَّ، وبعدها ذهبت إلى الزبارة، إلى العم أبي مطر الذي تقابلنا عنده برفقة أحمد رحمه الله، هل تذكر؟

التفت بِشر إلى الخلف ليرى بقية المجموعة التي كانت تتابع بِشرًا و«سادلر» بنظراتها دون أن تسمع ما يدور بينهما، ثم تابع حديثه:

ـ نصحني العم أبو مطر بالذهاب إلى القطيف لمتابعة أخبار والدي، فهو شيخ كبير كما تعلم، وهمُّه في الحياة أن ينتقم من آل خليفة؛ لأنه يرى أنهم ظلموه كثيرًا، فلو مات وأنا بعيد فسيأخذ رجاله ثروته ويهربون بها إلى مناطقهم، حينها سيصعب عليَّ استرجاعها، وكان رأي العم أبي مطر أن أتابع أخبار الوالد من القطيف حتى أكون على مقربة من قلعته في الدمام وفي الوقت نفسه بعيدًا عن عينيه.

نظر «سادلر» إلى بِشر وهو متأثر كثيرًا مما سمع، فهو يمشي مع رجل

كان قريبًا من الموت ونجا، فقد يكون في وجوده معه فأل حسن لرحلته الخطرة هذه.

ـ أما أنا يا بِشر، فأمامي رحلة صعبة وسرّية، ولن أستطيع أن أشرحها لك حتى تعِدُني أنك ستكون معي طوال الرحلة ولا تتركني أبدًا حتى نعود، فإن فعلت ذلك شرحت لك تفاصيل الرحلة.

نظر بِشر إلى «سادلر» متوقعًا أن يكون مازحًا بقوله ذلك، ولكن «سادلر» كان جادًّا بناء على قسمات وجهه، حينها سأل بِشر:

ـ هل السيف معك؟

ـ نعم، إنه معي يا بِشر، ولهذا السيف قصة أخرى أيضًا، لقد أخفيته في أحد الصناديق المحملة على الحمير حتى لا يراه أحد.

نكس بِشر رأسه، وكأنه يفكر فيما يريد قوله:

ـ ولكن إذا ذهبت معك، فإني سأبتعد عن والدي وقد أخسر كل شيء حال وفاته.

سكت «سادلر» لحظات وكأنه يفكر فيما يجب عليه قوله، فكلا الخيارين صعب على بِشر، ولكن لا بدَّ أن يعرف أين تكمن مصلحته:

ـ إني لا أستطيع أن أعدك بالكثير يا بِشر، ولكن دعني أقل لك هذا، إن شخصيتك تختلف عن شخصية أبيك بشكل كامل، فأنت لن تستطيع أن تسيطر على رجاله، أنت في نظرهم رجل ميت، ثم إنك لا تملك القسوة التي يملكها والدك، فهم لن يحسبوا لك حسابًا، وقد يقتلونك حال موت والدك للحصول على ماله (هزَّ بِشر رأسه موافقًا.) سأدفع لك مبلغًا كبيرًا من المال نظير مرافقتك إيَّاي، وأعدك أيضًا بأن أجد لك عملًا بعد عودتنا في البحرين

أو عمان أو «أبو شهر»، فأنت تتحدث الإنجليزية والهندية وحصلت على بعض التعليم، والحصول على عمل لك لن يكون صعبًا.

ـ إن ما تقوله قد طمأنني، وهذا مناسب لي، فطوال عمري كنت مرافقًا والدي على ظهر سفينته الغطروشة، ولم أعرف وطنًا ولا أصحابًا سوى البحارة الذين كانوا معنا في السفينة، ولهذا فإني حين وجدت نفسي وحيدًا بعد أن رماني والدي في البحر لم أعرف كيف أتصرف، وقد تكون هذه بداية حياة أخرى لي.

ابتسم «سادلر»، فقد عرف أن بِشرًا قد اتخذ قراره:

ـ والآن، عِدني أنك سترافقني في رحلتي هذه حتى أشرح لك تفاصيلها.

## الفصل التاسع والعشرون

**ميناء «أبو شهر»، الساحل الفارسي**

بعد أن خرج «لوخ» من مبنى المقيمية في «أبو شهر» يرافقه السيد «بروس» متجهين إلى السفينة، شاهد «لوخ» المقهى الذي يجتمع فيه البحارة مساء والذي لا يبعد عن الشاطئ سوى أمتار قليلة، قرر أن يجلس في المقهى ليتحدث مع البحارة فقد يجد لديهم من الأخبار ما يسد به فضوله في معرفة مصداقية خبر الخطف.

شعر «بروس» بما كان يجول في رأس «لوخ»، فسأله هل كانت هناك أوامر محددة في كيفية التعامل مع أرحمة بن جابر.

أجاب «لوخ» بالنفي، حينها سأله «بروس»:

ـ إذًا لماذا لا تتخلص منه، سواء خطف النسوة أو أن القضية كلها مكيدة مدبرة، تخلص منه حتى ترتاح من التفكير في المسألة، فإن كان هناك احتمال أن يقوم بعملية الخطف فهو إذن عدو، والتخلص منه سينهي المسألة بِرُمَّتِها.

لم يُجب «لوخ»، ولكنه حرك رأسه قليلًا، وكأنه يفكر في الموضوع.

عندما أقبلا على المقهى، جاء عباس راكضًا كعادته حين يقابل سيده، وحين رآه «بروس» من بعيد قال:

ـ إنه عباس الذي تحدثنا عنه قبلًا، لو لم يكن يعرف كيف يختار الأفضل من خمر شيراز المعتقة لكنت انتهيت منه منذ زمن بعيد، فوجوده أسوأ من عدمه.

قال «لوخ»:

ـ لا تفكر في استبداله؛ فهؤلاء كالكلاب كلما بقوا معك أكثر ازدادوا لك ولاءً، وفي مكان مثل هذا حين يكون الولاء سلعة تباع وتشترى، من الأفضل لك أن تستثمر في أحمق على أن تستثمر فيمن هو أفضل منه لا تحصل منه على الولاء المطلوب.

ـ قد تكون على حق، ها هو قد وصل، كن على حذر فهو يتحدث الإنجليزية قليلًا.. أين كنت يا عباس؟ لقد تحدثت مع ضيفي القبطان «لوخ» عن نوعية الخمر الشيرازية التي تحضرها لي من وقت إلى آخر، وأعتقد أن القبطان قد أُعجب بها، فهل تستطيع أن تحصل لنا على كمية وفيرة منها حتى نهديها له؟

ـ بالطبع يا سيدي، ففي «أبو شهر» تستطيع أن تحصل على ما تريد إن كنت تملك ثمنه.

وجد عباس للقبطان والسيد «بروس» والمدير الإداري مكانًا جيدًا في المقهى، خلع عمامته ونفض الغبار عن الكراسي ومسحها قبل أن يشير إليهم بالجلوس عليها، ثم وقف خلف «بروس» محركًا قطعة القماش التي مسح بها الكراسي والتي كانت قبلًا عمامة له لطرد الذباب.

ابتسم القبطان له، وقال:

ـ إن لعمامتك هذه عدة استخدامات يا عباس، أرجو أن تكون هذه كلها، وليس هناك شيء آخر لم نرَه بعد؟

أشار «بروس» إلى عباس ليقترب منه، ثم أَسَرَّ له في أذنه شيئًا، لم يلبث عباس أن حرك رأسه بالموافقة.

قبل أن يذهب بعيدًا صرخ على صاحب المقهى لإحضار الشاي والدخان للضيوف، ثم غادر راكضًا.

التفت «لوخ» إلى «بروس» قائلًا:

ـ لا أعلم ما الذي قلته له، ولكن أيًّا كان ذلك فقد أنقذتني من رائحة قطعة القماش القذرة التي كان يحركها فوق رؤوسنا.

ـ لقد طلبت منه أن يُعلم مساعد حاكم «أبو شهر» بوجودك، فهو شخصية خطيرة خبيثة، يتاجر في الممنوعات ولديه علاقة بكل الأوغاد الذين ترسو سفنهم هنا، ستراه قريبًا، ولكن أتمنى ألا تقع في حبه.

أحضر صاحب المقهى الشاي بعد أن مسح الطاولة واعتنى بها، فالجميع يعرف أن «بروس» هو الحاكم الفعلي لـ«أبو شهر» بغض النظر عن الألقاب التي يحملها المسؤولون هنا.

طلب «بروس» من صاحب المقهى بعد أن ارتشف الشاي أن يحضر لهم ثلاثة رؤوس من التبغ أيضًا.

استمتع «لوخ» بالشاي بعد أن سحب نَفَسًا من التبغ وأخرجه من أنفه بهدوء متلذِّذًا بكمية الدخان الهائلة التي دخلت إلى صدره.

لم يتوقف الحديث بين الثلاثة حتى وصول مساعد حاكم «أبو شهر» الذي كان لوصوله جلبة؛ فقد حضر معه بضعة أشخاص يحملون السيوف

والمسدسات، حتى إن بعض رواد المقهى آثروا المغادرة حين شاهدوا موكبه الغريب.

أقبل السيد صادق يسبقه عباس، وصافح الجميع ثم جلس على أحد الكراسي، وحين شاهد رواد المقهى ذلك أصبح المقهى فارغًا فجأة، فقد كان مكروهًا من الجميع، حتى لأولئك الذين لم يشاهدوه من قبل.

حين جلس الرجل بدأ «بروس» في تأمل الضيف الذي كان نحيلًا، يلبس لباسًا فارسيًّا وكأنه يحاول أن يرجع أمجاد الماضي، له عينان صغيرتان كثيرتا الحركة، وأنف كبير مقوس بشكل حاد، أما حاجباه فثخينان ملتصقان بعضهما ببعض، وكأنهما خط مصنوع من الفحم الأسود، وأصابع يديه مليئة بالخواتم الذهبية ذات الفصوص الفيروزية التي يحبها الفرس، وعلّق على رقبته مجموعة من التمائم المربوطة بشكل عشوائي لحمايته من الأرواح الشريرة.

لقد تعامل القبطان «لوخ» مع عدد كبير من البشر، ونزل في الكثير من مرافئ العالم، ولكنه لم يسبق أن التقى بشخص بهذا اللؤم الظاهر على وجهه من قبل.

سمع الجميع صفعة قوية فجأة، فالتفتوا إلى حيث الصوت ليشاهدوا أحد حراس صادق وقد صفع صاحب المقهى بقوة على وجهه؛ لأنه لم يقف حين شاهد السيد قادمًا، ولم يكن الرجل ليفعلها متعمدًا إلا أنه أصيب بالدهشة من جرَّاء مشاهدته للسيد صادق في مقهاه فجأة دون أي سابق خبر.

كانت الصفعة بمثابة الإنذار المبكر للجميع للقيام بواجبهم، عندها ركض العمال لإحضار أفضل أنواع التبغ والشاي، ولإحضار الماء البارد للضيف المهم.

كانت أنظار الجميع موجهة للسيد بانتظار أن يتحدث، ولكنه لم يفعل

إلا بعد أن ارتشف بعضًا من الشاي وجرب نوعية التبغ، حينها عدّل من جلسته ونظر إلى «بروس» قائلًا:

- سيد «بروس»، لقد قال لي خادمك عباس إن لديك ضيوفًا مهمِّين، فهلَّا عرفتني إليهم أرجوك؟

- آآآآآه، نعم يا سيدي، إنه لشرف عظيم أن تكون معنا اليوم، فلم أكن أتوقع أن تأتي بهذه السرعة، على العموم، هذا القبطان «لوخ» المسؤول عن محاربة القراصنة في الخليج، وهو شخصية مهمة في البحرية البريطانية، وكنت أود أن أُعرِّفكما بعضكما إلى بعض.

- إذن أنت القبطان «لوخ»، لقد سمعت عنك فعلًا، وسمعت عن هزيمتك في رأس الخيمة، هاهاها، أليس هذا مضحكًا أن تهزمك عصابة متخلفة من البدو وأنت القبطان العظيم؟!

تدفق الدم فجأة إلى وجه القبطان «لوخ» وحاول الوقوف لولا أنه شعر بيد «بروس» تمسك بيده فجأة أسفل الطاولة.

قال «بروس»:

- يا سيد صادق، ليس هذا أوان الحديث عن القتال، لقد وجدت أنها فرصة أن تتعرفا بعضكما إلى بعض، وأعتقد أنكما ستحتاجان بعضكما إلى بعض في قتال القراصنة.

ثم التفت إلى القبطان «لوخ»:

- إن السيد صادق هو نائب حاكم «أبو شهر»، وهو ابن أخي الحاكم، ويهوى التجارة بشكل كبير، ولا أخفي عليك، فله أعداء كُثر أيضًا.

ضحك السيد صادق بصوت قوي:

ـ نعم لي من الأعداء الكثير، ولكن أغلبهم ميت الآن، مع الأسف! والبقية من أعدائي ستلحق بهم قريبًا، وأصدر بعدها ضحكة عالية.

شعر «بروس» أن الوضع ليس على ما يُرام، فمن الواضح بالنسبة إليه أن الرجلين لم يقبلا بعضهما بعضًا، فكان من الأفضل لو أنه تحدث عن الهدف من اجتماعهم حتى ينتهي الموضوع بأسرع وقت ممكن:

ـ سيد صادق، إن القبطان «لوخ» هنا لأنه سمع أن سيدتين بريطانيتين اختُطفتا من قِبل القراصنة، ولكنه ليس متأكدًا، فهل سمعت عن ذلك؟

ـ لا، لم أسمع، ولكني أكره هؤلاء القراصنة، وأعتقد أنهم قد يفعلون أي شيء، وأنا في خدمتك أيها القبطان إن كان لديك شيء لتدفعه نظير الخدمات التي قد أقدمها لك، أنا أعلم أن الرجل الذي تبحث عنه هو أرحمة بن جابر، وأنا أكرهه أيضًا، فعداوتي معه تمتد سنوات مضت، وأنا أيضًا على علم أنه يأتي في أوقات متقطعة إلى الميناء هنا لتموين سفنه ويلتقي بالسيد «بروس»، ولكن بما أني لن أحصل على أي شيء لأقتله فأنا أبقيه حيًّا، أما إن كنت ستقدم شيئًا لي نظير قتله فأنا مستعد لأن أتحالف معك.

ثم التفت إلى عباس قائلًا:

ـ متى كان أرحمة هنا آخر مرة؟ وما الذي دار بين «بروس» وأرحمة؟

تغير وجه عباس وتكدر، وعلم أن دوره كجاسوس على «بروس» قد انتهى على يد هذا المجنون:

ـ لقد كان هنا منذ ثلاثة أشهر تقريبًا يا سيدي، ولم يتفق الرجلان على شيء؛ فقد غادر أرحمة فجأة كما ظهر فجأة.

ما إن انتهى عباس من قول ذلك حتى التقت عيناه بعيني «بروس»

الذي بدا غاضبًا منه؛ لأنه وثق به سنواتٍ طوالًا وها هو يخونه على مسمع منه، لم يتحمل «بروس» ذلك فبصق على الأرض دلالة على القرف والضيق.

لاحظ السيد ذلك فأضاف:

ـ لا تتضايق يا صديقي «بروس»، فلو علمت كم من الجواسيس الذين يعملون لصالحي حولك لجفَّ فمك من البصق!! (ثم ضحك بصوت عالٍ.)

قال القبطان «لوخ» بصوت هادئ:

ـ حسنًا أيها السيد، هلَّا قلت لي ما الذي تريده بالضبط الآن؟

رد بعد أن زمَّ عينيه فأصبحتا أصغر من ذي قبل:

ـ أنا الذي يجب أن يسأل هذا السؤال يا قبطان، فأنت الذي أتيت إلى هنا، فقل لي ما الذي تريدونه مني بالضبط؟

قال «بروس»:

ـ إن أرحمة قرصان شرس، ونريد التخلص منه بأسرع وقت ممكن، ويجب أن تعلم أن بيننا وبينه اتفاقًا يستوجب علينا بموجبه أن نتركه يحارب أعداءه وأن يترك هو سفننا دون أن يضايق تجارتنا، ولكننا لا نريد أن نسمع اسمه مرة أخرى، فما الذي تطلبه مقابل أن تقوم بالتخلص منه؟

قال السيد:

ـ الآن بدأنا نتحدث بلغة واضحة، سأخلصكم منه دون ضجة، ولكن الثمن سيكون غاليًا أيضًا، أريدكم أن تتخلصوا من عمِّي، وأن أتعين حاكمًا على «أبو شهر».

## الفصل الثلاثون

**الأحساء، الساحل الشرقي للجزيرة العربية**

ـ أعدك يا «سادلر»، أعدك بأن أكون أخًا لك في هذه الرحلة حتى نعود أو نموت معًا.

قال بِشر ذلك وهو يضع ذراعه على كتف «سادلر».

شرح «سادلر» تفاصيل رحلته لبِشر، وأخبره بالدور المتوقع للسيف الهندي الذي بحوزته، وكيف أن الأمور بِرُمَّتِها في الخليج ستتغير إن وافق إبراهيم باشا على الدخول في الحلف مع الإنجليز والعمانيين.

عرف بِشر أن مسألة تغيُّر حياته مرتبطة بتغيُّر الوضع في الخليج، وأن هناك جيوشًا ستغزو المنطقة، وأمورًا ستحصل قد لا يعرف كُنهها، ولكنها بالتأكيد ستغير حياة الناس وأسلوب عيشهم، فقد كان الناس يتناقلون أخبار إبراهيم باشا وحصاره للدرعية والمجاعة التي ألمَّت بالناس في نجد والحجاز من جرَّاء الحروب، وتكالب السفن الإنجليزية على الخليج للسيطرة على التجارة فيه، فهزَّ رأسه علامة على الاستغراب، وقرر حينها أنه يجب أن يفهم أكثر، وأنه لن يستطيع أن يفعل ذلك سوى بمرافقة «سادلر».

وصل «سادلر» وبِشر ومرافقاهما إلى قلعة الحامية التركية خارج القطيف، وأمر «سادلر» المجموعة بالتوقف خارجها، ودخل هو وبِشر من البوابة الرئيسة التي كان حارسها شبه نائم وهو متكئ على سلاحه، ونظرًا للجو الحار والخانق في المنطقة، وطول فترة عمل الجنود وفساد الضباط فإن الحالة المعنوية للحامية كانت في الحضيض، فعناصر الحامية كانوا يعرفون فساد ضباطهم، وقد يستخدم هؤلاء الضباط جنودهم للقيام بمهام حقيرة لهم، مثل أخذ النقود من التجار دون وجه حق، أو الاستيلاء على بعض البضائع من الباعة تحت أي عذر يبتكره العسكري لإرضاء مسؤوليه.

حاول بعض جنود الحامية إيقاف القادمين، ولكن ما إن وجدوا أن أحدهما أجنبيًّا حتى سمحوا لهم بالدخول دون توجيه أي أسئلة، فهم يعرفون أن ضباطهم على اتصال بضباط الجيش البريطاني المنتشرين في المنطقة، ووجود رجل أجنبي في الحامية يعني أن هناك اتصالًا على مستوى عالٍ بين ضباطهم وبين الإنجليز.

دخل «سادلر» وبشر على خليل أغا وهو يتناول طعامه على مكتبه، وحين رآهما توقف فجأة واللقمة في فمه، فلم يستطع أن يكمل طعامه، ولم يستطع أن يتحدث، فأشار إليهما بيده للجلوس، ثم مسح فمه بكم يده حتى انتهى من اللقمة التي يمضغها.

حينها أخرج «سادلر» الرسالة الموجهة من الحاكم البريطاني في بومبي، وحين حاول خليل أغا الإمساك بها بيده التي ما زال بها آثار الطعام، جذبها «سادلر» مرة أخرى وهو ينظر إلى يد خليل بنوع من التقزز.

فهم الضابط التركي ما الذي يرمي إليه الإنجليزي، فأخرج منديلًا من

جيب سُترته ومسح يده، وهو ينظر إلى هذا الإنجليزي الوقح الذي كان ينتظر أن تُنظف يد الضابط التركي حتى يعيد إليه الورقة.

فتح الرسالة وقرأها:

«إلى من يهمه الأمر..

أنا الموقع أدناه، السير «إيفان نيفيان»، رئيس المجلس والحاكم العام، بومبي.

إن حامل هذه الرسالة هو النقيب «سادلر»، وهو ضابط في الفرقة السابعة والأربعين التابعة لجلالة الملك، وهو في مهمة عاجلة إلى فخامة إبراهيم باشا، ويعتبر سفيرًا لصاحب الجلالة ملك بريطانيا لحين انتهائه من مهمته.

يُرجى من جميع من يقرأ هذه الرسالة أن يسهل مهمة السيد «سادلر»، ويذلل كل العقبات التي قد تعترض طريقه».

ما إن أنهى خليل أغا قراءة الرسالة حتى تجشأ بصوت عالٍ، وأعاد الرسالة لـ«سادلر» مع ابتسامة لم يفهم «سادلر» معناها.

تدخل بِشر وطلب من الضابط التركي أن يكون مترجمًا بينهما، فوافق الضابط التركي على ذلك ومد ذراعيه مع فتح كفيه وكأنه يقول ابدأ أنت.

تحدث «سادلر» قائلًا:

ـ إنني في طريقي إلى فخامة إبراهيم باشا في الحجاز، وأريد أن أتوجه من هنا إلى الأحساء لمقابلة قائد الحامية التركية في الأحساء حتى يرتب لي فصيل حماية من الجنود المسلحين لحين وصولي إلى معسكر إبراهيم باشا، ولكنني فهمت أن الطريق من هنا إلى الأحساء أيضًا خطرة، وأنا أطلب منك أن توفر لي الحماية إلى الأحساء.

ـ ومن قال إن الطريق من هنا إلى الأحساء خطرة؟! تستطيع أن تغادر بأمان وقتما تشاء.

تدخل حينها بِشر وتوجه بحديثه للضابط التركي:

ـ سيدي، إن المنطقة بها الكثير من الصراعات بين القبائل، وخصوصًا بين أولئك المؤيدين لابن سعود والمعارضين له، وأنت تعلم أكثر منا أن المنطقة غير آمنة، وكل ما نريده منك هو فصيل صغير من الجنود لحمايتنا لحين وصولنا إلى الأحساء.

نظر خليل أغا إلى بِشر بغضب، ورد بحدة:

ـ ليس عندي ما يكفي من الجنود.

لم يقبل «سادلر» هذا الرد، فهو قد رأى جنود خليل أغا نائمين دون عمل داخل القلعة، فكرر سؤاله للضابط التركي بصوت أقوى:

ـ إننا بحاجة إلى الحماية، وأي خطر سنتعرض له ستتحمل أنت مسؤوليته، والآن، هل ستوفر لنا الحماية أو لا؟

لم يحتمل خليل أغا صَلف هذا الإنجليزي، فأخذ عصاه وضرب بها سطح مكتبه بقوة، وأمره بالمغادرة حتى لا يُحطم وجهه.

طوى «سادلر» الرسالة ووضعها في جيب قميصه، وخرج غاضبًا.

لحقه بِشر محاولًا تهدئة الأمور:

ـ «سادلر»، ما كان يجب عليك أن تغضب، فهذا الضابط يريد بعض المال، فقد رأيته في مجلس شيخ الميناء يقبض نسبته من الضرائب التي يفرضها الشيخ على التجار، هو رجل مرتشٍ، فإن أردت أن يفعل لك شيئًا، فلا بدَّ أن تدفع له.

كان «سادلر» غاضبًا، ولم يعد يحتمل المزيد من الإهانات:

ـ لعنة الله عليه، إنه لم يهتم حتى بخطاب الحاكم البريطاني في بومبي، هل تصدق هذا؟

ابتسم بِشر وهو يكاد يضحك:

ـ أصدق ذلك، فهو لا يعرف من هو الحاكم البريطاني في بومبي، ولا يأبه بذلك، ولا يأبه حتى بمهمتك، إن هؤلاء الضباط جُلُّ همهم هو جمع ما يستطيعون من مال والعودة لبلادهم.

نظر «سادلر» إلى بِشر، وسأله:

ـ ما العمل إذن؟

ـ ادفع له يا سيدي، إلا إن أردت أن نكون تحت رحمة قطاع الطريق من البدو الثائرين بكل شيء.

ـ وكم يريد في ظنك؟

ـ دعني أسأله.

دخل بِشر مرة أخرى إلى مكتب خليل أغا، كان خلالها «سادلر» يمسح وجهه المتعرق بمنديل، وهو يبحث عن ظل يبقى تحته لحين انتهاء هذه المفاوضات الغريبة.

بعد عدة دقائق عاد بِشر، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة:

ـ لقد وافق على أن ندفع له خمسين ريالًا ذهبيًا، حاولت أن أخفض المبلغ ولكنه كان مصرًّا.

ـ ماذا؟ خمسون ريالًا؟! أليس هذا كثيرًا للمسافة من هنا إلى الأحساء؟

ـ وماذا نفعل إن كان هو مصدر الأمان الوحيد في الطريق؟ دعنا ننتهي من هذا الأمر ونغادر، لقد كرهت الرجل والمكان.

أخرج «سادلر» خمسين ريالًا ذهبًا وسلمها لبِشر، وطلب منه أن تكون شاملة الخيول التي ستحملهم إلى هناك.

ذهب بِشر مرة أخرى إلى مكتب خليل أغا، وطال البقاء عنده هذه المرة، ولكنه عاد بوجه متجهم، فقد رفض خليل أغا مدهم بالخيول معتذرًا بعدم وجود العدد الكافي منها في قلعته.

ـ من الواضح أننا لن نخرج من هذا الضابط بشيء ذي قيمة، دعنا نتحرك يا بِشر، فالوقت يداهمنا.

قبل أن تخرج المجموعة من القلعة حصل نوع من النقاش الحاد في مؤخرتها بين الحمالين اللذين استأجرهما «سادلر» من الميناء وبين مرافق «سادلر» الفارسي «ميرزا»، فقد كان الحمالان يريدان أن يأخذا أجرهما ويعودا إلى الميناء؛ فالطريق في نظرهما خطرة، وهما لن يجازفا بروحيهما من أجل لا شيء.

حاول «ميرزا» إقناعهما بالبقاء، ولكنهما أصرَّا على العودة، فطال النقاش فترة طويلة لأن الحمير كانت أيضًا مستأجرة، حينها أخذ «سادلر» وبِشر مكانيهما أسفل شجرة وارفة الظلال بجانب جدار القلعة وتركا «ميرزا» ليصل إلى نتيجة.

بعد فترة طويلة وصراخ وجدال، توصل «ميرزا» إلى أن يشتري منهما الحمارين ويدفع لهما تكاليفهما من القطيف إلى القلعة بالإضافة إلى مكافأة أخرى حتى يقنعا صاحب الحمارين بجدوى بيعهما.

ومع حلول العصر، تحركت المجموعة تجاه الأحساء، مع شعورهم بأن بدايتهم لم تكن موفقة.

سارت المجموعة تجاه الأحساء، يمشي في مقدمتها فارس تركي، ثم «سادلر» وبِشر، يتبعهم «ميرزا» ممسكًا بالحمارين المحملين بالأمتعة، ثم فارس تركي آخر يحمي مؤخرة المجموعة، حتى وصلت إلى مضارب الشيخ مشرف الواقعة على تخوم الصحراء.

تقع مضارب الشيخ مشرف بالقرب من مصدر الماء الوحيد على الطريق الرابطة بين القطيف والأحساء، وهي عبارة عن عدة خيام يبلغ عدد ساكنيها نحو ألفي شخص، ولدى الشيخ نحو ثلاثمائة مقاتل من ضمنهم بعض البدو المقيمين في الجوار الذين أقسموا على الولاء للشيخ.

لم يحاول الشيخ مشرف الدخول في الصراع الحاصل بين الأتراك والوهابيين، فقد كانت ضريبة الطريق التي يدفعها المسافرون لقاء حمايته تقي أفراد قبيلته من الجوع، ولكن في خِضم الصراعات الحاصلة بين الأطراف لم يكن الشيخ مشرف يستطيع أن يكون في معزل عنها، فقد كانت له علاقات في أوساط الوهابيين وفي أوساط الأتراك وحلفائهم.

نزلت المجموعة في المخيم، وتوجهوا إلى خيمة الشيخ مشرف للحصول منه على معلومات عن الطريق وعن الأحداث التي تحصل في الدرعية وغيرها من مناطق نجد حيث القتال الدائر بين إبراهيم باشا والوهابيين.

استقبلهم الشيخ بحرارة، وقدم لهم الماء والطعام، وجلس معهم يحدثهم ويُرَوِّح عنهم:

ـ مرحبًا بالضيوف، أتمنى أنكم لم تواجهوا أي مصاعب خلال الطريق.

رد بِشر وهو يمد يده إلى وعاء التمر:

ـ كلا يا شيخ، كانت طريقنا سهلة، لم نواجه سوى بعض المشاكل مع خليل أغا الذي رفض أن يمدنا بخيول تساعدنا على قطع الطريق.

رفع الشيخ مشرف وعاء التمر، وقرَّبه من «سادلر» وهو يقول:

ـ قد يكون معه حق؛ فالخيول أصبحت قليلة في المنطقة، الجميع يطلبها بمبالغ كبيرة لاستخدامها في الحرب.

ـ ولكن قل لي يا شيخ، كيف هي الأوضاع في المنطقة؟

ـ إنها سيئة يا بني؛ فقد دمر إبراهيم باشا الدرعية، وهجر الناس مزارعهم وعمَّ الجوع، وأصبحت الأوضاع أصعب بكثير، لقد أصبح الناس يسْطون على المسافرين بسبب الجوع أحيانًا، وسترى خلال الطريق مناظر لن تسرك، ولكن إلى أين أنتم ذاهبون؟

أخرج «سادلر» نواة تمر من فمه قبل أن يجيب عن سؤال الشيخ:

ـ نحن في طريقنا إلى الأحساء وسنقرر من هناك إلى أين نذهب.

ـ أيًّا كانت طريقكم وهدفكم من هذه الرحلة، أتمنى لكم السلامة والتوفيق، ولكن نصيحتي أن ترجعوا من حيث جئتم، أما إن كنتم مصرِّين على إكمال طريقكم فتزودوا من الماء قدر استطاعتكم؛ فالجو حار وهذا هو آخر مصدر للماء قبل الصحراء.

تحركت مجموعة «سادلر» في صباح اليوم التالي إلى الأحساء، وهي واحة تكثر فيها المياه العذبة ومزارع النخيل، ويسكنها خليط من البدو والشيعة الذين تأثروا بالأحداث التي تدور حولهم، فبعض البدو قد تأثر بالدعوة الوهابية، وإن لم يحملوا السلاح لنشرها، أما الشيعة فقد كانوا

على وجل من مسار الأحداث، فهم لا يحبون الوهابيين ولا يثقون بالأتراك، وبقيت الأحساء في سلام هشٍّ بمنأى عن الدمار المحيط بها.

توجد في الأحساء حامية تركية كبيرة العدد نسبيًّا، إذ يبلغ تعدادها نحو ألف فارس مسلح، وهي القوة التي يعتمد عليها الباب العالي في السيطرة على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، إلا أن طول فترة بقائها وانقطاع الطريق بينها وبين قيادتها في إسطنبول وتأخر دفع رواتب عناصرها، جعل هذه القوة مترهلة وغير منضبطة لولا وجود قائدها محمد أغا الذي كان له دور كبير في إحلال الأمن في المدينة وطمأنة الأهالي والعمل كوسيط بين المتحاربين.

عندما وصلت مجموعة «سادلر» إلى الأحساء توجهوا كعادتهم إلى مقر الحامية التركية وطلبوا مقابلة محمد أغا شخصيًّا.

يبلغ محمد أغا الخمسين من عمره، وهو ممتلئ قليلًا، وله لحية بيضاء قصيرة، ويحاول قدر الإمكان الظهور بمظهر المحافظ على هندامه ولياقته العسكرية وانضباطه، وهو متدين صوفي جعل منه ذلك زاهدًا في المال مركزًا على إبقاء حاميته متماسكة وغير مترهلة كما هي الحال مع بقية الحاميات المنتشرة في المناطق التي تقع على تخوم الإمبراطورية العثمانية.

قدم له «سادلر» الرسالة التي كتبها الحاكم البريطاني في بومبي، وهي الرسالة ذاتها التي قدمها لخليل أغا في القطيف، قرأها الضابط العثماني، ثم طواها باحترام وأعادها إلى «سادلر»:

ـ لقد حضرتم في الوقت المناسب، وصلتني تعليمات مؤخرًا بإخلاء الأحساء والتوجه إلى منطقة تقع قريبًا من الدرعية للانضمام لجيش إبراهيم باشا، وستكون فرصة لكم لتنضموا لقافلتنا المتجهة إلى هناك في غضون يومين.

فرح «سادلر» بهذا الخبر، فقد كان يحمل همّ الطريق وفقدان السيف مرة أخرى، ووجوده ضمن قافلة من المسلحين الأتراك سيعطيه نوعًا من الاطمئنان والراحة النفسية، وسيستغل اليومين المُقبلين لإعادة التموين والراحة.

بعد يومين توجهت مجموعة «سادلر» إلى معسكر الحامية التركية الذي يقع خارج المدينة في بداية الصحراء الشاسعة والذي أصبح مكتظًّا بالجمال والخيول والرجال، نحو ستمائة جمل محملة بمستلزمات الحامية، وفرسان بكامل عُدَّتهم وأسلحتهم، وحمير تحمل الماء والطعام، وعدد كبير من البدو المرافقين وبعض التجار الذين وجدوا فرصتهم لبيع منتجاتهم لهذه القافلة.

اشترى «سادلر» ثلاثة جمال له ولبِشر ولـ«ميرزا» الذي تعب من جر الحمير طوال الطريق، وقد دفع ثمنهم غاليًا نظرًا لشراء الحامية التركية لأغلب المعروض في السوق من الحيوانات.

قسم محمد أغا القافلة إلى مجموعات، كل مجموعة تتكون من خمسين جملًا، وأمرهم بالتحرك على أن تبقى كل مجموعة مترابطة ومسؤولة عن عناصرها حتى لا يتم فقدان الرجال أو الجمال في الطريق، وفي حال التعرض لهجوم تقترب هذه المجموعات بعضها من بعض لتشكل معسكرًا قويًّا للدفاع بعضها عن بعض.

سارت القافلة الضخمة متوجهة إلى الدرعية، فقد كان الجنود الأتراك في حالة معنوية عالية؛ لأنهم سيتركون المكان الذي قضوا فيه سنوات طويلة دون عمل يذكر، يعانون الحر والذباب والأمراض، ولكن محمد أغا كان يفكر في كيفية توفير الماء لهذه القافلة خلال الطريق، فالجفاف الذي عصف بالمنطقة متحالفًا مع الحروب كاد يجعل كل آبار المنطقة جافة، ولكنه وكعادته في مواجهة المصاعب، رفع عينيه إلى السماء سائلًا الله أن يساعده.

تركت القافلة الأحساء خلفها، وتوغلت في الصحراء، فقد كان هناك خط فاصل واضح بين خضرة الأحساء والصحراء التي تقع خلفها، سارت القافلة عدة مراحل حتى وصلت إلى بحر من الملح، حينها بدأت حوافر الحيوانات في الغوص في بحر الملح الجاف، وكان هناك صوت قوي من جرَّاء تكسُّر طبقات الملح تحت أقدام المئات من الحيوانات والبشر، صوت شبيه بصوت شلال الماء القوي الهادر.

ترافق هذا مع ازدياد حرارة الهواء التي جعلت من التنفس أمرًا في غاية الصعوبة، فبدأ الناس بلف الأقمشة حول وجوههم اتقاء حرارة الهواء وتفاديًا لغبار الملح الذي أصبح يتطاير حولهم.

سأل بِشر «سادلر»:

ـ أين احتفظت بالسيف؟

ـ إنه في مأمن، لا تقلق.

ثم أشار إلى «ميرزا» الذي كان قد ربط الحمير بجمله حتى لا يفقدها مع الازدحام.

## الفصل الحادي والثلاثون

**ميناء «أبو شهر»، الساحل الفارسي**

حين سمع «بروس» أن ثمن تعاون السيد صادق معهم هو التخلص من عمه الحاكم، نظر بسرعة حوله حتى يتأكد من أن لا أحد يسمع هذا الكلام الخطير، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ سيدي، إن ما تقوله خطير، فنحن على وفاق مع عمك، وقد وقعنا معه عدة اتفاقيات تتيح لنا التجارة بحرية بالإضافة إلى أننا مسيطرون على ميناء «أبو شهر» ونأخذ الضريبة من سفن التجار، ولو سمع عمك بهذا الكلام فسيكون ذلك ضربة قوية لتجارتنا في المنطقة.

أشار صادق، وكأنه يطرد الذباب من وجهه:

ـ لا تقلقوا يا أصحابي، إن التخلص منه ليس مشكلتي الوحيدة، إن مشكلتي الأساسية هي أن يبقى التعاون بيننا قائمًا بعد التخلص منه، فأنا أخاف ألا يتم الاعتراف بي من قِبل الشاه، ومن ثم من قِبلكم، ولكن لو ساندتموني في ذلك، وضغطتم على الشاه، فإنه سيعترف بي وتنتهي مشكلة التخلص من عمي بسرعة.

نظر «لوخ» حوله بسرعة فرأى أن حرس السيد صادق يحيطون بالمقهى من كل الجوانب، وأن عليه إنهاء هذا النقاش بأفضل وسيلة ممكنة، فقال:

ـ إن الوقت غير مناسب الآن للحديث حول هذا الموضوع، فلماذا لا تترك لنا بعض الوقت لنفكر فيه ثم نتحدث مرة أخرى؟

ـ لا بأس، ولكن تذكر يا سيدي أنني مستعجل بعض الشيء؛ فالظروف المواتية لا تبقى طويلًا، وسأكون بانتظار ردكم سريعًا.

ثم ابتسم ابتسامته المعهودة، وترك الجميع مشدوهين وغاضبين.

خف التوتر بعض الشيء بعد ذهاب السيد صادق، وتوقف «لوخ» و«بروس» و«ماثيوز» عن الحديث بعضهم مع بعض فترة من الوقت محاولين تحليل الأحداث بسرعة قبل الشروع في الحديث مرة أخرى، وبعد لحظات عاد بعض رواد المقهى مرة أخرى، وانقشع ذلك الخوف والرعب الذي كان مخيمًا عليه طوال وجود السيد.

أخرج «ماثيوز» زفيرًا قويًّا من صدره:

ـ أووووووووف، لا أعتقد أن أمَّ هذا السيد تحبه، إنه وقح بكل معنى الكلمة.

لم يستمع «بروس» لما قاله «ماثيوز»، ولكنه كمن أطلق صَفَّارة البداية لمناقشة الموضوع، فالتفت إلى «لوخ» قائلًا:

ـ ما رأيك؟ لقد سبق أن حذرتك من الوقوع في حبه، ولكنه سيخلصك من عدوك إلى الأبد، فهل أنت مستعد للتعاون معه؟

كان «لوخ» يتأمل في شكل الدخان الذي ينفثه من فمه، فقال بعد أن تأخر قليلًا في الرد:

ـ لقد تعلمت درسين من هذه الحادثة: أولهما، أن لا أغادر سفينتي دون حراسة، فقد شعرت بهشاشتي معه، أما الدرس الثاني فهو أنني عندما أتعامل مع وغد فلا بدَّ أن أتخلص منه بعد أن يؤدي مهمته، وبسرعة.

أخرج «بروس» خرطوم الدخان من فمه:

ـ لم أفهم النقطة الثانية يا «لوخ»، هلا شرحت لي ما الذي تقصده هنا؟

ـ لقد جلست مع أرحمة الذي أعتبره قرصانًا مجرمًا قاسيًا، ولكني لم أشعر بما شعرت به حين جلست مع صاحبك هذا، فلو استخدمنا السيد صادق للتخلص من أرحمة فلا بدَّ أن نتخلص منه بعدها مباشرة، فوجوده بعد أن يقتل أرحمة ويتولى الحكم في «أبو شهر» سيكون خطرًا علينا.

ـ ما الذي تود فعله الآن يا «لوخ»؟ إن أمامك ضحيتين كريهتين وبيدك السكين، فبمن ستبدأ؟ ولو كان الأمر بيدي لعرفت بمن أبدأ، إن هذا الوغد لا يستحق أن يعيش لحظة أخرى على هذه الأرض.

ضرب «لوخ» طرف خرطوم الدخان على الكرسي الخشبي محاولًا لفت انتباه المجموعة، ثم قال:

ـ كيف تطلب مقابلة أرحمة حين تريده؟ لم أفهم كيف جاءك إلى هنا حين طلب منك الحاكم في بومبي أن تفرض عليه اتفاقية عدم الاعتداء مدة ستة أشهر، تلك التي فشلت بها يا صاحبي.

ثم ضحك ضحكة مشابهة لضحكة السيد وكأنه يحاول أن يغضب «بروس».

تغيرت ملامح «بروس» فجأة، ثم نظر إلى «ماثيوز» وطلب منه أن يشرح لـ«لوخ».

قال «ماثيوز»:

ـ إن الأمر كان يبدو سهلًا، فقد كنت أقول ذلك علانية في الميناء لبعض البحارة، ثم ننتظر عدة أيام حتى يُطِلّ بطلعته البهية علينا، هذا كل شيء.

ـ هل تضحك عليَّ يا «بروس»؟ هذا كل شيء؟

ـ نعم يا سيدي القبطان، هذا كل شيء، فأرحمة يعرف كيف يلتقط المعلومة في البحر، ولديه الكثير من الأعوان في جميع مواني المنطقة، وهؤلاء البحارة ينقلون كل شيء على سفنهم سواء البضائع والبشر والإشاعات، حتى الأخبار، وكما قلت لك لكل شيء ثمنه.

رشف «لوخ» بعض الشاي فتغير وجهه؛ فقد كان الشاي باردًا، فصرخ على صاحب المقهى لتغيير الشاي، وما إن سمع عباس الذي كان واقفًا بالقرب من صاحب المقهى ذلك حتى صفعه بقوة على وجهه عقابًا له على عدم تغيير الشاي بسرعة.

ـ حسنًا، من الواضح أن وسائل الاتصال عندكم فعالة، ولكن دعنا نذهب إلى مكتبك في مبنى المقيمية؛ فهو أفضل من الحديث هنا، وخصوصًا في وجود هذا العباس وأمثاله، على فكرة، تخلص من هذا الرجل، وبأسرع وقت ممكن، فقد غيرت رأيي بخصوص الولاء.

ـ ألم تسمع لهذا السيد حين قال إن فمك سيجف لو أنك بصقت على كل من جنَّده لنقل المعلومات؟ لقد أصبحت حذرًا الآن أكثر من ذي قبل، دعنا نذهب إلى منزلي، فقد يكون أفضل من المكتب.

غادر الثلاثة المقهى يتبعهم من بعيد عباس، الذي لم يكن يتجرأ ليقترب خصوصًا بعد أن فضحه السيد، ولكنه كان بحاجة إلى الوظيفة التي كانت

تُضفي عليه نوعًا من الوجاهة في هذا الميناء، فقربه من «بروس» يعطيه نوعًا من الحماية والاحترام الذي هو بحاجة إليهما.

حين وصلوا إلى منزل «بروس»، أشار «ماثيوز» على عباس بأن يذهب إلى حيث يريد، فدخل الثلاثة المنزل، وجلسوا على الطاولة التي بقيت عليها زجاجة من خمر شيراز المعتقة، ودون تفكير وضع «بروس» أمام كل واحد منهم كأسًا صغيرة، وسكب لهم بعضًا منها، ثم شرب كأسه دفعة واحدة، وسكب له كأسًا أخرى، منتظرًا أن يبدأ أحدهما بالحديث.

نظر إلى وجه «لوخ» فوجد أنه لم ينتبه إلى كأس الخمر التي أمامه، فأشار بيده إلى الكأس، فما كان من «لوخ» إلا أن شرب كأسه دفعة واحدة أيضًا، فسكب له «بروس» كأسًا أخرى، وفعل «ماثيوز» الشيء ذاته، فتكرر ذلك ثلاث مرات حتى بدأت الخمر تفعل فعلها.

قال «لوخ»:

ـ أعتقد أنني سأستعين بالسيد ليخلصني من أرحمة حتى يعفيني من اتفاقي معه، فلو تركته ليحارب أعداءه فإنه قد يقوى ويسبب لنا المتاعب مستقبلًا، وخصوصًا لو انتصر عليهم في معركة أو معركتين كبيرتين، ولن نتحمل عودة الوهابيين لحكم البحرين، فيكفينا وجودهم في رأس الخيمة والموانئ الأخرى هناك، ولو تخلصنا من أرحمة فإننا نستطيع أن نركز على حربهم دون أن تكون ظهورنا مكشوفة ومعتمدين على اتفاقية هشة مع قرصان مثل أرحمة.

ثم أضاف:

ـ «ماثيوز»، عليك أن تخبر البحارة أن «بروس» يريد مقابلة أرحمة.

ثم التفت إلى «بروس» قائلًا:

ـ أريدك أن تخبر صاحبك السيد أن أرحمة قادم إلى «أبو شهر»، وعليه أن يضع خطة للتخلص منه، وبعد أن يتخلص من أرحمة عليك أن تخبر الحاكم بنية ابن أخيه بالتخلص منه، وعلى ذلك فستتخلص من الاثنين معًا.

ـ هل أنت متأكد من قرارك هذا يا «لوخ»؟ إنني أخاف أن يكون هذا حديث الخمر وليس حديثك، ثم ما الذي سيجعل الحاكم يقتنع بما سنقوله له عن ابن أخيه؟

ـ لا تشغل بالك، إنه حديثي، ولكن الخمر قد ليَّنت لساني بعض الشيء، يجب أن تتذكر يا «بروس» أن من يتجسَّس عليك سيتجسَّس لك إن أحسنت علفه، سأغادر «أبو شهر» غدًا، وعليك أن تخبرني بآخر المستجدات حال حصولها.

ـ هل تريدني أن أدير هذا المخطط بنفسي يا «لوخ»؟ إنني لم أعتد مثل هذه الأمور قطّ، فإن كانت لك نية في التخلص من أعدائك فأرجوك لا تجعلها مهمتي.

لم يكن «لوخ» في وضع يسمح له بالنقاش، أو اتخاذ القرار؛ فقد غلبته الخمر، وثقُل لسانه وتعطل عقله، وكان الجميع كذلك أيضًا، حاول الوقوف على قدميه، وطلب من «بروس» أن يدبر له سريرًا؛ فهو تعب كما قال ويريد أن ينام، أشار له «بروس» بيده إلى الأعلى وكأنه يقول إن غرف النوم في الأعلى، مشى «لوخ» مترنحًا وذهب لينام، بينما بقي «بروس» و«ماثيوز» على الطاولة.

وفي صباح اليوم التالي، نزل «لوخ» من غرفته ليشاهد «بروس» نائمًا على كرسيه، ورأسه على الطاولة، وشخيره يملأ المنزل، وكأسًا فارغة مرمية

على الأرض، والذباب يحوم حول فمه المفتوح، أما «ماثيوز» فقد كان نائمًا على كرسي كبير، ويداه تتحركان لا شعوريًا لطرد الذباب الذي كان يزعجه.

صرخ «لوخ» في الجميع ليستيقظوا من سُباتهم، فبدأت الحياة تدب في المنزل، وما إن فتح «بروس» عينيه حتى سأل عن عباس ليحضر له الشاي والفطور، ولكنه تذكر أن عباسًا لن يتجرأ على دخول المنزل بعد الذي حصل ليلة أمس، فقام متثاقلًا إلى المطبخ ليصنع لنفسه ولضيوفه فطورًا.

قال «لوخ» بعد أن جلس على الطاولة:

ـ «بروس»، دعنا نتحدث عن خطتنا التي بدأناها أمس، أريد رأيك حتى ننتهي من الموضوع، فلعلّي أغادر اليوم.

ـ ما زلت على رأيي أيها القبطان، فمن الصعوبة أن أدير مؤامرة مثل هذه، أنت ترى كيف حياتي، فأنا لا أحسن المؤامرات، وكل من حولي عبارة عن حفنة خسيسة من الجواسيس، وفي الليل أسكر وأنام في المكان الذي يحلو لي، إنني كهل على أبواب التقاعد، وكلي أمل في أن يكون راتبي التقاعدي من الشركة يؤهلني لحياة كريمة بعيدًا عن مذلة السؤال، ولن أتحمل أي خطأ قد تحاسبني عليه شركة الهند الشرقية التي عملت من أجلها أكثر من ثلاثين سنة.

أراد «لوخ» أن يسمع رأي «ماثيوز»:

ـ ما رأيك يا «ماثيوز»؟ فقد سمعت كل شيء، فهل تستطيع أن تضيف لنا شيئًا بدلًا من سكوتك هكذا؟

ـ يا سيدي، أنا لا أتجرأ على قول شيء في حضور سيدي «بروس»، ولكن رأيي هو أن تكون أنت من يدير هذه المؤامرة لا أحد غيرك.

قام «لوخ» من كرسيه، وفتح باب المنزل وخرج قليلًا ليستنشق هواء نقيًّا، ولكنه لم يكن ليحتمل حرارة الشمس التي ضربت وجهه حالما فتح الباب، فأعاد غلقه، ورجع إلى الكرسي مرة أخرى، ثم التقط الكأس المرمية على الأرض، ووضعها على الطاولة، ولم يقل شيئًا خلال كل ذلك، مع أن أنظار «بروس» و«ماثيوز» كانت معلقة به، ثم فجأة التفت إلى «ماثيوز» قائلًا:

ـ عليك أن تحضر لي أرحمة بأسرع وقت ممكن، استخدم كل وسيلة اتصال ممكنة تحدثت عنها أمس، وبعدها عليك أن تجمعني مرة أخرى مع هذا البغيض المدعو السيد صادق.

ثم التفت فجأة إلى «بروس»:

ـ سأدير المعركة من منزلك هذا يا سيد «بروس».

# الفصل الثاني والثلاثون

## في الطريق من الأحساء إلى الدرعية

سارت القافلة حتى وصلت إلى بئر تُسمى «ماء المليحة» أو الماء المالح، فقد دأب أهل المنطقة على تصغير الأسماء، فطلب «سادلر» من بِشر الانتباه للحمير التي تحمل متاعهم، وطلب من «ميرزا» الذهاب لتعبئة القِرَب.

بعد عدة ساعات عاد «ميرزا» بالقرب وقد امتلأت عن آخرها، فطلب منه «سادلر» أن يناوله شربة ماء قبل أن يعلقها على أحد الجمال، شرب «سادلر» من القربة وتغير وجهه، فقد كان الماء مالحًا سيِّئ الطعم والرائحة، ولكن لم يكن هناك بديل عنه، وسيبقى هو الماء الذي ستستخدمه القافلة حتى إيجاد بئر أخرى أفضل منها.

مع اقتراب الليل أمر محمد أغا الجميع بالمُضي قدمًا وعدم التوقف، فغضب البدو المرافقون للقافلة من ذلك، فقد كانوا يرغبون ـ شأنهم دائمًا ـ في إيقاد النار والتمتع بالقهوة التي كانوا يحبون أن يحتسوها في حِلِّهم وترحالهم.

لقد لاحظ «سادلر» أن البدو المرافقين للقافلة لم يكونوا يخططون لأي

شيء، بل كانوا يعيشون لحظاتهم، فإن لم يكن لديهم ماء طلبوا من الآخرين، وإن افتقدوا بعض الحطب لإشعال النار، أخذوا من غيرهم، وإن جاعوا جلسوا مع من يأكل وأكلوا معه، فهم لا يخططون لحاجاتهم أبدًا، دوَّن ذلك في دفتر مذكراته مستغربًا من أن يقطع أحدهم الصحراء بهذا الأسلوب.

ومع حلول الظلام أوقد كل قائد مجموعة سراجًا، ورفعه على عمود مربوط على جمل حتى يراه أفراد المجموعة فيتبعوه، نظر بِشر إلى هذا العدد الكبير من النيران المتحركة في الظلام، فقد كانت هذه النيران ترتفع وتهبط مع حركة الجمال، وقال لـ«سادلر» ضَحِكًا:

- لهذا نحن نطلق على الجمل سفينة الصحراء.

سحب «سادلر» لِجام جمله، وتوقف لحظات متأملًا المنظر:

- إنه فعلًا منظر رائع، لم أكن أتخيل أنني سأرى مثله في حياتي.

سارت القافلة حتى وصلت إلى خريس في منتصف الطريق بين الأحساء والدرعية، فجأة انفتحت أبواب السماء، وهطلت الأمطار في غير موسمها، وأمر محمد أغا القافلة بِرُمَّتِها أن تتوقف، فأُنيخت الجمال، وشرعَ الناس في تغطية متاعهم، ونشروا الأقمشة التي وقعت أيديهم عليها فوقهم لتقيهم البلل، ولكن الأمطار كانت قوية وكثيفة إلى درجة أن الوديان بدأت تمتلئ، وخاف بعض أفراد القافلة على أنفسهم من أن يجرفهم السيل، فتسابقوا للحصول على موطئ قدم في المرتفعات المجاورة، ومع الفوضى وسوء الرؤية استطاع بعض البدو سرقة بعض النوق والدواب المحملة والهرب بها.

وبعد عدة ساعات توقف هطول المطر فجأة كما بدأ، فخرج الناس من تحت أغطيتهم وكأنهم يخرجون من قبورهم، فقد كان كل شيء مبتلًّا، حتى الجمال وجدت صعوبة في القيام؛ لأن المطر قد بلل حمولتها فأصبحت

أثقل مما كانت عليه، وأصبحت قوائمها تنزلق في برك الماء أو تغوص فيها، وأصبح من الصعوبة بمكان على القافلة أن تواصل سيرها مع كل هذا الماء حولها.

ومع الصباح الباكر، أمر محمد أغا فصيلًا من خيرة فرسانه بمتابعة البدو الذين هربوا بالجمال والدواب وإحضارهم إليه بأسرع وقت ممكن، ومع العصر كان الفصيل قد عاد من مهمته تتقدمه الدواب المسروقة مع لصوصها المقيدين بالحبال، وما إن وصلوا إلى القافلة حتى أمر الأغا بقطع رؤوسهم أمام الجميع.

هوى السيف على رقاب اللصوص أمام جموع المتفرجين الخائفين، وحُملت جثثهم دون أي احترام إلى حفر أُعدت على عجل، وأُهيل عليها التراب، فسرت شائعة في وسط القافلة بأن الأتراك يقطعون رقاب البدو دون سبب.

وفي الليل حاول الكثير من البدو المرافقين للقافلة الهرب بجلدهم دون أن يأخذوا معهم حتى متاعهم الذي أحضروه معهم خوفًا من أن يُتهموا بالسرقة فتُقطع رقابهم دون أن يستمع إليهم أحد.

ومع تباشير الصباح وصل فارس من إبراهيم باشا حاملًا رسالة إلى محمد أغا يُعْلِمه فيها بأن يعسكر في خريس، ويبقى هناك لحين إشعار آخر؛ لأن الطريق إلى الدرعية خطرة وغير مأمونة.

كان بِشر و«سادلر» يتابعان الأحداث التي تحصل حولهما، فعرفا أن هروب البدو بهذه الطريقة ليس بشرى خير، فوجودهم مطلوب كأدلّاء ومترجمين ومستطلعين، وغيابهم قد يزيد في الخطورة التي قد تتعرض لها القافلة في الطريق.

ومع أنه ليس كل البدو قد هربوا فإن الباقين منهم شعروا بضعفهم وعجزهم عن فعل شيء، فحاول البعض الاحتماء ببعض الضباط الأتراك ليكسبوا حمايتهم، والبعض استسلم لقدره محاولًا إيجاد فرصة أكثر أمنًا للهرب من هذه القافلة التي يقتل تُرْكُها عَرَبَها كما كانوا يقولون.

كان بِشر و«سادلر» جالسين بالقرب من دوابهما يحتسيان الشاي، ويتحدثان عن الأسباب التي دعت محمد أغا باشا إلى التأخر في عدم إصدار أمر التحرك حين جاءهما شاب بدوي وجلس معهما طالبًا أن يحتسي معهما هذا الذي يشربانه.

ابتسم بِشر؛ لأنه يعرف عادات البدو في مثل هذه الأحوال، في حين بدا الغضب على «سادلر» الذي لم يألف جلوس شخص غريب بالقرب منه هكذا ودون أي سابق معرفة، سأل بِشر البدوي:

ـ ما اسمك يا أخي؟

ـ اسمي متعب، ولا تسألني عن قبيلتي، ففي هذه الأيام قد يقتلك أحدهم لثأر يطلبه من قبيلتك دون أن تدري السبب.

نظر إليه بِشر بلطف، وأكمل معه الحديث:

ـ وهل قتلت أحدًا من قبل؟

رد البدوي بنظرة خبث يستخدمونها أحيانًا لإظهار ذكائهم:

ـ وهل تراني قاتلًا؟ أنا لم أقتل سوى ضَبٍّ وجدته في الطريق وقُنْفُذًا أكلته لأَسُدَّ به جوعي.

ـ ولكن ما الذي جعلك تنضم إلى القافلة؟

ـ إنه سوء حظي ودعاء أمي عليَّ، فقد كنت طفلًا نزغًا، أحلت حياتها إلى جحيم لا تُطاق، فدعت عليَّ دعوة لن أنساها، وكلما نزلت عليَّ مصيبة تذكرت ذلك الدعاء وترحمت عليها، عسى الله أن يغفر لي، وهل تعتقد أن من يكون في مثل هذه القافلة قد دعت له والدته بالرحمة؟

ضحك بِشر و«سادلر»، فلم يكونا قد ضحكا منذ فترة طويلة، وكرر بِشر السؤال عليه عن سبب وجوده في القافلة.

ـ والله لم يكن لديَّ شيء لآكله، فقد أنهكني الجوع، وعندما شاهدت القافلة تتحرك وبها كل هؤلاء القوم، قلت في نفسي: لا بدَّ أن هؤلاء لديهم شيء يأكلونه، وعلمت أنني لن أموت من الجوع في وسطهم، فدخلت في القافلة، ويا ليتني ما دخلت!

خرجت ضحكات عالية من بِشر و«سادلر» لفتت أنظار الناس حولهما، فقال له «سادلر»:

ـ لقد كان تحليلك صحيحًا، فأنت لم تمت من الجوع حتى الآن، أليس كذلك؟

ـ يا سيدي، لو فتحت بطني الآن ما كنت ستجد سوى بقايا الضَّبِّ، أما القُنْفُذ فقد تركته في حفرة على بُعد يوم من هنا، بعد أن بقي في أمعائي مدة يومين جعلني خلالها أكره الطعام، وإذا كنتما تريدان رؤيته، سأدلكما عليه.

رد بِشر بشكل عفوي سريع:

ـ إن كان الإنجليزي يريد أن يتشرف بمعرفته فله ذلك، أما أنا فقد رأيت الكثير من الذي تتحدث عنه.

أضاف البدوي نوعًا من الجو المرح على المجموعة، جعل «سادلر»

وبِشر لا يستغنيان عنه، فقد كان يقوم بكل الأمور التي يريدانها، مثل جمع الأخشاب للطبخ، أو إنزال الأحمال عن الدواب وربطها مجددًا، وتحضير القهوة والشاي، علاوة على ذلك كانت رفقته تقطع الوقت وتزيل الهمّ.

بقيت القافلة عدة أيام بانتظار أوامر التحرك، وحين طال الأمر قرر «سادلر» التحرك مع مجموعته دون القافلة، مع أن بِشرًا كان يود الانتظار لحين تحرك القافلة، ولكنَّ «سادلر» كان مصرًّا؛ فالوقت يدركه، ولا يريد أن يغادر إبراهيم باشا إلى الحجاز دون أن يقابله ويعرض عليه الاتفاق.

استعدت المجموعة لمغادرة القافلة، فربطوا متاعهم، وملأوا قِرَبهم بالماء، ومع بزوغ فجر جديد كان «سادلر» وبشر على جمليهما، يتبعهما «ميرزا» على جمله، وقد ربط الحمارين به، ثم متعب الذي فضّل أن يكون في المؤخرة معتذرًا بأن الذين في المقدمة هم من يتعرض للموت أولًا.

سارت المجموعة متوجهة غربًا، تجاه الدرعية، ولكن المنطقة كانت تموج بقطاع الطرق والقتلة والمسلحين بعد أن دمَّر إبراهيم باشا مزارعها وشبكات الري فيها، وكان لا بدَّ من الحصول على حماية القبائل المتواجدة في المنطقة لضمان سلامة المجموعة لحين الوصول إلى الدرعية.

لحسن الحظ كان متعب يستطيع التواصل مع البدو في الطريق، فسأل عن الشيخ الذي يستطيع توفير الحماية لهم، فأجمع كل من تم سؤاله على أن الشيخ عَرَارًا هو الذي يجب أن يلجأ إليه في مثل هذه الظروف، وكانت مضارب الشيخ عَرَار لا تبعد كثيرًا عن خريس تجاه الشمال الغربي.

عندما وصلت المجموعة إلى مضارب الشيخ عَرَار، رحب بهم الشيخ وأكرمهم ببعض التمر واللبن، ثم سألهم عن وجهتهم، وعندما علم أنهم ذاهبون إلى الدرعية، نكس رأسه حزنًا، وأخبرهم أن الدرعية مدمرة، فقد

دمرها إبراهيم باشا قبل أن ينسحب منها تجاه الحجاز، ونصحهم بالرجوع إلى القافلة التركية والبقاء معها لحين تحسن الأوضاع الأمنية.

مع إصرار «سادلر» على التحرك لمقابلة إبراهيم باشا، وافق الشيخ على أن يرسل معهم ابن أخيه جربوعًا ليكون دليلًا لهم وحاميًا، على شرط أن يكرموه قدرِ استطاعتهم، وافق «سادلر» على ذلك دون أن يحدد المبلغ الواجب دفعه كمكافأة له.

طلب الشيخ عَرَار دعوة ابن أخيه جربوع حتى يتعرف عليه «سادلر»، وحين دخل إلى الخيمة، شعر «سادلر» بنوع من النفور تجاهه، فقد كان هزيلًا بعينين زائغتين توحيان بالخبث والغدر، مع شنب طويل غطّى شفتيه ودخل في فمه، أما شعر رأسه فقد كان مجدولًا على كتفيه كعادة البدو.

صافح «سادلر» وبِشرًا، وجلس بالقرب من عمِّه، واستمع منه لما يجب أن يكون دوره خلال الرحلة، وكان يهزّ رأسه من حين إلى آخر علامة على الفهم والخضوع، وحين يتلفت إلى «سادلر» خلال الحديث كان الأخير يشعر بأنه قد استأجر مصيبة لتكون معه خلال الطريق.

سأل جربوع ضيوف عمّه:

ـ متى ستتحركون يا جماعة؟

أجاب «سادلر»:

ـ مع بزوغ الفجر، عليك أن تكون مستعدًّا.

ومع الصباح ركب الجميع بعد أن ودَّعوا الشيخ عَرَارًا، وسار معهم جربوع الذي كان يحاول الاقتراب من «سادلر» قدر الإمكان.

وبعد عدة خطوات، كان جربوع قد جاور «سادلر» على جمله، وسأله:

ـ كم ستدفع لي أيها الإنجليزي؟ وكم ستدفع لناقتي هذه؟

نظر إليه «سادلر» بِحَنَق، ولم يُطق أن يرى وجهه، ولكنه أجاب:

ـ خمسين ريالًا حتى توصلنا إلى الدرعية، أما جملك فلست مسؤولًا عنه.

لكز «سادلر» ناقته محاولًا الابتعاد عن الرجل الذي أصبح وجوده مثل الدواء، مرًّا، ولكنه بحاجة إليه.

شعر بِشر ومتعب بثقل وجود جربوع معهما، فحاولا تفادي الحديث معه بدورهما أيضًا، وعندما شعر أنه وحيد شرع يرفع صوته بالحداء متعمدًا استفزاز بقية المجموعة بصوته النشاز.

بعد مرور يومين على مغادرتهم مضارب الشيخ عَرَار جاء جربوع إلى «سادلر» طالبًا إعطاءه مائة ريال، أو أنه سيعود، لأن هذه هي تكاليف سفره معهم، وتكاليف ناقته التي يمتطيها أيضًا.

لم يحتمل «سادلر» ابتزاز الرجل، فجمع بِشرًا ومتعبًا، وسألهما عن أفضل وسيلة للتصرف معه.

اقترح بِشر أن يترك الرجل ليرحل عنهم فوجوده معهم أثقل عليهم من سطْو قطاع الطرق، أما متعب فقد اقترح أن يدفع له «سادلر» ما يريد، ففي هذه الصحراء أي شيء قد يحدث، وليس هناك من هو مسؤول عن أرواحهم، فلو غادر جربوع واتفق مع بعض قطاع الطرق على قتلهم وسلبهم ودفنهم في الصحراء فلن يجدهم أحد.

بعد الكثير من المداولات قررت المجموعة أن يتم دفع مائة ريال لجربوع وجمله، وإبقاءه معهم كدليل لحين وصولهم إلى الدرعية، ومن ثَمَّ تقديم شكوى إلى إبراهيم باشا عنه حتى تتم معاقبته.

سارت المجموعة مرة أخرى حتى أقبلت على مضارب الشيخ فلاح، وهو ابن عمّ بعيد للشيخ عَرَار، وله علاقة نسب بعيدة أيضًا مع جربوع.

شعرت المجموعة بالأمان حين رأت بعض البدو يسلمون على جربوع ويعاملونه كضيف شرف، وشعر جربوع بالفخر وهو يتقدم المجموعة للسلام على الشيخ فلاح، الذي قام من مجلسه وسلم عليهم فردًا فردًا، ثم طلب منهم الجلوس، وأمر بإحضار القهوة والتمر لهم.

جلس وجهاء القبيلة في المجلس يستمعون إلى حديث المجموعة، فكان أن تصدى للمجموعة جربوع الذي أظهر نفسه وكأنه حامي المجموعة وقائدها، وكيف أن اسمه معهم كان كافيًا لرد قطاع الطرق وبثِّ الرعب فيهم.

لاحظ بِشر ومتعب أن بعض الجالسين كان يتندر على حديث جربوع، فمن الواضح أنهم يعرفونه ويعرفون كذبه وصفاته السيئة، وبعد أن شرب الجميع القهوة طلب الشيخ فلاح منهم أن يرتاحوا ويأتوا في المساء لتناول العشاء على ضيافته.

حاول «سادلر» الاعتذار متعللًا بتعب المجموعة من السفر ووجوب استعدادهم للمسير غدًا صباحًا، ولكن الشيخ أبى الاستماع له وأقسم عليه أن يتعشى هو ومن معه في مضافته وإلا فإنه سيفقد سمعته في أوساط القبائل.

عندما عادت المجموعة إلى مكانها، وشرعوا في تعبئة قِرَبهم بالماء وإراحة البهائم من حمولتها وتقديم العلف لها، أمسك متعب بيد «سادلر» وجرَّه بعيدًا بحيث لم يستطع أحد الاستماع لما يريد أن يقوله له:

ـ اسمع يا «سادلر»، إن جربوعًا هذا سيحيل رحلتنا إلى جحيم لا تُطاق،

وهذه فرصتنا لإسكاته ومنعه من ابتزازنا، وإلا فإنه سيطلب منك المزيد من المال كلما انفرد بنا في الصحراء، إن المسافة الباقية إلى الدرعية ليست كبيرة، ونستطيع أن نقطعها بأنفسنا، فدعنا ننتقم منه الآن، لقد غيرت رأيي بوجوب بقائه معنا، إنه ابتلاء لا نستطيع أن نتحمله.

ـ ولكن كيف؟

## الفصل الثالث والثلاثون

ميناء «أبو شهر»، الساحل الفارسي

مرت الأيام ثقيلة على «لوخ» في «أبو شهر»، فقد كان الميناء مملًّا، ولم يكن يتحرك فيه سوى أسراب الذباب التي يحلو لها إزعاج الناس في أثناء طعامهم أو نومهم أو حديثهم، كان متوقعًا وعلى حسب المخطط أن يصل أرحمة في غضون أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع من بداية تصريح «ماثيوز» للبحارة أن السيد «بروس» يرغب في رؤيته لأمر مهم، لقد مر منذ ذلك نحو عشرة أيام، ولا بدَّ من حبْك باقي المخطط حتى يتم تنفيذه على أكمل وجه.

نظر «لوخ» إلى «بروس» بعين شبه مغمضة قائلًا:

ـ لقد حان الوقت لنذهب للصيد مع صاحبك السيد صادق، وسيكون الجو على الجبال المحيطة بهذه المدينة البائسة جميلًا، ونستطيع حينها أن نفاتحه في الأمر ونعرف ما الذي يخطط له هذا الوغد.

صفّق «بروس» بيده:

ـ إنها فكرة رائعة، لم أكن أظنك تهوى الصيد في الجبال، طوال هذه

الأيام كنت بانتظار أن تقول لي ما الذي يجب عليَّ فعله، فأنا لا أريد أن أخرب مخططك الذي تفكر فيه.

ثم استدعى «ماثيوز»، وأمره بتجهيز الخيول لرحلة الصيد على الجبال واستدعاء عدد كاف من الخدم لهذه الرحلة التي ستستمر بضعة أيام، وما إن انتهى «بروس» من أوامره حتى أضاف «لوخ» قائلًا:

ـ ووَجِّه دعوة للسيد صادق؛ حتى يرافقنا في هذه الرحلة فوجوده معنا ضروري حتى ننتهي من هذه المسألة.

وفي صباح اليوم التالي كانت الخيول جاهزة والبغال محملة بكامل حمولتها من الطعام والماء والسلاح، وكان عباس ممسكًا بمجموعة من الكلاب من سلالات مختلفة لغرض الصيد، وما إن خرج «لوخ» و«بروس» من المنزل حتى وجه «لوخ» سؤاله إلى «بروس»:

ـ ولكن أين سنلتقي بالسيد صادق؟

ـ سنقابله عند نبع الماء الذي يبعد نصف يوم من هنا، إنه مكان جميل يعشقه السيد، ودائمًا ما يقضي فيه وقته مستمتعًا بجمال الطبيعة والجو.

ركب الجميع على خيولهم، وبقي «ماثيوز» ليدير المقيمية خلال غياب «بروس»، فأحدثت حركتهم جَلبة كبيرة في تلك القرية الوادعة، واتجهوا إلى طريق ترابية متجهة إلى الشرق، وبدأت عملية الصعود المضنية إلى قمم الجبال.

لم يكن الجو سيئًا في الصباح الباكر، ولكن مع مرور الوقت زادت حرارة الشمس وأصبحت لا تطاق، وخصوصًا مع صعود الطريق تجاه الجبال، فقد كانت الطريق ترابية عدة أميال، ثم بدأت تظهر بعض الشجيرات

الخضراء على جانبيها، ومع انتصاف النهار، بدأت تظهر أشجار تضيف على الطريق جمالًا، وتحد من حرارة الشمس، التفت «لوخ» إلى الخلف ليشاهد من بعيد البحر والميناء والسفن الراسية به، وتذكر أنه على موعد مع أرحمة بن جابر، وأن مخططه لو نجح فسيجد الراحة النفسية التي ينشدها ويتمناها.

وصلت القافلة إلى مجموعة متشابكة من الأشجار، وسمع «لوخ» صوت خرير الماء، وفجأة ظهر لهم من بين تلك الأشجار السيد صادق بابتسامته الباهتة، فاتحًا ذراعيه لهم ومحيِّيًا إيَّاهم بطريقته المعهودة:

ـ مرحبًا بأصدقائي، لقد جهزت لكم المكان، والطعام أيضًا بانتظاركم، إنني دائمًا أعتني بأصدقائي كما أعتني بأعدائي.

ثم صدرت منه ضحكة ذكرت الجميع بتلك الليلة التي كان السيد يضحك فيها من كل شيء حتى إن لم يكن الأمر مضحكًا.

تساءل «لوخ» في نفسه عن الذي يُضحك في مثل هذا القول، ولماذا يضحك بنفسه حين يقول شيئًا مثل هذا، ولكنه أيضًا ابتسم حين تذكر أن أيام السيد أيضًا معدودة، فهو لا يعلم أن عمَّه سيكون على علم بمخططه قريبًا.

نزل الجميع، وقادهم السيد إلى ساحة مغطاة بأغصان الأشجار المتشابكة، وما إن دخلوها حتى شعروا ببرودة الجو وطراوته، فقد كانت الأرضية مغطاة بالسجاد الثمين، ووُضعت الوسائد حولها ليتكئ عليها الضيوف، ووُزعت مداخن التبغ حول السجاد، وصُفت أطباق الحلوى في الوسط، وقريبًا من السجاد كان مجرى الماء مليئًا بأنواع الفواكه التي وُضعت فيه حتى تبرد.

لم يصدق «لوخ» نفسه، فشعر أنه في جنة لم يكن يتوقعها، جلس على أقرب وسادة، وتمطى، ثم أخذ أنبوب الدخان وشفط منه بشكل قوي وأخرج

الدخان بهدوء من أنفه، وكأنه يحاول الاستمتاع بطعم التبغ في رئته، ثم تحدث إلى السيد قائلًا:

ـ يا سيدي، لماذا تترك هذا المكان لتذهب إلى أي مكان آخر؟ إنك تملك الجنة هنا.

لم يرد السيد على «لوخ» بل نظر إلى «بروس» وطلب منه الجلوس في مكان قريب من «لوخ» ثم قرب إليه أطباق الحلوى وطلب منهما تذوقها.

لم يحتمل «لوخ» أن يشاهد كل أصناف الحلوى دون أن يمد يده، فتذوق منها ثم جاءه عباس بكأس من الماء الصافي من النبع القريب، فتذوقه بعد الحرارة التي كان يعانيها في الطريق، فكان يشرب رشفة ويحدث صوتًا بفمه قبل أن يتبعها بالرشفة الثانية، فقال له السيد مازحًا:

ـ اشرب يا قبطان، فلدينا منه الكثير، حتى إنك تستطيع أن تستحم فيه لو رغبت في ذلك.

لم يستطع السيد الانتظار أكثر من ذلك فقال:

ـ أيها السادة، لقد آن أوان الحديث، فهل أنتم مستعدون لنعقد اتفاقًا الآن؟

رد «بروس» مستعجلًا:

ـ بالطبع، نحن مستعدون ولهذا جئنا إليك في جنتك الصغيرة هذه.

كان السيد يعلم أن خطته في الاستيلاء على الحكم لن تنجح ما لم يؤيدها «بروس» و«لوخ» بشكل جماعي، فـ«بروس» وحدَه لا يكفي، فهو ليس شخصية مقنعة، بل هو أقرب ما يكون إلى موظف غير مؤثر في شركة الهند الشرقية التي لها مصالح مع الشاه، أما إن دخل «لوخ» في الموضوع فقد اجتمعت السلطة المالية مع السلطة العسكرية التي بمجموعهما تستطيع

أن تقنع الشاه بالاعتراف به دون تردد، ولهذا السبب كان ينظر إلى «لوخ» بطرف عينه حين كان يتحدث مع «بروس».

قال «لوخ» مؤيدًا قول «بروس»:

ـ نعم أيها السيد، نحن هنا لنتفق على كل شيء، وأعتقد أنك ستصبح ذا شأن في القريب العاجل.

ابتسم السيد قائلًا:

ـ دعونا نتحدث في التفاصيل، ما الذي تريدون مني وسأقول لكم ما الذي أريده منكم، ابدأوا أنتم. (ومد يده لهم كأنه يرحب بهم من جديد.)

قال «لوخ»:

ـ أريدك أن تتخلص من أرحمة بن جابر، فقد طلبناه ليأتي إلى «أبو شهر»، ونتوقع أن ترسو سفينته قريبًا في الميناء، نريد منك أن تتخلص منه بهدوء ودون إزعاج، فمع أن الرجل له أعداء كُثر في المنطقة إلا أن له أصدقاء موالين أيضًا، ولو علموا أن لنا دورًا في قتله فستكون تجارتنا في المنطقة في خطر وتحت التهديد خصوصًا من القواسم ومن أعوانه المنتشرين في مواني الخليج، لسنا نعلم كيف ستخطط لذلك ولكن لو فشلت العملية لأي سبب فإننا سننكر علمنا بها، لذا لا تراهن على أن نحميك.

مد السيد يده وطرقع أصابعه، وكأنه يجهزها للمصارعة، ثم أردف قائلًا:

ـ اترك الأمر لي، أما بالنسبة إلى ما أطلبه منكم فهو أن تضغطوا على الشاه للاعتراف بي حاكمًا على «أبو شهر» بعد التخلص من عمِّي؛ فالشاه لن يرفض طلبًا يتقدم به ممثل شركة الهند الشرقية في «أبو شهر» وقائد البحرية البريطانية في الخليج مجتمعين، ومن هو حتى يرفض أصلًا؟

كان «لوخ» خلال هذا الحديث يطلب من عباس أن يحضر له بعضًا من الماء أو الشاي وأن يصلح له رأس التبغ.

تمدد «بروس» على ظهره وهو يقضم تفاحة، وقد أوسد رأسه على وسادة عالية متابعًا الحديث الشائق الذي يدور:

ـ إذن، فالمطلوب منا أن نضغط على الشاه للاعتراف بك فقط، أما بقية التفاصيل فإنك ستقوم بها، أليس كذلك؟

ـ إنه كذلك يا سيدي، كما قلت لكم دعوا الأمر لي، وما إن تشاهدوا سفينة أرحمة في الأفق أرسلوا لعباس حتى يخبرني بذلك.

ثم صرخ على الخدم لإحضار اللحم المشوي والخمر المعتقة، فقد آن أوان الاحتفال.

وبعد يوم عاد الجميع من مخيمهم في الجبل، وبدأ «ماثيوز» وكما تعود في مثل هذه الأحوال بالنظر من خلال المنظار المقرب إلى البحر بانتظار أن يظهر أرحمة في الأفق، طال الانتظار هذه المرة، وفي كل صباح كان «ماثيوز» يرافقه عباس يتجولان في الميناء، وأعين الجميع على الأفق البعيد، شعر البحارة أن هناك شيئًا مهمًّا سيقع ولكنهم لا يعرفون تفاصيله، ومن جلسات الشاي في المقهى علم البعض أن الإنجليز يتوقعون حضور أرحمة لأمر مهم، ولكنهم تركوا تفسير هذه الأهمية للإشاعات التي كانت تتغير بتغير المتحدث والظروف.

شعر «لوخ» أن وقته يضيع في انتظار القرصان كما كان يسميه، وبدأ بحارته يتململون في السفينة، وكثر بينهم الشجار وقلة الانضباط، ووجد الضباط صعوبة في السيطرة على السفينة خلال الأيام التي كانت راسية فيها في ميناء «أبو شهر»، حينها قرر أن يتحرك بأسرع وقت ممكن.

وفي تلك الليلة التي قرر فيها «لوخ» التحرك صباحًا، كان جالسًا مع «بروس» و«ماثيوز» يتناولون طعام العشاء، وعباس واقفًا على رؤوسهم لخدمتهم، فجأة ودون مقدمات انفتح الباب وظهر أرحمة بسيفه المعلق على عاتقه وخنجره ومسدساته في خصره، ولم يكن معه هذه المرة سوى خادمه ضرار الذي كان متحفِّزًا بسلاحه خلف سيده.

صُدم الجميع من هذا المنظر، فأسقط عباس زجاجة الخمر من يده وتجمد في مكانه، أما البقية فقد كانت أعينهم مثبتة على أرحمة، وكأنه شبح خرج لهم من الأرض.

فجأة ودون مقدمات حاول عباس أن يركض خارجًا من الباب محاولًا تفادي أرحمة إلا أن ضرارًا أمسك به من قميصه وأعاده إلى داخل المنزل مرة أخرى، دخل أرحمة وضرار وحارسان آخران من البلوش إلى الداخل، وأغلق أحدهما الباب، ثم وقفا خلفه.

جلس أرحمة على أحد الكراسي ونظر إليهم بابتسامته التي كانوا يخافون منها، وشرع في الحديث:

ـ ما بالكم جَمُدتم هكذا؟ هل تغيرت إلى هذا الحد؟ لم أكن أظن أنني بشعًا هكذا، أكملوا طعامكم، ثم سنكمل حديثنا.

قام «بروس» من على الطاولة وجلس بالقرب من أرحمة؛ فقد كانت علاقته بأرحمة قديمة، وعلى ذلك كان أسرع الذين تجاوزوا المفاجأة، ثم قام «لوخ» أيضًا وتبع «بروس»، وفعل «ماثيوز» فعلهم، ودون مقدمات صفع ضرار عباسًا صفعة قوية طالبًا منه أن يحضر شيئًا من الشاي والدخان لسيده أرحمة فركض عباس إلى المطبخ خوفًا من لطمة أخرى وجاء حاملًا كل ذلك لأرحمة.

قال أرحمة:

ـ ما الذي تخططون له أيها السادة؟ لقد رست سفينتي ليلًا بعيدًا عن الميناء؛ لأني شاهدت السفينة «إيدن» راسية منذ عدة أيام، ولست أحمق حتى أجابهها في النهار مع كل تلك المدافع الظاهرة من جوانبها، فما الذي تخططون له؟ واعلموا أنني لست غبيًّا حتى تنطلي عليَّ حيلكم.

نظر «لوخ» إلى «بروس» وترك له مجال الحديث، فهو يعلم أن علاقته مع أرحمة قوية، فقال «بروس»:

ـ فعلًا، إننا نريد أن نتحدث معك في أمر مهم، ولكنك حضرت ليلًا ونحن نتناول العشاء، فدعنا نؤجل الحديث حتى غدٍ لترتاح قليلًا من السفر.

حاول «لوخ» أن يرسل عباسًا خارج المنزل حتى يتمكن من إخبار السيد صادق بوجود أرحمة، وكان يفكر في أفضل وسيلة لإرساله دون أن يشعر أرحمة بأي خطر، فلم يجد أفضل من أن يقول له:

ـ عباس، عليك أن تذهب إلى المقهى وتحضر لنا بعضًا من رؤوس التبغ الجيدة التي تباع هناك، ولا تنسَ أن تخبر صاحب المقهى بأهمية الضيف الموجود حتى يهتم بطلبنا.

فهم عباس المطلوب، فحاول الخروج من الباب إلا أن الحارس الذي كان واقفًا لم يتحرك من مكانه، فنظر عباس مرة أخرى إلى «لوخ» وكأنه يستعين به، التفت «لوخ» إلى أرحمة قائلًا:

ـ لماذا لا يترك حارسك الباب حتى يحضر لنا عباس شيئًا من التبغ الجيد؟

ـ ليس هناك داعٍ، فقد أتيت سرًّا وسأذهب سرًّا، ولا أريد أن يعرف أحد أنني موجود هنا، والآن دعونا نتحدث عن السبب الذي طلبتموني من أجله.

نظر «بروس» إلى «لوخ» بتوتر، فما الذي يجب أن يقال في موقف كهذا، لقد كان أرحمة أذكى كثيرًا مما كان يتوقع الجميع، ولأنه قد حاصرهم في زاوية لا يستطيعون الخروج منها، كان لا بدَّ من التفكير في مخرج وبأسرع وقت ممكن.

## الفصل الرابع والثلاثون

في الطريق إلى الدرعية

قال متعب لـ«سادلر»:

ـ على العشاء وقبل أن تمد يديك إلى الطعام، اشرح للشيخ فلاح كل ما حصل منذ مسير هذا الجربوع معنا، واطلب إنصافك منه وأن نكمل مسيرنا إلى الدرعية دونه.

مع غروب الشمس كان «سادلر» قد دوَّن كل تسلسل الأحداث التي حصلت مع المجموعة منذ انضمام جربوع إليهم، واحتفظ بالورقة في جيبه.

ونفذ «سادلر» تعليمات متعب بحذافيرها، إذ ما إن وضع الطعام حتى توجه إلى الشيخ قائلًا:

ـ أريد أن أشتكي إليك يا شيخ، من شيء حصل معنا مع ابن أخيك قبل أن نمد أيدينا إلى طعامك.

ـ أستغفر الله يا بني، وما الذي حصل معكم؟

شرح له «سادلر» كل شيء وهو يقرأ من الورقة التي كانت معه حتى

انتهى، وكان جميع الضيوف يستمعون لكل كلمة يقولها، وهم يحركون رؤوسهم استغرابًا من تصرفات جربوع.

عندما وصل «سادلر» إلى نهاية حديثه طوى ورقته ووضعها في جيبه وهو ينظر إلى الشيخ فلاح محاولًا معرفة رد فعله على ما حدث.

أنزل الشيخ رأسه وهو يفكر فيما سيقوله، ثم طلب من الجميع أن يسمون باسم الله ويتناولون طعامهم، ووعد بأنه سيحل المشكلة بنفسه.

بعد أن تناول الجميع طعامهم بصمت وعلى غير العادة، ذهب «سادلر» وبِشر ومتعب إلى حيث توجد دوابهم، وشرعوا في تجهيز فُرُشهم للنوم، فجأة ظهر لهم الشيخ فلاح وبرفقته بعض وجهاء القبيلة بمعية جربوع.

نظر إليهم الجميع باستغراب، فجأة ودون مقدمات، سقط جربوع على قدم «سادلر» طالبًا منه أن يسامحه على سوء تصرفه، وأنه سيعيد إليه كل المبالغ التي سبق أن أخذها منه.

لم يتحرك الشيخ ومن كان معه لتهدئة الموضوع حتى أعلن «سادلر» أنه قد سامح جربوعًا، وأن الأموال التي أخذها حلال له، حينها، رَبَّت أحدهم على كتف جربوع وطلب منه القيام.

تقدم الشيخ فلاح، وقال:

ـ لقد فضحنا ابن أخي معكم، وسأعاقبه بنفسي على سوء تصرفه، وسأرسل معكم اثنين من رجالي ليرافقاكم إلى منفوحة؛ فقد سمعت أن الدرعية قد دُمرت، وأيًّا كان الشخص الذي تريدون مقابلته هناك فلن يكون في الدرعية بالتأكيد.

اعتذر «سادلر» إلى الشيخ، فلم يكن يريد أن يرى المزيد من المرافقين معه في الطريق، وخصوصًا أن المسافة إلى منفوحة ليست بعيدة.

ما إن وصلت المجموعة إلى منفوحة حتى شاهدوا مناظر تقشعر لها الأبدان؛ فالناس قد افترشوا الأرض وبان على وجوههم البؤس والجوع، فبعد أن هدم إبراهيم باشا الدرعية نزح كل سكانها إلى منفوحة، وسكنوا مزارعها وخرائبها، وأصبحوا يأكلون أي شيء يجدونه من الجوع، فازدحمت الأزقة والطرقات بالنساء والأطفال، حتى إن بعضهم كان يتبع المجموعة وهم يشيرون إلى أفواههم.

أحزنت هذه المناظر الجميع، وشعروا أن جريمة قد ارتكبت في حق هؤلاء، فلم تكن لهم رغبة في البقاء في منفوحة، فاتجهوا مباشرة إلى الدرعية دون أن يرتاحوا، فما قد شاهدوه هنا سيجعل بقاءهم في الصحراء أكثر راحة.

ما إن اقتربوا من الدرعية حتى شاهدوا خطوطًا متوازية كثيرة على الرمال، فقال «سادلر»:

- إنها بالتأكيد عربات المدافع التابعة لجيش إبراهيم باشا.

كان متعب يتأمل الآثار التي على الرمال بدقة:

- هل يُعقل أنهم جعلوا الجمال تجر المدافع؟! إن هذه العجلات تجرها الجمال كما هو واضح.

فكر «سادلر» في الأمر، فلم يكن الجيش البريطاني قد استخدم الجمال في جر المدافع من قبل، ولو كانوا فكروا في هذا لكانت كتائب الجيش البريطاني أكثر مرونة وسرعة خلال تحركها في الأرض الرملية والصحراء.

بدت الدرعية مدينة مهجورة مُهَدَّمة بالكامل، لم يكن بها أحد قطّ،

أُحرقت مزارعها ورُدمت آبارها، وسُوِّي الكثير من مبانيها بالأرض، كانت أبواب الدور مفتوحة أو مكسورة، وقد سُرق كل ما بها، ولم يبقَ بها أي نوع من الحياة، فقد ساق جيش إبراهيم باشا كل الحيوانات التي وجدها، أما بالنسبة إلى البشر فقد قُتل الرجال أو تم أسرهم، وهربت النساء والأطفال إلى منفوحة.

مشت المجموعة في الطريق المؤدية إلى وسط الدرعية، وهم يتأملون كل ما تقع عليه أعينهم، ويحاولون أن يتخيلوا ما حلَّ بهذه القرية، فقد سوَّاها الجيش الغازي بالأرض، وأنهى أي وجود إنساني بها، وشاهدوا خلال مسيرهم بعض الجثث المتعفنة التي كانت تنهشها الكلاب.

بكى بِشر مما شاهد فلم يحتمل هذه المناظر، أما متعب فقد اختفت الابتسامة من وجهه وتغيرت ملامحه، وحاول أن يتماسك وهو يشاهد بِشرًا يبكي، ولم يكن «سادلر» بأفضل حال منهما، فقد انقلبت معدته وشعر بمرارة العصارة التي وصلت إلى حلقه، فتناول قربة الماء الصغيرة المعلقة على جمله وشرب منها ثم بلل يده ومسح وجهه وبصق على الأرض بحنق.

لم يتجرأ أحد من المجموعة على الشكوى من طول الطريق وعدم الراحة، فكانوا يريدون أن يتركوا كل شيء وراءهم ويغادروا هذا الجحيم بأسرع وقت ممكن.

اتجهوا إلى الشمال الغربي تجاه عنيزة التي كانت تتميز بموقع جغرافي مهم، وتعتبر مركزًا إستراتيجيًا على طريق تجارة القوافل المتجهة إلى الزبير والشام والأحساء والقطيف، وتعتبر عنيزة قلب الجزيرة العربية ومركزًا رئيسًا للتجارة والسياسة في المنطقة.

سلمت عنيزة من الدمار على يد جيش إبراهيم باشا، فبقيت مزارعها

وآبارها، وإن هدم الجيش بعض مبانيها، وقتل بعض أهلها؛ فقد غادرها إبراهيم باشا على عجل طالبًا من نائبه التخلص من بعض وجهائها الذين لم يكن يثق بولائهم، وبقي النائب مع جزء من الجيش بها على أن يلحق بطليعة الجيش التي كان يقودها الباشا بعد بضعة أيام.

خلالها، استدعى النائب أربعة من وجهاء المدينة للعشاء، وخلال تواجدهم في ضيافته، أمر جنوده بقطع رؤوسهم وتعليقها في ساحة المدينة، ثم انسحب ببقية الجيش للالتحاق بإبراهيم باشا.

وعندما دخلت مجموعة «سادلر» إلى عنيزة شاهدوا الرؤوس المعلقة على مدخلها وقد تعفنت وتحللت دون أن يتجرأ أحد على إنزالها.

استطاعت المجموعة أن تعيد تموين نفسها مرة أخرى في عنيزة، وترتاح من هم السفر محاولة نسيان كل المناظر البائسة التي شاهدوها خلال الأيام الماضية.

بدأ «سادلر» يفكر جديًا في وسيلة العودة إلى الخليج، فقد شعر أن ما قام به إبراهيم باشا قد حطم كل آمال الإنجليز في إنجاز حلف مع سلطان عمان والعرب الموالين لهم في المنطقة، ولكنه فكر في كل المعاناة التي تحملها في سبيل إيصال السيف إلى الباشا، وتلك التقارير التي كان يكتبها من حين إلى آخر، وتلك التي كان يستلمها من الحاكم العام في بومبي والتي تشكل بمجملها آمال البريطانيين في التخلص من القراصنة واحتكار التجارة في المنطقة، فهل يضرب بكل ذلك عرْض الحائط ويعود؟

وكيف سيعود؟ إن الطريق البرية التي قطعها لا يمكن العودة منها، فهل سيذهب إلى الزبير ومنها إلى البصرة؟ أو أن الأفضل أن يذهب إلى الشام ومنها إلى بغداد فالبصرة؟

بدأت كل تلك الأفكار تدور في رأسه وتشغله عن محيطه، فقرر في نهاية الأمر إكمال طريقه وإتمام مهمته، وإن كان احتمال نجاحها يكاد يصل إلى الصفر.

علم «سادلر» أن جيش إبراهيم باشا معسكر في قرية صغيرة قريبًا من الرسّ، فقرر الذهاب إلى معسكر الباشا للاتفاق معه وتسليمه الهدية.

عندما وصل «سادلر» ومجموعته إلى معسكر الباشا، استوقفه الحرس الأرناؤوط على مداخل المعسكر، وكان هؤلاء بيض البشرة يتحدثون العربية بطريقة غير واضحة، ضِخام الأجسام، ويبدون للناظر أنهم يستطيعون فعل أي شيء دون تردد، فهم يشكلون النواة الصلبة لجيش إبراهيم باشا؛ إذ إنهم ينتمون إلى المنطقة نفسها التي قدم منها محمد علي باشا والد إبراهيم باشا، وهي تلك المنطقة الجبلية الواقعة شرق البحر الأدرياتيكي في منطقة البلقان.

نظر بِشر إلى العسكري الأرناؤوطي الذي كان يتحدث مع «سادلر»، واستغرب من شاربه الكثيف الذي يستدق في نهايته ثم ينحني إلى الأعلى، ليضفي على صاحبه نوعًا من الشكل الغريب الذي لم يألفه سكان المنطقة.

ذهب العسكري الأرناؤوطي لاستدعاء الضابط بعد أن عرف أن «سادلر» سفير من الحكومة البريطانية لدى بلاط إبراهيم باشا.

جاء الضابط إلى «سادلر»، وكان ضخم الجثة ذا وجه دائري وشنب يشبه شنب الجندي السابق، ويلبس طربوشًا أصغر من ذلك الذي يلبسه بقية الجنود، وفي نطاقه الجلدي مسدس وخنجر جميل معقوف، أما سرواله فكان عريضًا جدًا، لم يميزه بِشر إلا بعد أن دقق فترة لمعرفة ماهية هذا الزِّيِّ الغريب.

استمع الضابط بدوره لأقوال «سادلر»، ثم ذهب إلى خيمة غير بعيدة

عن مدخل المعسكر يبدو أن ساكنها ذو منصب كبير؛ إذ إن الخيمة تختلف عن بقية الخيام في حجمها ولونها ووجود حرس على أبوابها.

خرج من الخيمة برفقة الضابط شخص آخر يلبس ملابس مدنية، وتقدم إلى «سادلر» وعرّف نفسه:

ـ أنا رشوان أغا، نائب إبراهيم باشا، أرحب بك في معسكرنا.

كانت لهجة رشوان أغا مصرية سريعة بعكس النجدية البطيئة التي ألفها مع الوقت، فاحتاج «سادلر» إلى بعض الوقت لفهم ما قاله الباشا له.

ـ أنا هنا لمقابلة إبراهيم باشا يا سيدي، فهل أستطيع أن أراه الآن لأمر عاجل؟

ـ إننا سنتحرك الآن إلى الرسِّ للقتال، ولن تستطيع أن تقابله اليوم بالتأكيد، ولكنك ومن معك ستكونون في ضيافتي حتى يفرغ الباشا من المعركة.

ثم استدار مادًّا يده إلى الأمام حتى يتبعه «سادلر» إلى الخيمة.

## الفصل الخامس والثلاثون

**مدينة شيراز، فارس**

كان الجو متوترًا في بيت السيد «بروس»، فقد كان أرحمة يريد جوابًا عن سؤاله، والسيدان الإنجليزيان يريدان أن يرسلا عباسًا إلى السيد صادق حتى يجد وسيلة للتخلص من أرحمة والحارس الذي وضعه أرحمة على باب المنزل يمنع أي شخص من الخروج، فكأن الزمن توقف، وكان الجميع ينظر إلى الآخر بانتظار أن يحدث شيء يحرك هذا الوضع الجامد.

نظر أرحمة إلى «لوخ»، وقال:

ـ أيها القبطان، سبق أن اتفقت معك على أن تتركني أجابه أعدائي وأنا أترككم دون أن أضايق تجارتكم وسفنكم، والآن طلبتموني دون أن تخبروني لماذا، فهل تعتقدون أني قطعت كل هذه المسافة حتى أرى وجوهكم الجميلة؟!

وما إن أكمل جملته حتى التفت عن يساره، وبصق على الأرض بقوة، ثم أكمل:

ـ والآن قولوا لي لماذا تريدونني؟

قال «لوخ»:

- يا سيد أرحمة، لقد وصلتنا معلومة أن هناك سيدة إنجليزية وابنتها قد اختُطِفتا وهما في طريقهما إلى البصرة، وقيل لنا إنك أنت الخاطف، ولو فعلت ذلك فقد كسرت الاتفاق الذي بيننا.

- كنت أعتقد أنك تتمتع بشيء من العقل في رأسك الكبير الفارغ، فهل تعتقد أنني من النوع الذي يكسر الاتفاق؟ ثم إنني لا أخطف النساء والأطفال كما تظن، قد أهاجم سفنكم وأحرقها، نعم، قد أسطو على السفن وأُفرغها من حمولتها، ولكني لا أختطف النساء أبدًا، فهذا عار في عرفنا وتقاليدنا.

تدخل «بروس» بأسلوبه الهادئ:

- وكيف نثق بأن ما تقول صحيح؟ إنك قرصان تتعيش من السطو على السفن، أو قد يقوم أحد ربابنة سفنك بهذه الفعلة دون علمك، فهل أنت متأكد من كل شيء؟

- أنا متأكد من كل ما أقول، وكل من يقود سفني هو ابن من أبنائي ربيته على يديَّ، وأعلم يقينًا كما أشم رائحة الخمر من أفواهكم العفنة الآن أن هذا لم يحصل.

غضب «لوخ» من أسلوب أرحمة في الرد:

- ألجم لسانك، لقد تطاولت علينا كثيرًا.

ولم يكمل جملته حتى ضرب ضرار الطاولة بسيفه فشقها نصفين جعلت الجميع يتطاير إلى الخلف من هول الصدمة.

نظر أرحمة إلى خادمه ضرار نظرة إعجاب:

ـ يا ليتك ضربت رأسه! حتى تخلصنا منه؛ فقد مللت وجوده في الخليج، وأتمنى أن يسبق رأسه جسده إلى جهنم.

لم يجرؤ حينها القبطان على الرد، فأبقى فمه مغلقًا كاتمًا غيظه قدر الإمكان.

قال أرحمة:

ـ وهل استدعيتموني كل هذه المسافة حتى تسألوني هذا السؤال التافه؟ إن وقتي أثمن من أن أقضيه معكم، وقبل أن أذهب كونوا على ثقة بأني أُبقي على عهدي مهما كلفني الأمر، وأن ما وصلكم من أخبار غير صحيح.

ثم التفت إلى ضرار قائلًا:

ـ دعنا نذهب لقد مللت الحديث مع هؤلاء الناس.

وقبل أن يخرج نظر إلى الجميع، وأضاف:

ـ سيقف أحد رجالي خارج الباب، وسيقطع رقبة من يحاول الخروج، إنكم جميعًا ضيوف هذه الدار حتى الصباح.

ثم خرج هو ورجاله وبقي أحدهم في الخارج ممسكًا بسيفه ولديه تعليمات بقتل من يحاول الدخول أو الخروج.

في حركة لا إرادية أخرج الجميع مناديل من جيوبهم لمسح العرق الذي تصبب من جباههم، ما عدا عباسًا الذي استخدم العمامة كعادته، ثم فتح «بروس» الحديث بقوله:

ـ ما رأيكم أيها السادة؟ لا أعتقد أن مسألة خطف السيدتين البريطانيتين حقيقية، حتى إن حصلت فأنا أعتقد أن أرحمة بريء منها.

كان «لوخ» ما زال يجفف وجهه، حين قال:

ـ لقد تعلمت درسين اليوم هما: ألا أغادر السفينة دون حراسة للمرة الثانية، وألا أصدق «غولاب» أبدًا، لكن القضية لا تقف هنا، فالسيد صادق بانتظار أن يقتل أرحمة، ولكن أرحمة غادر، ولأنه لم يقتل أرحمة فإننا لن نستطيع أن نفعل شيئًا حيال توليه منصب الحاكم خلفًا لعمّه، ولأننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا، فإن السيد قد يغضب، ويسبب لنا المتاعب.

ثم ضرب بكفيه على الكرسي الذي كان جالسًا عليه، وقال:

ـ أتساءل أحيانًا ما الحظ السيئ الذي رماني في هذا الميناء، سأستمتع بقتل «غولاب» حال عودتي إلى مسقط.

اقترح «بروس» أن ينام الجميع، ويفكروا غدًا في كيفية التخلص من هذا المأزق.

في صباح اليوم التالي، أرسل «بروس» عباسًا إلى الخارج لشراء بعض الحاجيَّات وحتى يتفرغوا للحديث عن المشكلة التي وجدوا أنفسهم فيها دون أن تكون أُذنا عباس تتنصت على كل كلمة يقولونها.

قال «لوخ»:

ـ دعونا نفكك هذه المشكلة، لدينا أرحمة الذي ذهب غاضبًا، ولا نعلم ما الذي ينوي عمله بعد أن شعر أننا قد نكسر اتفاقنا معه في أي لحظة وتحت أي ظرف، ثم لدينا السيد الذي ما زال متحمسًا للتخلص من عمه والجلوس على كرسيه، ومع الأسف! لم نستطع إرضاء أيٍّ من الطرفين، ولم نستطع حتى الآن التخلص من أي منهما أيضًا.

تساءل «بروس»:

ـ وما الحل أيها القبطان؟

ـ ربما لاحظتم خلال وجودنا في معسكر السيد صادق أنني كنت أُكثر من استدعاء عباس ليحضر لي شيئًا من حين إلى آخر، إنني بعملي هذا كنت أراهن على أنه سيستمع لكل كلمة تُقال خلال اجتماعنا ذاك، وكما أن السيد استخدم عباسًا ليكون جاسوسًا له، فأنا بتصرفي هذا استخدمت عباسًا ليكون جاسوسًا عليه.

قال «بروس»:

ـ لم أفهم أيها القبطان، لعلّي بحاجة إلى زجاجة من خمر شيراز قبل أن أفهم.

ـ أعتقد أن خطر السيد علينا أكثر من خطر أرحمة؛ فأرحمة رجل كبير في السنّ، ولم يهاجم أي سفينة لنا ترفع العلم البريطاني من قبل، وهجومه الذي كان على السفينة التي تقل «سادلر»؛ لأنها لم تكن ترفع العلم البريطاني، أما السيد، فهو قد يهدد وجودنا في ميناء «أبو شهر» وتحكمنا في التجارة مع الداخل الفارسي، وحتى مع ميناء البصرة المهم.

ـ ما الذي تريد قوله يا «لوخ»؟ هل تلمح بالتخلص من السيد صادق؟

ـ نعم، أريدك أن تجهز لي بعض الخيول، وأريد منك يا «ماثيوز» أن تذهب إلى السفينة «إيدن» الآن وتطلب من مساعدي أن يرسل معي خمسة بحّارة أشداء ليحرسونا خلال ذهابنا إلى شيراز لمقابلة أمير شيراز، واطلب من عباس أن يكون معنا، سنتحرك حال مجيء بحّارتي.

ومع منتصف اليوم كان خمسة من البحارة الأشداء خارج مبنى المقيمية، بالإضافة إلى «ماثيوز» وعباس والخيول التي طلبها «لوخ».

تحركت القافلة بعد أن هدأت حدة الشمس قليلًا تجاه الشمال الشرقي، وكان من المتوقع أن تصل إلى شيراز مساء اليوم التالي إن كانت الظروف مواتية، فلم يكن «لوخ» يخطط ليرتاح كثيرًا في الطريق، فلم يأخذ معه سوى بحّارته الخمسة و«ماثيوز» وعباس وبغل قوي لحمل الطعام والماء.

وفي مساء اليوم التالي أقبلت القافلة على شيراز التي كانت أبوابها على وشك الإغلاق، فتوقفت القافلة أمام البوابة التي كان يحرسها عدد كبير من الجنود، وطلب منهم «لوخ» أن يسمحوا لهم بدخول المدينة؛ لأنهم يريدون أن يقابلوا أمير شيراز لأمر ضروري، لم يسمح لهم الحرس بالدخول قبل أن يراجعوا القصر، وطلبوا منهم التخييم خارج السور بانتظار التعليمات.

لم يرتح «لوخ» لهذا الأمر، ولكنه وجدها فرصة لتنظيف نفسه وتعديل هيئته قبل دخول المدينة ومقابلة الأمير، فأمر جنوده بالترجل والاستراحة لحين وصول التعليمات.

مع صباح اليوم التالي، فُتحت البوابة وخرج منها شخصان بلباس رسمي جميل، أحدهما غربي والآخر فارسي، فاقتربا من معسكر «لوخ» الصغير، وعرَّفا نفسيهما، «أغ بهمن» مسؤول تشريفات الأمير، رجل قصير القامة يميل للسمنة قليلًا، يلبس الكثير من الخواتم في يديه الاثنتين على عادة الفرس في التزيُّن، أما الآخر فقد كان السير «فرانك هوبكن»، تاجر بريطاني طاب له المقام في إيران وأصبح مقربًا من الأمير ومسؤولًا عن تعليم أبنائه، صافحا «لوخ» بحرارة وطلبا منه مرافقتهما إلى القصر؛ لأن الأمير في انتظاره.

تساءل «لوخ» هل بإمكان مرافقيه دخول المدينة، والسكن في إحدى خاناتها؛ لأن الطريق كانت طويلة ومتعبة على ظهور الخيل، فما كان من

«أغ بهمن» إلا أن أمر حرس البوابة بذلك، فطلب «لوخ» من «ماثيوز» وعباس مرافقته، وأمر الحراس بالاستراحة في أقرب خان لحين عودته.

كان أمير شيراز شخصية ضعيفة؛ فهو ينتمي إلى العائلة الحاكمة القاجارية، شأنه شأن ابن أخيه السيد صادق، وقد كان قائدًا لإحدى الفرق العسكرية الفارسية خلال الحرب الأولى ضد الروس التي امتدت من ١٨٠٤ إلى ١٨١٣، وأثبت خلال هذه الحرب أنه لا يصلح أن يكون قائدًا أو حتى جنديًّا في الجيش، فحاول الشاه إبعاده إلى إحدى المناطق النائية في الإمبراطورية، ولكن التدخل النسائي في القصر الإمبراطوري أنقذه من هذه النهاية البائسة، وتم نقله ليكون نائبًا للشاه على شيراز والمناطق المحيطة بها.

كانت تلك الفترة فترة ترقب وحذر، فقد كانت الإمبراطورية القاجارية تحاول جاهدة مدَّ يدها إلى القوى الغربية بعد أن شعرت بضعفها إزاء التقدم التقني الروسي في الحرب، فقد وجد الكثير من التجار والضباط الغربيين وظائف في البلاط الإمبراطوري أو لدى ممثليه في الأقاليم لتعليم أبنائهم اللغات الغربية والفروسية واستخدام التقنيات العسكرية، وكانت وسيلة غير مباشرة لتقوية العلاقات الغربية الفارسية ضد الزحف الروسي تجاه الجنوب.

دخل القبطان «لوخ» على أمير شيراز يتبعه «أغ بهمن» مسؤول التشريفات في القصر، والتاجر البريطاني «فرانك هوبكن» ثم «ماثيوز» وبعدهم عباس الذي حاول أن يتوارى خلف أي شخص أمامه؛ لأنه في حضرة شخصية عظيمة لم يكن يحلم بالمرور قرب جدار قصره، لاحظ أحد الحرس عباسًا الذي كأنه جاء متلصِّصًا، فمسك به من قميصه ودفعه إلى الخلف ليخفيه عن عين الأمير، فبقي عباس خلف الجدار مرتجفًا بانتظار أن يستدعيه أحدهم.

استقبل الأمير القبطان «لوخ» بترحاب مبالغ فيه، فهو يعلم أن كل حديث

بينه وبين القبطان سيصل إلى الشاه، وأن دوره سيقوى فيما لو استطاع أن يكوِّن علاقة من أي نوع كانت مع ضابط مرموق في البحرية البريطانية، فقام من كرسيه مادًا ذراعيه ماشيًا تجاه القبطان حتى احتضنه بمودة لم تعجب القبطان.

جلس الجميع على الكراسي المحيطة بالأمير، ثم صفق بيده طالبًا إحضار الحلويات للضيوف الأعزاء كما كان يدعوهم، ثم تحدثوا في كل شيء باستثناء السبب الذي جاء القبطان من أجله، فقد وجدها الأمير فرصة ليحدثهم عن بطولاته خلال الحرب ضد الروس، وكيف قضى على جحافلهم وجندل فرسانهم، ثم تحدثوا عن خمر شيراز التي أعجبت «بروس» وأصبح مدمنا إيَّاها، وتحدثوا عن القراصنة في الخليج، وكيف أن الإمبراطورية الفارسية بحاجة إلى أسطول قوي يحمي تجارتها في المنطقة.

بعد أن انتهوا من الحديث وتشعباته، طلب «لوخ» أن يتحدث مع الأمير في موضوع خاصّ.

ـ هيَّا تحدث، فكل من هو جالس هنا مستودع لأسراري، ولا أخفي عليهم شيئًا، إنني لا أحيط نفسي إلا بمن أثق به من الرجال، ولو تجرأ أحدهم على كسر هذه الثقة فسأكسر عنقه.

ـ سيدي، كيف هي علاقتك بابن أخيك السيد صادق؟ هل تثق به؟

ابتسم الأمير ابتسامة باهتة، فلم يكن يتوقع السؤال ولم يكن يعرف كيف يجب أن يكون رد فعله، فاستغرق الأمر لحظات حتى يعيد تشكيل وجهه مرة أخرى ليقول:

ـ إن ابن أخي مشكلة لنا، فهو طموح لدرجة كبيرة وأخاف أن يقتله هذا الطموح يومًا ما، لقد تُوفي والده منذ أن كان صغيرًا، وتولى تربيته مجموعة

من نساء القصر، فقد كان مدللًا من والدته التي كانت تخاف عليه أن يغيب عن عينيها، فكان أن تربى على كيد النساء ومؤامراتهن، لقد عينته نائبًا لي على ميناء «أبو شهر» الذي جئتم منه.

ثم أعاد الأمير تشكيل وجهه ليكون أكثر حزمًا:

ـ أرجو ألا يكون قد قام بشيء شائن معكم؟ إن هذا الأحمق قد يفعل أي شيء ليحقق مصلحته.

ـ لقد كنت معه خلال اليومين الماضيين، وأستطيع أن أجزم لسموك أنه يخطط... يخطط... لقتلك يا سيدي.

ثم سكت ليرى تأثير ذلك في الأمير.

قام الأمير من كرسيه ومشى في وسط الجالسين، حتى وصل إلى آخر القاعة ليواجه النافذة التي تُطِلُّ على الحديقة:

ـ هل أنت واثق بما تقول؟ هذا ما كنت أخشاه!

بحث «لوخ» عن عباس في القاعة فلم يجده:

ـ سيدي الأمير، هل تأذن لي باستدعاء خادمنا عباس للمثول بين أيديكم؟

لم يُجب الأمير، فكان سكوته بمثابة الموافقة، فصوّت «لوخ» على عباس، ولم يجد جوابًا، ثم قام «ماثيوز» من كرسيه وجرى تجاه الباب ليجد عباسًا جالسًا على الأرض وهو يَعَضُّ على عمامته التي خلعها من رأسه، فأمسك به من يده وأحضره ليَمْثُل بين يدي الأمير.

جاء عباس مرتجفًا، وما إن اقترب من الجالسين حتى ركع على ركبتيه والتفت ناحية القبطان وكأنه يستفسر عن السبب الذي ساقه إلى هنا.

سأله «لوخ»:

- عباس، ما الذي سمعته خلال اجتماعنا مع السيد صادق في معسكره الجبلي؟ قل للأمير كل ما سمعته دون أن تُخفي كلمة واحدة.

انفجر عباس بالبكاء والنحيب، ثم بدأ يرفع يديه للسماء وكأنه يطلب مساندتها لتخليصه من حظِّه العاثر، ثم قام فجأة ووقع على قدمي القبطان طالبًا منه إعفاءه من الإجابة.

- سيدي القبطان، ما الذي تفعله بي، إنني رجل فقير أريد أن أربي عيالي، إن إجابتي عن سؤالك معناها قطع رقبتي، ولو حصل هذا دون تعذيب لكانت هذه رحمة من الخالق، ولكني سأُسلخ حيًّا قبل أن تُفصل رأسي عن جسدي، سيدي أرجوك أعْفِني من الإجابة... أرجوك!

## الفصل السادس والثلاثون

**الرسّ، نجد، جيش إبراهيم باشا**

قال رشوان أغا نائب إبراهيم باشا موجهًا كلامه لـ«سادلر»:

ـ استريحوا في خيمتي لحين التحرك إلى الرسّ، لقد أصدر الباشا أمره منذ دقائق، ونحن فقط بانتظار أن يخرج من خيمته لنتحرك معه.

ضُرب البوق فجأة، فتكهرب الجو، وسُمعت أصوات جَلبة قوية، خرج رشوان أغا و«سادلر» إلى الخارج، فإذا بجميع الجيش يتحرك خارج المعسكر، الخيالة المغاربة والأتراك والأرناؤوط، والمشاة، والمدافع التي تسحبها الجمال، والبغال المحملة بالأسلحة والذخيرة والتموين، والجمال التي تحمل المقاتلين العرب وغيرها.

ثار الغبار بشكل كثيف، مما دعا رشوان أغا والبقية لوضع قطع القماش على أفواههم، وشاهدوا هذا الجيش الكثيف يتحرك ببطء خارجًا من المعسكر.

ـ هل لي أن أسأل كم عدد الجيش يا أغا؟

لم يلتفت الأغا لـ«سادلر»، ولكنه أجاب بصوت عالٍ أقرب ما يكون إلى الصراخ حتى يسمعه:

ـ لدينا نحو ٣٠٠٠ فارس من الأرناؤوط والأتراك والبربر، ولدينا مثلهم من المشاة أيضًا، ولدينا أيضًا نحو ٥٠٠ هجان عربي.

ثم أشار الأغا إلى بعض ضباطه لتوفير دوابّ للضيوف حتى يرافقوا الجيش إلى الرسّ.

ركب الجميع على خيولهم التي وفرها لهم الأغا، وتبعوا الجيش محاولين تفادي زوبعة الغبار التي يثيرها خلفه.

وصل الجيش العرمرم إلى قرية الرسّ، التي تحصن بها نحو خمسمائة مسلح وهّابي، وأمر إبراهيم باشا جنوده بعدم نصب الخيام أو الترجل عن صهوات الخيل إلا بعد أن يتم احتلال القرية وقتل جميع من فيها.

أُحضرت المدافع إلى الأمام، ووجهت إلى جدران القرية، وأمر قائد المدفعية كتيبته بالضرب، فانفجرت القذائف على جدران المدينة وتناثرت شظاياها، وتصاعد الدخان وسُمع الصراخ من الداخل، استمر القصف عدة ساعات، لم تتأثر جدران القرية كثيرًا به؛ لأن المقاومين رمموا الجدار، وزادوا في سماكته، وصبُّوا عليه الماء حتى يمتص تأثير القذائف.

أمر إبراهيم باشا جنود المشاة بالتقدم ظنًّا منه أن المقاومين قد لانوا بسبب القصف، تقدم المشاة على شكل صفوف متراصة بعض الوقت ثم زادوا في سرعتهم بشكل تدريجي وهم يصرخون.

فجأة انطلق وابل الرصاص من المدافعين تجاه الجنود الذين تساقطوا بكثرة، فكانت كل رصاصة تطلق من المدافعين تجد لها هدفًا من الجنود،

وكان من الواضح أن المدافعين كانوا مدربين على الرمي ولم يكونوا يسرفون في إطلاق النار.

صدرت الأوامر لإرسال الخط الثاني والثالث من المشاة، فتساقطوا أيضًا أمام الجدار، وامتلأت ساحة المعركة بالقتلى والجرحى من الجيش، ومع مغيب الشمس، انطلق صوت الأذان من داخل مدينة الرسّ الذي تزامن مع الأذان في معسكر جيش إبراهيم باشا.

كان «سادلر» يقف على حصانه بالقرب من رشوان أغا ويقف على مقربة منه بِشر الذي كان مصدومًا من كثرة القتلى، فلم يرَ من قبل قتلى بهذا العدد، ولم يأخذه من تفكيره سوى صوت الأذان الذي كان يتردد بين المعسكرين، فكان أن سأل نفسه: هل هؤلاء وهؤلاء على حق فيما يفعلون، فهم يعبدون نفس الرب، ويُصَلُّون لنفس القبلة، وبعد ذلك يسفك بعضهم دماء بعض.

استغرق بِشر في تفكيره، وكأنه يسأل نفسه عن معنى التدين والعبادة، وتأثير ذلك في الإنسان، وعن القتل وسفك الدماء، فإذا كان الإنسان يعلم أنه سيقابل ربه يومًا ما ليسأله عن أفعاله التي قام بها في حياته، فلماذا إذن يقتل أو يقاتل؟ أليست الحياة قصيرة؟ أليست عبارة عن فترة امتحان قبل المكافأة؟ إذا كنا في هذه الدنيا فترة قصيرة، فما الداعي لأن نتقاتل إذن؟

انشغل بِشر بكل هذه الأسئلة التي لم يجد لها جوابًا.

فسمع «سادلر» يسأل الأغا:

ـ ما معنى أرناؤوط يا أغا؟

ـ لست أعلم بالضبط، ولكني سألت بعض الضباط الذين خدموا في

الجيش العثماني منذ فترة، فقالوا لي إن معناها هو: عار أن نعود، وهذا كان شعارهم في المعارك؛ إذ إن من العار أن نعود مهزومين، فكتبوا هذا الشعار على لواء الفرقة وعُرفت به، ثم حُرف بعد ذلك إلى كلمة واحدة هي أرناؤوط.

نام المعسكران، وهدأت الأصوات عدا أصوات الجرحى الذين ظلوا يئِنُّون طوال الليل من الألم، ومع ظهور أول خيط للفجر، انطلقت صيحات الأذان في المعسكرين، وشرع الناس في الصلاة وهم يسألون نفس الرب أن ينصرهم على أعدائهم.

استعد الجانبان للقتال، حينها أمر إبراهيم باشا الفرسان بالاستعداد للقتال، فهجمت طلائعهم على الجدار، فتساقطوا بفعل قنص المقاومين، وما إن وصل الفرسان المهاجمون على بعد أمتار من الجدار حتى انهارت بهم الأرض، واختفت الخيول بفرسانها تحت الأرض.

كان المقاومون قد حفروا خندقًا على بعد أمتار من الجدار ثم وضعوا عليه خوص النخيل وأغصان الأشجار، ووضعوا بعد ذلك فوقه الرمل وموَّهوه حتى لا يُرى.

تسبب كل هذا القتل ووجود الخندق في انهيار الروح المعنوية لجيش إبراهيم باشا، وخصوصًا أنهم يعرفون أن المقاومين لم يتعدوا الـ٥٠٠ شخص مسلحين ببنادق قديمة فقط.

لم يتحمل إبراهيم باشا هذه الهزيمة، فأعلن في الجيش أن هناك مكافأة قدرها خمسة جنيهات ألمانية نظير كل زوج من الآذان التي سيحضرها أي عسكري، وأن هناك مكافأة كبيرة لمن سيقتحم الجدار.

إن خمسة جنيهات ألمانية تعتبر ثروة بالنسبة إلى كل عسكري، فهجم

الجيش بِرُمَّتِه على الفجوات التي أحدثتها قذائف المدفعية، وبدأت معركة التحام بالسلاح الأبيض، قُتل خلالها كل المدافعين عن مدينة الرسّ، وامتلأت ساحتها الرئيسة بالجثث، وعندما توقف إطلاق النار طلب رشوان أغا من ضيوفه مرافقته إلى داخل المدينة.

تقدمت المجموعة من خلال البوابة الرئيسة التي كانت محطمة، محاولين تفادي الجثث التي ملأت الساحة خارج البوابة، وحال دخولهم شاهدوا جثث المدافعين ممزقة بالحراب، ومقطوعة الآذان، وبعضها قد مُثِّل به.

لم يستطيعوا أن يسيروا بخيولهم في خط عرضي حتى يتحدثوا بعضهم مع بعض، فقد أجبرتهم كثرة الجثث على أن يسيروا بعضهم خلف بعض حتى لا يدوسوا عليها بحوافر خيولهم.

تلثم بِشر بعمامته، فهي تخفي عادةً بكاءه وحزنه على ما يحصل، أما «سادلر» فقد بصق على الأرض من القرف، ومتعب ذلك البدوي المرح نسي مرحه وأصبح يفكر في كل هذا الدمار الذي حلَّ بالمدينة.

عندما شاهد بعض الجنود رشوان أغا قادمًا جرّوا جثة لأحد المقاومين من قدميه، ووضعوها أمام جواده الذي توقف فجأة، وتوقفت المجموعة بناء على حركة لا شعورية من يده.

تقدم أحد الجنود من رشوان أغا وأدى التحية له، ثم قال:

ـ سيدي، إن هذا هو قائد المقاومين في المدينة.

نظر رشوان أغا إلى الجثة التي كان بها عدة طلقات في البطن وبعضها في الرأس، فعلم أن الرجل قُتل بإطلاق الرصاص في رأسه بعد أن جُرح.

ـ هل تعرفون هويته؟

أعاد الجندي النظر إلى الجثة ثواني، ثم نظر إلى الأغا:

ـ لا يا سيدي، لم يعرفه أحد، ولكننا قد نؤخر قتل بعض الأسرى حتى نأخذ أقوالهم، على العموم إن هؤلاء (وأشار إلى جنديين واقفين خلفه.) يريدون أن يقطعوا أذنيه حتى يأخذوا المكافأة ثم يجزّوا رقبته حتى يقدموها هدية لإبراهيم باشا.

رد الأغا باشمئزاز:

ـ افعلوا ما بدا لكم.

وقبل أن تتحرك المجموعة مبتعدة عن المنظر القادم، رفع أحد الجنود رأس الجثة تمهيدًا لفصلها عن الجسد، وإذا بِبِشر يصرخ فجأة:

ـ توقف عليك اللعنة، دعني أنظر إليه.

ثم نزل عن جواده وركض تجاه الجثة، ومسح الدم عن وجهها حتى وضحت المعالم، لقد كان ابن عفيصان.

نظر بِشر إلى «سادلر» بعينين باكيتين ووجه بائس:

ـ إنه ابن عفيصان يا «سادلر»، لقد قتلوا الرجل الشجاع، عليهم لعائن الله، كم كرهت الحرب عندما شاهدتها! إنها العذاب الذي يسبق الموت.

وقف «سادلر» ومتعب أمام الجثة بحزن، فلم يكن متعب يعرف ابن عفيصان، ولكنه تأثر بتأثر بِشر الذي لم يكن يتوقف عن البكاء والصراخ، وكأنه يخرج كل الغضب المكبوت الذي شعر به منذ أن وطئت قدمه أرض المعركة وشاهد كل الدمار الذي خلفته.

كان أحد الجنود الأرناؤوط واقفًا على رأس الجثة يشحذ سكينه بانتظار أن يتركوا الجثة حتى يجز الرأس ويقطع أذنيها، إلا أن رشوان أغا أمره بالذهاب، فغادر المكان مترددًا.

طلب بِشر من متعب مساعدته لوضع الجثة على الحصان تمهيدًا لدفنها بعيدًا عن أعين الجنود الذين لن يترددوا في نبش القبر وقطع أذنيها.

وُضعت الجثة على الحصان، وسار بها بِشر مع المجموعة محاولًا إيجاد المكان الملائم لدفنها بعد الصلاة عليها.

تجولت المجموعة في مدينة الرسّ قليلًا، شاهدوا في أثنائها جثثًا لنساء وأطفال وشيوخ وقد قطعت آذانهم أيضًا.

تملك الحزن الجميع، فلم يتمالك بِشر نفسه، وتوجه بكلامه نحو رشوان أغا:

ـ إن جنودكم لم يتركوا شيئًا في سبيل الحصول على المال، انظر إلى جثث الأطفال والنساء، أليس هذا عيبًا في عرف الجيوش؟!

اشمأز الأغا من السؤال، وغضب:

ـ أغلق فمك وتمالك أعصابك يا رجل، لو لم تكن ضيفي لفعلت بك أكثر مما ترى، إنها الحرب، ألا تعلم معنى الحرب، هي أن تتجرد من كل معاني الإنسانية؛ لأنها لو بقيت معك لهزمك أعداؤك.

نظر «سادلر» إلى بِشر محاولًا التخفيف من غضبه، ثم ربت على كتفه ونظر إلى جثة ابن عفيصان، وكأنه يقول له: عليك أن تدفن صديقنا.

كانت الرسّ مكانًا غير قابل للسكنى؛ فقد خرجت الكلاب لتنهش

الجثث، وهبطت العقبان من السماء لتشارك في الوليمة، ولم يُترك أي كائن حيّ في المدينة بعد أن خرج منها جيش إبراهيم باشا.

مع مغيب الشمس، كان بِشر يصلي على ابن عفيصان في مكان ما في الصحراء، ثم وضعه في حفرة، وأهال عليه التراب، ثم وضع حجرًا على طرفي القبر ورفع التراب فوقه بمقدار شبر، ولم يكتب اسمًا أو تاريخًا، وبقي قبر إبراهيم بن عفيصان وحيدًا في الصحراء.

# الفصل السابع والثلاثون

قصر أمير شيراز، فارس

لم يحتمل الأمير صراخ عباس، فأشار إلى أحد حرسه برأسه، فجاء هذا الحارس إلى عباس وصفعه صفعة قوية أسقطته على الأرض، فبقي ممددًا وبكاؤه لم يتوقف، حينها أخرج الحارس خنجره من غمده، ووضعه على رقبة عباس، وغرس رأس الخنجر في جلده حتى ظهرت قطرة دم سالت على نصل الخنجر.

شعر «لوخ» أن الأمور ستسوء، فأشار إلى الحارس بالابتعاد، ثم أمسك بيد عباس ليساعده على القيام، قائلًا له:

ـ لا تَخَفْ، لن يؤذيك أحد، ستكون معي بعيدًا عن السيد صادق، ولكن اعترف الآن للأمير حتى لا يغضب.

ـ هل تعدني أنك ستحميني يا سيدي؟ هل هذا وعد منك؟

ـ نعم، أعدك، والآن تكلم.

لم يتوقف لسان عباس عن الحراك منذ أن سمع وعد الحماية الذي

أعطاه إيَّاه «لوخ»، فتحدث عن كل شيء حتى عن أمور لم يكن «لوخ» على علم بها، فعلى مدار سنوات كان عباس ينقل كل ما يدور من حديث إلى السيد صادق، وخلال تردده لنقل الأخبار كان يسمع الكثير عن المؤامرات والأحداث ولكنه لم يكن يتجرأ على نقلها، فأبقاها مخزنة في رأسه لحين هذه الساعة.

كان الأمير يهز رأسه بعد كل قصة يحكيها عباس، فقد اتضحت أمور كثيرة للأمير، ابتداءً من اختفاء شخصيات مهمة حتى أموال الضرائب وتغير الولاءات التي لم يكن الأمير يجد لها مبررًا، وقصصًا كثيرة جعلته يظن أن ابن أخيه شيطان خُلق في صورة بشر.

بعد أن انتهى عباس من سرد كل القصص التي يعرفها انتهاءً بنية صادق قتل عمه والاستيلاء على أملاكه حتى توقف عن الحديث ولم يبقَ سوى صوت سحبه لمُخاطه الذي كان ينزل على شفتيه من حين إلى آخر.

كان الأمير طوال هذه الفترة ينظر إلى الحديقة من النافذة، ثم أمر «أغ بهمن» بأن يُعْنَى بالضيوف، ويسكنهم في أحد البيوت التي خصصها الأمير لضيوفه بضعة أيام، ثم يكرمهم بالهدايا ليعودوا إلى «أبو شهر».

خرج الجميع من القاعة، فاستدعى الأمير أحد الحراس وأسرَّ في أذنه شيئًا، ثم ركع الحارس وغادر القاعة على عجل.

أوصل «أغ بهمن» الضيوف إلى سكنهم، ثم استأذنهم في الذهاب، وبقي «لوخ» والتاجر البريطاني الذي لم تسنح الفرصة لـ«لوخ» بالتعرف إليه و«ماثيوز»، أما عباس فقد ترك الجميع واختفى منتظرًا أن يتم استدعاؤه للمغادرة على أمل أن يفي له «لوخ» بوعده.

جلس الثلاثة في بيت الضيوف المريح، فأخرج «فرانك» علبة عاطوس

من جيب سُترته ووضع بعضًا منه على ظهر يده اليسرى واستنشقه بقوة من إحدى فتحتي أنفه، ثم انتفض فجأة وعطس عدة مرات قبل أن يُخرِج منديلًا ويمسح فمه وأنفه، ونظر بهدوء إلى «لوخ» الذي ينتظر تبريرًا لما حصل.

ـ ما هذا الشيء الذي شممته يا مستر «هوبكن»؟

ـ إنه عاطوس، تعودته منذ أن جئت إلى هذه البلاد منذ عدة سنوات، وهو ليس الشيء الوحيد الذي أدمنته هنا، لكن لا عليك. هلا شرحت لي سبب كل الذي حصل يا سيدي؟

بدأ «لوخ» في سرد قصته:

ـ لقد أتيت إلى الخليج لأُخلِّص هذه البحيرة من القراصنة والأوغاد، ولكني وجدت نفسي أعقد الاتفاقات معهم، فقد اتفقت مع قرصان مشهور يُدعى أرحمة بن جابر على أن يترك سفننا في حال سبيلها على أن نتركه يحارب أعداءه دون أن نتدخل، ثم شعر أننا كسرنا هذا الاتفاق، فكان أن اتفقنا مع السيد صادق على أن يتخلص منه، ولكن صاحبك صادق هذا طلب أن نعترف به أميرًا بعد أن يتخلص من عمه، ولسبب أو لآخر لم يستطع أن يقتل أرحمة لأن الأخير أذكى مما كنا نتصور، فلو عرف أنه لن يستطيع التخلص من أرحمة فإنه قد يغدر بنا لأننا نعرف مخططه، فقررنا أن نتخلص منه حتى نتفرغ لأرحمة دون أن نترك عقربًا في فراشنا.

ضحك التاجر قليلًا:

ـ كنت أعتقد أن السياسيين هم الخبثاء، ولكنكم أيضًا أيها العسكريون تخططون بخبث، لقد عشت في هذه البلاد بضع سنوات لم أرَ خلالها سوى المؤامرات؛ إن الناس هنا تصحو وتنام وتأكل مؤامرات، كما تعلم يا سيدي لقد خسرت فارس حربها مع الروس مؤخرًا، وهناك بوادر حرب قادمة،

فالاتفاقية التي وقعت بين الطرفين لم تعجب الشاه الذي أُجبر على توقيعها خوفًا من دخول الجيوش الروسية إلى بلاده أكثر مما فعلت، وهو الآن يحاول جهدَه التقرب من القوى الغربية لتساعده في حربه القادمة لاستعادة أملاكه وأراضيه، إن الوضع غير مستقر، وكل هؤلاء الأقارب لا يساعدون على استقرار البلاد، فما يقومون به من سرقات، وانشغالهم في حياكة المؤامرات بعضهم لبعض تجعل البلاد على كف عفريت.

قال «لوخ»:

ـ ليست هذه مشكلتي يا سيد «هوبكن»، كل ما أتمناه أن أعود لسفينتي حتى أتم مهمتي التي جئت من أجلها إلى هنا، متى تعتقد أن الأمير سيسمح لنا بالعودة؟

رد «هوبكن»:

ـ بعد الذي حصل اليوم، لن يسمح لك بالتحرك قبل أن يتخلص من ابن أخيه، فهو يريدك أن تتأكد من أنه قد تخلص منه قبل أن تنتشر الأخبار، والتقرير الذي ستكتبه لقيادتك أهم عنده من التقرير الذي سيُكتب للشاه؛ لأن الشاه يعلم أن مثل هذه الأمور تحصل بشكل يومي بين الأسرة الحاكمة، ولكن التقرير الذي يريدك أن تكتبه لقيادتك يجب أن يحتوي على مقتل السيد صادق، ستتأكد من ذلك بنفسك.

أمضى «لوخ» ومجموعته يومين في ضيافة الأمير، وفي اليوم الثالث سمع جلبة كبيرة في ساحة المدينة، وعرف أن الأمير قد أمر السيد صادق بالقدوم إليه بأسرع وقت ممكن، وأنه حال وصوله تم تقييده بالسلاسل وأُحضر إلى الساحة الرئيسة ورُبط على عمود، وحكم عليه قاضٍ كان يقرأ من ورقة بأنه خائن وأن عقوبة الخيانة هي الموت.

وفي اليوم التالي كان رأس السيد صادق معلقًا على رمح طويل في ساحة السوق، وجثته مربوطة على ذات العمود الذي رُبط عليه قبل مقتله، وحين شاهده القبطان «لوخ» عرف أن مهمته قد انتهت بنجاح، ولم يَخْفَ ذلك على مرافقه «أغ بهمن» الذي ابتسم له وكأنه مسرور بما حصل.

رجع «لوخ» ومجموعته إلى «أبو شهر»، وكان «بروس» في انتظارهم على أحر من الجمر، وحين ترجل «لوخ» من جواده، سأله «بروس» عن نتيجة الزيارة، فلم يجب، بل اكتفى بالابتسامة، وسأل «بروس» هل لديه شيء من الخمر؛ ففمه قد جفَّ من الرحلة المضنية.

دخل «بروس» إلى مكتبه مع «لوخ» بعد أن طلب من «ماثيوز» تنظيم عودة البحارة إلى السفينة، وإعادة تموينها، ولم يكن «بروس» يطيق صبرًا، فكرر سؤاله على «لوخ» الذي رد باقتضاب:

ـ لقد نجحت مهمتنا يا عزيزي «بروس».

ـ ما تعريفك لكلمة «نجحت» أيها القبطان؟ أريد شرحًا وافيًا، فإنك ستغادر قريبًا، وأنا سأبقى لتلقي كل تداعيات مخططك، فأرجوك اشرح لي بالتفصيل.

ـ قبل أن أقول لك ما الذي حصل، قل لي أنت ما الذي حصل في «أبو شهر» في أثناء غيابنا.

ـ بعد غيابك بيوم، جاءني رسول من السيد صادق يسألني هل أرحمة قد وصل، أو إن كنا قد سمعنا شيئًا عن موعد قدومه، أجبته بالنفي؛ ففي غيابك لم أكن لأتجرأ وأقول له ما حصل، فقال لي الرسول إن صادقًا سيذهب إلى شيراز مدة بسيطة، وطلب مني أن أعمل ما بوسعي فيما لو ظهر أرحمة حتى أعطله ريثما يعود، هذا كل شيء يا صديقي.

ـ حسنًا، إن صاحبك صادقًا لن يعود، فرأسه يبعد عن جسده بضعة أمتار.

ثم غير من جلسته واقترب من «بروس»:

ـ لقد قُطع رأسه، ولن يكون لك أعداء بعد اليوم يا صديقي.

ـ أووووف، الحمد لله، لو بقي على قيد الحياة كنا سنبقى تحت رحمة لسانه الكريه، والآن لم يبقَ لدينا سوى عباس، فهذا الرجل يعرف الكثير، ألا توافقني في ذلك؟

ـ لا تَخَفْ، سيرافقني عباس على سفينتي، وسيختفي من ناظرَيك إلى الأبد، وسنتفرغ لأرحمة بن جابر حينها.

ـ إذن دعنا نحتفل الليلة؛ فقد أصبح أمير شيراز صديقًا لنا، ويعرف أننا حميناه من أقرب الناس إليه، وهذا سيساعدنا على توسيع مصالحنا التجارية أليس كذلك؟

ـ لقد أعطانا من الهدايا الكثير نظير كشفنا للمؤامرة، وأنا لم أَنْسَك، فقد قلت له عندما ذهبت لتوديعه إنك صاحب فكرة كشف المؤامرة، وإنك الذي طلبت مني الذهاب إليه لإعلامه بها، وقد أرسل إليك بعض الهدايا الرائعة، وقد طلبت من «ماثيوز» أن يأخذها إلى منزلك مباشرة.

ـ يا صديقي القبطان، إنك شخصية رائعة، شكرًا جزيلًا.

في تلك الليلة كان بعض البحارة الذين يمرون بالقرب من منزل «بروس» يسمعون غناءً نشازًا يخرج من حناجر مجموعة من السكارى، ومع منتصف الليل هدأ هذا الصوت، وعلم الجميع أن خمر شيراز قد أتت بمفعولها.

وفي الصباح كان «بروس» في الميناء مودِّعًا القبطان، أما عباس فقد لبس أبهى ملابسه ووضع كل ما يملك في صرة حملها في يده، ومشى خلف

«لوخ» حتى يستشعر حمايته له، ثم ودع الجميع بالحضن سعيدًا بمغادرة هذا الميناء البائس الذي قضى فيه كل سني عمره.

ركب القبطان وعباس في زورق صغير ليوصلهم إلى السفينة «إيدن» التي كانت راسية غير بعيد عن الميناء الصغير، وما إن صعد القبطان حتى صرخ أحدهم:

ـ القبطان على السطح.

فنُشرت الأشرعة وتحركت السفينة رويدًا رويدًا تجاه الجنوب الغربي تاركة خلفها «بروس» و«ماثيوز» اللذين تمنيا لو كانا على سطحها.

وما إن سارت السفينة بضع مئات من الأمتار، حتى سقط شيء من سطحها فجأة، وبعد يوم من مغادرتها، وجد بعض البحارة جثة عباس وأحشاؤها تطفو بالقرب منها، ولم يجد الناس تفسيرًا لما حصل.

## الفصل الثامن والثلاثون

**معسكر إبراهيم باشا، الرسّ، الجزيرة العربية**

رجعت المجموعة إلى معسكرها خارج الرسّ، وكرر «سادلر» طلبه للقاء إبراهيم باشا، فوعده رشوان أغا بأن يرد عليه بأسرع وقت ممكن.

وفي المساء حين كان «سادلر» جالسًا مع بِشر في الخيمة، دخل عليهم رشوان أغا ليبشرهم بأن الباشا قد وافق على أن يتناول مع «سادلر» الفطور صباحًا.

بعد أن خرج الأغا من الخيمة، نظر بِشر إلى «سادلر» بشكل يوحي بأنه يعرف ما يدور في عقله، فتح «سادلر» عينيه على اتساعهما ثم زمَّ شفتيه وحرَّك يديه، وكأنه يقول: وما يجب عليَّ أن أفعل؟

قال بِشر:

ـ إنك ستقابل الوحش غدًا إذًا؟ لو كنت مكانك لأخفيت خنجرًا تحت ردائي حتى أطعنه في صدره بعد أن فعل ما فعل في هذه البلاد.

ـ لا تقلق، سيموت يومًا ما، إما بطعنة خنجر أو برصاصة أو بأي شيء

آخر، ولكنه سيختفي من هذه الأرض، وأتمنى من كل قلبي أن يكون ذلك سريعًا وسريعًا جدًّا، على العموم سأسلمه السيف، وسأحدثه بما هو مطلوب مني أن أقوله، وسأنتظر ردَّه، ولكني أصدقك القول بأني لا آمل كثيرًا من هذا اللقاء.

ـ ولا أنا يا «سادلر»، إنه وغد قاتل، عندما كنت أحفر قبر ابن عفيصان تذكرت الرجل وطيبته، فقد كان عمي ووالدي في الوقت نفسه، وكنت أحدثه عما يجول في خاطري، ولا أشعر معه بأي نوع من التحفظ، رحمه الله، لو علم والدي أن ابن عفيصان مات للحق به.

ـ لا تحزن يا بِشر، دعنا نرَ كيف تسير الأمور غدًا، لنذهب لننام الآن.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ «سادلر» مبكرًا ولبس أفضل ما لديه من ثياب، ثم تناول صندوق السيف وأزال عنه الغبار ولمعه، وأخرج السيف ومسحه بقطعة قماش نظيفة، وانتظر حتى يتم استدعاؤه للمقابلة.

جاءه رشوان أغا وطلب منه مرافقته إلى خيمة الباشا التي كانت في منتصف المعسكر، يحيط بها مجموعة مختارة من الحرس الأرناؤوط الأقوياء، وما إن أقبل «سادلر» على الباشا حتى رحب به وطلب منه مشاركته طعام الفطور، نظر «سادلر» إلى المائدة العامرة بكل ما لذَّ وطاب من الطعام وتذكر الجياع الذين كانوا يلاحقون القافلة وهم يشيرون إلى أفواههم، ثم تدارك الأمر بسرعة وابتسم للباشا شاكرًا له الدعوة.

كانت الطاولة التي عليها الطعام تفصل بين الاثنين، ويقف حولهما خادمان أسودان حاملان الخبز الحار الطازج.

تأمل «سادلر» في ملامح الباشا محاولًا فك طلاسم شخصيته، فهو كما بدا له شابٌّ غِرٌّ في بداية الثلاثينيات من العمر، يرتدي زيًّا عسكريًّا تركيًّا

مع بعض التعديلات التي ابتكرها والده على الزي وسماه الزي العسكري المصري.

له لحية خفيفة وشارب مهذب بطريقة مبالغ فيها، وتوحي تعابير وجهه بالقسوة الناعمة، فهو من النوع الذي يبتسم وهو يقتل دون أن يرفَّ له جفن.

ومن الواضح أنه يسيء معاملة ضباطه وخدمه، فهو نزغ الأخلاق غير صبور يعتقد أن العالم يتمحور حوله وحول والده.

سأل الباشا:

ـ قل لي يا كابتن «سادلر»، كيف نجحت في الوصول إلى معسكري من الأحساء؟

ـ إنني لم آتِ من الأحساء يا سيدي، بل أتيت من الهند، فقد كنت مقيمًا هناك مع وحدتي التي نقلت إلى هناك منذ فترة.

ـ الهند؟ الهند؟ أتيت كل هذه المسافة من الهند؟ حسنًا حدثني عن الهند هذه، فأنا أسمع عنها دون أن أراها.

ـ ما الذي تريد أن تعرفه عن الهند يا سيدي؟ إنها بلاد كبيرة متعددة الأعراق والأديان واللغات، فما الذي ترغب في أن أحدثك عنه؟

ـ وهل يعرف الهنود أي شيء عن والدي، مثلًا، محمد علي باشا؟

ـ إن الهنود لا يعرفون أيِ شيء يدور خارج أرضهم، ولكن الحاكم البريطاني في الهند يهديك السلام، وهو الذي حدثني عنكم وعن والدكم كثيرًا.

ـ ها، إذن فالحاكم البريطاني في الهند يعرف عنا!! هذا شيء جميل جدًا،

ولكن قل لي ما أهم المنتجات التي تصدرها الهند؟ قد نجد سبيلًا لنتاجر معها ونجني بعض الأرباح، لقد سمعت أن الهند بلاد غنية، أليس كذلك؟

ـ إنها تصدر كل شيء تقريبًا، ولكن أهم ما تصدر هو البهارات والأخشاب والعطور، وهذه تجارة مزدهرة يا سيدي.

ـ وماذا عن القمح؟ هل يزرعونه هناك؟

فكر «سادلر» بأن هذا الأحمق يسأل أسئلة غير متوقعة:

ـ إنني يا سيدي لست تاجرًا، ولو رغبت في الحصول على معلومات خاصة بالتجارة فأنا على أتم الاستعداد لأوفرها لك بعد أن أرجع إلى المختصين؛ فأنا لا أعرف الإجابات عن أسئلتك هذه، وأرجو أن تسمح لي.

ـ لا بأس، لا بأس، قل لي إذن ماذا جاء بك إلينا؟ هل شاركت معنا في القتال؟

ـ لا يا سيدي، فقد كنت مراقبًا فقط، وقد شاهدت ما فيه الكفاية.

ـ إنك لم تشاهد شيئًا بعد، سأعود قريبًا إلى منطقة آبار علي، فالمنطقة التي حولها تسيطر عليها قبيلة كبيرة، وأنا أنوي أن أصادر كل ممتلكاتهم، وأتوقع أن يحاربوا دفاعًا عنها، ولكني سأسحقهم وأبيدهم على بكرة أبيهم، ولو كنت تود أن ترى قتالًا حقيقيًّا فرافقنا إلى هناك.

لم يكن «سادلر» راغبًا في مجاراة الباشا أكثر من ذلك، وحاول أن يتحدث معه في مواضيع أكثر جدية.

ـ سيدي، إن لديَّ هدية لك من الحاكم البريطاني في الهند، وأود أن أسلمك إيَّاها، بالإضافة إلى أني أرغب في أن أحدثك على انفراد لو سمحت لي بهذا الشرف.

فرك الباشا إصبعيه بعضهما ببعض وأصدر صوتًا ما إن سمعه الخدم حتى وضعوا ما في أيديهم وغادروا بسرعة.

قام «سادلر» من مكانه وتناول الصندوق الذي وضعه على مدخل الخيمة، ووضعه أمام الباشا الذي فتحه على عجل ثم أخرج السيف منه، وأخرج النصل من غمده، ومسح عليه بأصابعه، عمل كل هذا ولم يصدر أي صوت من فمه، بل كانت عيناه جاحظتين وفكه السفلي وقع للأسفل مما جعل ملامحه أقرب للبلاهة، وكان «سادلر» يرى فيه في تلك اللحظة الطفل المدلل الذي وقع على لعبة جميلة لن يتركها أبدًا.

انتظر «سادلر» لحين أن ينتهي الباشا من تأمل السيف وتحريكه واللعب به وتأمل ما كُتب على غمده وصندوقه، وكاد انتظاره يطول لولا دخول أحد الحرس الخاص عليه ليخبره بأنهم بانتظار أمره للتحرك.

أمر الباشا الحارس بمغادرة الخيمة بحركة سريعة من يده، ثم وضع الصندوق على فخذيه، ووضع كلتا يديه عليه.

أخرج «سادلر» الرسالة التي سلمها له الحاكم البريطاني في بومبي والتي طلب منه تسليمها للباشا شخصيًّا، ثم مدها بيده اليمنى إلى الباشا قائلًا له:

ـ إن هذه رسالة الحاكم لكم شخصيًّا، وقد طلب مني أن أضعها في يدكم الكريمة علّها تجد قبولًا من فخامتكم.

فتح الباشا الكتاب، وقرأه بتمعن، وكان «سادلر» يتابع تعابير وجهه محاولًا استشراف قراره بخصوص الكتاب، وبعد أن انتهى الباشا من قراءته، وضعه على الطاولة التي كانت بقربه ولم يقل شيئًا، حينها حاول «سادلر» أن يعرف ما الذي يدور بخلده.

ـ سيدي الباشا، إننا معكم نجابه عدوًّا مشتركًا، ولا بدَّ لنا من القضاء عليه بأي طريقة ممكنة، إن الوهابيين قد توغلوا إلى الساحل الشرقي من الجزيرة العربية، وأصبحت لهم أساطيل تهدد تجارتنا مع بقية العالم، وقد نسقنا مع سلطان عمان على أن نشترك نحن الثلاثة في حملة عسكرية كبيرة لاستئصال شأفتهم، ونحن نريد من فخامتكم الموافقة على هذه الخطة.

لم يُبْدِ الباشا أي اهتمام بما قاله «سادلر»، بل كان يكثر النظر إلى السيف من حين إلى آخر.

ـ أيها الكابتن، أنت تعرف أنني لا أقوم بشيء دون أن أستشير والدي في الأمر، ومخططكم هذا يستوجب الكثير من المال والجنود، وكما ترى، فإن جيوشي قد استُنزفت في هذه المعارك، وأنا أريد أن أرى وجهة نظر والدي في هذا الأمر، لقد كانت لديَّ أوامر واضحة من والدي، وكانت هذه الأوامر تقضي بتحطيم الدرعية وهدمها والقضاء على أي مقاومة فيها وحولها، وقد قمت بذلك على أكمل وجه، وأنا بانتظار تعليمات أخرى.

ـ متى أتوقع ردكم الكريم على رسالة الحاكم يا سيدي؟

ـ عليك أن ترافقني إلى المدينة المنورة حيث هناك عائلتي، ومن ثَمَّ سنتحرك إلى ينبع ومنها نستطيع أن نعرف رد والدي في غضون أيام، فمراكبنا تسير بشكل يومي من ينبع إلى السويس حاملة الرسائل من وإلى المدينتين.

فكر «سادلر» في كل تلك المسافة، فهو الآن في الرسّ في منتصف الجزيرة العربية، والباشا يريد منه أن يذهب معه إلى المدينة، هذه المدينة المقدسة لدى المسلمين والتي سيُحَرَّم عليه دخولها، ومن هناك إلى ميناء ينبع، فقال في نفسه: يا إلهي، إنها لمسافة طويلة حقًّا!

حاول «سادلر» أن يجد مخرجًا من طلب الباشا، فقال له:

ـ سيدي، إنني أرغب في العودة إلى مسقط في أسرع وقت ممكن، ومن هناك عليَّ أن أتوجه إلى الهند حيث ينتظر الحاكم ردي على هذه الزيارة على أحر من الجمر.

كان إبراهيم باشا يمضغ طعامه وهو يتحدث إلى ضيفه:

ـ ولكن العودة إلى مسقط من هنا محفوفة بالمخاطر، فكيف تخطط أن تعود؟

كان «سادلر» يتحدث مع الباشا متفاديًا النظر إلى فمه المملوء:

ـ أفكر أن أغادر من الرسّ إلى دمشق، ومنها إلى بغداد فالبصرة فمسقط، أو قد أذهب إلى البصرة مباشرة إن وجدت من أثق به من القبائل لحمايتي، لست أعلم ما الذي يجب عليَّ فعله حتى الآن يا سيدي، وقد أحتاج إلى دراسة الوضع قبل أن أقرر، ولكني أحتاج إلى ردكم الكريم حتى أحمله معي إلى حيث أنا ذاهب.

ـ ولِمَ العجلة يا كابتن؟ ابقَ معنا واستمتع بالحرب قليلًا، على الأقل رافقني إلى ينبع، ومن هناك تستطيع أن تقرر مسارك، على فكرة أريد أن أهدي الحاكم البريطاني في الهند شيئًا يتذكرني به أيضًا حتى نكون على تواصل.

ـ هذا كرم منكم يا باشا، وسأكون مسرورًا بنقل ما ترونه إلى معالي الحاكم.

وقف الباشا فجأة معلنًا انتهاء المقابلة، ونفض فُتات الخبز عن لباسه ولبس طربوشه، ثم التفت إلى «سادلر» قائلًا:

ـ سأراك في وقت لاحق أيها الكابتن، فلديَّ الكثير من الأمور لأقوم بها الآن.

ثم رفع صوته مناديًا على كبير الخدم الذي حضر راكضًا:

ـ أمرك يا سيدي.

ـ جهز هدية قيمة للحاكم البريطاني في الهند، فنحن نريد أن نرد على كرمه.

ـ السمع والطاعة يا سيدي.

فكر «سادلر» في هذه الهدية التي يجب عليه أن يحافظ عليها حتى يصل إلى الهند مرة أخرى، ومر على رأسه شريط الذكريات منذ أن سُلب منه السيف في البحر وحتى إيصاله إلى الباشا.

عاد «سادلر» إلى خيمة الضيافة التي كان بِشر بانتظاره بها، وحال أن رآه سأله عن المقابلة.

ـ لن تنجح الخطة يا بِشر، إن الباشا يريد أن يستشير والده في مسألة المشاركة معنا، وهو شخصيًّا غير متحمس، ويريد أن يغادر الجزيرة العربية بأسرع وقت ممكن، فجيشه منهك من المعارك التي خاضها خلال الأشهر الماضية، وخطوط إمداده طويلة جدًّا، والأوامر تأتي من القاهرة التي هي بعيدة عن مسرح الأحداث، وهذه الأمور كلها لا تؤدي إلى نتيجة جيدة.

بانت أمارات الارتياح على بِشر، الذي لم يكن يود أن تنجح الخطة:

ـ هذه أخبار جميلة يا «سادلر»، تخيل معي لو أن الباشا وافق على الخطة، فماذا ستكون النتيجة عندئذ؟ ستتحول المنطقة إلى ميدان حرب كبير، وستنتشر المجاعة في أرجاء المعمورة، ألم ترَ كيف كان النساء والأطفال يلحقون قافلتنا طالبين منا بعض الطعام ليسدوا جوعهم؟ ألم ترَ كل تلك

الجثث والدماء والموت؟ لقد اكتفيت من هذه المناظر، ولا أريد أن أراها مرة أخرى يا «سادلر».

نفخ «سادلر» من فمه هواءً كان يكتمه طوال حديث بِشر، فهو يعلم أنه وبِشرًا قد أصبحا صديقين؛ لأنهما يحملان نفس الأفكار والمواجع:

ـ هو لم يوافق عليها بشكل مباشر كما كانت قيادتي تتوقع حال استلامه للسيف وإعجابه به، بل قال إنه سيستشير والده في الأمر، ولا أعلم ما الذي سيكون عليه رد والده، ولكن كما قلت لك إن الكثير من الأمور لا تسير في الاتجاه الصحيح.

ـ دعها كلها تسر في الاتجاه الخطأ يا «سادلر»، اللعنة على الحرب، أنا أعلم أنك عسكري تنفذ أوامر قيادتك، ولكني أعلم أنك لا تود أن ترى ما رأينا منذ أن غادرنا الأحساء، أليس موقفك غريبًا بعض الشيء يا «سادلر»، إن أوامرك العسكرية تدفعك في اتجاه، وقلبك يدفعك في الاتجاه المخالف.

جلس «سادلر» وكأنه شعر بالتعب فجأة، وأسند رأسه بين كفيه:

ـ إن ما تقوله صحيح يا بِشر، ولكن أرجوك لا تغضب مني حين أكون عسكريًّا، فأنا مخلص لقيادتي، وأريد أن أنفذ تعليماتها التي قد تخالف قناعاتي الشخصية، ولن أتردد في عمل أي شيء لإنجاح الخطة.

ـ افعل ما تشاء يا «سادلر»؛ فهذه الأرض ليست أرضك، والبشر الذين يموتون ليسوا أهلك، أنا أفهم ذلك، ومع ذلك سأبقى صديقًا لك حتى تعود إلى ديارك، ولكن عليك أن تفهم أنني لا أريد لهذه الخطة أن تنجح، وسأظهر فرحي لو فشلت، ولكني لن أطعنك في ظهرك، فهذه ليست من أخلاقي، أرجو أن تستوعب ما أقول.

ـ إنني أفهم وجهة نظرك يا صديقي.

في عصر ذلك اليوم دخل كبير خدم الباشا إلى خيمة «سادلر» وحيَّاه بكل احترام، وطلب منه أن يستلم هدية الباشا للحاكم البريطاني في بومبي، قام «سادلر» يتبعه بِشر، ومشيا إلى خارج الخيمة، فشاهدا فرسًا عربيًّا أصيلًا مُسَرَّجًا، كان يمسك به أحد الحرس من لجامه.

بدأ «سادلر» في تفقد الفرس والمسح على وجهه ورقبته مبديًا إعجابه به، وحين وصل إلى السرج لاحظ أنه ممزق من أطرافه وأنه مستخدم من قبل.

نبَّه رئيس الخدم على مسألة السرج قائلًا:

ـ إن هذا السرج قد سبق أن استُخدم، وهو ممزق من بعض أطرافه، إن هذه الهدية لا تليق بالحاكم، أرجوك أعلم الباشا برفضي لاستلام الهدية.

تغيرت ملامح رئيس الخدم؛ فهذه أول مرة يسمع مثل هذا الكلام، وهو لن يحتمل أن يغضب الباشا، فقال في نفسه: كيف يتجرأ هذا الإنجليزي على قول ذلك؟

حاول بِشر أن يقنع «سادلر» بقبول الهدية حتى إن لم تعجبه؛ لأن إغضاب الباشا ليس في مصلحتهم، ولكن «سادلر» أصر على موقفه.

ـ إنه سرج مستخدم، لا أعلم مَن استخدمه من قبل، فكيف آخذه إلى الحاكم؟ وماذا سأقول له؟ إنها إهانة!

لم يحتمل كبير الحرس ما كان يتفوَّه به «سادلر»، فقاد الفرس مبتعدًا به عنهم وتركهم أمام باب الخيمة.

وفي المساء جاء رشوان أغا إلى الخيمة وقد بانت على وجهه أمارات

الغضب، فحاول إقناع «سادلر» مرة أخرى بقبول الهدية، ولكن «سادلر» أصر على موقفه.

لم يبقَ أمام رشوان أغا سوى أن يبلغ الباشا بنفسه، ولكنه قرر أن يتمهل قليلًا علّ «سادلر» يغير رأيه خلال الطريق إلى ينبع.

وفي صباح اليوم التالي كان الباشا برفقة ثلاثمائة من حرسه الخاص يتحركون تجاه الحجاز، وفي مؤخرة القافلة كان «سادلر» وبِشر ومتعب ولم يَبْدُ أنهم مسرورون بالاتجاه غربًا.

## الفصل التاسع والثلاثون

### رأس الخيمة، الساحل الغربي من الخليج

جلس أرحمة بن جابر والشيخ حسن، شيخ القواسم على ساحل البحر، وحولهما مجموعة من الرجال المسلحين، وخلفهما سور رأس الخيمة الذي زُوِّد بأبراج نُصبت عليها المدافع التي صُودرت من السفن، وقد بُني الجدار من الأحجار المرجانية والطين، وبعرض قدره خمس عشرة قدمًا في القاعدة مع تناقص علوي.

وامتدت الجدران المذكورة على هيئة ذراعين تجاه البحر، تنتهي كل منها ببرج كبير يقع على ساحل البحر مباشرة محتضنة في الداخل البلدة التي يسكن فيها نحو عشرة آلاف نسمة.

كان أرحمة يشرب من فنجان القهوة الذي يمده إليه شخص في وسط المجلس من حين إلى آخر يرتشف منه رشفتين فقط وينتهي، ويسلمه له مرة أخرى ليحصل على فنجان آخر، ولم يكن الرجل الذي يصب القهوة ليتجرأ على ترك المجلس حتى ينتهي كل شخص من تسليم فنجانه بأن يهزَّه هزًّا واضحًا لا لبس فيه معلنًا بذلك اكتفاءه.

لم تكن الجلسة في ذلك الوقت رسمية؛ فقد كان أرحمة والشيخ حسن يتحدثان بصوت خافت فيما بينهما، وكان بقية الجلوس الذين كانوا متحزِّمين بأحزمة الرصاص وممسكين بخناجرهم وبسيوفهم يتحدثون فيما بينهم أيضًا.

كان صوت أرحمة هادئًا حين قال:

ـ يا شيخ حسن، إن الإنجليز ليس لهم عهد ولا ذمة، فهل تصدق أننا نتفق اليوم على شيء، ثم يكسرونه في اليوم التالي؟ لقد أغروني مرارًا بأن أكون صديقًا لهم، وأكسر كل اتفاق عقدته معكم، ولكني أرفض دائمًا، وكان آخرها الاتفاق الذي بموجبه طلبت منهم أن يتركوني أحارب أعدائي نظير تركي لهم، ولكنهم خانوا هذا الاتفاق أيضًا، فهل رأيت بَشَرًا لا عهد لهم مثل هؤلاء؟

ـ يا أرحمة، سبق أن حذرتك من التعاون معهم؛ فهؤلاء الكفار لا يخافون الله، وكل شيء عندهم مباح، ونحن في نظرهم لا قيمة لنا، ولو لم نقف في وجههم لفعلوا بنا مثلما فعل البرتغاليون حين قطعوا أنوف وآذان الناس، ألم تسمع لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

ـ لست أفهم سرعة نقضهم لعهودهم واتفاقياتهم، أحيانًا أشعر أنهم يستمتعون بذلك.

ـ ولكن قل لي، أين صاحبك إبراهيم بن عفيصان؟ كنت آمل أن يغير من طباعك ويجعلك أكثر تدينًا، فهو بحق إنسان صالح كما يبدو لي.

أخرج أرحمة زفرة قوية من فمه، ونظر إلى البحر وكأنه ينتظر أن يخرج منه شيء في أي لحظة، ثم قال:

ـ يا شيخ حسن، لقد تركني إبراهيم منذ فترة قائلًا إنه لا بدَّ أن يعود إلى نجد، وإنه لا يستطيع أن يبقى في حين يعيث إبراهيم باشا فسادًا هناك، لقد قرر أن يغادر فجأة، ولا أعلم ما الذي حصل له، أتمنى أن يكون مستمتعًا بحياة هانئة في مزرعته.

ـ حسنًا فعل بمغادرته، فما كنت أريد له أن يبقى معك فترة طويلة، فأنت يا أرحمة لا هدف لك سوى محاربة آل خليفة، مع أن هؤلاء أبناء عمومتك، ولست أفهم رغبتك في الموت في سبيل تحقيق هدف ليس له معنى، لماذا لا تشترك معنا في محاربة أعداء الله من الكافرين المحتلين بلادنا؟ على الأقل ستذهب إلى الجنة حين تموت شهيدًا. (ثم ضحك الشيخ حسن منتظرًا تأثير حديثه على أرحمة.)

ـ كأنك تكرر قول ابن عفيصان يا شيخ، لقد كان يقول لي دائمًا ما تقوله لي الآن، ولكنه قدر قدره الله لي، ولا بد لي من إكماله، أما الموت، فأنا لا أخاف منه أبدًا، فقد بلغت السبعين من عمري على ما أعتقد أو ربما أكثر، فعندما وُلدت لم يحسب أحد متى كان ذلك، ولكني أقارن نفسي بمن هم في سني، وبالأمراض التي نشترك في معاناتها والتي لا تظهر سوى في السبعين.

تغيرت ملامح الشيخ حسن فجأة، وكأنه شاهد شبحًا، ثم نظر إلى أرحمة وسأله:

ـ قل لي يا أرحمة، ما أخبار صاحبك «لوخ»؟ لم أسمع له حسًّا منذ أن هزمناه في آخر معركة، هل قابلته بعد الهزيمة؟

ـ نعم قابلته، وهو كالأسد الجريح الآن، بانتظار أن يثأر من هزيمته، وأعتقد أنه سيقوم بعمل ما ضدكم قريبًا، فكونوا على حذر، إن مهمته، كما

يحب أن يعلن لكل من يقابل، هي أن ينظف البحر من القراصنة، الذين هم أنا وأنتم يا شيخ، هل تصدق ذلك؟

ـ نحن لسنا قراصنة يا أرحمة، نحن مجاهدون ندافع عن ديارنا وأهلنا في وجه الغزاة، فنحن الذين نعتبرهم قراصنة وقتلة.

بعيدًا عن رأس الخيمة وعلى خط الأفق، كان هناك أسطول من السفن الحربية قادمًا تجاه الساحل، كانت السفينة «إيدن» رأس حربة هذا الأسطول، ترافقها سفينتان حربيتان هما سفينة صاحب الجلالة «لفربول» وسفينة صاحب الجلالة «كرلو»، بالإضافة إلى تسع سفن حربية أصغر حجمًا تابعة لشركة الهند الشرقية ومجموعة سفن أخرى للنقل، بالإضافة إلى أسطول سلطان مسقط وقواته البرية.

تحمل السفن بمجملها ثلاثة آلاف محارب؛ نصفهم من البريطانيين الذين تم نقلهم من الفرقتين السابعة والأربعين والخامسة والستين بالإضافة إلى فصيل مدفعي، فقد كانت هذه الحملة أكبر حملة في تاريخ الخليج.

وعلى ظهر السفينة «إيدن» كان «لوخ» واقفًا أمام مجموعة من الضباط، وقد لبس عُدَّته الحربية، وتوشح سيفه، وشعر أنه على وشك إنهاء مهمته التي جاء من أجلها والتي ستضيف إلى سمعته العسكرية هالة رائعة، حاول بأسلوب مسرحي أن يشرح للضباط الواقفين أمامه تفاصيل العملية العسكرية:

ـ إن رأس الخيمة من أكثر مدن الخليج تحصينًا، ولو انتهينا منها فإننا سننتهي من مهمتنا في هذه المنطقة، دعوني أشرح لكم المزيد على هذه الخريطة. (ثم التفت إلى خريطة منشورة خلفه، وأشار بعصا صغيرة يحملها.) تقع مدينة رأس الخيمة على لسان برِّيٍّ ممتد من البر موازٍ للساحل تجاه الشمال الشرقي، يبلغ طوله نحو خمسة أميال وعرضه نحو ميل واحد، يحدُّ

هذا اللسان البحر من جهة، ومن جهته الأخرى خور صغير يصلح لرُسُوِّ السفن العربية فقط؛ لأن الجزء الغاطس منها صغير، وفي حالة الجزر ينخفض مستوى البحر في الخور إلى نحو ثلاث أقدام، وتبقى بعض الممرات البحرية التي يعرفها الملاحون لاستخدامها للدخول والخروج.

إن المدافع المنصوبة على أبراج السور تمنع أي سفينة من الوصول إلى الخور أو الدخول إليه، ولكنها على حسب علمنا مدافع قديمة تم الاستيلاء عليها منذ سنوات عدة، ولم تتم صيانتها منذ ذلك الحين، ونحن نتوقع أن يكون الصدأ قد أكلها وأخرجها من الخدمة.

أما الذخيرة فهم لا يملكون منها الكثير، ولا نتوقع أن تكون المعركة معهم طويلة، وخطتنا ستكون كالتالي..

أشار إلى ضباطه للاقتراب أكثر، ثم نزع الخريطة، ووضعها على طاولة كبيرة، وقال:

ـ سنقترب من رأس الخيمة قدر المستطاع، ثم نقصف السور والمدافع التي عليه، ونتوقع أن يكون ردهم ضعيفًا، وفي حال تمكننا من هدم السور وتحطيم المدافع فإن المدينة ستكون تحت رحمتنا، فستدخل السفينة «لفربول» إلى مدخل الخور مواجهة لبوابة المدينة حتى تغلق الخور وتمنع دخول وخروج السفن التي ستكون حبيسة هناك، أما السفينة «كرلو» فسترسو على ساحل البحر مقابل المدينة منعًا لدخول أي مساعدات بحرية من أسطول القراصنة الذي في البحر.

حرك العصا التي بيده وضرب بها اليد الأخرى، ثم وضع طرفها على امتداد الساحل بعيدًا عن مرسى السفينة «كرلو» وقال:

ـ سينزل الجنود في هذه النقطة ويحاصرون المدينة من الجهة البرية، وعلى ذلك سنُحكم الحصار على المدينة من كل الجهات: الشمال السفينة

«لفربول»، الغرب السفينة «كرلو»، الجنوب جنود المشاة، الشرق الخور البحري الذي سيكون مصيدة لمن أراد منهم الهروب.. هل كلامي واضح أيها السادة؟ من لديه سؤال فليسأل الآن.

خيَّم الصمت على الجميع، فقد كان الضباط يعلمون أن التخطيط النظري يختلف عن الواقع، وأن كل ما يقوله القبطان «لوخ» قد لا يتحقق على أرض الواقع حين يبدأ القصف ويكثر القتل، وأي شيء غير متوقع قد يغير كل الخطط وينسفها من أساسها.

بعيدًا وفي ميناء رأس الخيمة كان ضرار يتحدث مع أحد البحارة الذي كان قادمًا من المدينة مُحَمَّلًا ببعض المؤونة التي يحتاج إليها البحارة، حين طلب منه أحدهم أن ينظر إلى خط الأفق.

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الزوال، والجو منعش وبارد؛ فاليوم هو ٣٠ من نوفمبر، وفي هذا الوقت يتوقع الناس في المنطقة هطول الأمطار وانتعاش الأرض، وتحسن الحياة، وعندما طلب البحار من ضرار أن ينظر إلى خط الأفق كان ضرار يتوقع أن يرى سحبًا قادمة تحمل بشارة السماء، ولكنه لم يرَ شيئًا، فقد كانت السماء صافية، وقبل أن يفتح لسانه ليسأل البحار عن الذي جذب انتباهه، شاهد هذا العدد الهائل من السفن المتجهة إليهم، فصرخ في بحارته طالبًا منهم أن ينشروا الأشرعة، ويخرجوا من الخور، كان أمر ضرار هستيريًا، فلم يتجرأ أحد من البحارة على سؤاله عن السبب، ولكن أحدهم سأل عن سبب ترك أرحمة في المدينة والمغادرة دون إذنه، لم يرد ضرار على استفساره، وصرخ فيهم لرفع المرساة ونشر الأشرعة والمغادرة بأسرع ما يمكن.

من مجلسهم على الساحل شاهد أرحمة سفينته الغطروشة تغادر بسرعة خارجة من الخور إلى البحر المفتوح متجهة إلى الجنوب الغربي محاذية

للساحل، فطلب من الشيخ حسن أن يعطيه منظارًا، فأمر الشيخ حسن أحد رجاله بأن يرمي المنظار إلى أرحمة. نظر أرحمة إلى سفينته، وشاهد ضرارًا وهو يلوِّح إليه بيده ويشير إلى البحر، وجه أرحمة المنظار تجاه البحر، وشاهد الأسطول القادم تجاه رأس الخيمة.

ناول أرحمة المنظار إلى الشيخ حسن، وطلب منه أن يشاهد خط الأفق، فقد كانت السفن تظهر كنقاط واضحة بالعين المجردة حينها، نظر الشيخ حسن إلى كل تلك السفن القادمة، وعلم أنه الثأر الذي تحدث عنه أرحمة منذ قليل، فتمتم بصوت غير واضح:

ـ الله أكبر.

كان الرجال حينها قد وقفوا على أقدامهم يتأملون الموت القادم من بعيد، فصرخ فيهم الشيخ حسن:

ـ اذهبوا إلى مواقعكم واستعدوا للقتال، وأبلغوا الأهالي بما شاهدتم، وليحمل السلاح كل من يستطيع منهم.

ركض الرجال بكل اتجاه، وتفرقوا وهم يصرخون بأهازيج القتال التي تمدهم بالحماس وتدفعهم للتضحية، ولم يبقَ سوى أرحمة والشيخ حسن.

سأل أرحمة:

ـ ما الذي تنوي فعله يا شيخ حسن؟ إن القوم قد أتوك بكل عددهم وعُدَّتهم، وأقترح أن تتفاوض معهم؛ فلا قِبَل لك بمحاربتهم.

ـ هذا هو الفرق بيني وبينك يا أرحمة، أنا أبحث عن القتال، وأنت تفر منه، وعلى ماذا أفاوضهم؟ لقد حضروا إلى أرضنا، وسنحاربهم بكل ما استطعنا حتى نقضي عليهم أو يقضون علينا.

ـ يا شيخ حسن، إن قررت القتال فسيكون هناك الكثير من القتلى والجرحى والدمار، فدعنا نتحدث معهم، أنا أعرف القبطان «لوخ»، وقد نصل إلى حل يُرضي الطرفين.

ـ حسنًا، دعنا نتمنَّ أن يطالبوا هم بالتفاوض، فمن يأتي بكل هذا الحشد لا يريد أن يتفاوض بالتأكيد.

اقترب الأسطول من رأس الخيمة بحلول العصر، وتحصن رجال الشيخ حسن فوق السور وعلى الأبراج وفي بساتين النخيل القريبة من المدينة، وحاولت بعض السفن العربية الخروج من الخور، ولكنها كانت متأخرة؛ فقد اقتربت سفن الأسطول كثيرًا إلى درجة أنها بدأت في قصف السور بشكل مكثف، واقتربت السفينة «لفربول» من مدخل الخور، وفتحت مدافعها النار على السفن التي حاولت الخروج، فدَّمرت اثنتين منها، وعادت البقية إلى داخل الخور مرة أخرى طلبًا للحماية.

وجهت السفن مدافعها بكل قسوة إلى الجدار وحطمت أبراجه، وقتلت الكثير من المدافعين، ومع الليل تمت محاصرة رأس الخيمة على حسب المخطط الموضوع، وبقيت طلقات قناصة الطرفين تحكم الجبهات جميعها لحين طلوع الشمس.

من حسن حظ ضرار أنه قاد الغطروشة بعيدًا عن ساحة المعركة، وتجاوز خط إنزال القوات البرية، وبقي في مخبأ صغير إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وبقي يراقب المعركة حتى هبوط الليل، أمّا الآن، وقد نزلت القوات البرية من السفن لتكون حاجزًا بينه وبين المدينة، فقد شعر بعجزه عن فعل شيء وبقي في السفينة يراقب الوضع من بعيد.

طوال الليل كان الشيخ حسن وأرحمة في مخبئهما في أحد المنازل

المطلة على ساحل البحر برفقة بعض رجال الشيخ الذين كانوا يراقبون الساحل توقعًا لأي إنزال، وليس لهم علم بأن الإنزال تم جنوبهم دون أن يشعروا به، وأنهم بالفعل تحت حصار قاسٍ فصلهم عن العالم الخارجي.

ظهر لهم من بعيد زورق صغير تم إنزاله من السفينة «لفربول» يحمل ضابطًا وثلاثة جنود مسلحين رافعين راية بيضاء، علم الشيخ حسن أنهم يريدون التفاوض معه، فاستشار أرحمة في ذلك.

ـ نعم يا شيخ حسن، إن عددهم كثير وأنا أنصحك بالتفاوض معهم، فنحن لا نعلم ما الذي حصل طوال الليل، وما نشاهده الآن هو هذه السفينة التي تغلق مدخل الخور، وتلك التي ترمي حمَمَها علينا من البحر، ولكن عدد السفن كثير، وهم لم يأتوا ليضعوا هاتين السفينتين هنا ثم يغادروا، أعتقد أن لديهم خطة أعقد من هذه، ولكن نصيحتي ألا تخبرهم أنني هنا، فسيصبح القبطان «لوخ» أسعد رجل في العالم، وسيشعر أنه حاصر ألد أعدائه، أنا وأنت يا شيخ حسن، فدعه يعتقد أنني نفذت بجلدي.

# الفصل الأربعون

## قافلة إبراهيم باشا المتوجهة إلى المدينة المنورة

مرت القافلة بجبال صخرية جرداء، ووديان قاحلة، وصحارٍ جافَّة، وكانوا من حين إلى آخر يشاهدون من يراقبهم من على قمم الجبال، ولكن لم تحصل أي مصادمات مع بدو تلك المناطق.

لقد كان حرس القافلة متحفزين لكل حركة، ويحيطون بالباشا إحاطة تامة.

وصلت القافلة إلى ضواحي المدينة المنورة، ودخلت معسكرًا سبق تجهيزه للباشا، ولاحظ «سادلر» وجود أعداد هائلة من الخيول الكريمة والأصيلة التي جُمعت على عجل، فسأل رشوان أغا عنها.

ـ إنها خيول الباشا، وسينقلها معه إلى مصر؛ فهو يهوى تربية الخيول.

كانت الخيول من الكثرة بحيث إنها سببت عاصفة من الغبار في أثناء حركتها وركضها، فحاول رشوان أغا الابتعاد قدر الإمكان عن عاصفة الرمال، فوجدها بِشر فرصة ليشرح لـ«سادلر» حقيقتها:

ـ إنها خيول مسروقة ومصادرة من أصحابها؛ فالجيش لديه تعليمات بسرقة كل الخيول الكريمة لصالح الباشا.

حاول متعب المشاركة في الحديث؛ فهو لم يجد من يتحدث معه سوى خادم «سادلر» الفارسي الذي كان مهتمًّا بالطبخ والعفش أكثر منه من أي شيء آخر:

ـ يقولون إن الباشا لم يترك فرسًا كريمًا في الحجاز ونجد، لقد أرسل كل خيل وقعت عليها عيناه أو يداه إلى مصر، ولو بقي الحال هكذا فترة طويلة، فإن الناس هنا سينسون شكل الخيول إلى يوم القيامة.

حال استقرار المجموعة في المعسكر، استأذن بِشر ومتعب من «سادلر» للذهاب إلى المسجد النبوي لزيارة قبر الرسول ﷺ، أما الخادم فقد كان ينوي زيارة مقبرة البقيع التي دُفن بها بعض الصحابة الذين يُجِلُّهم.

تفرق الجميع، وبقي «سادلر» وحدَه، حينها جاءه رشوان أغا مرة أخرى طالبًا منه إعادة النظر في قراره بخصوص قبول الهدية التي يريد الباشا إرسالها إلى الحاكم البريطاني في بومبي:

ـ ألن تعيد النظر في قرارك يا كابتن «سادلر»؟ إنني متردد في إعلام الباشا برفضك؛ لأني أعلم أنه سيغضب منك غضبًا شديدًا.

ـ إنني مُصِرٌّ يا سيدي، فليغضب مني هو خير من أن يغضب مني الحاكم، لقد حضرت إلى الباشا محاولًا إقناعه بالدخول معنا في حلف ضد الوهابيين، وكنت أتوقع أن يتجه شرقًا بعد أن أعرض عليه تفاصيل الحلف، ولكنه أصر على الاتجاه غربًا وسؤال والده قبل أن يقرر، ومن الواضح أن مهمتي قد فشلت، ولم يبقَ لي سوى أن أخطط للعودة إلى الهند.

أخرج رشوان أغا زفيرًا من صدره قبل أن يقول:

- لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، سأخبر الباشا بقرارك النهائي، وأتمنى من كل قلبي أن يتفهم وجهة نظرك.

وقبل أن يقوم الأغا من مجلسه سأله «سادلر»:

- ولكن، لماذا يأخذ الباشا كل هذه الخيول معه إلى القاهرة؟ لقد قيل لي إنه أفرغ نجد والحجاز من الخيول الكريمة، حتى إنها تباع بسعر خيالي هذه الأيام.

- إن الباشا مولع بالخيول يا كابتن، وهو ينقلها عن طريق البحر إلى السويس ومنها إلى القاهرة، وقد رأيت كيف تموت في الطريق أو في أثناء النقل بحرًا، إنها عملية صعبة ولكنها رغبة الباشا.

وفي المساء عاد بِشر ومتعب من زيارة الرسول ﷺ، وبدآ في الحديث عن المسجد النبوي وازدحام الناس على القبر وكثرة المتسولين في الشوارع، فكان أن رغب «سادلر» في دخول المدينة ولكنه كان مترددًا، فما الذي سيحدث له لو تم اكتشافه متخفيًا؟ تساءل هل من الحكمة أن يدخل ويشاهد بأم عينه ما هو ممنوع على غير المسلمين دخوله.

سأل بِشر هل يستطيع أن يرافقه إلى داخل المدينة لمشاهدة معالمها، تردد بِشر فقد يكون الوضع خطيرًا عليهما، ولكن متعبًا لم يمانع، فكما قال، هناك الكثير من الشقر الذين يأتون من بلاد بعيدة لزيارة الرسول، وسيكون «سادلر» واحدًا منهم.

لم يرحب بِشر بهذه الفكرة وقال:

- إنها فكرة غبية، ولماذا تدخل المدينة إذ كانت مُحَرَّمة على غير المسلمين يا «سادلر»؟

ـ أريد أن أرى القبر والمسجد اللذين تتحدثان عنهما.

ـ لا.. لا.. لا، أنا لن أتحمل المسؤولية، ولا أنصح بذلك أبدًا.

لم يرغب «سادلر» في إثارة غضب بِشر أكثر من ذلك، فسكت محاولًا إيجاد أفضل وسيلة للذهاب دون أن يلفت النظر إليه.

وفي عصر ذلك اليوم، أمسك بمتعب من كتفه وأخذه إلى خارج الخيمة، وأسرَّ إليه برغبته في الذهاب إلى داخل المدينة.

ـ أقترح أن تلبس ما يلبسه الأتراك عادة في مثل هذه الأحوال، وأن تلف على رأسك عمامة، وسأعلمك بعض الكلمات التي قد تحتاج إليها فيما لو سألنا أحدهم عن جنسيتنا.

جلس متعب مع «سادلر» وعلمه كيف يقول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وما معناها، ثم علمه كيفية الوضوء والصلاة، وعندما اعتقد متعب أن ما لدى «سادلر» من معلومات يكفي لأن يخرجهما من أي مأزق قد يصادفانه، قرر أن الوقت قد حان للمغادرة إلى المدينة.

تردد «سادلر» حين شعر أن القضية معقدة، وأنه قد يكون في مأزق كبير فيما لو اكتُشف أمره، فقرر جمع معلومات عنها وتدوين ما يستطيع، وفي المساء كتب ما يلي:

«أستطيع إعطاء وصف ناقص عن المدينة المنورة، حيث لا يسمح لغير المسلمين بدخولها، مع ذلك استطعت أن أجمع بعض المعلومات عنها.

المدينة تقع وسط سلسلة من الجبال العارية، وقد بُنيت من الطين والجص والحجارة، وكُسيت منازلها بالجبس الذي جعل لها أُبَّهَة في الفضاء الواسع حولها.

هناك ثلاثة أبواب للمدينة: أولها باب الشام، وتقع المدينة بداخله، ويتم رفع العلم الأخضر عليه كل يوم جمعة قُرب المدافع المنصوبة عليه، أما الباب الثاني فهو باب مصر، والثالث باب الجمان، وقد نصبت ثلاثة مدافع صغيرة على كل واحد منهما.

يتم رفع العلم الأحمر على البابين الأخيرين في الاحتفالات العادية، وتوجد مزارع للرمان والتين والخضراوات، وبساتين النخيل في مناطق عديدة من المدينة، وتصل إليها المياه عن طريق العيون الزرقاء إلى جانب بعض الآبار الأخرى.

ويوجد في المدينة قبر النبي وقبر ابنته فاطمة، وقبرا صاحبيه أبي بكر وعمر، وتحتوي المدينة على جامعين كبيرين وبها قاضٍ ومفتيان، الأول حنفي والآخر شافعي.

وفي المدينة ثلاثون مدرسة لتعليم الصغار، وقد تم تخصيص ستمائة كيس من المال لصيانة وإعمار المباني المقدسة، ويبدو لي أن الصيانة الدائمة قد أدت إلى اختفاء المباني الأصلية عدا ضريح النبي الذي بقي على حالته الأولى، ويعتمد أهالي المدينة على المبالغ المالية المقدمة من الناس الراغبين في تأدية الحج.

وبالطبع يكون الحجيج مصدرًا ماليًّا مهمًّا لأهل المدينة بالإضافة إلى الأموال المرسلة من قِبَل العالم الإسلامي للفقراء.

والغريب في الأمر أن يشتري الناس الماء في المدينة رغم الوفرة وبكميات كبيرة، وكذلك دفع مبالغ مقابل زيارة الأضرحة. وتوزع هذه المبالغ التي يتم تحصيلها وبنسب معينة بعد وصول الحجيج، ولا يدفع سكان المدينة أي ضرائب.

لقد تم إحصاء مساكن المدينة في الفترة الأخيرة، وكان إجمالي العدد ستة آلاف، نصفها مهدم ومهجور، ويبلغ عدد السكان ثمانية آلاف.

في الشمال من المدينة توجد بساتين النخيل، حيث تقيم أعداد كبيرة من السكان هناك، وفي المنطقة الغربية من آبار علي توجد قرى مهدمة ومزارع في الوادي تمتد إلى سفوح الجبال في المناطق الجنوبية الغربية».

انتهى «سادلر» من كتابة ملاحظاته عن المدينة، وحمد الله على أنه لم يقم بما كان ينوي القيام به، فهو يتوقع غضبًا قادمًا من الباشا بسبب رفضه هديته، ولم يكن يريد أن يدخل في مشكلة أخرى قد لا يجد من يخرجه منها.

وفي المساء جاءه خادمه الفارسي وأخبره برغبته في البقاء في المدينة؛ لأنه تعرف على مجموعة من الحجاج الفرس الذين يريد البقاء معهم.

لم يتردد «سادلر» في الموافقة؛ فالخادم الفارسي لم يكن له دور يذكر في المجموعة سوى في بعض الأعمال الهامشية، وتحقيق رغبته في البقاء قد توفر على المجموعة حمل المزيد من الطعام والماء خلال الرحلة.

احتضن «سادلر» خادمه الفارسي طالبًا منه العناية بنفسه والحرص، ثم افترقا.

في اليوم التالي حضر رشوان أغا وعلى وجهه علامات الحزن، فبعد أن أخبر الباشا برفض «سادلر» أخذ الهدية غضب غضبًا شديدًا، وطلب الباشا أن يترك «سادلر» المعسكر إلى غير رجعة، وعليه ألا يتوقع أي رد منه على الاتفاقية.

طلب رشوان أغا من «سادلر» أن يغادر هو ومجموعته المعسكر بأسرع

وقت ممكن؛ لأنهم لن يكونوا بمأمن لو علم الجيش أن الباشا قد غضب عليهم.

وفي صباح اليوم التالي كانت قافلة «سادلر» الصغيرة على أتم الاستعداد لمغادرة المعسكر قبل أن ينتشر الخبر، ومع بزوغ الشمس، كان «سادلر» وبِشر في المقدمة يتبعهم متعب يسيرون غربًا.

## الفصل الحادي والأربعون

### رأس الخيمة، الساحل الغربي للخليج

خرج الشيخ حسن وثلاثة من حراسه أيضًا لمقابلة الرسول، كانت أنظار المحاربين من الطرفين تراقب ما يحدث من بعيد، شاهدوا الفريقين، وهم يتحدثون، وتركوا لخيالهم العنان لتحديد ما الذي يدور بين الفريقين، جثا الرسول والشيخ حسن على الأرض، ورسم الضابط البريطاني بعض الخطوط على الرمل، والشيخ حسن ومرافقوه يراقبون ذلك، وبعدها قام الشيخ وهزَّ رأسه ورجع إلى المدينة.

وعندما وصل إلى مخبئه، كان وجهه متجهمًا وغاضبًا، فاجتمع إليه رجاله ليسألوه عن نتيجة اللقاء، انتظر حتى شاهد أرحمة، حينها قال:

ـ إن كلامك صحيح، لقد حاصرونا من كل الجهات، ويجب أن نقرر إن كنا نريد القتال أو الاستسلام، لقد أغلقوا الجنوب بقوات برية، ولن نستطيع أن نطلب أي مساعدة من الخارج؛ لأن سفنهم عطَّلت الملاحة في الخور، ونحن الآن وحدَنا ليس معنا إلا الله، فقرروا معي، لن أتخذ قرارًا بمفردي اليوم، لقد أمهلونا إلى صباح الغد.

برز أحد الشباب من بين المجتمعين وطلب الإذن بالحديث، وحين أذن له الشيخ قال:

ـ لقد أمرنا الله بالجهاد دفاعًا عن النفس والأهل والمال، ولست أرى مفرًّا منه، فما الذي يمنعنا عن الجهاد؟ نحن لم نذهب إليهم، بل هم أتوا إلينا، ولو لم نقاتل فسيحتلون أرضنا ويستبيحون دماءنا وأموالنا، وبما أن الخيار بين الموت والذل، فإني أختار الموت، وأعتقد أن الكثيرين يختارونه مثلي.

التفت الشيخ إلى أرحمة:

ـ ما الذي تريد أن تقوله يا أرحمة؟ إن رأيك يهمنا بما أنك أصبحت واحدًا منا الآن.

ـ يا شيخ حسن، ما زلت عند رأيي، فدعنا نتفاوض معهم على الاستسلام، فقد نخرج بشيء من هذا الحصار؛ لأننا لو حاربنا وانهزمنا، وهذا ما أعتقده، فإننا سنصبح أسرى لهم يفعلون بنا ما يشاؤون.

رد الشيخ بقوله:

ـ اذهبوا الآن ودعوني أفكر، والله المستعان على أمر كهذا.

كان ضرار من بعيد يراقب بمنظاره، ولم يكن يحتمل أن يبقى معزولًا عن سيده، وفي عصر اليوم نفسه، جمع بعض بحارته الذين بقوا على ظهر الغطروشة وسألهم هل يريدون أن يعودوا إلى المدينة، ولكنه حذرهم من أن الأعداء قد نزلوا إلى الساحل وأصبحوا حاجزًا بينهم وبين المدينة، وعليهم أن ينتظروا إلى الليل حتى يحاولوا التسلل برًّا إليها.

وافق خمسة من بحارته على القيام بالمهمة، وشرح لهم أن العملية خطرة جدًّا؛ فالجنود على الأُهْبَة، والموت لن يكون بعيدًا عن المشاركين

في العملية، ولكنهم أصروا على تنفيذها؛ فولاؤهم لسيدهم أرحمة ليس له حدود.

في الليل، نزل ضرار وخمسة من محاربيه من السفينة إلى الساحل، خلعوا ملابسهم ولم يبقَ على كل واحد منهم سوى إزاره الذي يغطي به عورته، وتحزموا بأحزمة الرصاص، وربطوا خلف ظهورهم صُرُرًا حملت بعض الطعام والماء، ثم ودعوا بعضهم بعضًا، وتعاهدوا على الموت، وتحركوا بخفة إلى الشمال بمحاذاة الساحل.

بإشارة من يده أمر ضرار مجموعته بالنزول إلى الأرض والزحف على بطونهم؛ فقد شاهد ضوء معسكر الأعداء وسمع أصواتهم، زحفت المجموعة بكل هدوء إلى أقرب مكان استطاعوا الوصول إليه دون أن يشعر بهم أحد، فأخرج ضرار سكينه وعمل الباقون مثله، وأشار إلى مجموعته لينتبهوا إليه، فوضع سكينه على رقبته ووضع كفه الأخرى على فمه، فعَلِم أصحابه أنه يطلب منهم أن يطعنوا الجنود في رقابهم حتى يمنعوهم من الصراخ طلبًا للنجدة، ثم رفع يده بحيث يستطيع البقية رؤيتها، وحين أنزلها بسرعة انطلقت المجموعة كالبرق تجاه الجنود وما هي سوى لحظات حتى كان الجنود قد سقطوا على الأرض، وهم يرتجفون في نزع الموت بعد أن ضُرب كل واحد منهم بطعنة في رقبته وتُرِك لينزف حتى الموت.

استولت مجموعة ضرار على أسلحة الجنود القتلى، ثم زحفوا إلى مجموعة أخرى من الجنود في محاولة يائسة لشق طريقهم إلى المدينة المحاصرة، وعندما وصلوا إلى المجموعة الثانية شعر بهم أحد الجنود، فأطلق النار في الهواء لتحذير البقية، فردت مجموعة ضرار على الرصاص، وبدأت معركة غير متكافئة بين الأسطول والمجموعة الصغيرة التي يقودها ضرار.

سمعت السفن المرابطة على الساحل صوت أزيز الرصاص ففتحت مدافعها على المدينة غير منتظرة الأوامر، وبدأت القذائف تنصب على المدينة المحاصرة من كل الجهات، فتهدمت المنازل وتحطم السور وكثر القتلى، حينها نظر الشيخ حسن إلى أرحمة وعيناه محمرتان غضبًا وسأله:

- ما الذي استجد يا أرحمة؟ أليست المهلة إلى يوم غد؟ لعنة الله عليهم، إنهم فعلًا لا يرقبون فينا إلًّا ولا ذمة.

حاول أرحمة أن يغطي رأسه بيده ليقيه من الحجارة المتناثرة من جرَّاء الانفجارات، فقد كانت الانفجارات لا تتوقف، والغبار يملأ المكان، والصراخ يصم الآذان، وعويل الأطفال يزيد من حنق المقاتلين، ولم يعد أرحمة يسمع سوى دعاء المتضرعين وأنين الجرحى، فرفع رأسه قليلًا ليشاهد الشيخ حسن ويتأكد من أنه ما زال قطعة واحدة، شعر الشيخ حسن بنظرات أرحمة فرفع رأسه ببطء؛ فقد كانت عيناه مليئة بالغبار، ووجهه قد استحال أبيض، ولم يعرف أرحمة أكان هذا البياض من الغبار أم من الحنق والغيظ والقهر، فقد كان الشيخ حسن حريصًا على أرواح قومه، وما كان ليسمح بأن يتعرضوا لمثل هذا القصف غير المبرر، وقد شعر أرحمة بذلك حين كان الشيخ يسأله عن رأيه في كل مرة علانية أمام الناس حتى يسمع المتحمسون منهم أن الحرب موت ودمار، ولكن الإنجليز كعادتهم كسروا هذا الاتفاق، وباشروا القصف، وهم يعلمون أن المدينة مليئة بالنساء والأطفال والشيوخ.

- ماذا قلت لك يا أرحمة؟ إنهم قوم لا يخافون الله، وهم يدفعوننا دفعًا لأن نكون أعداءهم إلى الأبد، قاتلهم الله.

فجأة انفجرت قذيفة بالقرب من مخبأ الشيخ حسن، فتحطم جانب

من الجدار، وانكشف جزء كبير منَ المخبأ، وأصبح الوضع غير آمن لمن هم فيه.

لغم الشيخ حسن بندقيته وتبعه الجميع بمن فيهم أرحمة، ثم زحفوا على بطونهم إلى مرتفع رملي قريب من الساحل استعدادًا لأي إنزال متوقع، فجأة توقف القصف المدفعي، وبقيت أصوات إطلاق الرصاص التي كانت تأتي من جنوب المدينة، فسأل أرحمة الشيخ عن عدد رجاله المتمركزين في جنوب المدينة، قال الشيخ إن عددهم قليل جدًّا، لا يتجاوز العشرة، وهم هناك تحسبًا لأي طارئ فقط، وأعتقد أنهم اشتبكوا مع قوة إنزال الآن.

وفي الجهة الجنوبية كان ضرار ومجموعته يردون على إطلاق الرصاص الكثيف القادم إليهم من الجنود المرابطين هناك، وكانت صَلَيَات الرصاص كالمطر المنهمر عليهم، ولكن رجال أرحمة الخمسة كانوا متمرسين بالقتال، ويحسنون إطلاق الرصاص، ولا يسرفون فيه، فأردوا عددًا كبيرًا من الجنود قتلى قبل أن يخسروا أحد رفاقهم برصاصة أصابت رأسه، ثم الثاني حين أصابت رصاصة صدره بالقرب من القلب، فبقي يتأوه ساعات قبل أن يلفظ أنفاسه.

استمر القتال في المدينة مدة يومين دون توقف، بعدها قرر الشيخ حسن أن يخلي المدينة من النساء والأطفال والشيوخ عن طريق الخور حين يأتي وقت الجزر ليلًا، فأرسل أحد أتباعه حتى يُعْلِم الأهالي بقرار الشيخ ويستعد الجميع عدا المقاتلين لإخلاء المدينة.

كان عرض الخور نحو كيلومترين من الماء الضحل والأرض الطينية، وحالما أعطى أحد رجال الشيخ حسن الإشارة تحركت قافلة طويلة من البؤساء تجاه البحر، نساء جرحى وأطفال مقطوعو الأوصال وشيوخ

على بغال وحمير وخيول، قافلة حزينة تتبعها الموسيقى المصاحبة لها في مثل هذه الحالات، أنين وصراخ وبكاء، تسير تجاه البحر، وكأنها أعلنت الحرب على الدنيا فآثرت الموت بإلقاء نفسها في البحر، امتدت هذه القافلة مئات الأمتار يتبع بعضها بعضًا، نسي كل منهم آلام الآخرين، وركز على جرحه وبؤسه وألمه، فطبيعة النفس البشرية أن ترسم دائرة اهتمامها واسعة باتساع قلب المرء، ثم تضيق هذه الدائرة مع كل بؤس ومصيبة حتى لا يبقى سوى النفس والذات والروح، وهذا ما حصل مع هذه القافلة التي فقد كل فرد فيها الكثير ولم يبقَ لهم سوى النجاة بأرواحهم وبأنفسهم.

كان الهلال كبيرًا وواضحًا، رسم بنوره لوحة بانورامية لموكب الموت هذا، موكب كاد يتكرر في كل مرة يكون هناك اقتتال بين البشر، بدأ هذا الموكب باجتياز بني إسرائيل البحر هربًا من فرعون، ولا يعلم أحد أبدًا متى سينتهي.

من بعيد شاهد القبطان «لوخ» موكب الموت هذا بمنظاره، وطلب من ضباطه أن يشاهدوه أيضًا، فهو أمر لا يتكرر كثيرًا، ثم استدعى مساعده وسأله عن آخر التطورات في الساحة.

- إن هناك مجموعة من المقاتلين في جنوب المدينة يحاولون على ما يبدو الدخول إليها أو فك الحصار عنها، أما بالنسبة إلى الجبهات الأخرى حول المدينة فهي هادئة حتى الآن، ولم نشاهد أي حركة سوى ما كنت تراه من قليل يا سيدي، فهذا الموكب الذي يتجه تجاه الخور هو لنساء وأطفال، فقد أرسلت لنا السفينة «لفربول» التي تقف على مدخل الخور إشارة تخبرنا بأمر هذا التحرك، وتطلب أمرك في شأن قصفهم.

سحب «لوخ» نَفَسًا من غليونه، ثم نظر إلى الموكب مرة أخرى بمنظاره، قبل أن يجيب:

ـ اتركوهم الآن، فأعتقد أن أكثرهم سيغرقون في البحر إن لم يحاولوا اجتيازه بسرعة؛ فهم بطيئون جدًّا، والمد سيكون أسرع منهم، ثم إننا بحاجة إلى القذائف للتخلص من المقاتلين في المدينة، اتركوهم لقدرهم.

أدى الضابط التحية وذهب، ولكن كانت أنظار الجميع موجهة تجاه موكب البؤس، منظر يكاد يحرك التاريخ ويعيده للحياة مرة أخرى، حتى إن القصف توقف بين الطرفين، ومع مرور الوقت اتصلت بداية الموكب على اليابسة بنهايته على اليابسة الأخرى، فكان كعقد لؤلؤيٍّ أسود زين الخليج الصغير، ومع قرب الفجر بدأت الصرخات تعلو من حين إلى آخر؛ فقد ارتفع منسوب الماء، ومن كان جريحًا أو صغيرًا أو لا يعرف العوم غرق في البحر، ومع الصباح كانت الجثث تشاهد طافية على سطح الماء أغلبها لأطفال ونساء.

عرف ضرار أن الوقت ليس في صالحه، وأن عليه الانسحاب من المعركة، فأمر رجاله بالرجوع إلى الخلف وترك جثتي صاحبيهم المقتولين خلفهم، فوصل معه ثلاثة رجال امتلأت أجسادهم دمًا من جرَّاء الجراح التي عانوها خلال زحفهم على الشوك والصخور.

أمرهم ضرار بعد وصولهم إلى السفينة بالاتجاه جنوبًا لحين اتضاح الأمور؛ فالمعركة، كما هو واضح، لا تسير لصالح الشيخ حسن وجماعته، ولا بدَّ أن يصل الطرفان إلى حل نهائي؛ فالشيخ لا يستطيع أن يصمد فترة طويلة، والإنجليز لا يستطيعون البقاء محاصرين المدينة دون إمدادات بحرية فترة طويلة، فكان قرار ضرار أن يبقى مختبئًا بضعة أيام أخرى ثم يستطلع الأمر.

بكى الشيخ حسن حين شاهد جثث قومه وقد ملأت الساحل، بكى بحرقة جعلت مسلحيه يبكون معه، أما أرحمة فقد احتضنه وقبَّل رأسه معزيًا إيَّاه في القتلى، ثم سأله عن الخطوة التالية.

نادى الشيخ على أحد أتباعه، وطلب منه أن يرفع الراية البيضاء.

# الفصل الثاني والأربعون

## ميناء ينبع، الساحل الغربي للجزيرة العربية

وقفت مجموعة «سادلر» على تل مرتفع يُطِلُّ على ميناء ينبع من علوٍّ، كان الميناء عبارة عن سحابة غبار كبيرة تجثم على قرية صغيرة؛ فالميناء كان حلقة الوصل بين جيش إبراهيم باشا والقاهرة، منه تصل الإمدادات للجيش، ومنه يتم شحن الخيول وكل المسروقات إلى القاهرة، وفيه ينتظر المرضى والجرحى والعائدون إلى ديارهم، صورة بانورامية غريبة لم يكن «سادلر» يتوقع أن يراها في هذا الجزء من العالم، فرسان مغاربة على صهوات جيادهم بعمائمهم المميزة وسيوفهم المذهبة، ومشاة أرناؤوط بأجسادهم الضخمة وشواربهم المعقوفة، وهجانة بدو بلباسهم الأبيض، وجنود مصريون وأفارقة، خليط غير متجانس من اللباس والألوان والسلاح، ولكن الجميع أضحى أداة للموت بيد إبراهيم باشا يحركهم كيف يشاء ومتى يشاء.

نظر بِشر إلى «سادلر» ليرى تعابير وجهه ويترجمها، كان «سادلر»، كعادته حين يرى شيئًا لا يسره، متجهمًا وغاضبًا، نسج الغبار على وجهه قناعًا من الرمل حين اختلط بالعرق وأصبح شخصًا آخر، فمن بعيد كان باستطاعتهما

أن يريا حظائر الخيول، ومعسكرات الجيش والسفن والبيوت الصغيرة، وحركة الناس، وكأن الحجاز قرر أن يغادر فجأة من ميناء ينبع.

تحركت المجموعة نزولًا إلى الميناء، وكلما اقتربوا زاد الجو سوءًا؛ فهو رطب حار أضاف إليه الغبار ثقلًا غير محتمل، ومع دخولهم إلى المدينة ركض إليهم الفقراء الذين شردتهم الحرب والذين يريدون العودة إلى ديارهم وانقطعت بهم السبل، والجنود الذين يريدون بعض المال بعد أن أعاقتهم الحرب، جموع هائلة من البؤس البشري اجتمعت في مكان صغير غير محتمل، كان الأطفال يتعلقون بأقدامهم ويصرخون طلبًا للمال، أما النساء فكن يرفعن أصواتهن قدر استطاعتهن لينتبه إليهن أحد منهم، أضاف كل هؤلاء الفقراء ذيلًا طويلًا للقافلة، ثم بدأ هذا الذيل في الانحسار مع مرور الوقت قليلًا قليلًا، حتى لم يبقَ أحد من الفقراء ليتبع القافلة.

قال «سادلر» لبِشر:

ـ حمدًا لله أنك لم تدخل يدك في جيبك؛ لأنك لو فعلت فسنكون قد انتهينا.

ـ هذا ما يحزنني يا «سادلر»، فكلما كان المكان بائسًا كانت صعوبة تقديم المساعدة، كان قلبي يتقطع؛ لأني لا أستطيع فعل شيء لهؤلاء، وكيف أستطيع مساعدتهم دون أن أكون أنا ذاتي ضحية؟

وكعادته حين يسوء الجو تلثَّم بِشر بطرف عمامته، وفعل الجميع مثله، فطلب «سادلر» من متعب البحث عن سكن يستريحون فيه لحين إيجاد سبيل للخروج من هذا المكان، وأصر على أن يكون السكن نظيفًا وقريبًا من الميناء. ذهب متعب للبحث على أن يجدهما في أحد المقاهي الصغيرة المنتشرة حول الميناء حين يعود.

شاهدا مقهى صغيرًا، قرَّرَا النزول فيه لحين عودة متعب، جاء النادل ووقف أمامهما دون أن يتحدث، كان سمينًا قذرًا عليه ملابس لُطخت ببقايا الطعام بشكل فوضوي، طلب منه بِشر إحضار ماء للشرب وبعض السمك المشوي، لم يرد النادل، ولم يعلق، ولم يظهر على وجهه أي تعبير، وبعد فترة عاد إليهما ببعض الطعام والماء ووضعه أمامهما بشكل عشوائي، وذهب.

أخذ بِشر سمكة بيده وبدأ في تقشيرها، ولكنه لم يطمئن لرائحتها فتركها وطلب طعامًا آخر، أما «سادلر» فقد أكل قدر استطاعته، ثم أطالا الجلوس في المقهى بانتظار عودة متعب، حتى وصل أخيرًا وهو يلهث بعد بحث مضنٍ عن مكان يصلح للإقامة.

قال متعب مبتسمًا:

ـ لقد وجدت مكانًا يصلح للسكنى، قد لا يكون كما ترغبون فيه، ولكنه أريح من خيمتي التي تركتها في الصحراء.

ـ أي شيء سيكون أفضل من خيمتك يا متعب.

قال بِشر، ثم أضاف:

ـ كم أتمنى أن أجد فراشًا وثيرًا أنام عليه بعد هذا السفر الطويل والمتعب!

ذهبت المجموعة للفندق الذي كان في وسط المدينة قريبًا من الميناء والذي كان مبنيًّا من الطين وطُليت جدرانه بالجص الأبيض ونظافته معقولة إذا قُورن بالمباني المحيطة به، اختار بِشر و«سادلر» غرفة لهما، أما متعب فقد آثر أن ينام وحده بعيدًا عن الجميع، وضعوا عفشهم في الغرف، ثم اجتمعوا في مكان على سطح الفندق حيث وُضعت كراسي خشبية تُطِلُّ على الميناء لاصطياد بعض نسيم البحر والهروب من حر الغرف.

جلس «سادلر» وبِشر ومتعب. كان بِشر يريد أن يعرف ما الذي يدور في عقل «سادلر» بعد أن أخذ الباشا السيف منه وطردهم من معسكره، أما متعب فقد كان يود العودة إلى دياره؛ فالمغامرة التي كان يأمل أن تغير مجرى حياته قد أحالتها إلى أسوأ مما كانت قبلًا.

سأل بِشر:

ـ ما الذي يدور بخلدك يا «سادلر»؟ إننا أمام البحر، ولا بدَّ أن نقرر ما الذي يجب علينا فعله.

ـ سنعود إلى عمان يا بِشر، حيث تستطيع أن تعود إلى ديارك من هناك بسهولة، أما أنا فسأعود إلى الهند، وبالنسبة إلى متعب فعليه أن يقرر إلى أين يريد الذهاب.

تساءل بِشر:

ـ ولكن كيف سيكون خط سير الرحلة من هنا؟

أجاب «سادلر» وهو ينظر إلى البحر:

ـ سأذهب معك غدًا صباحًا إلى الميناء، ونسأل ربابنة السفن عن أفضل وسيلة للعودة وآمنها، إن الحرب قد أحالت المنطقة إلى فوضى عارمة، لا نعرف العدو فيها من الصديق.

لم يكن متعب يتحدث كثيرًا، فقد غيرت مناظر الحرب نفسيته، فكان يريد أن يهرب من ذاكرته بالنوم:

ـ دعونا نذهب لننام، فقد كانت أيامًا صعبة تلك التي تركناها وراءنا، والله وحده يعلم كيف ستكون الأيام القادمة.

وافقه بِشر:

ـ قد يكون هذا أفضل ما قلته منذ أن غادرنا الرسّ، سأذهب معك لأنام فأنا أيضًا بحاجة إلى الراحة.

مع حلول منتصف الليل، بدأ «سادلر» يشعر بضيق في معدته وغثيان قوي وحمى قاتلة، فجأة ودون مقدمات قام راكضًا إلى دلو الماء الموضوع في زاوية الغرفة واستفرغ كل ما في معدته، كان صوت استفراغه عاليًا بحيث استيقظ بِشر من نومه، وشاهد «سادلر» وقد وضع رأسه في دلو الماء، قام من فراشه، وأمسك برأس «سادلر» ليهدئ من شعوره بالغثيان، وما إن لمست أصابعه رأس «سادلر» حتى أحسَّ بالحرارة المنبعثة منه، وعرف أن الأمر جدٌّ، وأن صديقه في حالة حرجة، ولكن «سادلر» أُصيب بنوع من الهستيريا الغريبة، وشعر أن روحه سيخرج من حلقه، وبدأ يرتجف دون أن يستطيع أن يتحكم في نفسه، مما اضْطرَّ بِشرًا للجلوس على صدره ومسك بيده حتى يوقف هذا الاهتزاز الذي لم يرَ مثله من قبل.

لم تنجح محاولات بِشر في وقف الرَّجَفان، واعتقد أن «سادلر» على وشك الموت، فتركه وركض إلى غرفة متعب، وطلب منه الحضور بسرعة.

جاء متعب إلى الغرفة راكضًا مع بِشر، وعندما شاهد «سادلر» بهذه الحال شرع يقرأ بعض الآيات التي كان يحفظها لتحميه من الجن والشياطين التي ركبت «سادلر»، وبعد عدة دقائق من التوتر والخوف هدأ «سادلر» وسقط مغشيًّا عليه.

طلب بِشر من متعب مساعدته على إرجاع «سادلر» إلى فراشه، وحين انتهيا من ذلك وضع متعب أذنه بالقرب من أنف «سادلر» ليتأكد من أنه على قيد الحياة وما زال يتنفس، وبعدها رفع رأسه قائلًا:

ـ إنه حيٌّ يا بِشر، لم تستطع الجن قتله، ولكن لماذا تلبسه هو بالذات وليس أي شخص آخر منا؟ هل لأنه مسيحي ونحن مسلمون؟

ـ الأمر ليس كذلك يا متعب، أعتقد أنه مريض، فبه حُمَّى قوية، ضع على رأسه قطعة قماش مبللة وابقَ معه، فأنا ذاهب لأحضر طبيبًا إن استطعت أن أجد أحدهم في هذه المدينة.

جلس متعب بالقرب من رأس «سادلر» يضع قطعة القماش المبللة على رأسه، ثم يرفعها حين تجف ليعيد وضعها مرة أخرى بطريقة آلية، فتح «سادلر» عينيه وكأنه يفتحهما لأول مرة، فقد كان ضوء النافذة بالنسبة إليه قويًا، ثم فتح فمه الجاف ليتحدث:

ـ متعب، ما الذي حدث لي؟ أرجوك ساعدني، أشعر أنني على شفا الموت.

ـ لا تَخَفْ يا سيدي، لقد تلبستك جن هذه المدينة، وأعتقد أنك فعلت فعلًا يغضبها حتى تفعل بك ذلك، لكن لا تقلق سأبقى معك وسأقرأ عليك ما أعرف من التمائم حتى تخرج هذه الشياطين منك.

ـ أحضر لي شربة ماء ففمي جافٌّ جدًا.

فجأة ودون مقدمات أصدر «سادلر» صوتًا قويًا من أسفل، فقد أصيب بإسهال حاد غير مسيطر عليه، فنظر إليه متعب نظرة استغراب قائلًا:

ـ من الواضح أن الشياطين قررت أنها ستخرج من جسدك، ولكنها خرجت من الناحية الخطأ، كان من الواجب أن تخرج من فمك، ولكنها شياطين خبيثة كما يبدو من تصرفاتها.

ـ أرجوك ساعدني يا متعب؛ فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا لتنظيف نفسي.

وضع متعب قطعة قماش على أنفه، ثم شرع في تنظيف «سادلر»، ونقله إلى فراش بِشر النظيف، وأخرج الملاءات التي كانت على فراش «سادلر» إلى الخارج، وأعاد تعبئة الماء في الوعاء، وفتح نوافذ الغرفة، ثم غطى «سادلر»، ووضع على رأسه قطعة القماش المبللة، وشرع يقرأ عليه بعض التمائم التي يعتقد أنها تطرد الأرواح الشريرة.

بعد عدة ساعات عاد بِشر برفقة شاب مصري يعمل ممرضًا في جيش إبراهيم باشا، وجلسا بالقرب من رأس «سادلر» بعد أن أخلى متعب لهما المكان، طلب الشاب من «سادلر» أن يخرج لسانه، ثم جس نبضه وفتح عينيه وقاس درجة حرارته بيده، ثم ضغط على بطنه عدة ضغطات، وسأله بعض الأسئلة عن وضعه منذ الليل، ثم التفت إلى بِشر ليقول له إنه أكل طعامًا متسممًا فاسدًا، وإن عليه أن يرتاح ولا يشرب سوى السوائل النظيفة التي يجب غليها حتى يعود لوضعه الطبيعي.

كان متعب يستمع لكل ذلك، وهو يعتقد أن الشاب المصري خبير في طرد الأرواح الشريرة، وأنه يحاول الحديث معها من خلال لمس لسان «سادلر» وفتح عينيه، وعندما أراد الشاب المغادرة وضع بِشر بضعة قروش في يده وشكره.

قال متعب مخاطبًا بِشرًا:

ـ ما الذي تفعله يا رجل؟ لماذا تركته يذهب؟ إننا لا نعرف كيف نخاطب الجن، لقد رأيت ما فعلت بنا حين حاولنا أن نمسك بـ«سادلر»، دعه يبقَ معنا؛ فقد نحتاج إليه.

ـ لن نحتاج إليه، لقد قال إن «سادلر» مصاب بتسمم في الطعام، وعلينا أن نعتني به حتى يشفى.

ـ هل تقول تسمم؟ بالطبع سيتسمم إن قرر الجانُّ أن يخرج من أمعائه، فهل تعتقد أن الجان الذي يفضل الخروج من الأمعاء جان نظيف؟ قد يكون ترك حذاءه في معدة الرجل، أو حتى فعل شيئًا آخر، فلو كنت هنا حين خرج الجان من أمعائه لعرفت أنه كان شيطانًا قذرًا يفعل أي شيء، ويخرج من أي مكان.

قال بِشر بنوع من الملل:

ـ ألم تسمعني يا متعب؟ إنه ليس شيطانًا، إنه تسمم في الطعام الذي أكله «سادلر» منذ قدمنا إلى هنا اليوم.

ـ وكيف يتسمم الطعام؟ إن الطعام شيء، والسم شيء آخر، فلو كان تسمم فيعني أن شخصًا وضع له سُمًّا في الطعام، أما الطعام، بحد ذاته، فهو ليس سُمًّا يا رجل، لقد أكلت الضَّبَّ والثعبان، وجميع أنواع السحالي التي تدب في الصحراء، وها أنا أمامك لم أتسمم.

ـ إن لديك معدة ضبع يا رجل، اتركني مع «سادلر» واذهب لحال سبيلك، فقد أثرت أعصابي بحديثك هذا.

ـ إن حديثك هو الذي يثيرني، وأتمنى من كل قلبي أن يخرج الشيطان الذي تلبس «سادلر» ويدخل فيك، ثم يخرج من نفس المكان كما خرج من «سادلر»، ثم أبحث لك عمن ينظفك ويعتني بك؛ لأني لن أقوم بذلك.

ـ اللعنة عليك وعلى عقلك الصغير، عليك أن تسكت قليلًا؛ لأني سأقتلك وأقتل الشيطان الذي تلبس عقلك منذ ولدتك أمك، اجلب لي بعض الماء ودعنا نعتنِ بالمريض.

مر اليوم الأول و«سادلر» على فراشه يعاني حُمَّى شديدة، وكان بِشر

ومتعب يتناوبان الاعتناء به، ثم جاء اليوم التالي، ففتح عينيه وقد خفت الحرارة عنه، وبدأ يطلب بعض الماء، وفي اليوم الثالث بدا أنه أفضل حالًا من ذي قبل، وبدأ يأكل قليلًا من الفواكه والخضراوات.

وبعد أيام قليلة كان «سادلر» وبشر ومتعب في الميناء يبحثون عن سفينة لتقلهم إلى عمان، فتنقلوا من شخص إلى آخر حتى دلَّهم البعض على سفينة متجهة إلى عدن عن طريق ميناء مخا، فذهبوا لمقابلة الربان ليتفقوا معه على أجور النقل، كانت السفينة قديمة ومتهالكة، ولا تكاد تصلح للسفر، ولكن «سادلر» كان مصرًّا على المغادرة مهما كان الثمن.

# الفصل الثالث والأربعون

## رأس الخيمة، الساحل الغربي من الخليج

خرج أحد رجال الشيخ حسن رافعًا راية بيضاء يسير تجاه الساحل، كانت أعين الأسطول البريطاني تراقبه حتى وصل البحر ثم مشى به عدة خطوات حتى غمر الماء نصف ساقه، توقف حينها ولوَّح بالراية يَمنة ويَسرة. كانت المناظير المقربة مركزة على الراية، ولكن لم يشاهد أحدهم عيني الرجل اللتين كانتا تدمعان بشكل متواصل حتى بلَّلت لحيته.

تبادلت السفن الإشارات فيما بينها بعض الوقت، ثم نزل زورق صغير من السفينة «إيدن» على متنه ضابط وأربعة حراس مسلحين وأربعة مجدفين، وصل القارب إلى الساحل، ونزل منه الضابط ومجموعته، فطلب من أحد مرافقيه إعطاءه العلم البريطاني المربوط على عمود خشبي فغرسه الضابط، وبكل قوة على اليابسة في محاولة لاستفزاز المقاتلين، ثم انتظر واضعًا يديه على خصره ناظرًا تجاه السور المحطم.

خرج الشيخ حسن وبرفقته أرحمة ومجموعة من الرجال من خلف الجدار، كانت أشكالهم توحي بوضعهم، فقد كان الغبار يغطي وجوههم،

والبعض منهم تلطخت ملابسه بالدماء، ولهم يومان لم يتذوقوا خلالهما الطعام والنوم، وقف الطرفان بعضهما مقابل بعض، فتأمل الضابط البريطاني في الشيخ حسن الذي ملأت سمعته خطوط الملاحة البريطانية رعبًا، تأمله من أخمص قدميه إلى عمامته، لم يعجبه شكله؛ فقد كان الشيخ حسن قصيرًا بعينين صغيرتين، ولحية غير مرتبة، وملابس رثَّة، تخلص من كل زينته، فقد كان من عادته أن يزين خصره بخنجر مذهب وبمسدس مطعم بالفضة، وسيف يتدلى من كتفه، أما الآن فهو الشيخ حسن فقط، ممثل لقومه في لقاء الاستسلام المذل هذا، ولكن الشيخ بقي منتصبًا رافعًا رأسه شاعرًا بحب قومه له.

قال الضابط البريطاني:

ـ هل أنت الشيخ حسن؟

ـ نعم أنا الشيخ حسن، ما الذي تريدونه منا؟

مد الضابط البريطاني يده إلى سُترته، وأخرج أنبوبًا طُويت في داخله ورقة، أخرجها وسلمها للشيخ قائلًا:

ـ ننتظر منك أن توقع هذه الورقة وبسرعة.

قرأ الشيخ الورقة، وسلمها إلى أرحمة الذي مرر عينيه عليها سريعًا، ثم سلمها لأحد مساعدي الشيخ، نظر أرحمة إلى الشيخ حسن، فوجد أن الحمرة قد علت وجهه، وأن أوداجه انتفخت، وكأنه على وشك الانفجار، فقرر أن يتولى الحديث حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

قال أرحمة مخاطبًا الضابط:

ـ نريد بعض الوقت لقراءة الورقة، وبعدها أريد أن أخاطب القبطان «لوخ».

نظر إليه الضابط بازدراء:

- ولكن، من أنت حتى تطلب مقابلة القبطان؟

- قل له إن أرحمة بن جابر يطلب مقابلته، وسيعرفني، والآن غادر إلى سفينتك وخذ علمك معك، وسنكون هنا غدًا صباحًا في نفس الوقت.

عاد الشيخ حسن ومرافقوه تجاه المدينة المحطمة، أما الضابط فقد تظاهر بأنه نسي العلم وأمر جنوده بركوب الزورق، خرج شاب من مرافقي الشيخ ونزع سارية العلم، ونادى الضابط الذي ما إن التفت حتى وجد سارية العلم وقد رُميت تجاهه، ولم يكن له سوى أن يلتقطها بيده ويعطيها أحد جنوده ويغادر.

في المساء جلس الشيخ حسن على ساحل البحر، وحوله مستشاروه ورجاله ليناقشوا شروط الاستسلام التي سلمها لهم الضابط البريطاني في ذلك اليوم، استهل الشيخ حديثه بالتالي:

- أنتم تعلمون أن الإنجليز يريدون منا أن نستسلم لهم، وقد وضعوا شروطهم في ورقة وسلموها لي، وهذه الشروط تنص على أن نسلم أسلحتنا وسفننا القتالية لهم، وأن نتعهد بعدم محاربتهم مرة أخرى، وأن نفتح لهم موانينا وأسواقنا ليتاجروا فيها كيفما يشاؤون ومتى يشاؤون، وألا نُؤوي عدوًّا لهم، ولا نعقد اتفاقيات مع أي قوى عسكرية أخرى دون موافقتهم أيضًا، وأن نوافق على تواجد قواتهم على أراضينا، وبالمقابل سيتعهدون بحمايتنا من أي هجوم تقوم بها قوات أخرى، وتحدثوا أيضًا في كتابهم عن ثروات سيتم استخراجها من باطن الأرض، وأنهم سيعطوننا نسبة منها، والآن قولوا لي ما رأيكم في الموضوع؟

تحدث شيخ جليل بلحية بيضاء كان جالسًا مقابل الشيخ حسن في المجلس:

ـ وماذا لو لم نوافق على كتابهم؟ ما الذي يمكن أن يحصل؟

رد الشيخ حسن:

ـ سيواصلون القصف، وسيقتلون منا ضعف ما قتلوا، ثم سيحتلون أرضنا شئنا ذلك أو أبينا، والله وحده يعلم ما الذي سيفعلونه بالأسرى بعد ذلك.

رد الشيخ ذو اللحية البيضاء:

ـ اسمعني يا شيخ، لقد عرفتك منذ أن كنت شابًّا يافعًا، وعرفت فيك رجاحة عقلك وحبك لشعبك وحرصك على حياتهم، إن القضية اليوم قضية حياة أو موت، إما أن نموت ونخسر أرضنا وشعبنا، وإما أن نستسلم ونخسر بعضًا من كرامتنا، وحياة الناس مقدمة على كرامة البعض، وما الذي سيمنعنا من مزاولة التجارة بعد توقيع الاتفاقية؟ إن وجود هؤلاء الناس سيكون وجودًا مؤقتًا، فهم سيغادرون هذه المنطقة عاجلًا أو آجلًا، أما نحن فسنبقى.

ابتسم أرحمة حين سمع حديث الشيخ ذي اللحية البيضاء، فهناك على الأقل من يؤيده في مذهبه، ولكنه كان يخاف من حديث الشباب المتحمسين وتأثيرهم، تأمل أرحمة في الجالسين ولم يشاهد سوى القليل من الشباب، ومن ضمنهم الشاب الذي سبق أن تحدث عن الجهاد ضد الغزاة، وتوقع أن يتدخل لصالح القتال، ولكن الشاب كان حزينًا جدًّا، ولم يكن يعي ما يدور في المجلس، فقد كانت عيناه تنظران بعيدًا إلى الخور الذي ابتلع العشرات من البشر مؤخرًا، لاحظ أرحمة دموعًا غزيرة تَنزُّ من عين الشاب الذي كان صامتًا بشكل غير متوقع، كان ما زال ممسكًا بالعلم الأبيض الذي رفعه على ساحل البحر معلنًا الاستسلام، فتساءل أرحمة أكان الشاب يبكي لقرار الاستسلام أم لشيء آخر.

لم يخرج أرحمة من تأمله سوى يد الشيخ حسن التي وضعها على كتفه ليأخذ رأيه كما هي عادته، وسمع الشيخ يقول له:

- وما رأيك يا أرحمة؟

أطرق أرحمة قليلًا، وسأل الشيخ عن سبب بكاء الشاب، وسكوته عن مناقشة قرار الاستسلام.

- إنه زوج ابنتي، لقد فقد والديه وزوجته واثنين من أبنائه اللذين لم يتعد عمراهما خمس سنوات.

ثم تغيرت نبرة الشيخ أيضًا، وشاهد أرحمة تراكم الدموع في عينيه، ولكنه تمالك نفسه.

لاحظ أرحمة ذلك ثم أجاب:

- أنت تعلم رأيي يا شيخ حسن، وأنا مع رأي الشيخ الوقور ذي اللحية البيضاء؛ فقد فقدنا الكثير من أحبائنا، ولا نريد أن نفقد المزيد، ونحن نعيش على ساحل البحر والعالم كله في متناول أيدينا، فإن لم يمنعونا التجارة فسنتاجر مع العالم، ونعيد الحياة لخطوطنا الملاحية مرة أخرى، وأعتقد أنهم تحدثوا عن ثروات في باطن الأرض، أليس كذلك؟ دعهم يبحثوا عنها ويعطونا نصيبنا منها، أليس ذلك أجدى من بقائها مخفية علينا؟

نظر الشيخ حسن إلى الرجال الجالسين حوله قائلًا:

- سأوقع على الاتفاقية غدًا، ومن لديه أي اعتراض على ذلك فليقل لي الآن رأيه على الملأ؛ لأني لن أعيد النظر في قراري حين ينفض مجلسنا هذا.

لم يجب أحد، وبقي الجميع صامتين، حينها أضاف الشيخ:

ـ سأوقع على الاتفاقية، ونسأل الله أن تكون في صالح من بقي من الشعب.

وفي اليوم التالي وفي نفس الوقت المحدد، وصل الشيخ ومرافقوه إلى نفس النقطة على الساحل التي قابلوا فيها الضابط الإنجليزي يوم أمس، وشاهدوا زورقًا به مجموعة من الضباط الإنجليز وحرسهم قادمًا تجاههم، حين وصل الزورق على الساحل قفز منه القبطان «لوخ» الذي مد يده مصافحًا الشيخ حسن، ثم صافح أرحمة بودٍّ أكثر قائلًا:

ـ لقد فرحت حين علمت أنك هنا، على الأقل سننهي مشكلتين في نفس الوقت، كنت أريد إخبارك أن قصة السيدتين البريطانيتين المختطفتين.... على العموم سنتحدث عن ذلك لاحقًا، هل وقعتم على الاتفاقية؟

رد الشيخ حسن:

ـ نعم وقعنا على الاتفاقية، وأتمنى أن تحافظوا على وعودكم معنا.

ـ إننا يا شيخ حسن لا نحارب من أجل الحرب، ولكننا نحارب لنحافظ على مصالحنا، فإن كنتم لا تشكلون خطرًا على مصالحنا فلا شيء يجبرنا على أن نرفع السلاح في وجوهكم، إننا نريد أن نكون أصدقاء لكم، ولا أعلم إن كنتم قد سمعتم عن النفط الذي أصبحت حكومتي تريد استخراجه من أراضيكم، سيجعلكم أغنياء، ويجعلنا أقوياء.

ثم أمر «لوخ» أحد ضباطه بنصب خيمة على الساحل، قائلًا:

ـ سنأكل اليوم العشاء بعضنا مع بعض، وسنسميه عشاء السلام.

هزَّ الشيخ حسن رأسه رافضًا:

ـ وكيف أتعشى معك وقومي لم يذوقوا الطعام منذ عدة أيام، إننا في حالة حزن يا قبطان، وعليك أن تحترم ذلك.

أمر «لوخ» أحد ضباطه بإحضار الطعام من سفينة التموين وتسليمه للشيخ حسن ليوزعه على قومه، وسمع الجميع «لوخ» يقول للضابط:

ـ أحضر ما تستطيع من أكداس التموين؛ فنحن بحاجة إليهم كحاجتهم هم إلى الطعام.

في المساء تحولت المنطقة التي كانت من قبل ساحة قتال إلى مكان آخر، فقد نُصبت الخيمة التي أمر القبطان «لوخ» بها، وأُنيرت من الداخل، فكان شكلها وحجمها محط إعجاب الناس، توزع حول الخيمة الجنود البريطانيون في حفل شواء كبير، وليس بعيدًا عنهم، كان الناس أيضًا يطبخون طعامهم ويتحدثون فيما بينهم، ولو نظر الناظر إلى الساحل لتوقع أن يكون هناك حفل شواءٍ عامٌّ، ولكن كان هناك ذلك الفاصل غير المرئي الذي يحدث بين المجرم والضحية حين يصافح بعضهما بعضًا محاولين نسيان الماضي.

لم يستطع أرحمة أن ينتظر فسأل القبطان «لوخ» عن قصده، بقوله:

ـ نحن بحاجة إليهم كحاجتهم إلى الطعام..؟!

رد القبطان:

ـ آآآه، لقد سمعتني إذن؟ كان من المفروض أن أكون أكثر حذرًا، لقد وصلتني تعليمات من لندن تطلب مني أن أشرع في تكوين صداقات مع زعماء القبائل التي تسكن على الساحل الغربي من الخليج، وكانت التعليمات واضحة وصريحة بوجوب تحسين الوضع الأمني، وكسب قلوب الناس، وتوفير الطعام لكل من يوافق على التوقيع على الاتفاقية، فقد تغيرت نظرة حكومتي للمنطقة، وهي تريد أن تقوم باستخراج البترول من باطن الأرض، وحتى نفعل ذلك لا بدَّ لنا من توفير مناخ أمني يشجع شركات النفط للاستثمار، ولن نستطيع فعل ذلك دون أن نكسب صداقتكم، كنا

سابقًا نفكر في الأمن بطريقة الحرب، أما الآن فإننا نفكر في الأمن بطريقة تبادل المصالح، هل فهمت يا أرحمة؟

ـ لقد فهمت قصدك، ولكن هذه الاتفاقية لا تعنيني، فهي بينكم وبين الشيخ حسن، أما اتفاقيتي فقد وقعتها معك شفويًّا منذ فترة، أتمنى ألا تكون قد نسيت ذلك كعادتك يا قبطان.

ـ لم أنسَ يا أرحمة، ولكن أرجوك ليبقَ ذلك بيننا فقط، وسأحاول أن أتغاضى عن أهدافك الشريرة في حرب أبناء عمومتك، وعليك ألا تضعني في أي موقف محرج مع حكومتي.

ـ والآن، قل أيها القبطان، ما قصة السيدتين البريطانيتن المختطفتين؟ هل وجدتهما؟ أم إن القضية ملفقة كعادتكم حين تريدون أن تكسروا اتفاقية ما؟

ضحك القبطان بصوت عالٍ:

ـ إن القضية ملفقة تمامًا يا أرحمة، ولكن ليس لأننا نريد أن نكسر اتفاقية مع أحد، بل إننا أنفسنا كدنا نكون ضحية لها، إن صاحب هذه المؤامرة، ودعني أسمِّها كذلك، هو «غولاب»، ممثل شركة الهند الشرقية في مسقط، وأظنك تعرفه.

ـ نعم، أعرف ذلك الخبيث، ولكني لم أفهم قصده من تلفيق مثل هذه القصة.

ـ هل تذكر قصتك مع ابن الشيخ سلمان حين قتلته في البحر؟ لقد تبرع أحدهم بإشعال فتيل أزمة بيننا وبينك؛ حتى يتم التخلص منك بأيدينا، وبأسرع وقت ممكن، وكان «غولاب» اللئيم هو منفذ هذه الفكرة.

ـ لقد شوقتني لمعرفة التفاصيل أيها القبطان، أرجوك اشرح لي، كيف عرفت بذلك؟

ـ وما الذي يهمك الآن؟ لقد انتهى الموضوع، ولم تعد الشخص الذي نبحث عنه، دعنا نتحدث عن المستقبل الآن.

كان الشيخ حسن كعادته، ينصت للحديث، فحاول أن يعرف السبب الذي حدا بالحكومة البريطانية إلى تغيير سياستها في المنطقة، ثم ما هذا النفط الذي تحدث عنه القبطان.

ـ يا شيخ حسن، دعني أشرح لك ما النفط، إنه مادة سوداء موجودة في باطن الأرض، وهذه المادة سريعة الاشتعال، ولو أحسنا استخراجها واستخدامها، فإنها ستغير كل شيء في العالم.

ـ آآه، نعم، أنا أعرفها، إنها المادة اللزجة السوداء الثقيلة التي تنبع من الأرض أحيانًا، لقد كنا نستخدمها في طلاء الخشب في سفننا حتى لا يؤثر فيها ماء البحر، والبعض يستخدمها لعلاج الأمراض الجلدية، إن لها استخدامات عدة، ولكننا لم نفكر في أنها ستغير وجه العالم أبدًا.

ضحك «لوخ»:

ـ لقد بدأت في تغيير معاملتنا تجاهكم يا شيخ، ألا يكفي هذا؟

## الفصل الرابع والأربعون

### ميناء مخا، اليمن، البحر الأحمر

وقف «سادلر» وبِشر ومتعب أمام السفينة المتهالكة التي يقودها ربان وخمسة بحارة، لم تكن السفينة كبيرة وليست في حالة جيدة، ولكن «سادلر» كان مصرًّا على المغادرة، وحين شعر بتردد صديقيه في الإبحار على ظهرها، توصل إلى حل وسط، فهم سيبحرون إلى ميناء مخا اليمني الواقع على البحر الأحمر، وعلى ذلك فإن السفينة ستسير محاذية للساحل، وهذا سيشعرهم بالاطمئنان قليلًا، وحين يصلون إلى ميناء مخا سيستأجرون سفينة أكبر وأفضل لإيصالهم إلى مسقط.

وافق البقية على هذا الحل الوسط، وشرعوا في تحميل أمتعتهم مع بعض التردد الذي كان يخامر بِشرًا ومتعبًا، وبعد عدة أيام من الإبحار وصلت السفينة إلى ميناء مخا الذي كان صغيرًا جدًّا، ولم يكن يوجد به سوى عدة منازل بُنيت من الأحجار، وبضع سفن صغيرة للصيد فقط، فخابت آمال الجميع في الحصول على سفينة جيدة لتقطع بهم جنوب الجزيرة العربية من غربها إلى شرقها بأمان.

طلب منهم ربان السفينة النزول إلى البر، ولكن «سادلر» رفض المغادرة على أساس أن هذا المكان ليس ميناء، وأن عليه إيصالهم إلى أي مكان آخر يُسمى ميناءً حيث يوجد سفن وبشر وحركة بيع وشراء، أما هذا الذي يُسمى ميناءً فهو أقرب ما يكون إلى مدينة أشباح.

أصرَّ الربان على موقفه، وبعد أخذ ورد، اضْطُرّ «سادلر» للرضوخ، ونزل الجميع إلى ساحل البحر، وتوجهوا إلى كوخ خشبي يجلس فيه مندوب الحكومة، شاهدوا رجلًا في منتصف العمر، وقد فك عمامته ووضعها على كتفه، وأمامه كوب الشاي، وحوله الكثير من الأغصان الخضراء التي جُرِّدت من أوراقها، لاحظ الجميع أن فم الرجل منتفخ انتفاخًا غير طبيعي، وكأن خده قد تمدد ليحوي قبضة رجل، لم يفهموا شيئًا من ذلك.

ما إن شاهد الرجل ربان السفينة حتى رفع صوته مخاطبا إيَّاه:

ـ من هؤلاء الذين أحضرتهم معك؟ هل لديهم أوراق؟

ـ لا أعلم، اسألهم، لقد طلبوا مني إيصالهم إلى مسقط، فقلت لهم إنني لن أذهب إلى هناك، ولكن باستطاعتي أن أوصلهم إلى مخا، فوافقوا على ذلك، ولا علم لي غير ما أخبرتك.

بصق ممثل الحكومة جانبًا، ثم أخرج طرف لسانه وبلع ريقه، وبدا وكأنه يريد مخاطبتهم، ثم بصق مرة أخرى ومسح فمه بطرف كمه:

ـ لماذا حضرتم إلى اليمن؟ أريد أن تخبروني الحقيقة.

نظر بِشر إلى «سادلر» وكأنه يستأذنه في الحديث:

ـ إننا في طريقنا إلى مسقط، ولا نريد أن نبقى هنا لحظة واحدة، ولو وجدنا سفينة الآن لغادرنا على الفور.

مد ممثل الحكومة يده إلى قرب وجهه، ثم أرجعها بقوة تجاه محدثه، في إشارة إلى أن حديث بِشر لم يكن مقنعًا ثم قال:

ـ لقد وطئتم أراضي الإمام، وعلينا إخباره بوجودكم أولًا، ونيتكم في مغادرة أراضيه مرة أخرى، وهذا الأمر قد يستغرق وقتًا طويلًا، إن الأمر ليس بالسهولة التي تتوقعها، والوصول إلى الإمام في صنعاء يستغرق عدة أيام، والعودة من هناك تستغرق عدة أيام أيضًا، ولكن إذا أردتم أن تستعجلوا في الموضوع فبإمكانكم أن تدفعوا بعض المال للمندوب الذي سيذهب إلى هناك حتى لا يبقى بضعة أيام أخرى لدى قبيلته في الطريق.

ظهر الحنق على مُحَيَّا بِشر:

ـ ولكن يا سيدي، إن الموضوع سهل جدًّا، نحن نريد أن نغادر اليوم، دَبِّر لنا سفينة وسندفع تكاليف السفر وسنغادر، لا نريد أن يعلم الإمام بقدومنا ومغادرتنا، فلديه من العمل الكثير بدلًا من أن نضيع الوقت في إعلامه بقدوم ثلاثة أشخاص من الحجاز في طريقهم إلى مسقط.

التقط مندوب الحكومة غصنًا أخضر ما زالت عليه بعض الأوراق، فنزعها بيده، ثم وضعها في فمه ورقة ورقة، وكأنه يتلذَّذ بطعمها، ثم قال:

ـ إنكم لا تعرفون الأنظمة والقوانين في اليمن، إن الإمام يجب أن يكون على اطلاع بكل أجنبي تطأ قدماه أرض اليمن أو يغادرها، إنها سياسة عُليا لا يجب عليك أن تناقشها معي.

بدأ بِشر يغير من نبرته إلى الترجي:

ـ ولكن يا سيدي، أرجوك، إننا مستعجلون وسنفعل أي شيء في سبيل أن نغادر هذا المكان، فسهِّل الأمر ولا تعقده.

بصق الرجل مرة أخرى، ثم شرب ماء ومسح فمه بكمه قبل أن يجيب:

ـ إنك كثير الجدل يا رجل، عليكم الانتظار، والآن غادروا مكتبي حتى أقوم بعملي.

نظر «سادلر» إلى المكان الذي يُسميه الرجل مكتبًا، فهو عبارة عن أرضية رملية فُرشت عليها حصيرة مصنوعة من سعف النخل، على يمين الرجل بعض الأوراق التي وضِع عليها حجر ضخم حتى لا تطير بفعل الهواء الذي يهب من أسفل الكوخ، وعلى يساره مساحة رملية بين جدار الكوخ والحصيرة ابتلت بمادة خضراء بفعل البصق الذي كان يقوم به من حين إلى آخر.

اجتمع الرجال خارج الكوخ ليفكروا في أمرهم، فجاءهم طفل صغير بملابس رثَّة، ووقف أمامهم، وبدأ ينظر في عيونهم واحدًا واحدًا قبل أن يقول:

ـ هل تتحدثون العربية؟

كان الطفل يتحدث بلهجة سريعة غير مفهومة لِبشر ومتعب للوهلة الأولى، ثم أجاب بِشر:

ـ نعم، نحن نتحدث العربية.

ابتسم الطفل حينها، وكأنه وجد وسيلة التواصل مع هؤلاء الأغراب:

ـ هل لديكم مكان تنامون فيه هنا؟ أستطيع أن أدلكم على مكان تبيتون فيه إن أردتم ذلك.

رد «سادلر» مستفسرًا:

ـ نعم، وهل ستدلنا على مكان نظيف ومريح؟

بدأ الطفل في حمل بعض المتاع الخفيف، وقال:

ـ اتبعوني.

تبع الجميع الطفل وساروا في دروب قذرة بائسة ليس بها أحد، وكأن سكان الميناء قرروا الاختباء فجأة، كان الجميع صامتًا بانتظار أن يحدث شيء، حتى وصلوا إلى مبنى يجلس أمامه مجموعة من الرجال يأكلون الورق الأخضر نفسه الذي كان يأكله مندوب الحكومة، فتوقف الطفل أمامهم وشرعوا يتحدثون بلهجة سريعة بالنسبة إلى بِشر ومتعب، بعدها أخذ أحد الرجال حجرًا صغيرًا من أمامه ورمى به الباب الخشبي بقوة.

خرج شيخ كبير من الباب، وحين شاهد الطفل تحدث معه أيضًا باللهجة نفسها، ثم أشار الطفل للمجموعة بدخول البيت.

لم يحتمل «سادلر» هذا الغموض فسأل بِشرًا:

ـ أنت تتحدث العربية، فما الذي يدور هنا؟

ـ إنهم يتحدثون العربية، ولكن يجب أن أعتاد لهجتهم حتى أفهمها، اصبر عليَّ قليلًا.

جلس بِشر مع الرجال الجالسين على باب الدار، وبدأ في الحديث معهم، والبقية كانوا واقفين بانتظار أن يخرج بِشر من هذا الحديث بنتيجة تطمئنهم، بعدها وقف على قدميه مبتسمًا وقال لـ«سادلر»:

ـ لقد فهمت ما يحدث الآن، إن الأمر لا يعدو أن يكون نكتة سخيفة، أو لعبة يقوم بها مندوب الحكومة الذي قابلناه في الميناء.

قال «سادلر» مستعجلًا:

ـ حسنًا، قل لنا، كلنا آذان صاغية.

ـ إن مندوب الحكومة في الميناء رجل فاسد، ويتصيد الأجانب القادمين إلى الميناء ليربح من ورائهم، فما حدث في مكتبه كان تمثيلية لإجبارنا على البقاء بضعة أيام هنا، فهذا النُّزُل يملكه أخوه، والطفل الصغير الذي أحضرنا إلى هنا هو ابن أخيه، وهؤلاء الرجال الجالسون على الباب تجار يمنيون من عدن أجبرهم أيضًا على البقاء في مخا حتى يخبر الإمام بوجودهم على حد قوله.

ـ وما العمل الآن؟

ـ ليس لنا سوى أن نسايره، فهو الحكومة الآن، وإغضابه قد يؤدي إلى مشكلة كبيرة.

دخلت المجموعة إلى النُّزُل الذي كان عبارة عن منزل كبير أجر صاحبه غرفة للأجانب الذين أُجبروا على البقاء، سار صاحب النُّزُل أمامهم إلى غرفة واسعة فُرشت على أرضيتها بضعة مفارش، وفي زاويتها كُوِّمت مفارش إضافية، كانت الغرفة نظيفة نسبيًا، ولكنها خالية من أي قطعة أثاث أخرى، أما الحمام فكان عبارة عن مكان مشترك يستخدمه الجميع بشكل مفتوح ودون أي فواصل.

وضعوا أغراضهم في الغرفة، ثم تبعوا بِشرًا إلى حيث جلس الرجال على مدخل النُّزُل، وحين شاهدوهم، وسَّعوا لهم في المكان ورحَّبوا بهم، كان الوقت عصرًا، والجو قد بدأ يميل نحو الاعتدال، نظر «سادلر» إلى الرجال، فوجد أنهم يستمتعون بمضغ تلك الأوراق الخضراء، وشرب الشاي بكثرة معها، استغرب مرونة خدودهم التي أضحت متورمة بشكل لافت، ومع ذلك فهم يتحدثون ويضحكون ويشربون، وكأنهم لا يعانون أي ألم من جرَّاء تمدد خدودهم بهذا الشكل.

كان كل واحد منهم يضع أمامه حزمة من هذا الورق، فبادر أحدهم باختيار غصن أخضر صغير وسلمه لبِشر، وعمل الآخر مثله فسلم غصنًا آخر إلى «سادلر»، أما متعب فقد استبق ذلك بالإعلان عن عدم رغبته خوض التجربة بحركة من يده.

بدأ أحد الرجال بالحديث مع بِشر لإخباره عن طريقة تناول القات:

ـ عليك أن تختار الأوراق الخضراء الطرية، وتمضغها بهدوء، ثم تخزنها في أحد جانبي فمك، ولا تبلع ماءها، بل أبقه هناك حتى يسري في عروقك مفعولها فتشعر بنوع من النشوة والراحة والاسترخاء.

أخذ «سادلر» الغصن وبدأ يتأمله، فعرف أن اسم الشجرة «كاثا إديوليس»، لقد قرأ عنها عندما كان يعمل في شمال الهند، فقد أحضرها العرب الحضارمة إلى هناك وحاولوا زرعها في المرتفعات الرطبة كما كانوا يفعلون في اليمن، إلا أنها لم تنبت كما ينبغي، فبقي استخدامها محدودًا في الاسْتِطْبَاب الشعبي. حاول أحد الضباط الإنجليز دراسة خصائص النبتة ليعرف مفعولها الطبي بشكل علمي إلا أنه لم يتوصل إلى نتيجة حتمية، فجفف بعض أوراقها ووضعها في منتصف بحثه وأودعه المكتبة، وقبل أن يقوم «سادلر» بمهمته تفحص بعض الكتب والأبحاث التي كُتبت عن المنطقة العربية فوقع على البحث المذكور، وقرأ اسم النبتة ومفعولها المزعوم، ثم طوى الكتاب وأعاده إلى مكانه، وها هو الآن يمسك بالنبتة نفسها التي قرأ عنها منذ فترة.

بدأ «سادلر» في مضغ الأوراق بشكل بطيء محاولًا معرفة تأثيرها في عقله وجسده، وبعد عدة دقائق التفت إلى بِشر ليسأله عن شعوره هو أيضًا بعد مضغ النبتة.

قال بِشر مخاطبًا «سادلر»:

ـ لم أشعر بشيء قطّ.

عرف أحد الرجال فحوى الحديث من حركة يد بِشر، فقال له:

ـ اصبر قليلًا، فتأثيرها يأتي بعد فترة، لا تستعجل، بل استمتع بالحديث والمضغ وشرب الشاي.

مرت عدة ساعات وهم على تلك الحال حتى بدأت الشمس تميل نحو المغيب، حينها كان بِشر قد وضع رأسه على فخذ أحد الرجال وهو في حالة استرخاء لم يشعر بها من قبل، أما «سادلر» فقد اتكأ على كوعه وقد امتلأ فمه بعجينة خضراء لا يعرف كيف يتخلص منها.

عرف «سادلر» من الرجال أن عليه أن يكون كريمًا في الدفع إن أراد أن يغادر مخا بسرعة، فكل السلسلة البشرية ابتداءً من ممثل الحكومة حتى كاتب رسائل الإمام يريدون بعضًا من ماله.

أقبل الليل بسرعة، فتوجه الجميع إلى غرفهم بانتظار يوم ممل آخر، وفي ظلام الغرفة أخرج «سادلر» بعض القطع النقدية، وشرع في عدِّها محاولًا تحديد المبلغ المطلوب دفعه رشوةً.

# الفصل الخامس والأربعون

## رأس الخيمة، الساحل الغربي من الخليج

استمر حفل العشاء الذي أقامه القبطان «لوخ» فترة من الليل، استأذن الشيخ حسن لينام، وتبعه جُلُّ مرافقيه، وخلت خيمة القبطان من ضيوفها، ولم يبقَ سوى أرحمة الذي قرر ألا ينام تلك الليلة حتى يعرف ملابسات قضية الخطف المزعومة.

ـ والآن أيها القبطان، قل لي ما حقيقة الرواية عن السيدتين المخطوفتين؟

ـ من الواضح أنك لا تريد نسيان الماضي يا عزيزي أرحمة، وبما أنك تريد أن تعرف فسأحكي لك القصة كاملة.

ـ كلي آذان صاغية يا صاحبي.

ـ ولكن ألم تستغرب يا أرحمة، أننا كنا نتقاتل يوم أمس، واليوم أصبحنا أصدقاء نأكل الطعام بعضنا مع بعض؟ أليس هذا غريبًا بعض الشيء؟

ـ إنه ليس غريبًا عندي، فقد تعودت ذلك معك، ولذلك لم أكن أود أن أرى كل تلك الدماء تراق؛ فأنا أعرف أن الوقت سيحين لتوقيع اتفاقية سلام، فنحن

لا قِبَل لنا بسفنكم ومدافعكم، وفي النهاية يا صاحبي ينتصر الأقوى دائمًا، إن الطرف الضعيف قد ينتصر مؤقتًا، ولكن نصره لا يحسم المعركة لصالحه أبدًا.

ـ كنت أتمنى لو أن كل الناس بحكمتك يا أرحمة، أنا أعلم أن الناس سيبقون يكرهوننا سنوات طوالًا مقبلة، ولكن كلي أمل في أن تتغلب المصالح التجارية على هذا البغض يومًا ما، سنبدأ عملية السلام من هنا، ومن هذا المعسكر، وهذه الخيمة بالذات، أين كنا؟ آآآآه، نعم، كنت تسألني عن قصة الاختطاف تلك، سأحكيها لك إن كان لديك وقت.

أخرج «لوخ» غليونه من جيبه وعبأه بالتبغ، ثم أشعله، وبدأ ينفخ وأرحمة يراقبه بانتظار أن يشرع في شرح القصة.

ـ بعد أن قابلت السيد «بروس» في «أبو شهر»، ولم أجد عنده أي معلومة عن عملية الاختطاف المزعومة تلك، ذهبت إلى البصرة، وبقيت هناك بضعة أيام أتحرى عن الموضوع، وقابلت كبار تجار البصرة وأعيانها الذين كانوا على اتصال مباشر ببقية موانئ الخليج، ولكني لم أسمع منهم شيئًا، حينها قررت العودة إلى مسقط لأعصر هذا الأفاق «غولاب»، وأعرف سبب إطلاقه هذه الإشاعة، لم يأخذ مني اعترافه سوى بضع دقائق، فقد أخبرني بأنه استلم رشوة من أحد التجار البحرينيين ليؤلف القصة، ولكنه وقع في شر أعماله.

تقلصت عينا أرحمة قبل أن يتحدث:

ـ حسنًا، أمَا وقد تخلصت من عدوك، فدعني أذكرك باتفاقك معي منذ فترة أيها القبطان؛ فأنا بحاجة إلى أن أتخلص من أعدائي أيضًا.

سحب القبطان نَفَسًا عميقًا من غليونه قبل أن يقول:

ـ لا أعلم لماذا أنا ملتزم بهذه الاتفاقية معك يا أرحمة؛ فقد قمتُ بأعمال

قذرة في حياتي، وكسرت الكثير من الاتفاقيات، وقتلت الكثير من الناس، ولكني لم أحاول أن أكسر هذه الاتفاقية بالذات، ولا أعلم لماذا.

ـ أنا أقول لك لماذا يا عزيزي القبطان، لأن الدماء التي ستُراق فيها ليست دماءكم، بل هي دماؤنا، على العموم لا يهمني ذلك طالما أنني آخذ بثأري.

ـ قبل أن تقوم يا أرحمة، أريدك أن تصدقني القول، من الذين كانوا يحاربوننا إلى الجنوب من هنا حين كنا نحاصركم؟

ـ ولماذا تريد أن تعرف أيها القبطان؟

ـ لقد قتلوا عدة رجال من بحارتي، ومحاولتهم لفك الحصار كانت رائعة؛ إنهم عسكريون محترفون، وأود معرفة طريقة تدريبهم.

تذكر أرحمة سفينته الغطروشة وخادمه ضرارًا، وعرف أن بحارته هم الوحيدون الذين يستطيعون تنفيذ مثل هذه العمليات.

ـ إنهم رجالي يا «لوخ»، ومن غيرهم في هذه المنطقة يستطيعون أن يقوموا بأعمال كهذه؟ سأتفرغ الآن لمعركتي، من الواضح أنكم استوليتم على الساحل برُمَّته، فهل وقعتم مع الجميع نفس الاتفاقية التي وقع عليها الشيخ حسن؟

ـ لا، ليس بعد، أمَا وقد وقعت الهزيمة، فإن الخبر يحتاج إلى بضعة أيام فقط لينتشر، وبعدها سنعرض موضوع الصلح على كل المعارضين لوجودنا في المنطقة، وأعتقد أنهم بعد سماعهم لما حصل هنا سيوافقون.

ـ إذن، فمعركتكم قد انتهت ومعركتي قد بدأت.

ـ ليس بعد يا أرحمة، فأنت أيضًا ستنتهي مع هذه الاتفاقية، فوجودك سيسبب لنا الكثير من المشاكل.

حينها أصدر القبطان صوتًا مألوفًا من فمه للحارس الذي كان يقف خلفه؛ فبعد التجربة التي مر بها في «أبو شهر» مؤخرًا تعلم أن لا يغادر السفينة دون حراسة مسلحة.

وقف الحارس خلف أرحمة، ووضع يده على كتفه بانتظار أوامر القبطان الذي قال:

ـ خذه من هنا إلى سفينتي مقيدًا، وضعه في الحجز في السفينة، ولا تجعله يقابل أحدًا، أو يتحدث مع أحد أبدًا.

نظر أرحمة إلى القبطان بغضب شديد:

ـ هل هذه هي اتفاقياتك يا «لوخ»؟ لقد علمت دائمًا أنك لا تحترم كلمتك، وها أنت تكرر الخطأ، ستدفع ثمن خطئك فادحًا هذه المرة.

لم يتحدث «لوخ»، إنما أشار بيده للحارس ليأخذ أرحمة، وبسرعة؛ فقد كان في حالة استرخاء ولم يرد أن يعكر مزاجه.

ربط الحارس يدي أرحمة خلف ظهره ومسك بذراعه ودفعه تجاه الساحل، مشى الرجلان و«لوخ» يراقبهما حتى اختفيا في الظلام، بعدها أخرج «لوخ» زجاجة خمر صغيرة من سُترته، وفتحها، وقبل أن يشرب منها رفعها قريبًا من وجهه، وتحدث إليها قائلًا:

ـ آهٍ يا صغيرتي، لقد بقيت في جيب سُترتي فترة من الوقت، وقد جعلتك قريبة من قلبي دائمًا، أمَّا الآن وقد انتهت مهمتي، وتخلصت من القراصنة، فقد آن أوان الاحتفال.

ثم وضع الزجاجة في فيه وشرب منها طويلًا.

وصل أرحمة والحارس الذي معه إلى الساحل حيث يُوجد زورق صغير

بانتظار أن يقلهما إلى السفينة «إيدن»، وضع الحارس أرحمة في مقدمة الزورق، وجلس بجانبه، وجلس المجدفان في وسطه، وبعد أن أمرهما الحارس شرع المجدفان في عملهما وتحرك الزورق تجاه السفينة.

وفي وسط المسافة بين الساحل والسفينة ضرب جسم غريب قاع الزورق، ثم فجأة انقلب بمن فيه، أحسَّ أرحمة بيد تمسك به وترفعه إلى سطح البحر، نظر إلى الشخص الذي كان ممسكًا به، فإذا به عبده ضرار. سمع أرحمة أصوات غرغرة بقربه، فإذا بحارته وقد غرسوا سكاكينهم في الجنود الإنجليز قبل أن يسبحوا جميعًا إلى الساحل تجاه الجنوب.

أنهى القبطان «لوخ» زجاجة الخمر بمفرده محاولًا تأمل الوضع في منطقة الخليج بعد أن يوقع الجميع على اتفاقية السلام تلك، ثم تصور الاحتفاء الذي سيجده لدى حكومته لإنجازه للمهمة على أكمل وجه، وعرف أن هذا الانتصار سيمحو الهزيمة التي حلَّت به منذ فترة، وسيعيد له وضعه في قيادة البحرية.

نام القبطان في خيمته بمفرده واضعًا رأسه على الطاولة، فلم يشأ، أو بالأحرى لم يتجرأ أحد ضباطه على إيقاظه؛ فهم يعرفون أنه حين يسكر يصبح سيئ الطباع، فتعودوا تركه حتى يستيقظ، حتى الحارس الذي كان واقفًا على باب الخيمة عرف أن القبطان قد نام فجلس على الأرض، وحضن سلاحه ونام.

وفي صباح اليوم التالي، بدأت أسراب الذباب تحوم حول القبطان كعادتها، فبدأ يضرب بيده لطردها، ثم فتح عينيه قليلًا، وعرف أنه نام سكران في خيمته، قام من كرسيِّه، ومشى إلى خارج الخيمة، وكاد يسقط بعد أن داس على قدم الحارس الذي كان نائمًا، فرفسه في قدمه لإيقاظه، ثم نظر

إلى جنوده الذين كانوا يملأون المساحة بين الخيمة والبحر، فوجد أنهم نيام بعد أن سكروا طوال الليل، وهم يحتفلون بانتصارهم.

صحا الحارس من نومه بعد أن شعر برفسة القبطان، وصرخ في الجميع للاستيقاظ، وفي خلال دقائق كان المخيم كخلية نحل؛ فقد طُويت الخيام وأُطفئت النيران، واصطف الجنود أمام الزوارق بانتظار الأوامر، فجأة صرخ أحد الجنود:

ـ جثث طافية في البحر.

ركض بعض الضباط والجنود لإخراجها من الماء، ووضعوها على البر، كانت ثلاث جثث، وقد نُحرت من العنق، وأصبحت وجوه أصحابها سوداء بفعل نزيف الدم. وسارع أحد الضباط بالقول:

ـ إنهم من جنودنا يا سيدي، وأظن أن عليك أن تلقي نظرة عليهم.

نظر القبطان إلى الجثث، وعرف منها جثة الضابط الذي كان مأمورًا بإيصال أرحمة مخفورًا إلى السفينة.

ـ اللعنة، اللعنة، ابحثوا عن أرحمة ابحثوا عن القرصان، وبسرعة.

بعيدًا، وإلى الجنوب من معسكر الإنجليز، كان أرحمة على متن سفينته الغطروشة جالسًا مع بحارته.

طلب من الجميع التحلق حوله، والاستماع لما سيقوله.

ـ اسمعوا، لقد كانت معركة حامية الوطيس تلك التي خاضها الشيخ حسن وجماعته ضد الإنجليز، وقد أرغم هؤلاء الشيخ حسن على التوقيع على اتفاقية سلام، وهي اتفاقية ستحرمنا من مكان كنا نستخدمه للاختباء والتموين، وليس لنا مكان نستطيع أن نتَمَوَّن منه سوى قلعتنا في الدمام التي

أعتقد أننا سنفقدها قريبًا؛ لأن الساحل كله سيبقى تحت سيطرة الإنجليز فترة طويلة، إن أملنا هو السيطرة على البحرين، ولو حصل ذلك فسنكون أغنياء، وسأوزع عليكم أملاكًا لا تستطيعون عدَّها.

خرجت أصوات الفرح من حناجر البحارة؛ فهم يأملون في الاستقرار، وإنجاب الأطفال، والحياة بهدوء بعد كل تلك السنوات في البحر.

أضاف أرحمة:

ـ إن معركتنا للحصول على البحرين لن تكون سهلة أبدًا؛ فلدينا جبهتان نقاتلهما الآن: جبهة حكام البحرين، والجبهة الأخرى الإنجليز الذين أصبحوا يطالبون برأسي الآن، إننا لن نستطيع أن نظهر بشكل علنيٍّ اعتبارًا من اليوم، وستكون حياتنا أصعب من السابق، وليس لبعضنا سوى بعض، إما أن نصنع حياتنا، وإما أن يصنعها الآخرون لنا.

## الفصل السادس والأربعون

### في البحر من ميناء مخا إلى مسقط

في صباح اليوم التالي، كان «سادلر» وبِشر واقفين على مدخل مكتب ممثل الحكومة في الميناء، وبيد بِشر صرة من المال يهزُّها أمامه.

قال بِشر:

ـ هذا المال لك إن أنهيت إجراءاتنا بسرعة.

أسرعت يد الممثل إلى الكيس، وخطفته من يد بِشر، ثم فتحه وشرع في عد المبلغ قبل أن يرد:

ـ لا بأس، سأرسل الرسول غدًا إلى صنعاء، وأوصيه بعدم التوقف لدى قبيلته بضعة أيام كعادته، بل سأطلب منه أن يركب أسرع حصان يستطيع أن يجده ليعود بسرعة حاملًا موافقة الإمام.

خطف بِشر صرة النقود من الممثل بسرعة قائلًا:

ـ إن هذا المال لك حتى تسمح لنا بالمغادرة دون علم الإمام أو موافقته، فلا وقت لدينا لنضيعه هنا، ما قولك؟ إنه مبلغ كبير من المال.

ـ حسنًا، موافق، ولكن عليكم أن تأتوا هنا غدًا بعد مغيب الشمس دون أن يشعر بكم أحد، وسأدبر أمر مغادرتكم سرًّا.

وفي اليوم التالي، وقبل مغيب الشمس بقليل كان الرجال الثلاثة جالسين على شاطئ البحر بالقرب من الميناء، وما إن اختفت الشمس حتى كان بِشر واقفًا على باب المكتب بانتظار أن ينفذ مندوب الحكومة وعده.

أغلق الممثل مكتبه من الخارج، وطلب من بِشر أن يدعو أصدقاءه دون أن يراهم أحد، ثم سار بهم بعد أن أظلم الليل إلى الميناء حيث كان بانتظارهم مركب صغير ليقلهم إلى عدن، ودَّعهم الممثل طالبًا منهم العودة إلى مخا مرة أخرى، فلم يرد عليه أحد منهم، وتحرك الزورق بهدوء، ودون أي إضاءة إلى خارج الميناء.

وبعد مُضي عدة أيام كان المركب قد وصل إلى عدن، فشاهد «سادلر» عدد السفن الراسية فيه، وكثرة الحركة، فنظر إلى بِشر قائلًا:

ـ هذا ما أستطيع أن أطلق عليه ميناءً، وليس ذلك المكان البائس.

جاء ربان المركب إلى «سادلر»، وطلب من الجميع الاختباء في جوف المركب حتى لا يراهم أحد من المسؤولين عن الميناء، ويطلب أوراقهم، فنزل الجميع إلى الأسفل، وشعروا بالاختناق فجأة؛ فجوف السفينة رطب حار تسرب ماء البحر إليه، وشكل بركة تتحرك بحركة المركب، ويطفو على سطح هذه البركة بضعة جرذان ميتة منذ فترة.

قال «سادلر»:

ـ لا نستطيع أن نبقى هنا لحظة واحدة؛ إنه مكان قذر جدًّا.

قال الربان بنوع من الترجي:

ـ عليك أن تصبر حتى ينتهي مسؤولو الميناء من التفتيش، وأرجوكم لا تحدثوا صوتًا عند سماعكم وقع أقدام على السطح، فهم سيطلبون بعض الرشوة على حسب العادة ثم يغادرون.

مرت الدقائق طويلة جدًّا على «سادلر» ومن معه، فقد أفرغ متعب ما في معدته فاختلط كل ذلك بالماء العفن تحت أقدامهم، أما بِشر فحين شعر بالغثيان بدأ يفكر في سلوى، وفي آخر مرة قابلها وقبَّل يدها، وتمنى أن يعود إليها بأسرع وقت ممكن، فأشغله ذلك عن التفكير في الوضع الذي هم فيه.

سمع الجميع صوت الكُوَّة وهي تُفتح مرة أخرى، فدخل عليهم بعض الهواء المنعش، وتسابقوا للخروج من بطن القارب إلى ظهره.

سأل «سادلر» موجهًا كلامه للربان:

ـ هل انتهيتم؟

ـ نعم، لقد طلبوا رشوة كعادتهم ودفعناها لهم، إنها تكاد تكون وسيلة العيش الوحيدة لمن يعمل في الموانى هذه الأيام.

بعد تموين المركب مرة أخرى، تحرك تجاه الشرق محاذيًا لساحل الجزيرة العربية الجنوبي تجاه الخليج، مرت الأيام رتيبة حارة كعادتها، حتى شعروا أن السفينة غيرت اتجاهها إلى الشمال، وبرزت من الساحل رؤوس الجبال الصخرية السوداء، وتحول الطقس إلى حار رطب فعرفوا أنهم قد اقتربوا من مسقط.

لم يكن «سادلر» ليتخيل أن المركب الذي استقله من مخا على الساحل الغربي للجزيرة العربية قادر على الوصول إلى مسقط في الساحل الشرقي

لها، فالرحلة كانت طويلة ومحفوفة بالمخاطر؛ فرياح المانسون الموسمية كانت تحرك الموج وتجعلهم على حذر مما قد يحدث.

وبعد عدة أيام دخل المركب ميناء مسقط، وكان «سادلر» يقف في مقدمته محاولًا رصد السفن الإنجليزية الراسية هناك، لاحظ وجود ثلاث سفن لا يعرفها تقف بالقرب من بعضها، ثم شاهد السفينة «إيدن» راسية بمفردها، وعلم أن القبطان «لوخ» لا بدَّ أن يكون هنا، وهذا ما سيسهل عودته إلى بومبي، شعر وهلة أنه انقطع طويلًا عن جذوره، وها هو يعود لها مرة أخرى، إلى قيادته، إلى من يتحدث لغته، ومن يعلم؟ قد يكون قريبًا من وطنه أيضًا.

لم يكد ينتظر حتى يقفز من المركب إلى الميناء، وسار تجاه مكتب «غولاب» القريب من الميناء فاستوقفه الحارس الواقف على مدخل المبنى في محاولة منه لمعرفة غرضه من الزيارة، وحين سمعه يتحدث باللغة الإنجليزية سمح له بالمرور؛ فهذه أول مرة يشاهد فيها شخصًا يتحدث الإنجليزية تفوح منه هذه الرائحة الكريهة، تبًّا له، من أين جاء هذا الرجل القذر؟

دخل «سادلر» مكتب «غولاب» دون أن يطرق الباب فوجد شخصًا آخر جالسًا على مكتبه، استغرب «سادلر» وسأل الرجل:

ـ أين السيد «غولاب»؟

ـ ومن أنت حتى تدخل دون أن تطرق الباب أو تستأذن؟

ـ أنا الكابتن «سادلر»، وقد وصلت من مهمة استغرقت مني وقتًا طويلًا، وعلى حد علمي أن هذا مكتب السيد «غولاب» قبل أن أغادر.

ابتسم الرجل وطلب من «سادلر» الجلوس، ثم أمر الخادم بإحضار الماء والـ«شربت» للضابط، ثم جلس مقابلًا له، وشرع في الحديث:

ـ أظنك تعرف بقصة السيد «غولاب»، أليس كذلك؟

ـ أي قصة يا سيدي؟ أنا لا أعرف شيئًا.

ـ لقد ادعى السيد «غولاب» بأن القرصان أرحمة قد اختطف سيدتين بريطانيتين كانتا في طريقهما إلى البصرة، وقد أقلق بهذه القصة القبطان «لوخ» كثيرًا، مما حداه للذهاب إلى البحرين، ثم لـ«أبو شهر» في الساحل الفارسي حيث قضى عدة أيام برفقة المقيم «بروس»، ثم سافر من هناك إلى البصرة، كل ذلك كان ليتأكد من حقيقة القصة، وعندما لم يجد لهذه القصة أساسًا من الصحة، عاد إلى مسقط، حيث دخل إلى هذا المكتب بالذات، وأغلق الباب وأمسك «غولاب» من تلابيبه وهدده، وعندما لم يعترف «غولاب» بأي شيء ربطه على الكرسي الذي تجلس عليه الآن، وأمر جنوده بتفتيش المكتب.

وجد في أحد الأدراج المقفولة صُرَّتين مليئتين باللؤلؤ، وعندما سأله عن مصدرهما قال «غولاب» إنهما هدية له من أحد التجار، إلا أن القبطان لم يقتنع بالجواب فبدأ في ضرب «غولاب» بشدة حتى أدمى وجهه، وعندما يئس من إجابته غرس نصل سكين في ظاهر كفه، حينها انهار «غولاب» واعترف بأن القصة كانت مزورة؛ لأن أحد التجار من البحرين أراد أن يقوم القبطان «لوخ» بقتل القرصان أرحمة ثأرًا لابن الحاكم الذي قتله أرحمة في البحر منذ فترة.

حينها قام الرجل من كرسيه، وأبعد يد «سادلر» عن مسند الكرسي الخشبي الذي كان جالسًا عليه، وأراه حَفْرًا طوليًا حادًّا، ووضع طرف إصبعه عليه قائلًا:

ـ هنا انغرس طرف سكين القبطان بعد أن اخترق كف «غولاب».

سأل «سادلر»، وكان قد نسي نفسه بعد سماع هذه القصة غير المتوقعة:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

عاد الرجل للجلوس على كرسيه مرة أخرى، وأخرج نَفَسًا من صدره وكأنه تذكر أحداثًا لم يرغب في الحديث عنها.

ـ حينها قرر القبطان «لوخ» أن يرسل «غولاب» إلى بومبي بعد أن صادر كل أملاكه هنا في مسقط، وكتب رسالة موجهة إلى الحاكم العام في بومبي يوصيه فيها بمصادرة أملاك «غولاب» في الهند بنتيجة للتكاليف التي تكلفتها البحرية البريطانية في البحث عن السيدتين.

ـ يا لها من نهاية محزنة لهذا الرجل!

ـ لم تنتهِ قصته هنا، دعني أحكِ لك بقيتها، نُقل «غولاب» على ظهر سفينة تجارية، وهو في حالة انهيار نفسي، وحُبس في بطن السفينة مع بعض القراصنة الذين تم القبض عليهم مؤخرًا، وفي الطريق إلى بومبي ابتلع «غولاب» حبلًا واختنق به، وتوفي ورميت جثته في البحر.

ـ هل لي أن أسألك من أنت يا سيدي مرة أخرى؟

ـ اسمي «ماثيوز»، وقد كنت أعمل في المقيمية في «أبو شهر» مع السيد «بروس»، وتم تعييني خلفًا للسيد «غولاب» هنا، وأحمد الله أنني جئت إلى هنا بعد «أبو شهر»، على الأقل لا شيء يضايقني هنا سوى الحر، أما هناك فإن كل شيء يصيبني بالضجر، الناس والذباب والهواء، وحتى السيد «بروس» الذي يسكر دائمًا، إنها حياة أخرى أفضل من سابقتها.

شعر «سادلر» أنه بحاجة إلى أن يستحم ويغير ملابسه ويعيد حياته من

جديد؛ فهو لم يذق راحة الاستحمام الجيد منذ أن وطئت قدماه ساحل القطيف في مهمته لمقابلة إبراهيم باشا.

خرج من المكتب حيث كان بانتظاره بِشر ومتعب، وهما في حالة يرثى لها بعد هذه المهمة، أشار إليهما بيده ليمضوا معه إلى الفندق، لم يطمئن بِشر لهذا اللقاء السريع مع ممثل الشركة، فسأل «سادلر» عن الذي حصل في المكتب.

أجاب «سادلر» وهو يسير مهمومًا تجاه فندق صغير يعرفه قريبًا من الميناء:

ـ من الواضح أن الأمور تتغير بشكل أسرع مما كنت أتوقع يا صاحبي.

ـ هل سمعت شيئًا عن والدي يا «سادلر»؟ إنني لن أرتاح حتى أعرف ما الذي حصل له، فهو من النوع الذي لا يستطيع أن يعيش بهدوء، ودون أن يكون له أعداء، أو يكون في طريقه لصناعتهم.

ـ دعنا نسترح الآن يا بِشر، وغدًا سنسأل عن كل ذلك.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد ليلة طويلة من النوم المريح طلب «سادلر» من متعب البقاء في الفندق، وذهب هو وبِشر في محاولة للبحث عن «لوخ».

كان «سادلر» يتوقع أن يكون القبطان في مكتب ممثل الحكومة البريطانية في مسقط السيد «نيش» الذي سبق أن قابله عندما سطا أرحمة على سفينتهم، وهم في الطريق من بومبي إلى مسقط، ومع أن السيد «نيش» يمثل الحكومة البريطانية في شكلها الرسمي فإنه على علاقة وثيقة دائمًا بمكتب شركة الهند الشرقية التي كان يمثلها السيد «غولاب» ومن بعده السيد «ماثيوز».

استطاع «سادلر» وبِشر شق طريقهما بصعوبة إلى مكتب السيد «نيش»،

فقد كانا بحاجة إلى التعريف بأنفسهما إلى كل شخص قابلاه، ابتداءً من الحارس في الخارج، وحتى سكرتيره الخاص.

انفرجت أسارير القبطان «لوخ» حين شاهد «سادلر» يدخل عليه في أثناء جلوسه مع «نيش» يتبعه بِشر، فقام من كرسيه باسطًا ذراعيه تحية لـ«سادلر»، إلا أن الأخير لم يرغب في احتضانه بعد أن عرف ما الذي فعله بـ«غولاب»، ولم يكن وجه «سادلر» ينم عن سعادة برؤيته أصلًا.

شعر القبطان «لوخ» بذلك، فخفف من اندفاعه وتحيته لـ«سادلر» في محاولة لفهم سبب غضبه فاكتفى بابتسامة خفيفة ومصافحة يد فقط.

جلس «سادلر» وبِشر على الكراسي التي كانت موزعة حول مكتب السيد «نيش»، حينها شرع القبطان بسؤال «سادلر» عن نتيجة مهمته.

ـ أظنك كنت تعلم أن مهمتي مآلها الفشل منذ البداية، فما كان يفعله إبراهيم باشا في مدن وقرى نجد لم يترك للشيطان فرصة للتحالف معه، وأعتقد أن الشيطان نفسه كان ليخجل من تصرفات هذا الرجل.

نظر «سادلر» مباشرة إلى عيني القبطان وسأله:

ـ ما الذي فعلته بـ«غولاب» أيها القبطان؟ هل تعتقد أنك ستفخر بذلك يومًا ما؟!

ـ كيف علمت بما حصل له؟ أظنك سمعت أيضًا بأنه ألف قصة خطف السيدتين الإنجليزيتين نظير بعض المال الذي أخذه من تاجر بحريني حتى نقوم بالتخلص من أرحمة، وقد كلفتني قصته تلك الذهاب بسفينتي إلى البحرين و«أبو شهر» ثم البصرة ولم أجد شيئًا، لقد قتل نفسه كما تعرف، ولم يكن لي ذنب في ذلك.

ـلم يكن لك ذنب!! هل أنت متأكد مما تقول؟ ألم تعذبه وتغرس سكينك في يده حتى يعترف بذنب قد يكون اعترف به للتخلص من العذاب؟ يا لك من رجل قاسٍ!

عندما سمع بِشر اسم أبيه عرف أن أيام أبيه أصبحت معدودة، وخصوصًا أن هناك من يحاول أن يجعل الإنجليز طرفًا في خصومة يكون دم أبيه ثمنها، ولكنه آثر الاستماع لبقية القصة علَّها تُلقي ظلالًا على مصير والده.

نظر القبطان «لوخ» إلى بِشر، وتذكر فجأة أنه ابن القرصان، فطلب من «سادلر» أن يطلب منه الانتظار في الخارج خوفًا من أن يقولا شيئًا في غمرة نقاشهما مما لا يجب أن يستمع له بِشر.

ـ لا، إنه لن يغادر، وسيبقى معي؛ فقد أصبح أخي، ويجب أن يعلم كل شيء، فهو الذي قد أعاد لنا السيف إن كنت قد نسيت ذلك أيها القبطان، هذا السيف الذي قتلت بسببه الكثيرين دون أن تحصل عليه، أعاده لنا بِشر بعد أن ضحى بأخيه أحمد، والآن، هل تحرك شيء في رأسك؟

تدخل السيد «نيش» بعد أن شعر أن النقاش قد يخرج عن السيطرة، فطلب من «سادلر» أن يهدأ قليلًا، ثم أمر بإحضار الـ«شربت» للجميع، وبعدها توجه بالكلام إلى «لوخ»:

ـ أيها القبطان، تحلَّ بالصبر أرجوك، ودعنا نعرف ما الذي حصل مع «سادلر» في مهمته.

ـ لن أقدم تقريري لكم حتى تخبروني أين أجد السيد أرحمة، واعتبارًا من اليوم لن أسميه القرصان كما تعودتم على تسميته.

رد «لوخ» بحدة:

ـ سَمِّه ما تشاء، لقد قتل ثلاثة من رجالي منذ عدة أيام، وأنا ذاهب للبحث عنه، فهو بالنسبة إليَّ في حكم المنتهي، وسأقتله بيديَّ هاتين.

ثم رفع يديه إلى وجهه وكأنه يتأملهما، وواصل حديثه:

ـ أنا ذاهب غدًا للبحث عنه في قلعته في الدمام؛ فهو المكان الوحيد الذي يمكن أن يختبئ فيه.

ثم ضرب قبعته على الطاولة وقام مغادرًا.

وقف بِشر معه وقال:

ـ أيها القبطان، أنا أعلم بأن لا شيء سيغير رأيك، ولكني أطلب منك أن تسمح لي بمرافقتك، فإني أريد أن أراه، وأتحدث معه قليلًا قبل أن يموت.

نظر «سادلر» إلى بِشر نظرة استغراب، فلم يكن يتوقع أن يطلب بِشر من القبطان هذا الطلب، فضرب بيده على رأسه في إشارة إلى استغرابه مما يحصل.

## الفصل السابع والأربعون

**قطر، الساحل الغربي من الخليج**

أمر أرحمة بحارته بالاتجاه شمالًا، إلى شمال قطر، مخبأه المفضل حين تضيق عليه الأمور، وبعد بضعة أيام كانت الغطروشة راسية في مكانها المعتاد بين الساحل القطري وجزيرة صغيرة إلى الشمال تظهر وتختفي على حسب المد والجزر، رُميت المرساة، وشرع الجميع في الاسترخاء والطبخ وعمل الشاي والحديث كعادتهم حين تُرمى مرساة السفينة التي هي إشارة للاسترخاء، وقد بقيت المرساة لهذا السبب شعارًا جميلًا يحبه البحارة؛ لأنها دليل الراحة بعد عناء السفر أو القتال.

استدعى أرحمة عبده ضرارًا، وطلب منه الذهاب إلى الزبارة واستدعاء صديقه أبي مطر بشكل سرِّي؛ لأنه قد اشتاق إليه، ويريد أن يعرف ما الأخبار في المنطقة.

نزل ضرار إلى الساحل ليلًا، وفي الصباح كان قد استأجر فرسين وذهب إلى الزبارة، وفي مساء اليوم نفسه كان يسير في طرق الزبارة محاولًا الوصول إلى منزل أبي مطر دون أن يلفت إليه الأنظار.

سمع أبو مطر طرقًا على الباب، وعندما فتحه شاهد ضرارًا واقفًا أمامه وفي يده ورقة صغيرة، ودون أن يفكر مد يده لاستلامها فقرأ محتواها، ثم أشار إليه بالانتظار، وبعد دقائق كان قد عاد مرتديًا كامل ملابسه وانطلقا تجاه الشمال.

طوال الطريق كان أبو مطر يفكر في كيفية رد فعل أرحمة حين يعرف أن بِشرًا حيٌّ يُرزق، وأنه كان قريبًا منه فترة طويلة دون أن يعرف، فعندما كان أرحمة في قلعته في الدمام كان بِشر في القطيف يلتقط كل حركة لوالده، فهل سيقبل بوجود ابنه بِشر حيًّا أو إنه سيرغب في قتله مرة أخرى؟ كل تلك الخواطر كانت تمر على أبي مطر، فهو لا يعلم ما الذي حل ببِشر بعد أن ذهب إلى القطيف بناء على نصيحته. قرر أن ينسى التفكير بالأمر بعض الوقت حتى يصل إلى أرحمة، ويعرف ما الذي يريده منه.

وفي اليوم التالي كان أرحمة يحتضن أبا مطر بقوة ويقبِّل رأسه؛ فهو من القليلين الذين يثق بهم ثقة تامة، جلس أبو مطر في المكان الذي أشار إليه أرحمة بالجلوس فيه، فأحضر له أحد البحارة الشاي والتمر، نظر إلى وجه أرحمة الذي كان مستبشرًا وسعيدًا بوجوده، فأحس بالراحة، وأن باستطاعته أن يتحدث معه عن كل شيء:

ـ سأقول لك خبرًا، وأعلم أنك ستفرح به يا أرحمة.

ـ قل لي يا صديقي العزيز، فلي فترة طويلة لم أسمع خبرًا يسعدني، ما هو؟

ركز أبو مطر نظره على عين أرحمة في محاولة لمعرفة رد فعله:

ـ إن ابنك بِشرًا حيٌّ يرزق على حد علمي؛ فقد نجا من البحر الذي رميته فيه.

نزلت من عيني أرحمة الدموع غزيرة، ولكنه لم يشأ أن يشاهده أحد يبكي، فلف غترته على وجهه بعض الوقت، ولاحظ أبو مطر اهتزاز كتفيه ورأسه وجسده، فعرف أنها دموع الفرح، وحين أنزل الغترة عن وجهه، كانت هناك ابتسامة كبيرة تعلو مُحَيَّاه.

ـ كيف حدث ذلك يا أبا مطر؟

ـ لقد استطاع السباحة إلى الساحل، وجاء إلى الزبارة لمقابلتي كما يدَّعي، ولكنه كان في حقيقة الأمر يريد أن يقابل سلوى، تعرفها طبعًا يا أرحمة.

قال أبو مطر ذلك ثم غمز أرحمة بعينه محاولًا تليين قلبه تجاه هذه الفتاة وأهلها، لم يستجب أرحمة لإشارة أبي مطر.

ـ وهل سمعت شيئًا عن أحمد؟

ـ لقد تُوفي في البحر بعد دقائق من رميه فيه، رحمة الله عليه، لم يستطع أن يستمع لتعليمات بِشر له، فقد أصابه نوع من الهستيريا وغرق.

نكس أرحمة رأسه، ونظر إلى الفراغ، وكأنه يحاول أن يسترجع الأحداث التي حصلت في ذلك اليوم، ثم رفع رأسه:

ـ وأين ذهب ابني بِشر بعد ذلك؟

ـ نصحته أن يكون قريبًا منك حتى يعرف ما الذي قد يحصل لك، فكان أن قرر أن يعيش في القطيف متحريًا أخبارك ومتابعًا تحركاتك، ولا أعلم أكان ما زال هناك أم أنه ذهب إلى مكان آخر.

تنازع أرحمة شعور غريب، فهل يذهب للبحث عن ابنه ويعتذر له أو يذهب للأخذ بثأره ونسيان ابنه، مد يده إلى فنجان الشاي الذي أمامه ليشرب منه فشاهد رجفان يده ونفور عروقها، ثم تأمل ذراعه، فوجد أن

جلده قد انكمش، وبانت التجاعيد واضحة عليها، رفع الفنجان قليلًا ليعرف درجة الرَّجَفان فلاحظ أن الشاي يكاد ينسكب إن لم يسند يده، كانت عينا أبي مطر مركزتين على ما يفعله أرحمة؛ فقد جرت العادة في المنطقة أن يتم كي الذراع لوقف اهتزازها، ولم يغِب عن عيني أبي مطر وجود العديد من علامات الكي على ذراع أرحمة، فابتسم محاولًا إضافة نوع من الفكاهة على الموضوع.

ـ لو شويت ذراعك كلها فلن توقف رَجَفان يدك يا أرحمة؛ لقد كبرت، ويجب أن تعترف بذلك، وتتوقف عن تعذيب نفسك.

ـ أعلم ذلك يا صديقي، وكأنك تعرف ما أفكر فيه، لم يبقَ لي سوى القليل من الوقت لأقوم بما يجب عليَّ القيام به.

ـ هل ستتصالح مع ابنك بِشر، وتعيد المياه إلى مجاريها؟

ضحك بصوت عالٍ وقال:

ـ لقد ذكرتني بصديقي إبراهيم بن عفيصان، هذا الرجل الطيب الذي لا أعلم أين هو الآن، كنت كلما قلت له شيئًا من ذلك، شرع يحدثني عن إصلاح ذات البين ونسيان الماضي، إنني يا صديقي لا أستطيع نسيان الماضي، كم كنت أتمنى أن أستطيع! ولكني من النوع الذي عندما يقرر على شيء يبقيه في رأسه، ولا يستطيع تغييره ويحاول كل ما يستطيع لتحقيقه، كم هو سيئ أن يكون المرء هكذا يا صاحبي، إنني أحسد الناس الذين يستطيعون نسيان الماضي، أو يستطيعون تغيير قراراتهم بناء على الظروف، ولكني مع الأسف! لست من هذا النوع، سأموت قريبًا يا أبا مطر، ولكن يجب أن يكون لموتي قيمة.

ـ دعنا ننسَ ذلك قليلًا يا أرحمة، لقد سمعت مؤخرًا أن الإنجليز يتحركون

بشكل مكثف على امتداد الساحل يوزعون الطعام والـ«رز» الذي يحضرونه من الهند، هل تحب الـ«رز» يا أرحمة؟

ـ نعم، كان بحارتي الهنود يطبخونه في السفينة، وهو أسهل طبخًا وأخف من القمح وله رائحة زكية.

ـ إن الإنجليز يحضرون منه كميات كبيرة إلى الخليج، وقد بدأ الناس في أكله بشكل كبير، حتى إنهم بدأوا ينسون الحبوب التي كانوا يستوردونها من الأحساء ونجد، لقد قالوا أيضًا إنهم سيوقعون اتفاقيات مع مشايخ الخليج لنشر الأمن ووقف أعمال القرصنة.

ثم ضحك أبو مطر، ونظر بخبث إلى أرحمة، وأكمل:

ـ وأعتقد أنهم يقصدونك حين يتحدثون عن أعمال القرصنة، وأن لديهم أيضًا مشاريع لاستخراج النفط من باطن الأرض، ولا أعلم ما الذي سيفعلونه حين يستخرجونه، إننا ندهن به خشب السفينة، ونعالج به مرضانا حين يعانون الجرب، هل يعاني الناس بكثرة الجرب في بلادهم أيضًا؟

لم يكن أرحمة يريد أن يضحك؛ فقد كان يفكر في شيء آخر:

ـ إن ما تقوله يا صديقي يُوحي لي بأن دوري انتهى، وكلي أمل في أن أشاهد ابني بِشرًا قبل أن أمو....

قاطعه أبو مطر بحدة:

ـ ما لك تكثر من ذكر الموت يا أرحمة؟! لقد كنت أكثر إقبالًا على الحياة من قبل، ما الذي تغير؟

ـ لقد تغير الكثير، فمنذ مقتل ابن الشيخ سلمان وأنا أعلم أن أيامي معدودة، لقد كان لي عدو واحد سابقًا، وهم أبناء عمومتي آل خليفة، وكنت

أعلم أن بدخولي في صراع مع البريطانيين فإني سأخسر موقعي في الخليج، ولهذا لم أحاول أن أسطو على سفنهم أبدًا، بل ركزت على قتال أعدائي فقط، أما الآن، وبعد أن أجبر الإنجليز شيخ القواسم على توقيع اتفاقية سلام، وهم الآن بصدد توقيع هذه الاتفاقية مع بقية شيوخ الخليج، فإن هذا سيجعلني خارج هذا النظام الجديد، وسأبدو شاذًّا، فلو حاولت قتال أي طرف فإني سأظهر بمظهر المتمرد، وستلتصق بي كلمة القرصان كجلدي، ولهذا فإن الوضع الجديد يوجب عليَّ أن أنتهي من مهمتي بأسرع وقت ممكن، والآن قل لي يا أبا مطر، كيف لي أن أجد ابني بِشرًا؟

زفر أبو مطر بقوة، ثم نظر إلى البحر، وكأنه يطلب المساعدة، وبعد أن أغمض عينيه بضع ثوانٍ أجاب:

ـ لا أعلم يا أرحمة، وليس لي علم من أين يجب أن أبدأ البحث، الله أعلم به الآن، دعنا ننتظر، فقد يظهر من حيث لا نعلم.

ـ ليس لي وقت لأُبدِّده في الانتظار، نحن نستعد لنُغير على سفن آل خليفة قبل أن يُغيروا هم علينا، سأودعك يا أبا مطر وداع من لا يتوقع الحياة، وسأعطيك وصيتي لتحفظها لديك، وتقرأها على بِشر حين يظهر، وهذه الصُّرة بها بعض المال لبِشر، لا تُعْطِها إيَّاه إلا بعد أن تتأكد من موتي، هل فهمت يا صديقي؟

ـ نعم، إن لم أفهمك أنا فمن يستطيع؟!

ثم رفع أرحمة صوته لينادي ضرارًا:

ـ مع الفجر انطلق بنا إلى قلعة الدمام.

## الفصل الثامن والأربعون

**مجلس الشيخ سلمان، البحرين**

فرغ الشيخ سلمان من فنجان القهوة الذي كان يشربه وهزَّه هزًّا واضحًا في إشارة إلى أنه اكتفى، ثم التفت إلى التاجر صالح الذي كان جالسًا عن يساره:

ـ قل لي ما الذي حصل يا صالح؟ هل فشلت خطتك؟

سلم التاجر صالح فنجانه إلى الرجل الواقف أمامه دون أن يهزّه؛ فقد كان بحاجة إلى أن يبلل ريقه بعد أن سمع سؤال الشيخ سلمان.

ـ أظنها فشلت يا شيخ، لقد اعترف ممثل شركة الهند الشرقية في مسقط بكل شيء للقبطان «لوخ»، وأظن أن القبطان قد قام بتعذيبه حتى يحصل على اعترافه، ولكن المشكلة أن الرجل الهندي الذي عرفني إلى «غولاب» قد هرب من البحرين بعد أن عرف بالذي حصل مع «غولاب» ولم أجد له أثرًا.

ـ هل أخذ شيئًا من مالك حين اختفى؟

ـ لا يا سيدي، ولكني كنت أعتمد عليه في تجارتي، فلديه الكثير من

العلاقات مع الهنود الذين يعملون في منطقة الخليج، وكان هؤلاء يسهلون لي أعمال التجارة بطريقة أو بأخرى.

ـ دعه يهرب يا صالح، فمن يدري ما الذي كان سيحصل له لو وقع في يد القبطان، فقد سمعت أنه قاسي القلب، ولكن لماذا لم يحاسبك أنت على أساس أنك الذي سلمت «غولاب» المال؟

ـ لقد كان «غولاب» صادقًا معه؛ فقد قال للقبطان إنني سلمته المال حتى يَحِيك خطة للتخلص من أرحمة، ولكنه أيضًا اعترف بأن القصة كانت مختلقة بالكامل من قِبَله، وليس لي دخل بها، ولهذا أغلق القبطان القضية بعد وفاة «غولاب»، ولم يشأ أن يواصل في الموضوع.

نظر الشيخ إلى الجالسين في المجلس ثم قال بصوت عالٍ:

ـ اسمعوا أيها السادة، أنتم تعلمون أن أرحمة قد قتل ابني غدرًا في البحر، وقد دفنت ابني بثيابه، ولم أقبل عزاءً فيه منتظرًا الوقت المناسب للأخذ بالثأر، وقد أعطيت التاجر صالحًا بعضًا من الوقت لترتيب خطة قد تنهي هذا المجرم، ولكن خطته مع الأسف! لم تنجح، وها أنا أعلن لكم أنني سأتحرك خلال خمسة أيام لمقاتلة أرحمة، والأخذ بثأري منه، فمن أراد أن يرافقني فليكن في الميناء حين نغادر، لن أجبر أحدًا على مرافقتي، ولكن ليعلم الجميع بأن البحر لن يكون آمنًا بالنسبة إلينا إن بقي هذا الرجل يصول ويجول فيه، تجهزوا فقد تكون أمامنا معركة حاسمة.

تدخل الدكتور «جون» مدير الإرسالية الأمريكية في المنامة محاولًا تغيير رأي الشيخ:

ـ سيدي الشيخ، هل تذكر أني أخبرتك عن الرجل الذي كان يعمل مع أرحمة، والذي كان يعاني الكثير من الأمراض حين جاء إلينا، وبعد عدة أيام تُوفي؟

ـ نعم أذكر أيها الدكتور، وما الذي استجد في الأمر؟

ـ لم يستجد شيء غير إعلان نيتك في القتال، ولكن دعني أذكرك بأن الرجل الذي مات عندنا يُدعى أبو مسفر وأنه قال إن أرحمة مصاب بالكآبة بعد أن سرق ابنه السيف منه، وقد سمعنا أيضًا أنه قتل ابنه برميه في البحر، إن هذا الرجل وحش بكل معنى الكلمة، فمن يتجرأ على قتل ابنه يستطيع أن يفعل أي شيء، لقد فقد هذا الرجل كل إحساس بالإنسانية، ونصيحتي أن تتركه؛ فمثل هذا الرجل نجح في أن يصنع الكثير من الأعداء، ومثله لن يعمر طويلًا.

ـ ولكن قلبي لا يطاوعني بتركه يعيش بعد أن قتل ابني، إن مسألةِ الثأر هذه تكاد تجري في عروقنا مجرى الدم، وأظنك تعرف ما أعني، فقد عشت بيننا سنوات طويلة جعلتك تفهمنا.

ـ إنني أفهم كل ذلك أيها الشيخ، ولكني أعرف أن دينكم يأمر بالعفو وأن الرب يكافئ العافين، ومن في قلوبهم رحمة، فلماذا ننسى كل ذلك؟ إنك بقرارك هذا ستأخذ كل إخوانك وأهلك ومحاربيك إلى البحر لتحارب شخصًا قد يموت اليوم أو غدًا.

ـ إن التفكير في الثأر يمنعني من لذيذ النوم ومن الاستمتاع بالطعام يا «جون»، فدعني وما عزمت.

لم يستطع أحد بعد هذا الحديث أن يتجرأ ويفتح الموضوع مع الشيخ.

خلال الأيام التالية، كان ميناء المحرق قد تحول إلى خلية نحل، فكانت هناك مجموعات من الرجال تُحَمِّل السفن بالمؤونة، ومجموعات أخرى تصلحها، وتتأكد من سلامتها قبل الإبحار، ومجموعة أخرى مهتمة بجمع السلاح، وعدِّه وتوزيعه على السفن، حتى جاء اليوم الموعود.

فبعد أن أدى الشيخ سلمان ومن معه صلاة الفجر على سطح السفن، أعطى إشارته بالتحرك تجاه الدمام.

تحركت السفن رويدًا رويدًا، وكأنها مترددة في تنفيذ الأمر المعطى إليها، ثم دفعتها الرياح مسرعة تجاه الشمال الغربي، لم يكن الرجال الذين يقفون على سطحها ينظرون حيث تسير، بل كانت أعينهم مركزة على الميناء الذي وقفت عليه أعداد كبيرة من البشر، هم أبناؤهم وزوجاتهم وآباؤهم، كان الجميع يبكي بحرقة على هذا الفراق القاسي، وكلما ابتعدت السفن من الميناء زاد النحيب، ذَرَف الرجال الدموع؛ فليس هذا أوان مقاومة العواطف، وأضحت السفن صدًى لنحيب الميناء، كان الشيخ يسمع كل ذلك، ولكنه حاول أن يقاوم عاطفته؛ فأبقى ناظريه على الأفق مركزًا على ثأره الذي يجب أن يأخذه محاولًا عزل نفسه عن صوت البكاء بتذكر ابنه في صغره، وخلال لعبه معه.

أخرج زفرة من صدره، ثم أطلق العنان لخياله ليأخذه بعيدًا في التاريخ، حين كان يضع الغترة على رأس ابنه، ويضع العقال عليها، ثم يسمع ابنه يقول له: أريد أن يكون شكل غترتي كما هي غترتك تمامًا يا أبي.. حاول الأب أن يحقق للطفل طلبه، ولكنه يئس من ذلك بعد فترة، وطلب من الأم أن تتولى الموضوع، فما برح الطفل أن بكى بحرقة على ترك والده له.

هل نحيب الناس حوله ذكره بنحيب ابنه في ذلك الوقت؟!

صرف هذه القصة من رأسه، وإذا بقصة أخرى يرى ملامحها تتشكل أمامه بخيالاتها وشخصياتها؛ حين طلب من أحد رجاله أن يدرب ابنه على السباحة، فطلب المدرب من الشيخ أن يعطيه كامل الصلاحيات على الابن خلال فترة التدريب؛ لأن الابن سيأتي باكيًا لأبيه من حين إلى آخر، والمدرب لن يحتمل غضب الأب حين يسمع شكاوَى الابن المتكررة.

ضحك الأب حينها، وأعطى المدرب كامل الصلاحيات على الابن، وفي اليوم التالي جاء المدرب مبللًا وباكيًا للشيخ طالبًا إعفاءه من مهمة التدريب، وحين سأله الشيخ عن السبب، أمسك المدرب بملابسه المبتلة قائلًا: لقد دفعني ابنك من الميناء إلى البحر حين رفعت عليه صوتي، وأضحك مني الجميع، ولن أستطيع بعد الآن أن أقوم بواجبي في تدريبه.

ابتسم الأب متزامنًا مع رؤية نفسه يبتسم في القصة.

مجموعة من القصص والخيالات مرت على ذاكرة الشيخ أبعدته عن واقعه، ولكنها أيضًا أعطته دفعة للأخذ بثأره حين جرحته سكين الواقع بأنه لن يرى ابنه مرة أخرى.

# الفصل التاسع والأربعون

## في الطريق إلى الدمام، الساحل الغربي من الخليج

عزم القبطان «لوخ» على التخلص من غريمه أرحمة بأسرع وقت ممكن، فكل القبائل الحاكمة قد وقعت على اتفاقية السلام، واقترح «لوخ» حينها إطلاق تسمية «الساحل المتصالح» على المنطقة التي كانت سابقًا مأوى لمعارضي الوجود البريطاني في الخليج، أو لأولئك القراصنة الخارجين على القانون الذين يسطون على كل سفينة تمر من أمامهم.

أبحرت السفينة «إيدن»، وعلى متنها القبطان «لوخ» و«سادلر» وبِشر تتبعها سفينة قتال أخرى وسفينة تموين من ميناء مسقط تجاه الدمام.

لم يكن القبطان «لوخ» يرغب في وجود بِشر معه على السفينة إلا أنه أذن لبِشر بمرافقته؛ لأنه يعتقد أن بِشرًا سيساعده على تحديد مخبأ والده ومعرفة تحركاته، أما بِشر فكان كل ما يهمه أن يرى والده، ولو لحظة قبل أن يفقده.

على سطح السفينة «إيدن» كان بِشر يتأمل مغرب الشمس حين وضع «سادلر» يده على كتفه، وسأله السؤال المتوقع:

ـ لماذا طلبت أن ترافق القبطان يا بِشر؟ أنا أعلم أنك تكرهه ولا تود رؤيته، فما الذي غير رأيك؟

لم يلتفت بِشر، بل أبقى عينيه مركزتين على الشمس التي بدت حمراء خلف الأفق:

ـ أنا أعلم أنك تريد أن تذهب إلى بومبي لتعود لكتيبتك وتكتب تقريرك، وأنا سأبقى في هذه المنطقة، والناس لا يعرفونني هنا، ولكنهم يعرفون أبي، فحين أقول أنا بِشر فهذا لا يعني شيئًا، ولكن حين أقول أنا بِشر بن أرحمة حينها تتسع أعين الناس وتختلف ردود أفعالهم ما بين معجب وكارهٍ، أنا بِشر بن أرحمة أحببت ذلك أو كرهته، أنا لم أطلب أن أكون ابنه، ولكن بما أني خُلقت من صلبه فله عليَّ حق، وحقه عليَّ أن أبره حيًّا وميتًا، ولا أريد أن يموت وهو غاضب عليَّ، أريده أن يرضى عني، وأريد أن آخذ موافقته للزواج من حبيبتي سلوى.

ـ ولكنك تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تكون مع القبطان «لوخ».

ـ إن القبطان مع الأسف هو الذي يملك الإمكانات للبحث عن والدي، وهل تعتقد أني سأسبقه في إيجاده، وأنا أستجدي الناس للسفر معهم في سفنهم الصغيرة؟ إنني لا أملك مالًا يا «سادلر»، ليس لديَّ ما يمكنني أن أعيش به، فما بالك بالسفر والبحث عنه؟

ـ ولكني وعدتك بأن أعطيك مالًا حال انتهاء مهمتي للقاء إبراهيم باشا.

ـ متى يا «سادلر»؟ عليك أولًا أن تعود لبومبي، ثم تكتب تقريرك، ثم تنتظر أن يقرأه أحدهم، ثم تنتظر أن يدفع لك أحدهم، ثم ترسل المال من هناك، أكون قد مت أنا.

نكس «سادلر» رأسه:

ـ صحيح، الأمر بحاجة إلى وقت طويل يا بِشر، فهمت رغبتك في مرافقة القبطان الآن.

ـ دعني أذهب لأنام الآن يا صديقي، هل تعلم أحدًا يستجدي مرافقة جلاد أبيه غيري في هذه الدنيا؟ تصبح على خير يا «سادلر».

أخرج «سادلر» قلمًا وورقة من جيب سُترته وكتب التالي:

«منذ نحو أكثر من عام، استيقظت من نومي بسبب ألم شعرت به على صدري، كان حد السيف الذي أرسله حاكم الهند إلى إبراهيم باشا قد استقر في أسفل قفصي الصدري، ممسكًا بقبضته بشر ابن القرصان أرحمة. كان غاضبًا مني إلى درجة أنني شعرت أنه لن يتردد في غرس النصل ليصل إلى ظهري، ولكن بحمد الله توصلنا إلى اتفاق وانتهت المشكلة، ثم مرت الأيام وأصبحنا صديقين، ورافقني بِشر في رحلتي من شرق الجزيرة العربية إلى غربها ومن هناك إلى شرقها مرة أخرى عن طريق البحر، مررنا خلالها بالكثير من الصعاب والأزمات، واكتشفت في هذا الشاب صفات رائعة لم أكن لأكتشفها لو أننا لم نقرر أن نجتاز تلك الفيافي الخطرة.

لقد أصبح بِشر صديقي، ولن أتردد في أن أفديه بحياتي، اكتشفت أنه إنسان بكل معنى الكلمة، أليس غريبًا أن كلمة إنسان تحمل عدة معاني؟

إن الإنسان في نظري هو الذي يحمل قلبًا طيبًا عطوفًا، الذي يملك الصفات الإنسانية التي تقدرها البشرية، الصدق الأمانة الوفاء الحب الكرم... إلخ. إن كل هذه الصفات صفات جميلة، سواء حملها مسيحي

أو مسلم أو يهودي أو بوذي، إنها صفات ترفع الإنسان إلى مرتبة الملائكة؛ هؤلاء الملائكة الذين يؤمن بهم كل هؤلاء.

لقد تنقلت في بقاع الأرض وعاشرت الكثير من البشر، ووجدت كم هم متشابهون في كل شيء! في البكاء والضحك والأمل والحلم والحب والموت، إن اختلافهم يكمن في لغتهم وأشكالهم وألوانهم، وهذه كلها أمور ظاهرة ليست عميقة كعمق الروح والحب والأمل والسعادة والموت، إننا في حقيقتنا مثل البيت الذي طُليت كل غرفة فيه بلون مختلف، فنحن نشكل بمجملنا البيت، وإن اختلفت كل غرفة عن غيرها.

لقد أضحكني الكثير من الناس، وأبكاني الكثير أيضًا، ويجب أن أعترف بأنني قتلت القليل منهم خلال المعارك التي شاركت فيها، ولكني لم أشعر بلذة الانتصار، بل كان هناك ألم يعتصرني في كل ليلة أضع فيها رأسي لأنام؛ فأشباح من قتلت تظهر لي فجأة في منامي وكأنها تلومني، إنها تظهر بشكلها الأخير، ملطخة بالدم ومشوهة، أو مغروسًا بها نصلي أو رصاص بندقيتي، أليست هذه رسالة؟ إنها رسالة تقول لي: إن ما قمت به عمل سيئ سيبقى معك إلى الأبد.

أذكر أن بشرًا قد قال لي مرة إن في قرآنهم آية تقول: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

كم أعجبتني هذه الآية! فالآية تقول: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا ﴾، أي نفس، لم يحدد ماهية تلك النفس، فبقي المعنى معلقًا بأي نفس أو روح، ثم يكمل: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾، أيضًا لم يحدد هنا هوية الناس، بل قال الناس جميعًا.

يا ليتنا نلتفت إلى ما تقوله الأديان لنا! إننا في خضم صراعنا على المال والسلطة والجاه والنفوذ نقوم بكل الأعمال القذرة بعضنا ضد بعض، متناسين أننا مخلوقات صغيرة لنا دور أسمى نقوم به في هذا الكون الواسع.

لقد استفدت كثيرًا من وجودي مع بِشر ومتعب، وغيرهما ممن قابلت على هذه الأرض، وكونت صداقات ستبقى معي حتى أموت».

- إنني أشعر بالتعب الآن، سأكمل غدًا.

## الفصل الخمسون

### المعركة، ساحل الدمام

وصل أرحمة إلى قلعته في الدمام برفقة ضرار وبحارته، وحين سأل عن أبي مسفر الذي افتقده عند البوابة قيل له إنه مرض مرضًا شديدًا ولم تنفع معه كل الأعشاب المعروفة أو الكي، وبعدها تم نقله إلى مستشفى الإرسالية في البحرين وتُوفي هناك.

ـ وما الذي أصابه؟ كان بصحة جيدة لا يشكو من شيء.

رد عليه أحد الحراس:

ـ لا نعلم يا سيدي، لقد شعر بالدوخان وسرعة في دقات القلب ورَجَفان في الجسد، فأعطيناه بعضًا من الأعشاب التي كان يداوينا بها، وبعد مرور يومين ساءت حالته، وبدأ يرجف بشدة، فكويناه في أعلى رقبته وأسفل ظهره ومقدمة رأسه، ولكنه لم يستجب، بعدها قررنا نقله إلى مستشفى الإرسالية في البحرين لعلّهم يعالجونه هناك، وبقينا معه عدة أيام، وبعد أن طالت المدة وضعنا في جيبه بضعة دراهم على أمل أن يعود بها حين يُشفى، وعدنا إلى القلعة، وقد أخبرنا الناس هناك بأنه تُوفي بعد مغادرتنا ببضعة أيام.

ألقى أرحمة نظرة سريعة على القلعة التي طالما حكمها، فطلب من الجميع تحميل كل ما في المخازن من بارود وطعام وسلاح في سفنه والاستعداد لمغادرة القلعة على أن لا يبقى فيها سوى رجلين للحراسة فقط.

استغرق تحميل كل ذلك يومًا كاملًا، وبعدها فرغت القلعة من ساكنيها وأضحت مقفرة، تأمل أرحمة القلعة لآخر مرة قبل أن يأمر الجميع بالتوجه للسفن.

تحركت سفن أرحمة كلها، كانت ثلاث سفن تقودها الغطروشة محملة بالرجال والسلاح والعتاد والبارود تجاه البحرين، وحال خروجها من البحر واجهت الأسطول البحريني القادم لملاقاتها، فصرخ ضرار:

ـ سيدي، إنها سفن آل خليفة تجاهنا مباشرة، ما الذي تريدنا أن نفعله؟

ـ أبقِ السفن على مسارها، واطلب من الرجال أن يستعدوا للقتال، ستكون المعركة الأخيرة معهم.

أمر ضرار رجاله، فأرسلوا إشارات إلى السفينة المنورة والسفينة الأخرى، حينها دبت الحركة عليها، فبدأت المدافع تظهر من كُوَّاتها، ولمعت السيوف بعد أن خرجتِ من أغمادها، وبدأت صرخات الحرب تنطلق من أفواه البحارة.

أما على السفن البحرينية، فقد كان الرجال ينشدون أناشيد القتال ويحركون نصال سيوفهم تجاه سفن أرحمة، ومن بعيد ظهرت السفينة «إيدن» بعد أن لاحظ بحارتها هذا التجمع للسفن في مكان واحد.

نظر القبطان «لوخ» من خلال المنظار المقرب، وعرف أن هذه ستكون

معركة فاصلة، فأمامه سفن آل خليفة المستعدة للقتال، وعن يساره سفن أرحمة الذي آثر القتال على الانسحاب.

أمر «لوخ» برمي المرساة والانتظار لمعرفة نتيجة المعركة، فإن كان موت أرحمة سيكون على يد آل خليفة فليكن، فلن يتدخل قبل أن يعرف نتيجتها.

بدأ الطرفان في القصف المدفعي، وانفتحت أبواب الجحيم، وتفجرت أجزاء من السفن آخذة معها أطراف المقاتلين، وامتلأ الجو بالدخان، ووجد القبطان وضباطه صعوبة في معرفة ما يحدث، ومع مرور الوقت كانت السفن المتقاتلة تقترب بعضها من بعض، وفجأة كانت تخرج الكلاليب من سفينة لتسقط على أخرى ساحبة إيَّاها إلى جوارها ليسهل على المتقاتلين القفز إليها، امتلأ البحر بالجثث والدخان وحطام السفن.

كان بِشر يراقب كل ذلك من السفينة «إيدن»، وقرر القفز إلى البحر للوصول إلى سفينة والده، وبدأ في السباحة بأقصى سرعة للوصول إليه قبل فوات الأوان.

جاء أحد الضباط إلى القبطان وأخبره بأن بِشرًا قد قفز إلى البحر، توجهت أنظار القبطان ومرافقيه إلى حيث كان بِشر يسبح بأقصى سرعة تجاه الجحيم، قال القبطان:

ـ من يراهن على أن الشاب يستطيع الوصول إلى أبيه قبل أن يموت أحدهما؟

سأل مساعده الذي لم يستطع إخفاء ابتسامته:

ـ على ماذا يا سيدي؟

ـ على زجاجة من الويسكي الرائع الذي نحفظه للمناسبات السعيدة فقط.

ـ سأراهن على ذلك يا سيدي، فأنا أرى أن الشاب سيصل إلى والده قبل أن يموت أحدهما.

ـ أظنك ستخسر، ولكن دعنا نستمتع بالمنظر، فهذا أمر لا يتكرر كثيرًا هنا.

حاول بِشر السباحة بسرعة قدر استطاعته، ولكنه بدأ يشعر بالتعب وأن قواه تخونه، فالمسافة بينه وبين سفينة والده بعيدة، فبدأ يخفف سرعته ليوفر طاقته.

وعلى متن الغطروشة كان أرحمة بن جابر إلى جانب عبده ضرار يقاتلان بكل قوة وقد امتلأت ملابسهما بالدماء وتمزقت بفعل النار المشتعلة حولهما، أما الشيخ سلمان فقد كان يبحث عن عدوه اللدود وسط هذا الدخان الكثيف حاثًا رجاله على مواصلة القتال والثبات.

وبمرور الوقت واقتراب السفن بعضها من بعض خف القصف المدفعي واتضحت الرؤيا، فشاهد الشيخ سلمان عدوه أرحمة يقاتل على ظهر الغطروشة، فأمر بحارته بالاقتراب منها قدر الإمكان.

اجتمعت ثلاث سفن حول الغطروشة ورُميت منها الكلاليب، فأضحت الغطروشة محصورة بينها، وعلى ظهرها أرحمة وضرار وبعض الرجال يقاتلون قتال المستميتين، فبدأ رجال أرحمة يتساقطون من حوله واحدًا بعد الآخر، فقال ضرار لسيده:

ـ إننا محاصرون يا سيدي، ولم يبقَ لدينا رجال للدفاع عن الغطروشة.

ـ أشعِل لي مِشعلًا بسرعة قبل أن يقتربوا منا.

تناول ضرار مشعلًا كان معلقًا على سارية السفينة، وقربه من النار التي كانت مشتعلة بفعل القصف، ثم قال:

ـ ما الذي تريدني أن أفعل به يا سيدي؟

لم يجب أرحمة عن سؤال ضرار، ولكنه أخذ المشعل وتراجع إلى خلف السفينة متفاديًا ضربات السيوف التي توجه إليه، ونادى على ضرار لمرافقته، وحين اقترب من الكُوَّة التي وضعت فيها براميل البارود فتحها برجله.

ـ هل أنت مستعد للموت يا ضرار؟

كان ضرار يقاتل بضراوة، ولكنه حين سمع أرحمة يقول ذلك التفت إليه بسرعة، ووقعت عيناه على عين أرحمة وهلة، ثم عاد للقتال مرة أخرى.

كان الشيخ سلمان يقود مجموعة من مقاتليه على ظهر الغطروشة، والمسافة بينه وبين عدوه تتقلص بفعل سقوط المقاتلين من الطرفين، وكان يصرخ في رجاله:

ـ اتركوا لي أرحمة فأنا له.

أما بِشر فقد كان قد اقترب من سفينة والده، وبدأ يسبح محاولًا في الوقت نفسه متابعة ما يجري على ظهر السفينة، وحين شاهد الشيخ سلمان في مقابلة والده الذي كان يحمل مشعلًا في غير وقته، عرف أن والده قد أضمر أمرًا، فتوقف عن السباحة تجاه السفينة في محاولة لرؤية نهاية القتال.

حين اقترب الشيخ سلمان من أرحمة بسيفه الذي يقطر دمًا، وحوله مجموعة من الرجال الأشداء ولم يكن حينها مع أرحمة سوى عبده ضرار الذي أصيب بعدة إصابات واضحة في جسده، نظر أرحمة إلى الكُوَّة المفتوحة بالقرب منه، وقال:

ـ بيدي لا بيد عمرو.

رأى بِشر والده ينظر إلى الكُوَّة ويُسقط المشعل من يده، فعرف أنه يحاول أن يفجر السفينة، فصرخ بأعلى صوته:

ـ لاااااا.

في محاولة أخيرة لمنع والده من تنفيذ مخططه.

ولكن أرحمة لم يكن ليسمع صراخ ابنه، فأسقط المشعل في الكُوَّة، وما هي سوى ثوانٍ قليلة حتى انفجرت الغطروشة بكل من عليها من رجال، فأنزل بِشر رأسه بسرعة في البحر محاولًا تفادي الشظايا الخشبية التي تطايرت من حوله، وحين أخرج رأسه بعد لحظات، لم يشاهد سوى بقايا أخشاب طافية وجثث ودخان.

التفت القبطان «لوخ» إلى مساعده قائلًا:

ـ عليك أن تدفع ثمن زجاجة الويسكي.

ثم ابتسم ابتسامة كبيرة، وكأنه استمتع بهذه الفرجة، ثم ركز بصره تجاه بقايا المعركة مرة أخرى، وأضاف:

ـ لقد انتهينا من أرحمة، ارفعوا المرساة، وانشروا الأشرعة، ودعونا نعد من حيث جئنا.

قال «سادلر»:

ـ ولكن ماذا عن بِشر؟

أجاب القبطان:

ـ فليذهب إلى الجحيم.

لم يتحمل «سادلر» رد القبطان، فهجم عليه محاولًا الإمساك به، إلا أن

أحد الضباط حال بينه وبين طلبه، فأمره القبطان بتقييده ووضعه في سجن السفينة بتهمة التهجم على القبطان، اقْتِيد «سادلر»، وهو يصرخ:

ـ إيَّاك أن تترك بِشرًا، ولو فعلت فإني سأقتلك بيديَّ هاتين، إيَّاك أن تفعل.

مرت سنوات منذ تلك المعركة، فقد عاد الكابتن «سادلر» إلى بومبي، وقدم تقريره مرفقًا معه رسالة بصرف مكافأة مالية لبِشر الذي رافقه طوال الرحلة من شرق الجزيرة العربية إلى غربها، وقد تم صرف المكافأة إلا أن إيصالها إلى بِشر كان مشكلة في حد ذاتها.

طلب «سادلر» من قائده أن يقوم هو بتوصيلها؛ لأنه قد يجد بِشرًا في مكان ما، وفي حال لم يجده فإنه سيترك المبلغ أمانة لدى ممثل جلالة الملك في مسقط ليقوم بإعادته إلى بومبي مع تبرير سبب الإعادة بعد سنة.

مرت ست سنوات منذ المعركة، واستقرت الأوضاع في منطقة الخليج، وانتهت أعمال القرصنة، وأضحت طرق المواصلات البحرية آمنة، فقرر «سادلر» النزول في مسقط ليسأل عن صديقه بِشر إن كان حيًّا ويسلمه أمانته قبل أن يواصل طريقه إلى إنجلترا.

لم يتغير شيء في ميناء مسقط، سوى أنه شاهد السيد «ماثيوز» بقبعته الغريبة ومنديله الذي ما زال يضعه على فمه وأنفه يمشي في الميناء، وقد تحسنت لغته العربية، وأصبح يتحدث أيضًا الهندية والسواحلية، هذه اللغة التي يتحدث بها الكثير من أبناء عمان بعد أن انتقلت من ساحل إفريقيا الشرقي مع التجارة.

رحب «ماثيوز» بـ«سادلر» حين شاهده، وطلب منه أن يحل ضيفًا عنده، إلا أن «سادلر» اعتذر، وسأله أيعرف أين يقيم بِشر بعد أن فقده بعد المعركة.

مسك «ماثيوز» بكتف «سادلر» قائلًا:

ـ يا عزيزي «سادلر»، إن لدينا الكثير لنتحدث عنه، لنجلس في مكتبي قليلًا ونحتسي الـ«شربت»، إن وجودك هنا مناسبة سعيدة، دعنا نحتفل بها.

وفي مكتب «ماثيوز»، سأل «سادلر» عن الذي حدث خلال السنوات الست الماضية.

ـ أنت تعرف على ما أظن أن القبطان «لوخ» قد عاد إلى إنجلترا، ومات بعد عودته بسنتين تقريبًا؛ فقد عاش حياة بائسة بسبب إفراطه في الكحول، وُجد ميتًا على فراشه ذات صباح، أما أرملته فقد تزوجت من مساعده العقيد «دنكن» الذي لم يكن القبطان يحبه كثيرًا.

ـ وماذا عن بِشر؟ هل سمعت عنه خبرًا؟ إن لديَّ أمانة يجب أن أسلمها له.

ـ لقد كان هنا في مسقط منذ سنة تقريبًا، وقال لي إن والده قد ترك وصية بها قائمة بكل الأموال التي له عند الناس بالإضافة إلى أملاكه غير المنقولة التي كتبها باسم بِشر، وقد استغرق بِشر أكثر من سنة في جمع هذه الأموال من الناس، وهو في وضع جيد الآن؛ فالتجارة التي يزاولها تدر عليه الكثير من الدخل، آآآه نسيت أن أقول إنه قد تزوج سلوى، هل تذكر تلك الفتاة التي كان يتحدث عنها كثيرًا؟ لقد أصبحت زوجته، ولا أظنه سيتحدث عنها الآن كما كان يتحدث سابقًا. (وضحك بصوت مسموع.)

ـ إذن لقد تغيرت أمور كثيرة، إن بِشرًا صديق مخلص، وكان بودي لو رأيته قبل أن أغادر إلى إنجلترا.

ثم أخرج صُرَّة من جيبه وسلمها لـ«ماثيوز»:

ـ أرجو أن تسلم هذه الصرة لبِشر؛ فهي أمانة له عندي، وبعد أن تفعل

عليك أن تجعله يوقع على هذه الورقة، وترسلها إلى مكتب الحاكم العسكري في بومبي كدليل على استلامه للمبلغ، إن هذا أمر ضروري حتى لا يعتقدوا أنني هربت بالمبلغ ويطالبوني به في إنجلترا.

- لا تشغل بالك بالأمر، فبِشر يمر من هنا مرتين في السنة تقريبًا لغرض التجارة، ودائمًا ما يزورني، سأسلمه إيَّاها حال وصوله.

- متى ستغادر أول سفينة إلى إنجلترا؟ أريد أن أعود إلى دياري، لقد أمضيت الكثير من السنوات متنقلًا في مواني العالم، وأريد أن أستقر، وأكون عائلة بأسرع وقت ممكن.

- هناك سفينة ستغادر خلال أيام، دعني أتحدث مع قبطانها، اذهب الآن واسترح، فأمامك سفر طويل.

بعد أيام كان «سادلر» على ظهر السفينة المتجهة إلى إنجلترا، وهو ينظر إلى الجبال السود التي تختفي في الأفق رويدًا رويدًا، ومرت على ذاكرته وبسرعة أحداث السنوات الأخيرة، والشخصيات التي أغنت تجربته، فنزلت دمعة من عينه مسحها بكف يده قبل أن يعود إلى قمرته ليدوِّن بقية مذكراته.

## عن المؤلف

عبد العزيز آل محمود مهندس وصحفي من قطر، حصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة ودبلوم في هندسة الطيران. عمل رئيسًا لتحرير صحف الشرق و«البيننسيولا» والعرب وموقع «الجزيرة.نت». وهذه هي روايته الأولى.

«رواية «القرصان» عمل عظيم بمعنى الكلمة»

- علي الظفيري، قناة الجزيرة

في بداية القرن التاسع عشر دار صراع دموي عنيف بين الإمبراطورية البريطانية والقبائل العربية في الخليج للسيطرة على المنطقة، وسباق محموم للحصول على سيف نادر مرصع بالجواهر.

يرسل الحاكم البريطاني في بومبي سيفًا ثمينًا لإبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية لإغرائه بالتحالف مع بريطانيا للقضاء على الحركة الوهابية الفتية وحلفائها من القبائل العربية. ولكن عندما تنقض سُفن أرحمة بن جابر «القرصان» على السفينة البريطانية التي تحمل هذه الهدية النفيسة تنفتح على «القرصان» أبواب الجحيم؛ فيطارده الأسطول البريطاني وتبدأ سلسلة من الأحداث الكُبرى والمتلاحقة التي تغير واقع ومستقبل المنطقة إلى الأبد.

رواية مثيرة مكتوبة بأسلوب أدبي مشوّق عن فترة مجهولة ومُهمة من تاريخ وطننا العربي.

عبد العزيز آل محمود مهندس وصحفي من قطر، حصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة ودبلوم في هندسة الطيران. عمل رئيسًا لتحرير صحف الشرق و«البيننسيولا» والعرب وموقع «الجزيرة.نت». وهذه هي روايته الأولى.

www.bqfp.com.qa







تصميم: طارق الدبسي | لوحة الغلاف: جوردن فريكرز